أبطال الفتح الإسلامي



محمد علي قطب

دار الدعوة



١- النعمان بن مقرن
٢- حسّان بن النعمان
٣- معاوية بن حديج
٤- عقبة بن نافع
٥- عبد الله بن سعد بن أبى السرح
٦- الشهيد نور الدين محمود
٧- الناصر صلاح الدين الأيوبى
٨- الملك المظفر (سيف الدين قطز)
٩- الملك الظاهر (بيبرس البندقدارى)
١٠- صقر قريش عبد الرحمن الداخل
١١- حذيفة بن اليمان
١٢- محمد بن القاسم
١٣- قتيبة بن مسلم
١٤- موسى بن نصير
١٥- طارق بن زياد
١٦- عبد الرحمن الغافقى
١٧- السمح بن مالك
١٨- عبد الرحمن الناصر
١٩- يوسف بن تاشفين
٢٠- السلطان محمد الفاتح

محمد على قطب

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع القانونى: ٢١٩٩/٢٠٠٦
الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977 - 253 - 387 -1

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

مقدمة

المتأمل فى سيرة أبطال الفتح الإسلامى يجد عجبًا: أنهم ما سقطت لهم راية - ونادرًا ما سقطت - إلا فى حالين: حال النزاع، وحال الاغترار بقوة الذات وإمكانات البشر، أما بخلاف ذلك فسيرتهم كتاب انتصارات، وتاريخ أمة مؤمنة، سطرت بجهادها وإيمانها أعظم حضارة وأرقى مدنية. فإذا كانت الانتصارات تغرى أصحابها بالجور والظلم والطغيان، فإن انتصارات هؤلاء الأبطال كانت نورًا وفتحًا وضياءً لأهل البلاد التى فتحوها، وإنك لتعجب من تحول أهل هذه البلاد، وفى فترات وجيزة للغاية، من محاربين أو كارهين لجيوش المسلمين، إلى جنود منضوين تحت راية الإسلام، يقاتلون - جميعًا - من كفر بالله وآذى رسوله وأولياءه.

إن التمكين للمؤمنين فى الأرض له شروطه وقوانينه، ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج:٤١] وبالتالى فلا تظن أن النصر كان حليف هؤلاء الأبطال لعبقرياتهم العسكرية أو لمواهبهم الشخصية، إطلاقًا، نعم كان منهم العباقرة والأفذاذ، لكنهم جميعًا خرجوا من بيئة صحراوية قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، وبها من الضلال والزيغ والجلافة ما يجعلهم أعجز الناس عن التعامل مع البشر أو تأسيس حضارة . . لكنهم - للحق - كانوا كمن تعرض لصدمة كهربائية عنيفة أفقدته ذاكرته وأنشأت بديلاً عنها ذاكرة إسلامية راشدة، صنعتها يد العناية الإلهية ورعتها وروتها يد النبى الأعظم محمد ﷺ . . فصار النبت زرعًا يانعًا لاشية فيه، بل يعجب الزراع فى كل وقت وحين.

إن راية الحق التى حملها هؤلاء الأفذاذ - لقرون عدة - مازالت ترفرف، ومنذ مئات السنين، فوق أركان الدنيا الأربعة، وإن جهادهم وتضحياتهم هما اللذان أبقيا كلمة التوحيد فى كل أنحاء المعمورة حتى الآن - هذا بعد فضل الله - وإننا اليوم فى أمس الحاجة إلى دراسة سيرة هؤلاء المؤمنين المخلصين، لم كانت كل هذه التضحيات من جانبهم، وكيف كانت، ولماذا صبر هؤلاء على القتل والعذاب

والآلام، دون تأوه أو ألم، بل إنهم كانوا يستعذبون هذه الآلام.. حتى إن أحدهم ليخرج من بيتـه شابًا لم يكمل العشرين من عمره فلا يعود إليـه إلا كهلا، يقضى هذه السنين جميـعًا فى جهاد بل انقطاع وقتال بلا هوادة ورباط دائم ومـستمر .. وهذا مما لا شك فيه قد جـبلهم على العطاء والبذل .. فى انتظار أملين كريمين لا ثالث لهما: إما نصـر وإما شهادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١١-١٣] .. وهذا سر بذلهم العظيم.

الله أسأل أن يتقبل جهادهم، وأن يجعلنا خير خلف لخير سلف.

المؤلف

١ - النعمان بن مقرن

بيت بنى «مقرن»:

كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يحاصرون « خيبر » فى أوائل سنة سبع من الهجرة ، فى نهاية شهر « المحرم » وقد لقوا يومئذ جهدًا جهيدًا فى الحصار وفى القتال .

لكن الله تعالى فتح عليهم فتوحًا عظيمة ، تعددت أشكالها ، وتنوعت صُورَها ، إذ جاءهم، وهم فى أوج المعمعة، وفد «مُزيْنة» مسلمًا مؤمنًا ، على رأسهم بيت «بنى مقرن» وكانوا عدة إخوة: «النعمان» و «نعيم» و «سويد» و«عبدالله». . ، وقد زاد عدد الوفد على أربعمائة .

فانضمّوا إلى المسلمين ، وأبلوا يومئذ بلاءً حسنًا .

***

وكانت الضربة القاصمة التى وجهها «على بن أبى طالب» ـ رضى الله عنه ـ لفارس اليهود «مرحب» فأوقعت فى قلوب الذين كفروا الرعب ، وبدأت حصونهم تتهاوى واحدًا يتلو الآخر، ورجالاتهم يقعون فى الأسر ، ونساؤهم وذراريهم فى السبْى، وكنوزهم يحوزها المسلمون .

وأيضًا . . . وُصُول مهاجرى الحبشة ـ بعد طول غياب ـ وعلى رأسهم «جعفر ابن أبى طالب» ـ رضى الله عنه ـ مما جعل رسول الله ﷺ يقول :(**لا أدْرى بأيهما أفرح.. بفتح خيبر.. أم بقدوم «جعفر»..**).

وكذلك وصول الأشعريين من اليمن بقيادة «أبى موسى الأشعرى» ـ عبدالله بن قيس ـ رضى الله عنه ـ . وهكذا تتامت فرحة الفتوحات المتعاقبة المتلاحقة يوم «خيبر» على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين .

***

ولقد كان ذلك اليوم هو الإطـلالة الأولى لبطلنا « النعمان » ـ رضى الله عنه ـ على ساحـة الإسلام ومـيدان الإيمان ، فـارسًا مجليًـا ومؤمنًا صـادق الإيمان ، وصاحب عزيمة لا تفل .

ومن ثم رافق النبى ﷺ إلى بيت الله الحرام معتمرًا عمرة القضاء، وكَحّل عينيه بأنوار البيت العتيق وتشبعت روحه المتـوثبة بالإيمان والإسلام إلى الجهاد فى سبيل الله .

ولما كان يوم الفتح ـ فتح مكة ـ ، وقد وقف «العباس بن عبد المطلب» ـ رضى الله عنه بـ « أبى سـفـيـان » ـ صخر بـن حرب بن أميـة ـ عند « مرِّ الـظهران » ـ حسبما أمره رسول الله ﷺ ليرى قوة جيوش الإسلام المتدفقة كالسيل فيكون ذلك أنكى فى نفـسه وأشـد تأثيـرًا، لعله يرجع إلى قومـه فى مكة ينذرهم ويحـذرهم ويدعوهم إلى السلم .

فى تلك اللحظـات . . . كان «أبو سـفـيـان» كلمـا مـرت به طائفـة من جند المسلمين، فى راياتها وسلاحـها يسأل عنها «العباس» فيجيـبه، حتى مرت «مزينة» يتقدمها «النعمان»، فقال أبو سفيان :

ـ . . ومن هؤلاء يا « أبا الفضل » ؟

فأجاب العباس :

ـ . . هذه «مزينة» . . !

فقال «أبو سفيان» وهو يتجرع الغصص :

ـ . . مالى ولـ «مزينة» . . ما لى ولـ «مزينة» !؟

وتم الفتح العظيم . . .

ثم كانت « حنين » و« الطـائف » ولقد أبدى « النعمـان » وإخوته وقبـيلته من صدق المواقف مـع الله ورسوله ما شـد إليه الأنظار، وبوأه من الصـحابة مـركزًا مرموقًا، ومكانة محترمة .

ولقد لازم « النعمان » وإخوته ومن معه من قبيلته « المدينة المنورة » وأقاموا بها، لا يرون بديلاً عن قربهم من رسول الله ﷺ .

لم يكونوا عالة على الناس ، أو ضغثًا على إبالة ، بل كانوا طليعة من طلائع الجيش الإسلامىّ، إلى جانب الأنصار والمهاجرين ، وعدّة يحسب لها ألف حساب؛ فإذا ما دعا الداعى كانوا فى المقدمة .

الردة ... و«النعمان» و«مزينة»:

وهاك يوم « الردة » مسلمين ثابتين مجاهدين .

لقد كانت الردة من أخطر ما واجه الإسلام فى عنفوان شبابه، وفتوة كيانه، وإن نسى بعض الناس ـ أو تناسوا ـ ما كان لـ « أبى بكر » ـ رضى الله عنه ـ من سبق وصحبة، فلا ينسوا موقفه يوم الردة .

لقد أطلت فتنة الجاهلية بقرونها على ديار الإسلام عقب وفاة رسول الله ﷺ ، فارْتدَّت أكثر القبائل عن الإسلام . . . وزعم بعض المهووسين النبوة ، أمثال «مسيلمة» «وطلحة بن خويلد» و «الأسود العنْسِى» و «سجاح».

ولم يكتفوا بمواقفهم السلبية فى مواقعهم من ديارهم ، بل جيشوا الجيوش لمهاجمة « المدينة » وبدا الأمر فى غاية الخطورة ،خصوصًا وأن جيش المسلمين بقيادة «أسامة بن زيد». . . ـ رضى الله عنهما ـ قد انطلق إلى غايته التى حددها له رسول الله «ﷺ» على حدود الشام وتخومها .

فالدفاع عن المدينة مرهون بالعزائم الصادقة ، ومقاتلة المرتدين يتطلب جندًا كثيفًا وتوجهات مختلفة .

هنا ـ عزيزى القارئ ـ يشهد التاريخ لـ « أبى بكر » ـ رضى الله عنه ـ شهادة حق وصدق ، بأنه كان على مستوى المسئولية ، وأنه «الصديق » ـ حقًا ـ.

ثم يطل علينا بطلنا « النعمان » ـ رضى الله عنه ـ إطلالة جديدة، يضيفها إلى رصيده رغم قصر المدة الزمنية بين إسلامه والامتحان .

«النعمان» ويوم «ذى القصة»:

و« ذو القصة » مكان على بعد أربعة وعشرين ميلاً من المدينة، فى الطريق إلى «نجد»، هناك اجتمعت قبائل «أسد» و«غطفان» و«طئ» و«مرة» و«عبس» وناس من «كنانة»، وعلى رأسهم «حبال بن سلمة بن خويلد » ـ ابن أخى «طليحة» الذى ادعى النبوة، يريدون الإغارة على «المدينة».

وقبل أن يفعلوا ذلك أرسلوا وفدًا منهم إلى المدينة ، فأتوا وجوه الناس ، يتوسَّطونهم عند «أبى بكر» ـ رضى الله عنه ـ ، على أن يقيموا الصلاة ، وعلى أن لا يؤتوا الزكاة .

فكان رد «أبى بكر» ـ رضى الله عنه ـ :

والله لو منعونى عقالاً[1] كانوا يؤدُّونه لرسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه، ولو أفردت من بينكم .

وعاد الوفد الى أقوامهِم بـ «ذى القصة» وأخبروهم بما سمعوا ، وحدثوهم عن قلة المسلمين بالمدينة ، وأطمعوهم فيهم .

ولقد توجس « أبو بكر » ـ رضى الله عنه ـ شرًا منهم ، فأعد العدة لغدرهم ، وجعل على الطرقات المؤدية إلى المدينة نفرًا من أبطال المسلمين وشجعانهم منهم: «على بن أبى طالب» و«الزبير بن العوام » و«طلحة بن عبيد الله» و«عبدالله ابن مسعود» ـ رضى الله عنهم ـ .

كما جمع ـ رضى الله عنه ـ الناس فى المسجد ، وخطب فيهم، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه :

إن القوم قد رأوا منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهارًا ، وأدناهم منكم على بريد (اثنى عشر ميلاً) ، وقد كانوا يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا ذلك عليهم ، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا .

ولم تمض سوى ثلاث ليالٍ حتى شن المرتدون الغارة . . .

---

(١) العقال : الحبْل

وأرسل المراقبون إلى « أبى بكر » ينذرونه ، فقال لهم : الزموا أماكنكم، وخرج فيمن معه على النواضح[1]. . . حتى واجه العدو ، فتقهقروا إلى «ذى حُسا» حيث يعسكر جيشهم .

استعمل المرتدون الحيلة ، فنفخوا قربًا من الجلود ، وربطوها بالحبال، ثم ألقوها فى وجوه الإبل، فنفرت منها وارتدت على أدبارها بمن تحمل ، والمسلمون عاجزون عن كبح جماحها حتى دخلت المدينة . . . لكن من دون خسائر .

وظن المرتدون أن الوهن قد أصاب المسلمين ،إذ قال قائلهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيا لعباد الله ما لـ «أبى بكر»
أيورثنا «بكرًا» إذا ما مات بعده	وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلاّ رددتم وفدنا بزمانه؟	وهلا خشيتم حسَّى راغبة البكْر
وإن التى سألوكم فمنعتم	كالتَّمْر أو أحلى من التمر

ثم استعدوا للهجوم العام .

أما «أبو بكر» ـ رضى الله عنه ـ فقد بات ليلته يتهيأ، فعبّأ الناس، ثم خرج بهم وعلى ميمنته «النعمان بن مقرّن» وعلى ميسرته «عبدالله بن مقرن » وعلى الساقة ـ موخرة الجيش ـ «سويد بن مقرن ». . . !

فما طلع الفجر إلا والمسلمون والعدو فى صعيد واحد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، ثبت فيه أبناء بيت «مقرن» ثبوت الجبال الرواسى . . . وقد كانوا فى الطليعة، وأبدوا من ضروب الشجاعة والقتال فنونًا . . فما ذَرَّ قرن الشمس حتى ولى العدو الأدبار ، وقتل قائد المرتدين «حبال بن سلمة» ، وتبعهم «أبو بكر» والمسلمون حتى نزلوا بـ «ذى القصَّة». . . ، ثم رجع ـ رضى الله عنه ـ إلى المدينة ، فكانت هذه المعركة أول الفتح فى وجوه المرتدين عامة، وفى كل الديار .

***

---

(١) النواضح : الإبل المسنة التى تستخدم فى السقى.

إلى القادسية:

قال الله تعالى: ﴿ ..سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح ١٦].

واستمر «النعمان» و أبناء بيت «مقرن» جميعًا مع الجيوش التى أعدها الصديق ـ رضى الله عنه ـ لقتال المرتدين ، تحت قيادة «خالد بن الوليد» ينتقلون من جبهة إلى جبهة، حتى قضى على الفتنة تمامًا .

وحين أعد «الصديق» ـ رضى الله عنه ـ العدة لغزو الشام وفتحها، كان «خالد» ـ رضى الله عنه ـ ما يزال يعيثُ فى شمال الجزيرة العربية على تخوم العراق ، يمهدها ، ويفتح كورها واحدة بعد الأخرى، ويطهر جيوشها من كل مقاومة ، إلى أن جاءه الأمر من الخليفة «الصديق» بالتوجه سريعًا إلى الشام بنصف الجيش ، وإبقاء النصف الآخر مع «المثنى بن حارثة» ـ الشيبانى ـ ليكون مددًا لجيوش المسلمين فى الشام، الذين اجتمعوا فى «اليرموك» ، وقد احتشد لهم الروم فيما يزيد على مائتى ألف .

بقى «المثنى» فى العراق، واتخذ من «الحيرة» قاعدة له، ثم كان بين الحين والآخر يناوش قوات الفرس، فلما أحسوا بمدى خطورته عليهم، أرسلوا إليه يتوعدونه ويهددونه، وبعثوا إليه جندًا كثيفًا، فقاتلهم وهزمهم ، وتبعهم حتى بلغ أبواب «المدائن» عاصمتهم .

ثم كتب إلى الخليفة «الصديق» يخبره بأنباء الفتح ويستمده. . ، ولكن طال الرد. . . ، وخشى«المثنى»من المباغتة، فانسحب إلى أدنى أرض من العراق ، واستخلف على الجند قائدًا ، وقصد إلى المدينة بنفسه، وحين بلغها كان «الصديق» ـ رضى الله عنه ـ قد أشرف على الموت، لكنه استقبله، واستمع إليه، واقتنع بصواب رأيه، ثم قال: علىّ بـ «عمر» ـ وكان قد استخلفه ، فلما حضر قال له :

ـ اسمع يا «عمر» ما أقول لك، ثم اعمل به، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع «المثنى» وإن تأخرت إلى الليل فلا تُصبِحنَّ حتى تندب الناس مع «المثنى». . !

***

وكانت نقطة تحول ...

مات «الصديق» ـ رضى الله عنه وولى الخـلافة «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ، وانتصر المسلمون على الروم فى اليـرموك، وانساحوا فى ديار الشام فى كل الاتجاهات يوطئونها، ويثبتون أقدامهم فوق ربوعها .

واتجـه اهتمـام «عمـر» إلى العـراق، وكانت من ثم شـغله الشـاغل، فى ليله ونهاره، وقد فعل ما أمره به «أبو بكر» فندب الناس إلى قتال الفرس فى العراق مع «المثنى» .

وتلكأ الناس طوال ثلاثة أيام لما كـانوا قد سمـعوا عن شـراسة قتـال الفرس ، فهابوا ذلك ، فقام إليهم « المثنى » فقال :

أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنـا قد تَبَحبَحْنا[1] ريف فارس، وغلبناهم على خـير شِـقَّىْ السواد[2] وشاطرناهم ونـلنا منهم ، واجترأ مـن قِبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

ثم خطبهم «عمر» وحفزهم ، وما زال حتى تتابعوا ، وكان أولهم «أبو عبيد بن مسعود الثقفى» .

وولاه «عمر» على القيادة ، وكان فارسًا شجاعًا مقدامًا .

فخرج «المثنى» وتبعه «أبو عُبَيْد» بمن معه، وكانوا خمسة آلاف من خيرة الجند .

وما زال «أبو عبـيد» ومعه «المثنى» يواجـهون جيوش الفرس واحـدًا بعد الآخر ويهزمونهم، حتى بلغوا «الكوفة» على شاطئ الفرات .

وهناك كانت موقعة شـديدة رهيبة، كان أول الشهداء فيها «أبو عـبيد» ـ رحمه الله ـ ، فعلى الـرغم من شجاعـة الرجل وإقدامه ، فـقد كان فـيه بعض التـهور وسرعة اتخاذ القرار، ثقة منه بنفسه .

---

(١) تبحبحْنا: تملّكنا وتوسعنا.

(٢) السواد : قرى العراق وضِياعُها.

فلما فصل الجسر على نهر الفرات بين الطرفين، قال قائد الفرس: إما أن تعبروا إلينا أَوْ نعبر إليكم. . فأجاب «أبوعبيد» بل نعبر نحن . . !

ونصحه من معه، لكنه أصر على المواجهة وعبور الجسر، وأمر جنوده بذلك، واغتنمها الفرس فرصة وتركوا جيش المسلمين يمر فوق الجسر، وكانوا قد أعدوا أنفسهم للقاء، وقدموا الفِيَلة . . .

واحتُجز جيش المسلمين فى مساحات ضيقة لا مجال فيها للكر والفر. . ، ووقعت الواقعة. . . واستشهد العدد العديد من المسلمين .

ولولا أن «المثنى» احتوى البقية الباقية لقضى على جند المسلمين عامة .

***

«سعد بن أبى وقاص» و«النعمان بن مقرن»:

وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى المدينة فتأثر لها أمير المؤمنين «عمر» أيما تأثر ، وكذلك عم الحزن أهلها جميعًا .

ولقد بلغ به حماس التأثر أن قرر الخُروج بنفسه إلى العراق على رأس قوات المسلمين، ومنازلة الفرس، وأعد العدة لذلك، وأيَّده بعض كبار الصحابة فى هذا الاتجاه، كما عارضه آخرون، وكان على رأس المعارضين «عبد الرحمن بن عوف» ـ رضى الله عنه ـ، وكان مما قال له: فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل أو تهزم فى أَنْف[١] الأمر خشيت أن لا يكبّر المسلمون، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبدا .

فقال « عمر » فأشيروا علىّ برجل !!

***

وكان «سعد بن أبى وقاص» عاملاً لـ «عمر» على صدقات[٢] هوازن ، وكان

---

(١) أنف الأمر : أوله.

(٢) الصدقات : الزكاة.

فيمن كتب إليه « عمر » باختيار ذوى الرأى والنجدة ، ممن كان له سلاح أو فرس، فجاء كتابه إلى«عمر» وفيه:

- إنى قد انتخبت لك ألف فارس ، كلهم له نجدة ورأى ، وصاحب حيطة ، يحوط حريم قومه ، ويمنع ذمارهم ، إليهم انتهت أحسابهم ، فشأنك بهم .

ووافق وصول كتاب « سعد » تشاور « عمر » مع أصحابه ، فقال « عبد الرحمن بن عوْف » : وجدته . . . !

قال « عمر » : من هو ؟

قال «عبد الرحمن بن عوف»: الأسد فى براثنه . . . « سعد » .

فوافقوه جميعًا .

فبعث إليه «عمر» فاستحضره، وولاه على قيادة العراق، ووصاه. . .

***

وصية القيادة السياسية للقيادة العسكرية:

ونحبّ - عزيزى القارئ - أن نذكر وصية «عمر» لـ «سعد» ، فهى من وثائق وصايا القيادة السياسية للقيادة العسكرية (الإسلامية) .

[قال « عمر » : يا « سعد » ، سعد بنى وهيب . . . ، لا يغرنك من الله أن قيل : خال[1]رسول الله ﷺ - وصاحبه، فإن الله عز و جل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . . . شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعاقبة ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر ، هذه عظتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين.

- إنى وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر كريه شديد ، لا

(١) كان « سعد » - رضى الله عنه - من بنى زهرة أخوال النبى ﷺ لأمه « آمنة » وكان من السابقين إلى الإسلام .

يُخلِّص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتـادًا ، فعتاد الخير الصـبر . . . فالصبر الصبـر على ما أصابك أو نابك ، تجتمع لك خشية الله .

واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته وفى اجتناب معصيته ، وإنما أطاعه مـن أطاعه ببـغض الدنيا وحُبِّ الآخـرة، وعصاه من عـصاه بحب الـدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً، منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حـامده وذامَّه فى الحق سواء، وأما السر فيـعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسـانه وبمحبة الناس، فـلا تزهد فى التحبب فـإن النبيين قـد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحـب عبدًا حبَّبه، وإذا أبغض عبدًا بغّـضه، فـاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرعُ معك فى أمرك .]

وعلى هذا الهدى النورانى مـن الحكمة والموعظة الحسنة انطلق «سـعد» ـ رضى الله عنه ـ إلى العراق .

ولكن. . أين موقع بطلنا « النعمان بن مقرن » فى كل هذا ؟

خرج «سعـد» بقواته من «المدينة» إلى العراق ، وكان ـ رضى الـله عنه ـ واعيًا شديد الحذر، مصـغيًا إلى كل مشورة ورأى ، غير منقطع عن القـائد العام «عمر» فى المدينة، يكاتبه دائمًا ويطلعه على كل صغيرة وكـبيرة .حتى بلغ « القادسية »، ومن هناك أعلنه بأن أهل فارس قد اجتمعوا على قيادة «رستم » لحـرب المسلمين، فـكتب إليه «عمر» :

ـ لا يكرُبَنَّك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله، وتوكل عليه، وابعث إليه «إلى رستم» رجالاً من أهل المنظرة[١]والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينـًا لهم (لأهل فارس)، وفلجًا[٢] عليهم ،واكتب إلىّ فى كل يوم .

---

(١) الذى يعجبك إذا نظرت إليه.

(٢) فلجًا : نصرًا .

وهنا يبرز اسم « النعمان » ـ رضى الله عنه ـ ودوره .

فقد جمع «سعد » نفراً من القادة عليهم نجَار[١] ولهم آراء، ونفراً آخرين لهم منظر وعليهم مهابة ، أما الذين عليهم نجار ولهم آراء واجتهاد فهم :«النعمان بن مقرن» و«بسر بن أبى رُهم» و«حملة بن خوية الكنانى» و «حنظلة بن الربيع التميمى» و «فرات بن حيان العجلى» و «عدى بن سهيل» و «المغيرة بن زرارة » .

وأما من لهم منظر لأجسامهم ، وعليهم مهابة ، ولهم آراء فهم: «عطارد بن حاجب» و«الأشعث بن قيس» و«الحارث بن حسان» و«عاصم بن عمرو التميمى» و«عمرو بن معد يكرب الزبيدى» و«المغيرة بن شعبة» و«المعنّى بن حارثة»[٢].

ثم بعثهم دُعاةً إلى الملك ، وأنفذهم إليه بـ «المدائن» فلما دخلوا على الملك «يزدجرد»، أمر الترجمان بينه وبينهم، فقال: سلهم .. ما جاء بكم؟ ما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا ؟ أَمِنْ أجل أنا أجمَحْناكم[٣] وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فالتفت «النعمان» ـ رضى الله عنه ـ إلى أصحابه وقال لهم : إن شئتم أجبت عنكم، ومن شاء آثرته... ، فقالوا : بل تلكم أنت.. ، ثم قالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا .

وتكلم «النعمان» فقال : ـ إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صارت فرقتين : فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولايدخل معه فى دينه إلا الخواص .

فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أُمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وأن يبدأ بهم ، فدخلوا معه جميعًا على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة

---

(١) أى : فيهم كمال الرجولة.

(٢) أخو « المثنى بن حارثة ».

(٣) أجمَحْناكم : انصرفْنا عنكم وأرحناكم .

والضيق، ثم أمر أن نبدأ بمن يلينا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف . . ، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر، هو أهون من آخرَ شرٌ منه ـ الجزا ء ـ [1]، فإن أبيتم فالمناجزة [2].

فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا أحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتَّقَيْتُمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

***

ولا نعوِّل ـ عزيزى القارئ ـ بالتفصيل والتطويل على ما كان من شأن «يزدجرد» و«رستم» وردودهم وأقوالهم ، فقد انتهى الأمر إلى القتال والمناجزة .

وكانت معركة « القادسية » .

وقد استمرت أربعة أيام شداد ، ولقد أطلقوا على كل يوم من تلك الأيام اسمًا، فعرف اليوم الأول بيوم «أرْماث» وعلى اليوم الثانى يوم « أغواث » وعلى اليوم الثالث يوم «عِماس» أما اليوم الرابع فكان يوم « القادسية[3]، وفيه كان الفتح .

يقول « ياقوت » فى معجم البلدان : ولا أدرى هذه الأسماء مواضع ، أم هى من الرمث والغوث والعمس ؟ .

وكان «النعمان» ـ رضى الله عنه ـ قائد ميمنة المسلمين ، بطلاً بكل ما فى كلمة البطولة من معنى، ممّا لفت إليه الأنظار، أكثر فأكثر. . ، رغم ما كان عليه من مكانة ومقام مرموق منذ اليوم الأول الذى هبط فيه مع إخوته الأفذاذ أرض «خيبر»، ومعه أيضًا أربعمائة من «مُزينة» كلهم فارس. . ، وكلهم مقاتل. . ، وكلهم مؤمن مجاهد.

***

(١) الجزاء : الجزية.

(٢) المناجزة: الحرب والقتال.

(٣) اسم قرية على الفرات .

انتصر المسلمون على أهل فارس يوم القادسية انتصارًا عظيمًا ، ولكنه لم يكن نهائيًا ، وخاتمًا .

وحَمَلَ « النعمان » إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » أنباء النصر المؤزر ، فى المدينة ، فكان البشير ، ثم عاد من حيث أتى إلى مواقع القتال .

وتتابعت الأيام والمعارك ، والفرس فى تراجع مستمر . . . ، والمسلمون لا يتركون لهم فرصة . . ، يلاحقونهم وينازلونهم ، ويستولون على الديار ، ويحوزون الغنائم ، ويثبتون رايات الإسلام ، فوق ربوع فارس ، ودساكرها .

* وكان يوم « بابل »[1] بعد « القادسية » . . .

* ثم يوم « بَهُرَسير »[2] .

* ثم يوم « المدائن » العاصمة . . . ، وعندما دخلها «سعد» وانتهى الى «إيوان كسرى» أخذ يقرأ قول الله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨] وصلى فيه صلاة الصبح . . ، واتخذه مسجدًا . . . ، وكان أول جُمُعة بالعراق ـ فى صفر الخير ، سنة ستَّ عشرة .

* ثم كان أيضًا يوم «جلولاء»[3] .

* ثم يوم «تكريت» بين «بغداد » و «الموصل»

* ثم يوم «ماسبذان» .

* ثم يوم «قرقيسياء»[4] .

---

(١) مدينة قديمة بناها الكلدانيون على الجانب الآخر من الفرات وحدائقها المعلقة كانت إحدى عجائب الدنيا .

(٢) من نواحى سواد بغداد قرب المدائن.

(٣) بلدة فى طريق خُراسان.

(٤) بلدة عند ملتقى نهر « الخبور » بـ « الفرات».

* ثم يوم «الأهواز».

* ثم يوم «طاووس» .

***

وكان « سعد » بعـد « المدائن » قد عاد إلى «الكوفة» واتخذها مـقرًا وقاعدة ، وكان من ثَمَّ يبعث البعوث والسرايا والجند إلى أن تم أكثر الفتح ، وكان لـ «هاشم ابن عتبة بن أبى وقاص» ابن أخى «سعـد» دور هام فى أكثر تلك الفتوح، وكذلك «عتبة بن غزوان» وغيرهما من القادة .

أما «النعمان بن مقرن» فقد لزم «سعدًا» فى مقره ، مستشارًا ناصحًا ينتظر دوره الأعظم والأكبر .

***

يوم«تستر»[1] وأسر «الهرمزان»:

ولم يزل « يزدجرد » يثير أهل فارس أسـفًا على ما خـرج من أيديهم ـ وكان مقيمًا بـ «مرو» ـ ، فكتب إلى أهل فارس يثيـر فيهم الأحقاد ويؤنبهم على ما كان من تهاونهم ،ويقول : أرضيتم يا أهل فـارس أن قد غلبتكم العرب على «السواد» وما والاه من «الأهواز» ثـم لم يرضوا بذلك حتى اقـتحـموكم فى بلادكم وعـقر داركم !!! ؟.

فتحركـت حمية أهل فارس وأهل الأهواز، وتعاقـدوا وتعاهدوا، وتواثقوا على النصرة،وصمموا على متابعة القتال، وتوحدت راياتهم.

فلما علم أمير المؤمنين « عمر » بذلك ، كـتب إلى « سعد » أمير الكوفة : أن ابعث إلى الأهواز بعثًا كثيفًا مع « النعمان بن مقرن».. وعجل، وابعث «سويد بن مقرن» و«عبدالله بن ذى السهمين » و«جرير بن عبد الله الحميرى» و«جرير بن عبد الله البجلى » فلينزلوا بإزاء «الهرمزان» حتى تتبينوا أمره .

---

(١) تستر : أعظم مدن إقليم « خوزستان ».

فانطلق «النعمان» فى أهل « الكوفة » فأخذ طريقه وسط السواد حتى قطع «دجلة» ثم أخذ البَّر إلى «الأهواز» فانتهى إلى نهر «تيرى» فجازه، ثم جاز «مناذر» و«سوق الأهواز» ، ثم سار نحو «الهرمزان» الذى كان يقوم بـ«رامهرمز » .

وعرف «الهرمزان» بمسير «النعمان» إليه ، فأراد أن يبادره، راجيًا أن ينال منه، طامعًا فى نصر أهل فارس الذين أقبلوا من كل مكان وتجمعوا فى «تستر» .

وكان اللقاء عند «أَرْبُكْ» وهى مدينة بالأهواز، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم إن الله تعالى هزم الهرمزان ، ففر بفلوله إلى «تستر» .

واستولى «النعمان» على «رامهرمز» وأقام بها ، يعيد تنظيم قواته، وينتظر الأوامر .

وكان أهل «البصرة » بقيادة «أبى رُهم بن سبرة» قد بلغتهم أنباء النصر الذى حققه «النعمان»، ولجوء «الهرمزان» إلى «تستر» ، فساروا إليها، وكتبوا بذلك إلى «عمر» أمير المؤمنين ، فأمدهم بـ «أبى موسى الأشعرى » على رأس قوات جديدة.

وعند «تستر» التقت جيوش المسلمين ، فحاصروهم . . . ، و«الهرمزان » بها.

وطال أمد الحصار أشهرًا . . . ، وتزاحف الطرفان إلى بعضهم أكثر من ثمانين زحفًا ، دونما حسم ، أو فصل .

وكان « البراء بن مالك » ـ رضى الله عنه ـ قد بارز فى تلك المدة عددًا كبيرًا من فرسان الفرس ، بلغوا كما تقول الروايات أكثر من مائة، قتلهم جميعًا . . !

فلما كان آخر زحف ، واشتد القتال وعنف ، قال المسلمون لـ « البراء » :

ـ يا براء . . أقسم على ربك ليهزمنهم . . !

ـ فقال: اللهم اهزمهم لنا . . . ، واستشهدْنِى .

فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ، ثم اقتحموها عليهم . . ، فلاذوا بمدينتهم وتحصنوا بها وبأسوارها .

فبينما هم على ذلك ، وقد ضاقت بهم المدينة ، وطالت الحرب، خرج إلى «النعمان» رجل فاستأمنه على أن يدله على مدخل يأتون منه المدينة ، ويكون فيه فتحها ، فأمَّنوه .

فقال لهم : انهدوا من قِبَل مخرج الماء ، فإنكم ستفتحونها .

فندب « النعمان » أصحابه. . . فنهدوا فى بشر كثير إلى ذلك المكان ليلاً ، وكانت قيادة هؤلاء لأخى «النعمان» ـ«سويد بن مقرن» ـ رضى الله عنه ـ فكبَّر وكبروا ، ثم انطلقوا باسم الله. . ، فكانت مقتلة عظيمة، حتى تم حصر «الهرمزان» وأسره، لكن الثمن كان باهظًا وغاليًا، إذ استشهد عدد كبير من المسلمين، على رأسهم الصحابى الجليل، صاحب الدعاء والنداء «البراء بن مالك» ـ رضى الله عنه ـ . (**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ...).

إلى «نهاوند»... وخاتمة المطاف:

كان هروب ملك الفرس «يَزْدجِرد» من مكان إلى مكان ، وإثارته للناس ، مدعاة لإطالة أمد الحرب بين المسلمين وأهل فارس ، واستنزاف طاقتهم وقدراتهم، لكن أمير المؤمنين «عمر» ـ رضى الله عنه ـ بما أوتيه من إيمان وفهم وعلم وبُعد نظر. . . كان يأمر بعدم الانسياح فى بلاد «فارس» والتوسع فيها ، خشية على دماء المسلمين وأرواحهم ، وهو يرى فى الوقت نفسه تتابع المعارك والحروب .

وقد خطر فى باله ـ وهو المؤمن الصادق ـ أن هناك خللاً فى تطبيقات الفتح وقواعده وأصوله من قبل المسلمين . . . ، فقال ذات يوم لوفد من « البصرة » :

ـ لعل المسلمين يُفضون إلى أهل الذمة بأذى ، وأمور لها ينتقضون بكم ؟؟!

فقالوا : ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكه .

فقال « عمر »: فما بالهم ينتقضون ؟

فسكتوا جميعًا ، إلا « الأحنف بن قيس » ـ إذا قال :

ـ يا أميـر المؤمنين أخبـرك . . . إنك نهيتنا عن الانسـياح فى البـلاد ، وأمرتنا بالاقـتصار عـلى ما فى أيدينا ، وأن ملك فـارس «يَزْدَجْرد» حى بين أظهـرهم ، وأنهم لا يزالون يساجلوننا مـا دام ملكهم فيهم ، وإن ملكهم هو الذى يبـعثهم ، ولا يزال هذا دَأْبهم حتى تـأذن لنا فنسيح فى بلادهم ونذل ملِكهم، ونخـرجه من مملكته وَعِزِّ أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس .

فقال «عمر» ـ رضى الله عنه ـ :

صدقتنى والله، وشرحت لى الأمر على حقه .

وتباحث وتشاور «عـمر» ـ رضى الله عنه ـ مع كبار الصحابة فـيمن يوليه هذا الأمر الجلل ، وأبدى كل رأيه ، ثم قالوا :

ـ أنت أفضلنا رأيًا وأحسن تقديراً . . .

فقال : أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونَنَّ أوَّل الأسنَّة إذا لقيها غدًا، فقيل : من يا أمير المؤمنين ؟

فقال : « النعمان بن مقرن » . . .

فقالوا هو لها .

***

وكتب «عمر» إلى «النعمان» :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من عـبد الله «عمر»أميـر المؤمنين إلى «النعمان بن مقرن» سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنه بلغنى أن جموعًا من الأعـاجم كثيرة، قد جمعوا لكم بمدينة «نهـاوند»، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمـر الله وبعون الله وبنصر الله بمن مـعك من المسلمين ، ولا تُوَطئنهم وَعَرًا فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقـهـم فتكفرهـم ، ولا تدخلنهم غيضة[1] فإن رجلاً من المسلمين أحب إلىَّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك) .

---

(١) الغيضة : مجتمع الشجر فى مغيض الماء .

ثم كتب لأهل الكوفة أن يوافوا « النعمان » وعليهم « حذيفة بن اليمان » .

وكتب لـ « أبـى موسى الأشعـرى » أن يسيـر بأهل « البصـرة » ، وأرسل إليه جموعًا من أهل المدينة فيهم ابنه « عبدالله بن عمر » .

ثم كتب لـ «النعمان» : إن حدث بك حدث فـعلى الناس «حذيفة بن اليمان»، فإن حدث بـ «حذيفة» حدث فعلى الناس «نعيم بن مقرن» .

***

«عرس الفتح والشهادة»:

تلقى «النعمان» ـ رضـى الله عنه ـ رسائل أمير المؤمنين، وتوجـيهاته، وانطلق بقواته إلى«نهاوند» وكان أول مـا فعله عند بلوغها إرسال قوات استطلاعـية لمعرفة أخبار الفرس، حشودهم، أو كمائنهم. . . وغير ذلك ، فبلغت هذه القوات بقيادة «طلحة بن خويلد الأسـدى » مشارف «نهاوند» ، ثم عادت وأخبـرت القائد العام «النعمان» بعدم وجود قوات « فارسية » فى الطريق .

عندئذ تحرك «النعمان» بقواته حتى نزل منزلاً قريبًا من حصون «نهاوند» ، وكان على ميمنته «الأشعث بن قيس» وعلى ميسرته «المغيرة بن شعبة» .

وهاجم المسلمون حصون المدينة فى يومين متتاليين على غير طائل ولا جدوى، وخاف قـادة الجيش الإسلامى أن يطول أمر الحـصار، والتناوش البعـيد ، إذ ليس ذلك من مصلحتهم ، لأن مصلحتهم تقتضى الضربة الصاعقة السريعة التى تَحْسم الموقف .

فاجتمعوا فى خيمة «النعمان» وعرضوا عليه ما يقلقهم، فقال :

ـ قد ترون المشـركين واعـتصامـهم بالحصـون، من الخنادق والمدائن، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا، ولا يقدر المسلمون، على إخراجـهم قبل مشيئتهم ، وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق، فمـا الرأى الذى به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل ؟ .

فقال طلحة بن خويلد:

- أرى أن تبعث خيلاً لينشبوا القتال، فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً[1].

فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم، فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فينا ما أحب .

فاستحسن « النعمان » وباقى القادة رأى «طلحة» واتفقوا على تفاصيل الخطة وأبعادها، وكان الوقت قد قارب الفجر .

وأرسل « النعمان » أحد قادته الفرسان الشجعان «القعقاع بن عمرو التميمى»[2] على رأس الخيل، حتى دقوا أبواب الحصون، فخرج إليهم خيالة الفرس، ونشب القتال بين الطرفين.

ثم تراجع «القعقاع» أمامهم بمن معه، فظن الأعاجم أن انسحاب العرب كان نتيجة ضعفهم. . ، فقاموا بمطاردتهم واللحاق بهم، وأغرى هذا التصرف آخرين من الفرس لا يزالون فى خنادقهم وحصونهم، فخرجوا يتبعون «القعقاع» وخيله. . .

وكان المسلمون على تعبئتهم الكاملة ، وقد أمرهم « النعمان » أن يثبتوا فى أماكنهم ، ولا يلتحموا بقتال حتى يأذن لهم .

وأقبل الفرس عليهم يرمونهم بالسهام حتى أثخنوهم بالجراح وانتظر « النعمان » حتى تم خروج الفرس من الحصون . . ، ثم ركب فرسه ، وسار بين صفوف جنده يقف عند كل كتيبة وراية ، يذكر الناس ويحرضهم على القتال والصبر ، ويمنيهم بالظفر ، ثم أعلن :

(إنى مكبر ثلاثًا ، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ، فإذا كبرت الثانية ، فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله ، فاحملوا معى. . .).

---

(١) أى المهزومين الفارين ، وهذه خطة فى قتال العرب .

(٢) كان من مأثور قول « عمر » رضى الله عنه : لا يغلبن جيش فيه القعقاع » !!

ودعا ربه فقال :

(اللهم أَعِزَّ دينك ، وانصر عبادك ، واجعل «النعمان» أول شهيد اليوم، على إعزاز دينك ونصر عبدك) .

وهكذا استدرج « النعمان » أعداءه إلى قرب من العراء خارج حصونهم وخنادقهم حتى إذا سنحت الفرصة حمل وحمل معه الناس ، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديدًا ، مما جعل أرض المعركة تمتلئ بالأشلاء والدماء .

ولقد استجاب الله تعالى دعاء ونداء عبده المؤمن «النعمان بن مقرن» ـ رضى الله عنه ـ فكان أول شهيد . إذ زلقت فرس «النعمان» فى الدِّماء فسقط صريعًا . . .

فبادره أخوه «نعيم » فسجاه بثوبه، وأخذ اللواء من يده، ودفعه إلى «حذيفة بن اليمان» حسب وصية «النعمان» .

وأخفى « نعيم » خبر استشهاد أخيه عن الجند حتى لا يؤثر ذلك فى معنوياتهم، واستمر المسلمون فى القتال حسب الخطة التى اتفقوا عليها .

وحين أقبل الليل كانت قوات الفرس قد أصيبت بالهزيمة ، وطاردهم المسلمون فى كل ناحية ، فلم ينج منهم إلا الشريد الهارب .

وتساءل الناس بعد انتهاء القتال عن القائد « النعمان » ، فأخبرهم أخوه «معقل بن مقرن » باستشهاده قائلاً :

ـ هذا أميركم قد أَقَرّ الله عينه بالفتح . . . وختم له بالشهادة .

***

ودخل المسلمون « نهاوند » فاتحين . . .

وكان أمير المؤمنين « عمر » فى المدينة يتسقط أنباء جيش المسلمين فى فارس ، ولا يكاد يذوق طعم النوم . . . ، فلما جاء البشير سأله « عمر » :

ـ ما وراءك ؟

فقال :

ـ البشرى والفتح . . .

فسأله « عمر » :

ـ وما فعل « النعمان » ؟

قال البشير :

ـ زلت فرسه فى دماء القوم فصرع . . فاستشهد . .

ففزع « عمر » ـ رضى الله عنه ـ للنبـأ ، وهزته الفاجعة ، وبكى بكاءً شديداً، وانتحب كأنما أصيب بأعز إنسان لديه .

***

* وهكذا . . .

تم الفتح ، فتح « نهاوند » ، الذى أطلق عليـه المؤرخون بعد ذلك اسم « فتح الفتوح » ، لأنه كـان المؤشر لزوال دولة الأكاسرة فى «فارس» واستـيلاء المسلمين على الديار ، وتحولها إلى أرض إسلامية ، ومنطلق إلى الهند وخُراسان الصين.

***

٢- حسان بن النعمان

«ما أعلم أحدًا أكفأ بإفريقية من «حسان بن النعمان الغسّانيِ» .

هذه العبارة هى شهادة «عبد الملك بن مروان» فى حسان بن النعمان ، وهى عند التحقيق والتأمل جديرة بأن تكون شهادة التاريخ لـ «حسان» .

وذلك يعود لسببين :

أولاً: لأن الوجود الرومانى فى الشمال الإفريقى كان عميق الجذور، بعيد الأصول، قد امتد عشرات السنين، بل مئاتها إن شئت!!

ومن هنا كانت معاناة قادة الفتح الإسلامى، منذ فتح مصر عام عشرين للهجرة (٢٠) هـ، إلى أن كانت المعركة الحاسمة مع الروم بقيادة «حسان بن النعمان» فى آخر العقد الثامن .

ولقد كان المدد الرومانى يتدفق طوال تلك العقود عبر البحر، ومن مختلف القواعد والثغور الأوروبية، والجزر التى كانت تخضع لسلطة الروم ، ما إن يُهْزَمُوا فى معركة ، أو مَوْقع ، أو يسلب منهم حصن أو مدينة ، حتى يعاودوا الكرة لاستعادة ما فقدوه .

ثانيًا : كانت أكثر قبائل البربر ـ سكان البلاد الأصليين ـ فى تحالف وثيق مع الروم ، ولم يدخلوا الإسلام بعد .

فالأرضية التى يقاتل فوقها المسلمون عدوهم مضطربة ، قلقة . . ، لم تستسغ ولم تهضم معنى (الفتح) ، فكانت رافضة له بشدة ، أضف إلى ذلك طبيعة العنصرية القبلية التى كان يحياها البربر والتى تشبه فى صورها العامة حياة البداوة العربية الصحراوية ، بكُلِّ تداعياتها و ألوانها وأنماطها .

***

وحق لـ «عبد الملك» أن يشهد هذه الشهادة ، لأنه عايش بنفسه مع «معاوية بن حديج» معـارك الفتح فى الشمال الإفريقى، وأدرك بثـاقب فكره وبُعد نظره .كل مجسمات القتال، مع الروم ومع البربر.

هذا من جـهة، ومن جهـة أخرى فـقد كـان «حسان بـن النعمان» مـن القادة المرموقـين، المقربين من «عـبد الملك»، والموثوق بكفاءتهم وقـدراتهم، ومن الذين تربـوا وتشبَّعوا بالروح (الأموية والمروانية) . .

قَبْل كل هذا إسـلامه الصادق وإيمـانه العميق ، فهـو من طبقة التـابعين الذى تفقـهوا فى الدين ، فوعـوا وحفظوا ، وعملوا، ورأى عـامة الناس فيـهم رجالاً كبارًا، وعلماء أفذاذًا.

من هنا حمل « حـسان بن النعـمان » لقب « الشيخ الأمـين » ليس شيـخًا فى السن . . . ، بـل فى العلم والحـفظ ، والخلـق الرصـين، والقـدوة الحـسنة والبطولة. . . !

***

والآن ـ عزيزى القارئ ـ أدعوك ونفسى لنحيا فى الصفحات التالية مع بطل من أبطال الفتح الإسلامى ـ فى الشـمال الإفريقى ـ ، فنستروح نسمـات الجهاد تهب علينا ، لعلها تحيى فينا ما غفى من المشاعر والأحاسيس . . ، أو مات !!

والله تعالى ولينا جميعًا فى الدنيا والآخرة .

***

اسمه ونسبه:

هو «حسان بن النعـمان» (ابن عدى بن مغـيث بن عمرو (مزيقيـاء)، بن عامر (ماء السماء)، (بن الأزد).

***

نزح جده الأعلى من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى نحو الشام مع أهله وذويه، فأقاموا هناك، وأسسوا مُلكًا وحضارة، وعرفوا بـ «الغساسنة» ووالوا الإمبراطورية الرومانية (البيزنطيَّة) التى كانت عاصمتها « القسطنطينية »[1] .

فلما كان الفتح الإسلامى للشام تحول أكثرهم من النصرانية إلى الإسلام، ودخلوا فى دين الله أفواجًا .

***

نشأته:

وتفتحت عينا «حسان» على الإسلام ناشرًا رايته فى كل الديار الشامية و«فارس»، ومصر. . . وترعرع فى بيت عريق، له ماض مجيد فى القيادة والحكم والسلطان.

أتقن العلوم الفقهية وحفظ القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وروى عن سيدنا «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ، وكان من أعلام التابعين [2].

***

وكان له فى ميادين الجهاد بلاء حسن وقيادة لفتت الأنظار . فلما بلغ الخليفة «عبد الملك بن مروان» فى دمشق نبأ استشهاد «زهير بن قيس» وأصحابه، اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك، وكانت المصيبة بـ «زهير» وأصحابه مثل المصيبة بـ «عقبة بن نافع» وأصحابه، فالخسائر فادحة ، والجرح عميق .

وتألب أشراف الناس ورؤوسهم على «عبد الملك» يسألونه إعادة النظر فى موضوع الشمال الإفريقى، ليؤمن المسلمين هناك ويحميهم من غدر عدوهم، ويبعث الجيوش التى تكفل ذلك وتضمنه .

فنظر «عبد الملك» فى الأمر مليًا ، وبحثه بين نفسه وبين المستشارين، ثم وقع الاختيار وقال «عبد الملك»: ما أعلم أحدًا أكفأ بـ «إفريقية» من «حسان بن النعمان الغسَّانى» .

---

(١) القسطنطينية : اسطانبول اليوم .

(٢) وفيات الأعيان (٤ـ٤٣٩) ـ تهذيب ابن عساكر (٤ـ١٤٦) الاستقصا (١ ـ ٨٢).

ووقع ذلك الاختيار من نفوس الناس موقعًا حسنًا فارتاحوا لذلك موقتًا، ريثما تنجلى الأمور مستقبلاً عن نتائج حاسمة تفرض الهيبة، وتعيد الطمأنينة .

الاستعداد:

وجهز «عبد الملك» جيشًا كثيفًا ، كثير العدد ، وافر العدة ، واستعمل عليه وعلى ولاية إفريقية «حسان بن النعمان» ونصحه ووعظه، ودعا له بالتوفيق والنصر.

ثم كانت الانطلاقة إلى «مصر» أولاً، هناك دأب «حسان» على إنجاز استحضارات جيشه واستعداداته .

وكان ذلك فى نهاية سنة ثلاث وسبعين، وإطلالة عام أربعة وسبعين (٧٣ - ٧٤) هـ .

ثم جاءه كتاب من «عبد الملك» يقول فيه : - (إنى أطلقت يدك فى أموال«مصر» فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه) .

***

ويحلل لنا اللواء الركن «محمود شيت خطاب» الموقف بقوله :

(كم من الوقت أمضى «حسان» لإنجاز استحضارات جيشه الذى بلغ عدده أربعين ألفًا؟

إن الوقت الذى يستغرقه إنجاز استحضارات مثل هذا الجيش : تسليحه وتجهيزه، وتأمين قضاياه الإدارية . . . إلخ ، لا يقل عن عام ، أو أكثر أو أقل من عام بشهور قليلة على كل حال).

لذلك سار هذا الجيش لاستعادة فتح (إفريقية) - الشمال الإفريقى - سنة أربع وسبعين للهجرة (٧٤)هـ. فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله (كما يقول ابن الأثير وابن خلدون فى تاريخهما)، وكان «حسان» أول من دخل إفريقية من الشام فى زمن بنى أمية .

وكانت المسافة بين «الفسطاط» فى «مصر» و«القيروان» فى تونس (١٥٣٠) ميلاً[١] يمكن قطعها بـ (٤٧) مرحلة نظامية فى أوقات السلم، ولقوات قليلة كالمفارز الاستطلاعية، أو موظفى البريد، وبدون استراحة .

أما القوات الجسيمة كجيش «حسان» الذى قدم إفريقية فى عسكر عظيم، لا يمكن أن يقطع هذه المسافة بمثل هذا الوقت، كما أنه لابد له من إعطاء فترات من الاستراحة لجمع شمل القطعات المتحركة، وجرد موجوداتها ، وإدامة تجهيزاتها ونقليتها .

حركة مثل هذه القوات الجسيمة باتجاه العدو لا يكون سيراً سليماً، بل يجب اتخاذ التدابير التعبوية لحمايتها من عنصر المفاجأة، فيكون سيرها مسيراً تعبوياً مما يؤدى إلى تأخير حركتها، فإذا أدخلنا فى حسابنا كل ذلك، وأضفنا إليه، أن كل ستة مراحل تحتاج إلى يوم استراحة للقطعات، وأن كل شهر من المسير يحتاج إلى أسبوع استراحة للقطعات ولنقليتها من الحيوانات، علمنا أن جيش «حسان» هذا، لا يمكن أن يصل من «الفسطاط» فى مصر إلى غايته وهدفه «القيروان» قبل ثلاثة أشهر .

***

فإذا أضفنا إلى هذه المدة ، الفترة التى قضاها «حسان» فى «القيروان» لتجهيز جيشه وإكمال استعداداته الإدارية للحرب، وإنجاز استطلاعاته الضرورية للحصول على المعلومات عن العدو: قوته وتسليحه، والمنطقة التى سيقاتل عليها، أدركنا أنه قضى سنة أربع وسبعين (هـ) فى تحشيد قواته، وإعدادها للحرب، وأنه خاض معركة «قرطاجنة» سنة خمس وسبعين ـ أو ست وسبعين (٦٩٥ م) .

لقد أحببت ـ عزيزى القارئ ـ أن أفيض فى الحديث على لسان أستاذنا (القائد الخبير)، لندرك مدى ما كان يعوّل عليه آنذاك من خلال هذا البعث العسكرى الضخم لإنجاز المهمة فى إقرار الشمال الإفريقى نهائيًا ، بعد أن ظل مضطربًا أكثر

(١) الميل القديم ومقداره، أربعة آلاف ذراع .

من نصف قرن ، وما أفلحت معه الغزوات والفتوحات المتتالية إلا فى حدود قليلة.

***

فى طرابلس:

ومضى «حسان» فى جيشه الكبير الضخم حتى نزل أولاً «طرابلس» - الغرب-، فاجتمع إليه من كان بها .

فأرسل مقدمة جيشه طليعةً وعليها «محمد بن أبى بكر» و«هلال بن ثروان »[١] - اللواتى - و «زهير بن قيس البلوى»، ففتح بعض البلاد وأصاب مغانم كثيرة .

وهذا يدل على أنه اجتاز «برقة» و «طرابلس» دون أن يلقى مقاومة، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به، وأنه لاقى مقاومات خفيفة فى طريقه من «طرابلس» إلى «القيروان»، من الحاميات الرومية المتفرقة فى المدن الواقعة على طريق جيش «حسان» .

***

قرطاجنة:

وما كاد « حسان » ينجز استحضاراته حتى سأل :- من أعظم الملوك قدراً فى هذه الناحية ؟

فقالوا : صاحب «قرطاجنة» دار ملك إفريقية -(العاصمة).

و«قرطاجنة» هى المدينة العظمى، قريعة «روما»وضرّتها ، وإحدى عجائب الدنيا .

وكان بها يومئذ جموع من الروم لا تحصى، ولم يكن المسلمون قط حاربوها - أو فتحوها - بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً، أوبلاداً مجاورة كجزيرة «شريك»، ويتركونها إلى أهداف أخرى .

***

---

(١) «هلال بن ثروان» أول اسم من أسماء البربر يظهر على ساحة القيادة، فهو من قبيلة «لواتة »، إحدى أكبر وأعظم قبائل البربر فى الشمال الإفريقى.

فتح قرطاجنة:

لما وصل «حسان» إلى «قرطاجنة» رأى بهـا من الروم والبربر - حلفائهم - ما لا يحصى كـثرة، فقاتلهم، وحـاصرهم، وقتل كـثيرًا منهم، فلما رأوا ذلك اجـتمع رأيهم على الهرب. . ، فـركبوا سـفنهم ومراكبهم، وسـار بعضهم إلى «صـقلية» وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة. . ، فـسباها، وغنم ما فيها، وأرسل إلى ما حولها من الـعمران ، فاجتـمعوا إليه مـسرعين، فأمرهم بهـدم «قرطاجنة» وقطع القناة عنها .

يريد بذلك أن يعطل وجودها ، وقطع آمال الروم فى العودة إليها.

وانصرف «حسان» مرتدًا إلى «القيروان» .

وهنا حدثت مفاجأة. . . ،إذ عاد إلى «قـرطاجنَّة» أهل الدساكر والمقاطعات التى حولها ، وحـاولوا أن يبعثوا فيهـا الحياة من جديد ، فعاد « حـسان » إليهم على جناح السرعة ، وحـاصرَهم حصارًا شـديدًا، حتى دخلها بالسيف، فـقتل المقاتلة قتـلاً ذريعًا، وسـباهم ونهـبهم، ثـم أرسل لمن بقى حواليـها، فـاجتـمعوا إلـيه مسـارعين، خوفًا من عظيـم سطوته وشدة بأسه، فلمـا أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بالإجـهاز على تخريب «قـرطاجنة» وهدمها نهـائيًا فخربوها حـتى صارت كأمْس الدابر [1].

***

لكنه فى فتحهـا ثانية حاول أن يخرب أكثر ما يمكن من مرافـقها الحيوية، كى يحرِم الروم وغيرهم - كما أسلفنا - من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائيًا .

لكنه لم ينجح فى تدمير مرافقها الحيوية كلها ، لأن الأحداث المقبلة سوف تدل بوضوح على أن المـسلمين لم يخربوهـا تمامًا، وإنما بقيت على درجـة كبـيرة من المنعة، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات . وهذا ما يشير إليه «النويرى» بقوله: «فهَدَم المسلمون ما أمكن منها » [2].

***

---

(١) البيان المغرب (١ - ٢٤)

(٢) نهاية الأرب (ص : ٧٤)

حسان والروم:

وتنبه «حسان» بعد هذا الحادث (الفتح الثانى لـ «قرطاجنة»). إلى أن الروم ما زالوا على شيء من القوة والكثرة، فى المناطق الكثيرة المحيطة بـ «قرطاجنة»، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها، بعد أن انقطع رجاؤهم من «قرطاجنة» نفسها.

فقد بلغه أن الروم ـ والبربر ـ قد اجتمعوا له فى بلدة «صفطورة» وفى «بنزرت» وهما مدينتان لهما أهميتهما ومكانتهما .

فسار إليهم وقاتلهم ، ولقى منهم شدة وقوة ، لكن المسلمين صبروا لهم ، فانهزم الروم ، وكثر القتل فيهم ، فاستولى المسلمون على بلادهم ، ولم يترك «حسان» موضعًا من بلادهم إلا وطئه ، وخافه أهل «إفريقية» خوفًا شديدًا، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة « باجة » وتحصن البربر بمدينة « بُونة » الواقعة على الساحل .

فعاد « حسان » إلى « القيروان » لأن الجراح قد كثرت فى أصحابه ، فأقام بها حتى صحوا ، وكان قراره هذا صائبًا ، ومن ثم أصبح جيشه جاهزًا وحاضرًا للقتال والنزال مرة أخرى .

***

«حسان» و «الكاهنة» !!

وسأل «حسان» أهل «القيروان» عمن بقى من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه، فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل «أوراس»[1] تدعى: «الكاهنة»، وجميع من بـ «إفريقية» من الروم والبربر يخافونها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك فيه مُضاهٍ ولا مُعاند.

وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب، ولهذا سميت الكاهنة، وكانت بربرية وقد اجتمع إليها البربر قاطبةً، وهى إذ ذاك ملكة «جرافة» من قبائل البربر الكبيرة، بل ملكة البربر كلهم من دون منازع .

(١) فى الجزائر.

وكـان لهذه الكاهـنة ثلاثة أبناء ورثوا رياسـة قومـهم عن آبائهم وجـدودهم ، وتربوا فى حجرها فاسـتبدت عليهم ، واعتزت فى قومـها بهم ، وبما كان لها من المكانة ، فانتهت إليها الزعامة .

***

يوم البـلاء:

عزم «حسان» على قصـدها، فخرج إليها بجيوشه، فلمـا بلغ موضعًا يقال له: «مجانة» ـ بينها وبين «القيروان» خـمس مراحل نزل بها، وكانت قلعة لم تفتح من قبل، فتحصن بها الروم .فمضى «حسان» وتركهم .

وبلغ الكاهنة أمره ، فزحفت من جـبل «أوراس» فى عدد لا يحصى فنزلت فى مدينة «باغـاية» ـ وهى مدينة كبـيرة تقع بين «مجـانة» و «قسنطينة» ـ فـهاجمتـها وأخرجت من بها وهدمتها ، إذ ظنت أن «حسان» يريد حصنها ليتحصن به منها .

وأقبل « حسان » حين بلغه الخبر إلى وادى «مكناسة » ـ فى المغرب ـ فقيل له: إنها قـد أقبلت فى عـدد لا يحصى ، فقـال لهم : دلونى على ماءٍ يسـع العسكر الذى أنا فيه، فمالوا إلى نهر « نينى » ـ وهو نهر مشهور ـ فنزل عليه .

وزحـفت إليه الكاهنة حـتى أتت أسفـل النهر ونزلت عليـه ، فكان «حسـان» يشرب هو وأصحابه من أعلاه ، وتشرب الكاهنة ومن معها من أسفله .

ودنا الطرفان من بعضهما ، فأبى «حســان» أن يقاتلها فى آخر النهار، كما أبى أن يقاتلها بالـليل، وبات الفريقان على مصافـهم ، فلما أصبحـوا زحف بعضهم على بعض، فاقـتتلُوا قتـالاً شديدًا، وعظم البلاء، وظن المـسلمون أنه الفناء. . ، فانهزم «حســان» بعد بلاء عظيم، وقتل من العرب خلق كثيـر، فسمى ذلك اليوم «يوم البلاء» وسمى النهر الذى التقوا عليه «نهر البلاء» .

فاتبعـته «الكاهنة» بمن معها حتى خـرج من حد «قابس»[1]، فأسلم إفـريقية، ومضى على وجـهه، وأسـرت من أصحابه ثـمانين رجلاً، منهم «خـالد بن يزيد العبْسيِ »، وكان رجلاً مذكورًا، فيه وسامة وجمال وشجاعة .

---

(١) خليج قابس : بين طرابلس و« صفاقص »

فأحسنت «الكاهنة» معاملة الأسرى، وميزت «خالدًا» عنهم، فحبسته عندها، ثم أمرت بدقيق من شعير مَقْلُوٍّ فَلُتّ[1] بالزيت، والبربر تسمى ذلك «البسيسة»، وقالت لـ «خالد».

ـ ما رأيت فى الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدى .

فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بالزيت، وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت :

ـ كلا معه على ثديى . . . ففعلا ، وفعل .

فقالت: لقد صرتم إخوة . . . [2].

***

لماذا كانت الهزيمة؟

(لعل من أهم أسباب فشل المسلمين هذه المرة ، أنهم قاتلوا بدوًا مثلهم، يجيدون النزال فى الميدان قد طال عهدهم بنزال الروم «البيزنطيين»، وأن المسلمين أعجبتهم كثرتهم ، فاستهانوا بعدوهم ، فلم يبذلوا قصارى جهدهم فى القتال، احتقروا البربر، واحتقروا قيادتهم المتمثلة بالكاهنة، وهى امرأة !!! ، فظنوا أن الانتصار على البربر ـ وهم فى كثرة كاثرة ، وعدة كاملة ـ سهل ميسور ، وأن نتائج هذه المعركة مضمونة، فوقعوا فى نفس الخطر الذى وقع فيه جيش المسلمين «يوم حنين»، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئًا. . [3].

***

الكره . . . والحيلة:

وأخذ «حسان» يتمهل فى سيره طمعًا فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به، وذلك بعد انسحابه من معركة «نهر نينى »، مما يدل على أن المسلمين الذين

---

(١) لت : خلط بالزيت.

(٢) البيان المغرب (١ ـ ٢٧).

(٣) قادة فتح المغرب (ص : ١٨٥)

استقروا فى «القيروان» كانوا غير محاربين، أى كانوا سكانًا مدنيين، لا يطمع أن يكونوا جندًا محاربين .

فلما فصل عن «قابس»: كتب إلى الخليفة أمير الموامنين «عبدَ الملك بن مروان» يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة وأتباعها من البربر ، فكتب إليه «عبد الملك»: قد بلغنى أمرك وما لقيت وما لقى المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابى هذا ، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمرى .

وكان كتاب «عبد الملك» قد وصله بمكان يقال له اليوم «قصور حسان» وكان «حسان» قد بنى هناك قصرًا ونزل قصورًا من حيز «برقة»، فسميت «قصور حسان»، وكانت «أنطابلس»[1] و«لوبية »[2] و«مراقية»[3] إلى حدود «أجدابية»[4]، منطقة نفوذ لـ «حسان» فأقام هناك خمس سنوات .

وتوافد على «حسان» ـ أثناء تلك السنين ـ فرسان العرب ـ ورجالها من قبل أمير المؤمنين «عبد الملك بن مروان» .

ويبدو أن «حسانًا» ببعد نظره، وثاقب فكره قد اعتبر الزمن جزءًا من خطته فى الخلاص من الكاهنة، ولسوف نرى ذلك واضحًا فى تدبيره .

***

دعا «حسان» رجلاً من أهل ثقته، فيه فروسية وذكاء وشجاعة ، وبعثه إلى «خالد بن يزيد»، الأسير الذى تبنته الكاهنة، فقال له: إن «حسان» يقول لك ما يمنعك من الكتابة إلينا ؟ .

وبعث«حسان» مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من«خالد» الأمور . . .

يريد أن يقف على عورات الكاهنة ، ومكامن ضعفها ، وهل ما زالت تتمتع بتأييد كل قبائل البربر لها ؟!.

---

(١) مدينة بناحية « برقة » .

(٢) لوبيا : ليبيا

(٣) مراقية : معروفة اليوم .

(٤) بين برقة وطرابلس .

فكتب «خالد » فى ظهر كتاب « حسان »[١].

ـ (إن البربر متفرقون، لا نظام لهم ، ولا رأى عندهم ، فاطو المراحل وجد فى السير).

وجعل الكتاب فى رغيف ، وجعله زادًا للرجل ووجهه إلى «حسان» وكان «خالد» قد أنضج الرغيف فاحترق الكتاب بالنار .

فلما كسر «حسان» الرغيف وقرأ الكتاب الذى كتبه إليه «خالد» وجده قد أفسدته النار، فقال له «حسان» ارجع إليه.

وعاد الرجل إلى «خالد»، فكتب إلى «حسان» بما كتب أولاً ، وأودعه قربوس السرج ، حفره ووضع الكتاب فيه ، وأطبق عليه حتى استوى وخفى مكانه[٢].

***

وهنا ـ عزيزى القارئ ـ يجدر بنا أن نتوقف قليلاً ، فقد بذل « حسان » قصارى جهده لاستطلاع أمر الكاهنة ، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر ، فلا نظام لهم ، ولا رأى عندهم .

كما أن تدابير الكتمان التى اتخذها «خالد» بلغت حد الروعة والاتقان، سواء فى وضع الكتاب داخل الرغيف ، أو فى وضعه فى قربوس الفرس . . ، ولن يستطيع ضابط استخبارات محترف، فى الوقت الحاضر، أن يتخذ تدابير أكثر حذرًا وأدق كتمانًا مما فعله «خالد» .

ترى ما حقيقة ما كان يجرى فى الطرف الآخر عند الكاهنة وأتباعها من البربر؟

يقول ابن الأثير :(ملكت الكاهنة « إفريقية » كلها ، وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتْهم).

أى أن الاضطرابات سادت البلاد طوال الفترة التى تغيب فيها «حسان». . ، وذلك طبيعى لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع لقوم منهم ، فلما حاولت

(١) البيان المغرب (١ـ ٢٨) ابن الأثير (٤ ـ ١٤٣) ـ رياض النفوس (١ ـ ٣٤) .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٣٧٥) ابن الأثير (٤ ـ ١٤٣)

الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء العرب ، عارضها نفر منهم ، فاضطرت إلى اصطناع الشِّدّة معهم. . فثاروا بها. . ونفروا منها ، فانتشرت الاضطربات فى البلاد ، بل فكر بعضهم فى الاستنجاد بالعرب واستدعائهم ـ كما سنرى ـ.

***

لما رأت الكاهنة إبطاء العرب عنها خمس سنوات، قالت للبربر : إن العرب يريدون فى إفريقية المدائن والذهب والنفقة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعى. . ، فلا أرى لكم إلاّ خراب بلاد إفريقية كلها ، حتى ييأس العرب منها ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر.

فوجهت ـ قومها ـ إلى كل ناحية يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون . .

فذكروا ـ أى المؤرخون ـ أن إفريقية كانت ظلاً واحدًا ، من «طرابلس» إلى طنجة، وقرى متصلة ومدائن منتظمة، حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصونًا من إقليم إفريقية والمغرب ؛ الشمال الإفريقى كله، مسيرة ألفى ميل فى مثلها ، طولاً وعرضًا ، فخربت الكاهنة ذلك كله .

وخرج يومئذ من النصارى، والأفارقة خلق كثير، مستغيثين مما نزل لهم من الكاهنة فتفرقوا على «الأندلس» والجزائر البحرية [١].

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة فى بلادها : إدارة سيئة ، وظلم للناس ، وتخريب للبلاد وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية .

***

أما الروم . . . فإنهم قد وجدوا فى خروج « حسان » فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطان نفوذهم عليها من جديد .

وكان الإمبراطور الجديد «ليونثيوس» الذى خلف «جوستينيان» ـ الثانى ـ (٦٩٥م ـ ٧٤هـ) قد أهمه سقوط «قرطاجنة» فى أيدى العرب ، وتخريب «حسان » لها .

(١) البيان المغرب (١ ـ ٢٦)

فلم تكد أخبار هزيمة «حسان» على نهـر «نينى» تَرِدُ إليه، حتى عجل بالعمل، فقد أعد حملة كبيرة ، واهتم بالإعداد لها اهتـمامًا فائقًا، وتخير لقادتها قائدًا من أشهر قواد الدولة الرومـانية وأقدرهم هو « البطريق يوحنا »(Patrcius jean) وأعد أسطولاً كبيرًا لنقل الجند.

وظهر الأسطول الرومى ـ البيزنطـى ـ فى مياه «قرطاجنة» سنة (٦٩٧م ـ ٧٨هـ) وتمكن من الاستيلاء علـى المدينة بيسر وسهولة، وطرد المسلمين الذى كـانوا فيها، واشتـد فى معاملة من وقع تحت يده مـن المسلمين أشد قـسوة ، حتى إنه ليـقتل بيده!!.

فلما تم له ذلك اكتفى به، وأقام للراحة فى «قرطاجنة» طيلة فصل الشتاء، دون أن يضع فى حسابه محاولة عودة المسلمين إليها!! ولم يقم بأى استعداد لذلك.

***

وعلم «حسان» بما فـعل الروم بالمسلمين فى «قرطاجنة» ، فـأرسل أربعين رجلاً من أشراف الناس إلى الخليفـة «عبد الملك بن مروان» وكتب إلـيه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام «حسان» مرابطًا ينتظر رد «عبد الملك بن مروان» ورأيه.

***

بهاتين الحركتين، حركة الكاهنة، وحـركة «البطريق يوحنا » ثم انتقاض الشمال الإفريقى على العرب، وخرج من يدهم جملة ، ولم يبق فـى طاعتهم شبر واحد مما يلى «قابس» غربًا .

وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اخـتلاف فيه، فقد أقامت هى فى الجنوب، فى السهل الداخلى، بينما اهتم البطريق أن يـعيد الرباط الساحلى، الذى يمتد من «سوسة» إلى «شقبنارية » ـ ما بين تونس والجزائر ـ .

***

وطالت إقامة « حسان » على وضعه الحالى خمس سنوات كما قدمنا . .

صحيح أنه كان يعتمد على عامل الزمن ، وانتظار الفرصة المؤاتية للانقضاض، لكن هذا الوقت قد طال أكثر مما يلزم . .

والسبب فى ذلك الفتن الداخلية التى واجهت «عبـد الملك» ، وقد كانت كثيرة وعنيفة ، حتى استطاع إخمادها .

وفى أواخـر سنة إحدى وثمـانين (٨١)هـ، وبعـد أن اطمـأن «عبـدالملك» إلى الوضع الداخلى تمامًا ، سـيّر إلى «حسـان» الجنود والأموال، وتوافد عليه فـرسان العرب ورجالها، حتى إذا أكمل استحضارات القـتال وتهيئة جيشه ماديًا ومعنويًا، أمره «عبد الملك» بالتحرك وقتال الكاهنة .

***

أمـا الكاهـنة فـإنهـا لما علـمت بذلك، رحلت من جـبل «أوراس» فى خلق عظيم. . ، فلما كـان الليل قالت لابنيها : إنى مـقتولة . . ! وأعلمتـهم أنها رأت رأسهـا مقطوعة ، موضـوعة بين يدى ملك العرب الأعظم «الخليـفة» الذى بعث «حسانًا».

فقال لها «خالد بن يزيد» : فارحلى بنا وخلى له عن البلاد .

فامتنعت، ورأته عارًا لقـومها، فقال لها «خالد» وأولادها: فـما نحن صانعون بعدك ؟

فقـالت: أما أنـت يا خالد فـتدرك ملكًا عظيـمًا عند الملك الأعظـم. . ، وأما أولادى فيدركون سلطانًا مع هذا الرجل الذى يقتلنى، ويعقدون للبربر عزًا .

ثم قالت : اركبُوا واستأمنوا إليه .

***

فركب «خـالد» وأولادها فى الليل، وتوجـهوا إلى «حـسان» فـأخبره «خـالد» بخبرها، وأنها علمت قتلها، وقد وجهت إليك أولادها .

فوكل بهما من يحفظهما ، وقدم «خالدًا» على أعِنَّة الخيل.

المواجهة:

وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها ، فقالت : انظروا ما دهمكم فإنى مقتولة . . .

ثم التحم القتـال ، واشتد الحرب والنزال ،فانـهزمت الكاهنة فأتبعهـا «حسان» حتى قتلها[1] فى مكان لا يزال يعرف بـ «بئر الكاهنة» .

وكـانت هذه المعـركة بـين المسلمـين والكاهنة ، سنة اثنين وثمـانين للهـجـرة (٨٢هـ)، وبعد مقتل الكاهنة أخلد البربر إلى الدّعة ، واطمأنت النفوس ، ودخل أكثرهم فى الإسلام .

وبذلك قضى المسلمون عـلى آخر حركة قام بهـا أهل البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتـمى وراءه أهل البلاد فلما سقطت انتهت كل مقاومة .

***

الاستعداد للروم:

عاد «حسـان» إلى «القيروان» بعدمـا حسن إسلام البربر وطاعـتهم، وذلك فى شهر رمـضان عام اثنين وثمـانين (٨٢ هـ)، ليريح جيشـه، وليكمل نواقص قواته الإدارية، فلما استـراح جيشه وأنجز استـحضاراته ، اتجه إلى شمـال « القيروان » حيث لا زالت هناك جيوب يحكمها الروم ، وقلاع يسيطر عليها البربر .

وكانت جبال «زغوان»[2] فى شمال «القيروان» وفى جنوب «قرطاجنة» لا تزال موطنًا لمقـاومة البربر والروم ، ولعل قربهـا من «قرطاجنة» جعلهـا الخط الدفاعى الأول عن تلك المدينة ، فأرسل إليها «حسـان» مولاه «أبا صالح» فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى ، فأسرع إليها «حسان» بنفسه، ثم فتحها صلحًا .

ولم يبق على «حـسان» إلا اسـتعـادة فتح «قـرطاجنة» وكـان «البطريق يوحنا» ورجاله من الروم قد حـصنوها، وأعادوا ما تهدم من أسوارها. . ، وكـانوا يرقبون تحركات «حسان» .

---

(١) البيان المغرب (١ ـ ٢٨ . ٢٩)

(٢) بالقرب من تونس العاصمة .

فسار إليهم . . ، فتحصنوا بها ، وحاصرهم «حسان» ، فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين، انهزم فيها «يوحنا» هزيمة ساحقة .

كما انهزم الأسطول البيزنطى فى موقعة كبيرة ، سقطت بعدها «قرطاجنة» فى يد «حسان» فأدرك اليأس «البطريق يوحنا»، فجمع أجناده ورحل إلى «بيزنطة» .

وكانت هذه آخر معارك المسلمين مع الروم فى الشمال الإفريقى.

ثم أرسل «حسان» أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها ، ووطد الأمن فيها ، وترك فيها حاميات من المسلمين.

***

مآثرة وأثر:

كان « حسان » من القادة العظام ، ذوى الكفاية العسكرية والإدارية ، وفاتحًا من الطراز الأول ، ولقد أدرك أن استعادة « قرطاجنة » لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحرًا . . ، وفتحها ، لذا عوّل على إنشاء ميناء جديد يكون قاعدة حربية بحرية للأسطول الإسلامى .

وأخذ يبحث عن مكان مناسب ، فوجد إلى جنوب «قرطاجنة» بلدًا قديمًا يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، فاسترعى هذا الموضع انتباهه .

***

كان هذا البلد القديم ميناء يونانيّة قديمةً ، فأصبحت قبل الإسلام قرية صغيرة تدعى « ترشيش » ، وهى على سفح جبل ، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعى هو كالحصن لها والسور الذى يمنع الأعداء عنها . وفى شرقيها بحيرة جميلة تلطف جوها وتزيدها سحرًا وجمالاً ، وتحيط بها سهول زراعية .

وكان على «حسان» أن يبدأ بحفر البرزخ الذى يفصل البحيرة عن البحر ، وأن يحفر فى ماء البحيرة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر ، وتصبح «تونس» ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من

أمواج البحر ، ثم يعقب ذلك بإنشاء (دار صناعــة)، ترسو فيها السفن وتقلع منها بأمان ؛ وفعل ذلك ، وبذل جهدًا عظيمًا ، واستغرق وقتًا .

وأصبحت « تونس » رباطًا يحـمى «القيروان»، ومحرسًا بحـريًا وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام «قرطاجنة» .

فأقام «حسان» لا يغـزو أحدًا ولا ينازعه أحد، وبسط سلطان الإسلام على كل ربوع الشمال الإفريقى، وأصبح الفتح الإسلامى هناك فتحًا مستدامًا .

***

صفاته وحياته الشخصية:

قدمنا صورة واضحة مفصلة عن حياة « حسان » العامة وجهاده وبلائه ، ولكن ما هى الصفات الخاصة التى كان يتمتع بها ؟.

كان «حســانًا» ـ رحمه الله ـ رجلاً عــاقلاً رزينًا ، مخلصًــا وفيًا ، صادقًا تـقيًا ورعًا ، وكان أمينًا ، وقد عرف كما سبق وقلنا بلقب «الشيخ الأمين » .

بعد عزلــه عن إفريقية ، أيام «عبــد العزيز بن مروان»ـ والى مــصر ـ، عاد إلى الشام، وقال لمن معه فى حضرة الخليفة « الوليد بن عبد الملك » :

ـ ائتونى بقرب الماء . .

ففرَّغ منها ما جاء به من الفضة والذهب والجوهر .

فقال له «الوليد بن عبد الملك»: جزاك الله خيرًا يا «حسان».

فقال : يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهدًا فى سبيل الله ، وليس مثلى يخون الله ولا الخليفة .

فـقال «الوليــد بن عــبد الملك»: أنا أردك إلى عــملك، وأحــسن إليك، وأُنَوِّهُ بك. . . !

فحلف « حسان » : لا ألى لبنى أمية أبدًا . . !!

قال ذلك يأسًا واقتناعًا . . .

يأسًا من العقوق[1] الذى قوبل به عمله وجهـاده . . ، واقتناعًا بأجره على الله تعالى .

***

الشهيد:

وأقام «حسـان» فى الشام شهورًا فى عـام ستة وثمانين ، ثم خـرج مع الجيش الإسلامى الذاهب إلى بلاد الروم فى آسيا الصغـرى «الأناضول » ، بقيادة «مسلمة ابن عبد الملك»، وهناك سقط «حسان» شهيدًا .

رحمـه الله ورضى عنه فقـد كان تابعيًـا جليلاً ، وسيـاسيًـا محنكًا ، وإداريًا حازمًا، وداعية حصيفًا [2]، وبطلاً شجاعًا ومفكرًا فذًا ، وقائدًا فاتحًا .

***

---

(١) العقوق : التنكر

(٢) حصيفًا : ذو رأى صائب.

٣- معاوية بن حديج

روى معاوية بن حديج[1] السكونى ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول : **غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**)[2].

***

ولقد تأثر «معاوية بن حديج» بما سمعه من رسول الله ﷺ فى فضل الجهاد فى سبيل الله وعظيم أجره ، حتى خالط مشاشة عَظْمه.

والذى يتتبَّع قصة «معاوية» بإمعان وتمحيص، يجد أنه كان يهوى الجهاد. . . ، ويفضل دائمًا أن يكون غازيًا فى ساحات الحروب، والمعارك على أن يكون واليًا فى ردهات القصور وباحاتها، مستمتعًا بنعيمها وزخرفها .

فصهوة الفرس عنده أعظم وأشرف من كرسى السلطة وسرير الملك .

كما أن المتتبع لحياته يراه دائمًا فى مركز «القيادة» والمسئولية العسكرية ، وقل ما كان تابعًا .

ويراه أيضًا ـ ظافرًا ناجحًا منتصرًا، لم يُهزم فى معركة قط .

ولقد وصفه صاحب كتاب «الولاة والقضاة» بأنه :(كان من أسود العرب).

***

والآن ـ عزيزى القارئ ـ هيا نستعرض معًا صفحات حياة وجهاد هذا الصحابى البطل، مستلهمين العبرة والعظة ، والقدوة الحسنة .

***

---

(١) جاء فى كتاب « الإصابة » أن اسم والد « معاوية » هو « خديج » بالخاء .

(٢) رواه « البغوى » كما أخرج له أبو داود والنسائى حديثًا فى السهو فى الصلاة ، وأخرج له أيضًا الإمام أحمد حديثًا مرفوعًا فى دفن الميت . (الغدوة : الخروج باكرًا والروحة العودة مساءً)

اسمه ونسبه ونشأته:

هو: «معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبرة بن حـارثة بن عبد شمس بن معاوية ابن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون» ـ السكونى ـ. يكنى بـ «أبى نعيم» وهو الأشهر ، وقيل: «أبى عبد الرحمن»[١].

وأمه: «كبشة بنت معدى كرب» وهى شاعرة من شواعر العرب المشهورين[٢].

***

وكانت نشأته فى «اليـمن» حيث تقيم قبيـلته «كنده» وقد اشتهـرت تلك القبيلة اليمنية ـ بمختـلف بطونها ـ بالشجاعة والفروسيـة وشدة البأس، وعلى هذا النسق تربى « معاوية » وعلى هذا المنهج سار ومضى.

***

إسلامه:

أسلم «مـعاوية» فـتى يافـعًـا، حين وفـد إلى «المدينة» على رسـول الله ﷺ، وصحبه، ولا يذكر التاريخ سنة إسلامه ووفوده، والأرجح أنها كانت «عام الوفود» فى السنة التاسعـة من الهجرة، لذا كانت صـحبته لرسول الله ﷺ قـصيرة، لكنه سمع وحفظ وتأثر ،وحسن إسلامه .

ومما أغفله التاريخ أيضًا سنة ميلاده .

***

وبعد انتـقال الرسول الأعظم ﷺ إلى الـرفيق الأعلى ، واستـخلاف «أبى بكر الصـديق» ـ رضى الله عنه ـ، ونشوب فـتنة الردة، فى أكـثر من صـقع من ديار العرب، واستعلان بعض القبائل بها، ثبتت قبيلة «معاوية» على الإسلام والإيمان، ثم جاءوا المدينة من «اليمن»،فرسانهم وشجعانهم، يعلنون الولاء التام، وينضوون تحت لواء القادة الذين جاهدوا المرتدين، ويبلون أحسن البلاء.

---

(١) جمهرة : أنساب العرب ـ الإصابة ـ تهذيب التهذيب ـ الاستيعاب ـ معالم الإيمان .

(٢) أعلام النساء ـ (عمر رضا كحالة).

جهاده ـ رضى الله عنه ـ :

ومنذ يومئـذ بدأت رحلة جهاد «مـعاوية بن حـديج» في سبيل الله ، واضـعًا نصب عينيـه ما استـقر فى أذنيه ، وصـميم فؤاده، من حـديث رسول الله ﷺ: **(غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)**

وبدأ يترقى. . .ويعلو . . . ويظهر نجمه ، ويتأطر اسمه فى لائحة القادة وحق لـ « الذهبى »[١] أن يلقّبه بقوله: « الأمير الصحابى قائد الكتائب » .

***

فى جيش «عمرو بن العاص» :

وتوجه «معـاوية» إلى الشام مع جيوش الفـتح التى سيرها الخليـفة «الصديق» ـ رضى الله عنه ـ، وكانت أربعة: جيش «أبى عبيدة بن الجراح»، وجيش «عمرو بن العاص» وجيش «يزيد بن أبى سفيان» ، وجيش «شرحبيل بن حسنة» ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ.

ولما تم النصر للمسلمـين على الروم فى معركة اليرموك ، اتجـهت قوات جيش «عمرو» إلى «فلسطين» ، جنوبًا ، كما اتجهت بقـية الجيوش الثلاثة شمالاً ، تحت قيـادة موحدة ، هى قيـادةِ «أبى عبيـدة عامر بن الجـراح» ـ رضى الله عنه ـ تتابع الفتح فى «الأردن» و «سوريا» و «لبنان» .

***

وخاض «عمرو» عدة معارك مع فلول الروم فى أرض «فلسطين » حتى تجاوزها إلى شبه جزيرة «سيناء» .

ولقد أدرك ـ وهو القائد الخبير ـ بأن الوجود الرومانى فى «مصر» سيظل مصدر خطر وقلق على الجـيوش الإسلامـية، فى ديار الشـام كلها ، فـعقد الـعزم على فتحـها، واستشار أمـير المؤمنين «الفاروق» ـ رضى الله عنه ـ فى ذلك، واسـتمدهُ بالجند، فباركَهُ وأمده ، ونصحه، وكان بطلنا «معاوية بن حديج» قد أظهر فى كل

---

(١) ميزان الاعتدال .

المعارك مقدرة فائقة ، وشجاعة بالغة وحسن رأيٍ وبلاء ، مما لَفَتَ إليه نظر القائد ـ « عمرو» فقربه منه وأدناه، وجعله من أركان حربه، ومعاونيه ومستشاريه.

***

البشير إلى أمير المؤمنين:

وتم فتح مصر . . . ، ولكن بعد معارك شرسة، وحروب طاحنة، ضد الرومان ،ولقد استعصت « الإسكندرية » بعض الوقت ، لكنها سقطت أخيراً فى أيدى المسلمين .

وبهذا تكون أكثر البقاع المصرية قد تطهرت من رجس الروم الذين كانوا يستبدون بأهلها ، ويستنزفون ما بأيديهم من أموال وأقوات .

واختار «عمرو» «معاوية بن حديج» ليكون رسوله إلى أمير المؤمنين «الفاروق » فى «المدينة» يبشره بفتح «الإسكندرية».

وهنا ـ عزيزى القارئ ـ نترك الكلام لـ «معاوية » نفسه ، يحدثنا بلسانه عن سفارته إلى «عمر» ـ رضى الله عنه ـ .

يقول « معاوية » :(بعثنى «عمرو بن العاص» إلى «عمر بن الخطاب » بفتح «الإسكندرية» فقدمت «المدينة» فى الظهيرة ، فأنخت راحلتى بباب المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل «عمر بن الخطاب» فرأتنى شاحبًا [1]، علىَّ ثياب السفر، فأتتنى وقالت :ـ من أنت ؟قلت :ـ أنا «معاوية بن حديج » رسول «عمرو بن العاص». . !

فانصرفت عنى، ثم أقبلت تشتد[2]، أسمع حفيف إزارها على ساقها، حتى دنت منى، فقالت: قم فأجب. . ! أمير المؤمنين يدعوك. فتبعتها، فلما دخلت فإذا بـ «عمر بن الخطاب» يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى [3]، فقال :

---

(١) شاحبًا : مصفرًا بسبب الضعف والإرهاق .

(٢) تشتد : تسرع فى مشيتها.

(٣) كناية عن الاستعجال والاهتمام .

ـ ماعندك ؟

قلت : ـ خير يا أمير المؤمنين. . ، فتح الله « الإسكندرية » . . .

فخرج معى إلى المسجد ، فقال للمؤذن : ـ أذن فى الناس «الصلاة جامعة».

فاجتمع الناس ، ثم قال لى : ـ قم فأخبر أصحابك .

فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ثم جلس ، فقال :

ـ يا جارية . . . ! هل من طعام ؟

فأتت بخبز وزيت ، فقال :

ـ كل . . .

فأكلت على حياء .

ثم قال :

ـ يا جارية . . . ! هل من تمر ؟

فأتت بتمر فى طبق ، فقال :

ـ كل . . .

فأكلت على حياء . . .

ثم قال : ـ ماذا قلت يا « معاوية » حين أتيت المسجد ؟

فقلت : ـ قلت أمير المؤمنين قائل[1] . . !

فقال : ـ لبئس ما قلت ـ أو : بئس ما ظننت ـ ، إن نمت النهار ـ لأضيِّعَنّ الرعية ، وإن نمت الليل لأضيعن نَفْسى فكيف بالنوم مع هذين يا « معاوية » ؟

***

يقول أستاذنا اللواء الركن «محمود شيت خطاب»:

---

(١) قائل : من القيلولة ، وهى إغفاءه ما بعد الظهر .

(إن إيفاد «معاوية» بشيرًا بالفتح، دليل على ثقة «عمرو» به، واعتماده عليه، وأنه كان شخصية لامعة فى جيش المسلمين الذى فتح مصر، فى جهاده وعقله ومنطقه وتصرفه.

كما أنه دليل على أنه كان مقبولاً من «عمر بن الخطاب» إذ لا يمكن أن يبعثه «عمرو» دون أن يكون موضع ثقة «عمر» وتقديره) ا.هـ .

***

غزو الشمال الإفريقى:

بعد هزيمة الروم فى «مصر» وانسحابهم منها، توغلوا فى الشمال الإفريقى الذى كان خاضعًا لسيطرتهم أيضًا،وحاولوا أن يثبتوا وجودهم هناك، ولعلهم كانوا يريدون الكرَّة على «مصر» منه، لاستردادها .

ولقد أدرك هذا الخطر القائد الخبير «عمرو بن العاص» ، وتيقن من ضرورة حماية «مصر» من خطر الروم أولاً ثم الانسياح فى الشمال الإفريقى ونشر الإسلام، ثانيًا . . . ، فالخروج الإسلامى من الجزيرة العربية لم يكن بقصد (الغزو) إنما كان من أجل (الفتح) . . !!

فكان «عمرو» يرسل الطلائع والجيوش متتابعة إلى «ليبيا» و«تونس»، وينازل الروم، فيهزمهم وينتصر عليهم. . ، ويمهد للوجود الإسلامى فى تلك الديار .

***

فلما كانت خلافة «عثمان بن عفان» ـ رضى الله عنه ـ ولّى على «مصر» «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» بدلاً من «عمرو بن العاص»، الذى اختلف معه.

ومنذ ذلك الحين بدأت تطورات جديدة فى حياة «معاوية بن حديج»، أبرزها على الصعيد العسكرىِّ غزواته المتتابعة للشمال الإفريقى، بقيادته . . وظفره وانتصاره .

***

وسام فى « النوبة »:

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن قيـادة « معاوية » وغزواته الخالدة فى الشمال الإفريقى، نريد أن نسجل موقفًا له .

لقد كـان أهل «النوبة» ـ وعلى الخصوص «دُنْقلة» ـ من أمـهر الرماة بالسـهام، وكيف أنهم أصابوا عـددًا من المسلمين فى عيونهم. .ولقد كان «مـعاوية بن حديج» فى جيش «عبد الله» حين غزوه لبلاد «النوبة» سنة إحدى وثلاثين، (٣١)هـ،وحمل «معاوية» يومئذ وسامًا، يشـهد له عند الله تعالى وعند الناس بصدق الإيمان وحسن البلاء، إذ عاد من تلك المعركة فاقدًا لإحدى عينيه. . !؟.

***

ولنتحدث الآن عن غزواته فى شمالى إفريقية، علمًا بأنها كثيرة، ولكن المؤرخين ركزوا على ثلاث منهـا اعتبـروها الأهم، مع اختلاف وتتـابع القائمين على شـئون الخلافة، من «عثمان» إلى «على» إلى «معاوية بن أبى سفيان» ـ رضى الله عنهم ـ .

● غزواته فى الشمال الإفريقى:

الغزوة الأولى

كـانت الغزوة الأولى سنة أربـع وثلاثين للهجـرة النبـوية (٣٤) هـ . فى زمن خلافة «عثـمان بن عفان» ـ رضى الله عنه، وحين كان «عـبدالله بن سعد بن أبى السَّرح» واليًا على «مصر» بعد «عمرو بن العاص» .

وكان مع «معاوية بن حديج» فى حملته تلك جماعة من المهاجرين والأنصار ، من صحـابة رسول الله ﷺ. فـفتح مناطق شاسـعة، وغنم غنائم عظيـمة، وبنى مساكن وبيـوتًا عند «القيروان» ـ وكانت تعرف يومئـذ بـ « القرن » ـ ،وأقام هناك مدَّة.

***

الغزوة الثانية

وفى سنة إحدى وأربعين للهجرة (٤١)هـ، كانت غزوته الثانية للشمال الإفريقى، وقد توغل فيها حتى بلغ « تونس»، وكان من أشهر أعماله فى تلك الغزوة فتح «بنْزرْت»، وهى ميناء بحرىٌّ مشهور لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا، ويعرف باسم «خليج بَنْزرْت».

ومما هو جدير بالذكر فى هذه الغزوة أنه كان مع «معاوية بن حديج» فى جيشه «عبد الملك بن مروان بن الحكم» ـ الذى أصبح من بعد خليفة .

***

الغزوة الثالثة

لمّا سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لـ «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» ولـ «معاوية بن حديج» أجبروا البربر فى الشمال الإفريقى على أن يعطوهم مثل ذلك، فاعتذروا لأن ذلك ليس فى طاقتهم ومقدورهم. . ، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم .

فوقع القتال بين خليفة[1] «جرجير» ـ ملك إفريقية الرومانى ـ وبين قائده، لاختلافهما على السلطة، وعلى طريقة وأسلوب التعامل مع البربر .

فهزم القائد خليفة «جرجير» . . ، ففر إلى الشام، وهناك اتصل بـ «معاوية بن أبى سفيان»، وكان قد أصبح خليفة ـ، وزين له الاستمرار فى فتح بقية الشمال الإفريقى واصفًا له خيراتها وثراءها، وعهد له بالتعاون معه، كما دله على عورات الروم. . ! فبعث «معاوية بن حديج» لفتحها، فغزاها سنة خمس وأربعين للهجرة (٤٥)هـ .

وقد وجه «معاوية» فى جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل، فيهم «عبد الله ابن عمر بن الخطاب» و «عبد الملك بن مروان» ـ كما سبق وذكرنا ـ، وجماعة من الصحابة والتابعين.

---

(١) خليفته : نائبه .

ومضى «معاوية بن حديج» في سيره وتوغله، وكانت البلاد تضطرم ناراً بالخلافات بين الروم أنفسهم، وبينهم وبين البربر. فنزل بجيشه على مدينة تسمى«قَمُونْيه» وهى «قيروان» إفريقية[1]، وكان عامل «جرجير» هو ملك «سبيطلة»[2] ومعه ثلاثون ألف مقاتل، قد وجههم إليه من «القسطنطينية» فى البحر، مددًا . . . لمدافعة المسلمين وصدهم عن الزحف .

فلم تغن عنهم كثرتهم شيئًا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. . ، إذ التقاهم «معاوية بن حديج » بجند الله عند حصن يدعى: «حصن الأجم » وكان مركزاً حربيًا هامًا للروم، فقاتلهم حتى هزمهم ، وفتح الله عليه وعلى من معه .

***

ثم بث السرايا . . .

إذ أرسل «عبدالله بن الزبير بن العوام» على رأس قوات إلى «سوسة» ففتحها.

كما بعث «رويفع بن ثابت الأنصارى » بحراً إلى جزيرة «جرَبة» «فى خليج قابس» التونسى، ففتحها أيضًا ، وأزال حاميتها ، ثم ارتد إلى «طرابلس» التى كان واليًا عليها.

وبعث ـ أيضًا ـ «عبد الملك بن مروان» إلى «جلولاء» ففتحها .

وهذا الجيش ـ عزيزى القارئ ـ يسمى «جيش العبادلة»، لوجود أكثر من صحابى وتابعى فيه تبدأ أسماؤهم بـ «عبد» كـ «عبد الله بن عمر بن الخطاب » و«عبد الله بن الزبير » و «عبد الملك بن مروان » و غيرهم .

***

آثاره هناك:

واستقر «معاوية بن حديج» فى جبل «القرن» ـ يعرف اليوم بجبل «وصلات» ـ، وجعله مقرًا له وأقام هناك ثلاثة أعوام .

---

(١) مدينة كانت موضع القيروان ـ (معجم البلدان) (٧ ـ ١٦٢) .

(٢) بين (القيروان) و (قفصه) ـ فى تونس ـ .

وبنى هناك ـ بناحية القرن ـ مساكن سماها : «قيروان»[1]، ومن أجل الحاجة إلى الماء احتفر آبارًا تسمى «آبار حديج» ما تزال معروفة إلى اليوم ، تقع خارج باب مدينة «تونس» ـ العاصمة ـ تنحرف إلى الشرق عند مكان يعرف بـ «مصلى الجنائز».

ومن المشهور المعروف أنه هو الذى أرسل «عقبة بن نافع» سنة خمسين لمتابعة الغزو والفتح فى الشمال الإفريقى، وهذا من مآثره فى حسن التقدير والاختيار، والصدق مع الله تعالى.

***

«معاوية بن حديج» و جزيرة «صقلية»

وكان «معاوية» ـ وهو فى مقامه فى «القرن» ـ قد تناهت إليه أنباء عن استعدادات «رومية» جديدة لغزو الشمال الإفريقى، فأراد أن يبث فى قلوبهم الرعب ويفاجئهم، فجهز مائتى سفينة، حشدها بالجند والذخيرة، والمؤن، وأمَّر عليهم «عبدالله بن قيس» أحد القادة الشجعان، وسيرهم فى البحر إلى جزيرة «صقلية».

وكانت غارة غير متوقعة ، فما أسهل ما هزم «عبد الله» حامية الجزيرة، وسبى من أهلها وغنم، وكان ممن أصابه أصنامًا من ذهب خالص ومن فضة مكلَّلة بالجوهر الثمين.

ولم تطل إقامته بجنده هناك، إذ عاد سريعًا إلى قاعدته فى الشمال الإفريقى، فقد كان يكفيه أن يقوم بهذه (الغارة) إيذانًا وإنذارًا للروم بمقدرة المسلمين على المبادأة[2].

المرحلة الثانية

تلك ـ عزيزى القارئ ـ كانت المرحلة الأولى من حياة «معاوية بن حديج».

تتبدَّى فيها أعماله العسكرية وفتوحاته، وجهاده .

---

(١) كما جاء فى «معالم الإيمان» (١ ـ ١١٤).

(٢) البيان المغرب (١ ـ ١٣)

ولكن هناك مـرحلة ثانية اختلـط فيهـا العمل السـياسى، بالعمل الـعسكرى، فرضتها عليه الظروف والأحداث، ولـم يكن له مفر من المشاركة فيها.

وهذه المرحلة تبدأ مع ظهور فتنة «ابن سبأ» والثورة على الخليفة الثالث، «عثمان ابن عفان» ـ ذى النورين ـ رضى الله عنه ـ واستشهاده . . !

وفى هذه المرحلة تضطرب المواقف وتختلط، من خلال الموالاة والتحالفات.

فبعض الصحابة والمسئولين من الولاة يقفون من الخليفة الشرعى موقف المؤيد، والبعض الآخر تجـرفه الفتنة العميـاء ، ويخبط خبط عشـواء ، ولا يكتفى بإعلان الرأى، بل يسل السيف وينضم إلى زمرة المقاتلين .

***

وكانت «مصر» مع الأسف بؤرة هذه الصراعات ، ومـصدر التآمر على الخليفة «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ.

وهذه جزئية هامة من التاريخ، القـريب العهد من رسول الله ﷺ لابد أن نلقى عليها الأضواء لتكون جلية أمام عينيك، ولتدرك من خلالها أن أشد ما يفتك بهذه الأمة ـ فى أى عصرـ هو التكالب على الدنيا ، والرغبة فيها .

***

لقد اسـتدعى «عثـمان» ـ رضى الله عنه ـ ولاته وعـماله من مخـتلف الأقاليم ليشـاورهم فى شئـون المسلمين، ويستنـصحهم فـيما يراه من زلزلة تـكاد تعصف بالأمة.

وكان «عـبد الله بن سعـد بن أبى السرح» ـ والى مصر ـ مـن أول المستجيـبين لدعوة الخليفة، فما أن خرج من «مصـر» حتى وثب «محمد بن أبى حذيفة» على السلطة وأعلن نفـسـه واليًا على مـصر، وكـان «محـمـد» هذا من أشد الشـائرين على«عثمان».

***

كما أن زمرة الثائرين خرج أكثرهم من «مصر» إلى المدينة بقيادة «محمد بن أبي بكر»، ليس بقصد النصح والتشاور، ولكن بقصد فرض الرأى على «عثمان».

ورضخ «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ لمطالبهم ، استرضاءً لهم، ووأدًا للفتنة، وأعطى «محمد بن أبى بكر» كتابًا يوليه فيه على «مصر» .

وفى طريق عودتهم إلى «مصر» تبين لهم الغدر بهم ، فقد كان الكتاب يحمل أوامر إلى الوالى «عبدالله بن سعد» أن يضرب أعناقهم جميعًا !! تخلصًا منهم .

فارتدوا على أدبارهم إلى «المدينة» وهم فى أعلى درجات الغليان والثورة، وحاصروا «عثمان» فى داره ، رغم تَبَرُّئِه من مضمون الكتاب، وأنه قد زوِّر عليه.

***

وما هى إلا أيام حتى دخلوا على «عثمان» فى داره وذبحوه، وهو يتلو كتاب الله تعالى . . ووقعت الواقعة، وتم لابن السوداء ـ عبدالله بن سبأ ـ ما كان يرسم له ويخطط من تمزق وحدة المسلمين، واستحلال بعضهم لدم البعض الآخر.

***

ونرجع إلى «معاوية بن حديج» . . .

فقد ثبت على ولائه لـ« عثمان» ، ولم يشارك، لا فى الرأى ولا فى الثورة عليه، ولقد اضطرته هذه المواقف أن يناصب «محمد بن أبى حذيفة» العداء، وقد التف حوله جنده، وغيرهم أيضًا . . ! خصوصًا بعد مقتل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ !

وحتى لا يقع بينه وبين «محمد بن أبى حذيفة» قتال، خرج بِمَنْ معه إلى الصعيد، والتف غربًا حتى بلغ «برقة» ثم ساحل الطريق حتى انتهى به المطاف إلى كورة قريبة من الإسكندرية تدعى «خربْتا»، فأقام بها، ومعه أصحابه وبعض الذين انضموا اليه.

***

تطورات جديدة:

وبويع لـ «على بن أبى طالب» ـ رضى اللـه عنه ـ بالخلافـة، فعين «قـيس بن سعد بن عبادة » واليًا على مصر .

غيـر أن والى دمشق والشـام «معاوية بن أبـى سفيـان» رفض البيـعة لـ «علىّ» وطالبه بالاقتصاص من قَتَلَةِ «عثمان» . . .

وظهر التـفسُّخ والتـمزق واضـحًا فى صفـوف الأمة، بين رجـالاتها ومـادتها وأقطارها .

***

وكان تعـداد الجيش الذى يقيم فى «خـربتا» يزيد على عـشرة آلاف من الجند، فيـهم بالإضافة إلى «مـعاوية بن حديج» القـائد، أُسود من أبطال المسلمين أمـثال «بسر بن أبى أرطأة» و «مسلمة بن مخلد» .

ولقد رأى والى مصـر الجديد «قيس بن سعد» بحكم بُعْـدِ نظره ووعيه، ودهائه أن لا يقاتلهم، بل يستميلهم إليه، فبعث إليهم يقول: (إنى لا أكرهكم على البيعة «لعلىّ»، وإنى كافٌّ عنكم .

فهـادنهم بهذا العهـد والوعد، وجبى الخراج من أهـل مصر عامـة، ليس أحد ينازعه.

كما كان يصلهم، ويجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمِّن سربهم، ويحسن إلى كل من يأتيه منهم.

هذا الموقف من قيس تجاه «معاوية بن حديج» ومن معه، لم يرض «عليًا»، فقد كان يريد أن لا تكون هذه القوة مـصدر خطر عليه، سواء فى مصـر، أو خارجها إذا ما تحركت. فطلب من «قيس» أن يقسرهم على الطاعة والبيعة. . . !

فكتب إليه «قيس» يقول :(إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ، وقد رضوا منى بأن أُؤمن سـربهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقـهم. وقد علمت بأن

هواهم مع «معاوية» ـ ابن أبى سفيان ـ، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذى أفعل بهم، وهم أسود العرب، منهم: «بسر بن أبى أرطأة» و«مسلمة بن مخلد» و«معاوية بن حديج » .

ويظهر لك ـ عزيزى القارئ ـ أن «قيْسًا» ـ رضى الله عنه ـ كان فى منتهى الحكمة، حيث يجمِّد هذه القوة الفاعلة بحسن التواصل ، بدلاً من أن تكون عليه حربًا.

***

لكن «عليًا » ـ رضى الله عنه ـ أبى على «قيس» هذا التصرف، وطلب إليه قتالهم ، فرفض «قيسْ» وكتب إلى «على» يقول: ـ (إن كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى)[1]

وبالفعل، فقد عزل «علىٌّ» «قيسًا » عن ولاية مصر وعين بدلاً منه «محمد بن أبى بكر» ومن هنا كانت قاصمة الظهر.

نصح «قيس» «محمدًا » قائلاً له: (دع «معاوية بن حديج» و«مسلمة بن مخلد»و«بسر بن أبى أرطأة» ومن ضوى إليهم على ما هم عليه ، تكشفهم عن رأيهم فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا فلا تطلبهم . .)

لكن «محمدًا» رفض نصيحة «قيس»وعمل بخلافها .

فكتب إلى «معاوية بن حديج» ، والخارجة معه يدعوهم إلى البيعة ، فلم يجيبوه ، فبعث رجالاً هدمُوا دور مؤيديهم ونهبوا أموالهم وسجنوا ذراريهم ، فبلغهم ذلك ، فنصبوا له الحرب، وهموا بالنهوض إليه . . . !

فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم ، وهادنهم ، فكَفُّوا عنه .

***

(١) الولاة والقضاة (٢١) الطبرى (٣ ـ ٥٥١ ، ٥٥٣) ابن الأثير (٣ ـ ١٠٧)

نرجو ثواب ربنا !!

بعد معركة «صفين» بين «على» و«معاوية»، أرسل«معاوية بن أبى سفيان» إلى «مسلمة بن مخلد» و«معاوية بن حديج» يستحثهما على المطالبة بدم «عثمان» - رضى الله عنه - . . . ويعدهما المواساة فى سلطانه !!!

فلما بلغهما كتاب «معاوية»، أجاباه :(أما بعد، فإن الأمر الذى بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمر الله تعالى ، أمر نرجو به ثواب ربنا، والنَّصر على من خالفنا ، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا).

وأما ما ذكرت من المواساة فى سلطانك فإن ذلك أمر ماله نهضنا ، ولا إياه أردنا، فعجل إلينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك، والسلام.

***

وتوالت الأحداث:

عندئذ أمر «معاوية» «عمرو بن العاص» أن يتجهز إلى مصر ، وبعث معه بستة آلاف من جند الشام .

فسار «عمرو» حتى نزل أدنى أرض إلى مصر، فانضم إليه «معاوية بن حديج» ومن معه، فلما قابلتهم قوات «محمد بن أبى بكر» أحاطوا بها، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم «ابن أبى بكر» ودخل «عمرو» بقواته «الفسطاط» [١].

وانطلق «معاوية بن حديج» يتتبع «محمد بن أبى بكر»، حتى ظفر به وقتله[٢].

الوالى على مصر:

وفى سنة أربع وأربعين للهجرة (٤٤) هـ، ولاّه «معاوية بن أبى سفيان » على مصر فأحسن الإدارة ، واضطلع بأعباء القيادة، وسجل صفحات خالدات .

---

(١) الولاة والقضاة (٢٨) .

(٢) البيان المغرب (١-١٨) ابن الأثير (٣-٣٨٤) الاستيعاب (٣-١٤١٤).

فقد سألت السيدة «عائشة» ـ رضى الله عنها ـ يومًا بعض رجاله، فقالت: كيف كان أميركم فى غزاتكم؟ (تعنى «معاوية بن حديج»).

فقالوا: ما نقمنا عليه شيئًا . . .

وأثنوا عليه خيرًا .

وقالوا: إن هلك بعير، أخلف بعيرًا، وإن هلك فرس أخلف فرسًا، وإن أبق[1] خادم أخلف خادمًا .

فقالت: أستغفر الله. . . إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخى «محمد بن أبى بكر»، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**اللهم من رفق بأمتى فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه**).

***

العزل:

وفى سنة خمسين للهجرة (٥٠هـ)، عزل «معاوية بن أبى سفيان» «معاوية بن حديج» عن الشمال الإفريقى، وولاه لـ «عقبة بن نافع الفهرىّ»، وأبقاه على ولاية مصر .

وبعد مضى عام واحد عزله عن ولاية مصر أيضًا .

***

الوفاة:

كانت «مصر» من أحب البلاد إلى قلب «معاوية بن حديج» فقد أمضى فيها زهرة شبابه وعنفوان رجولته، منذ أن دخلها مع «عمرو بن العاص» أيام الفتح، ولم يغادرها إلا غازيًا باتجاه الشمال الإفريقى للجهاد والفتح أيضًا.

---

(١) أَبَقَ: هرَبَ .

وكانت له فى إدارة شئـونها أيام ولايته عليها محـامد عظيمة، حتى إن شـعبها أحبه حبًا عظيمًا .

***

فلما عزله «معاوية بن أبى سفيان» عنها سنة إحدى وخمسين، آثر أن يقيم فيها وأن يستقر.

لكنه ـ كما يبدو ـ كان متألمًا حزينًا، فقد كان ما يزال قادرًا على العطاء، والبذل والجهـاد فى سبيل الله، فـارتد حزنه على نفسـه انهيارًا، ثم مـالبث أن توفاه الله تعالى سنة اثنتين وخمسين، ودفن فيها .

***

٤- عقبة بن نافع

هل تسمع بمدينة «القيروان» فى تونس ؟

إنها المدينة التى اختطها وأنشأها «عقبة بن نافع» ـ رضى الله عنه ـ، ومن ثم جعلها خط الدفاع الأول، وحصن المسلمين فى الشمال الأفريقى، وما تزال إلى اليوم قائمة تحمل فى مضامين أحيائها القديمة نفحًا من روح وعزم هذا القائد البطل .

***

نسبه وولادته ونشأته:

ولنعد إلى «عقبة» نسير معه مراحل ولادته ونشأته.

هو: «عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر» ـ القرشى ـ ؛فهو يلتقى مع رسول الله ﷺ عند جده الأعلى «فهر» .

أما أبوه «نافع» فكان من جملة المشركين الذين ناوؤا الإسلام وحاربوه، واشتدوا على أهله، ونفروا عن الهدى والنور، حتى أذن الله تعالى لبعضهم أن يسلموا ويحسن إسلامهم، ومنهم «نافع» الذى أسلم بعد فتح «مكة» ـ كما جاء فى بعض الروايات[١] ـ .

ولقد آذى «نافع» والد «عقبة» مع شخص آخر اسمه «هبار بن الأسود» ذات يوم «زينب» بنت رسول الله ﷺ إذ نخسا[٢] ـ مع غيرهما جملها وهى فى طريقها مهاجرة، وكانت حاملاً، فروِّعت وأسقطت ـ رضى الله عنها ـ .

هذا ـ نسب «عقبة» من ناحية أبيه، وهو ثابت على هذه الصورة.

---

(١) الإصابة : (٣ ـ ٥١٦).

(٢) نخس : وخز الجمل بالرمح ، فاضطرب وهاج.

لكن اختلف نسبه من ناحية الأم، فقيل هى سَبِيَّة من «عَنَزه» اسمها «النابغة» وعليه فهو أخو «عمرو بن العاص» لأمه[1].

وفى رواية أنه ابن خالة «عمرو بن العاص»[2]، وفى رواية أن «عمرو بن العاص» خاله[3]، وفى رواية أيضًا أنه ابن أخى «العاص بن وائل السهمى» لأمه[4].

وعلى كلٍ فإن قرابة «عقبة» من «عمرو بن العاص» ثابتة، وإن اختلفت فى طرقها .

أما مولده ـ رضى الله عنه ـ فقد كان قبل الهجرة بسنة [5].

وهناك رواية تقول بأنه ولد قبل وفاة النبى ﷺ بسنة[6]. ولا صحة لها ، وهى مردودة، لأن «عقبة» شهد فتح مصر مع «عمرو بن العاص» واختط بها [7].

وكان فتح «مصر» سنة عشرين للهجرة (٢٠)هـ، كما تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين فى فتح «زويلة» فى «ليبيا» سنة إحدى وعشرين!! فليس من المعقول أن يشهد «عقبة» غمار الحروب والمعارك وعمره عشر سنين!!؟؟ أو أن يتولى قيادة جيش وله من العمر إحْدى عشرة سنة. !!؟؟.

***

النشأة:

لقد نشأ «عقبة» فى بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكرى بحت، فحمل سلاحه مجاهدًا فى العصر الذهبى للفتوحات الإسلامية وبرز فى ساحات القتال متحملاً قسطه الأول فى الجهاد، بحرص واندفاع، وتجردٍ وإقدام.

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٢) المغرب فى حلى المغرب (١ ـ ١٩).

(٣) الإصابة : (٥ ـ ٨١).

(٤) سير أعلام النبلاء : (٣ ـ ٣٤٩).

(٥) الخلاصة النقية (٥).

(٦) البيان المغرب (١ ـ ٣) .

(٧) اختط بها : بنى وسكن .ولعل حى « ميت عقبة» فى ضواحى القاهرة ينسب إليه ـ والله أعلم .

نشأ ـ كما سبق وقلنا ـ فى بيئة إسلامية خالصة، فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ، ولم تصح له صحبة ، ويقال: له صحبة وهو رأى لا دليل عليه، وعلى كلٍ فهو صحابى بالمولد، وهو آخر من ولى المغرب من الصحابة[1].

كما أنه تولى منصب القيادة فى أيام الفاروق «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه ـ وكانوا لا يؤمرون فى الفتوح غير الصحابة[2]، وكان «عمر» لا يولّى إلا الصحابة، ولا يرضى أبدًا أن يعمل صحابى تحت قيادة غير صحابى.

ونشأ «عقبة» ـ أيضًا ـ فى بيئة ذات طابع عسكرى بحت، فأهله «بنو فهر» لهم ماضٍ معروف فى الحروب أيام الجاهلية، ولهم حاضر مشرف فى الفتح الإسلامى، وأقرباؤه ـ وعلى رأسهم «عمرو بن العاص» ـ هم أبرز قادة الفتح.

لقد تهيأ لـ «عقبة» الجو المناسب والظروف المناسبة، وكذلك البيئة المناسبة، فاجتمع فى تكوين شخصيّته: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائدًا من ألمع قادة الفتح الإسلامى على الإطلاق، خاصة فى الشمال الإفريقى كله، من حدود مصر إلى أقصى المغرب.

***

جهاده:

انضم «عقبة» إلى جيش «عمرو بن العاص» الذى فتح فلسطين، ثم شهد معه وإلى جانبه فتح «مصر» واختط بها ـ كما أسلفنا القول ـ فاكتسب ـ رضى الله عنه ـ من معارك فتح «مصر» ومن أساليب «عمرو» فى إدارة القتال وخططه خبرة عملية ـ وبرزت مواهبه القتالية والقيادية بصورة مبكرة ولافتة، مما جعله يتقدم الصفوف ويتولى عن كفاءة القيادة.

ففى سنة إحدى وعشرين للهجرة (٢١)هـ، بعثه «عمرو» على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة»، فافتتحها صلحًا، وكانت تقع فى أقصى الجنوب من «ليبيا»

---

(١) الاستقصا: (١ ـ ٦٩).

(٢) الإصابة: (٢ ـ ١٩٤).

وصار ما بين «برقة» على الساحل إلى «زويلة» سلمًا للمسلمين، قد أصبحت خالية من كل وجود روماني .

***

وكان «عمرو» قد كتب إلى الخليفة «الفاروق» ـ رضى الله عنه ـ يعلمه:

ـ (أنه قد ولى «عقبة بن نافع الفهرى» على المغرب، فبلغ «زويلة» وأن ما بين «زويلة» و«برقة» سلم كلهم، حسنة طاعتهم قد أدى مُسْلمهم الصدقة، وأقرَّ معاهدهم بالجزية).

وأنه (قد وضع على أهل «زويلة» ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعًا أن يأخذوا الصدقة[1] من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم).

***

من الغرب إلى الجنوب ..!

وحيث إن «عقبة» ـ رضى الله عنه ـ قد نجح نجاحًا عظيمًا فى تأمين الحدود الغربية لـ «مصر» رأى«عمرو» أن يستخدمه فى تأمين الحدود الجنوبية، ما بين «النوبة» إلى السودان .

فاستقدمه إليه، وأقرَّه على رأس جيش من المسلمين، وطلب إليه قصد «النوبة» وهناك لقى «عقبة» ومن معه قتالاً شديدًا، فانصرف عنها بناءً على توجيهات القيادة العامة فى «مصر» قيادة «عمرو بن العاص»، راجيًا أن تتاح الفرصة الأفضل فيما بعد. وبهذا يكون «عقبة» أول من مهد لفتح «النوبة»، على يد «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» .

ولم يكن «عمرو» ليترك الحدود الغربية من غير حماية . . ، فلقد قام بنفسه إلى «ليبيا » حين كان «عقبة» فى «النوبة»، خشية الانتقاض، أو الإغارة.

***

(١) الصدقة : الزكاة .

فى برقة ثانية، واليًا عليها:

عاد «عقبة» إلى برقة التى اتَخذ منها قاعـدةً لأية انطلاقةٍ نظرًا مستقبلاً فى عمق الشمال الإفريقى. . ، وأضحت من ثم أشبه بـ «الولاية».

وبعد أن تُوفى «عمـر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ مستشهدًا، تولـى «عثمان ابن عفان» الخلافة بناءً على اختيار أعضاء الشورى الستة له؛

وحدث بين «عمرو» و«عثمان» خـلافات، فحضر «عمرو» إلى «المدينة» ورفض العودة إلى الولاية على «مصْر»، فولَى «عثمان» «عبد الله بن سَعْد بن أبى السرح» مكانَهُ؛ وقد كان من قبل واليًا على «الصعيد» وَحده.

وأقرَّ «عبد الله بن سعد» ـ «عقبة» على قيادة حامية «برقة».

***

مع «ابن أبى السرح»:

سار «عبدالـله بن سعد بن أبى السرح» من مصر إلى الشـمال الإفريقى، على رأس جيش ضَخْم ، تعـداده عشرين ألفًا، سنة ست وعشـرين للهجرة (٢٦)هـ، فلما وصلوا إلى «برقة» لقيهم «عقبة» فيـمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية لـ «برقة» وانضم بعضهم إلى بعض، وقصدوا إلى «طرابلس ـ الغرب»، وهناك قاتلوا الروم، وانتصروا عليهم، وغنموا ما عندهم(١).

وشهـد «عقبة» فـتوحات «ابن السـرح» كلها فى الشمـال الإفريقى، وأبلى فى جهاده أعظم البلاء .

***

وبرز اسم «عقبة» أكثر فأكثر . . .

ولم يُغادر «برقـة»، بل ظل فيهـا على رأس حامـيتهـا، يحمى ـ كمـا قدمنا ـ الحدود الغربيـة لـ «مصر» فلا يدع الروم يهاجـمون «مصر» من اتجاه «ليبـيا»، وقد

---

(١) ابن الأثير : (٣ ـ ٣٤)

حافظ على تلك المنطقة محافظة بالغة، حتى فى أصعب الظروف وأخطر الأحوال.

***

فى البحر:

ومرت سنوات على «عقبة» ـ رضى الله عنه ـ تبدلت فيها رؤوس الحكم والسلطان، فقد استشهد «على» ـ رضى الله عنه ـ، وثبتت الخلافة لـ «معاوية بن أبى سفيان» بعد تنازل «الحسن بن على» ـ رضى الله عنه ـ عن المطالبة بها .

كما تغيرت القيادة على «مصر» فعُين على ولايتها «معاوية بن حديج السكونى» وظل «عقبة» ـ رضى الله عنه ـ فوق متن فرسه، وسيفه بيده، لا يهدأ ولا يكل عن الجهاد وتوطيد أركان الإسلام فى البلاد .

حتى إنه غزا الروم فى البحر مرتين إحداهما فى سنة تسع وثلاثين للهجرة (٣٩)هـ، والأخرى فى سنة تسع وأربعين .

***

عمرو بن العاص واليًا على مصر للمرة الثانية:

وكافأ «معاوية بن أبى سفيان» صديقه وحليفه «عمرو بن العاص» على مواقفه معه و مؤازرته له فى خلافه مع «على» ـ رضى الله عنه ـ فولاه على «مصر» للمرة الثانية بعد أن عزله عنها «عثمان بن عفان» ـ رضى الله عنه ـ.

انطلاقة الفتح:

كان «عقبة» كما سبق وعرفنا ـ يقيم فى «برقة» الخط الدفاعى الأول عن «مصر» ومعه حامية من المسلمين، لا يترك فرصة للروم أن يغيروا على مصر لاستردادها أو التفكير فى ذلك.

وكان نعم الأمير والقائد المسئول .

فلما عاد «عمرو بن العاص» إلى ولاية «مصر» استعمل «عقبة» على الشمال الإفريقى كله، وأطلق يده فى الفتح، وجهزه بالقوات والعتاد، وأمده بالجند على التوالى.

وبدأت مسيرة «عقبة» العظيمة..!

انتهى أولاً إلى «لُواتة» وهم قبيلة من أكبر وأشد قبائل البربر، وكانوا قد صولحوا من قبل، وظلوا على عهدهم حتى نقضوه أيام خلافة «معاوية بن أبى سفيان» فغزاهم «عقبة»، فاتجهوا فارين إلى «طرابلس» فتبعهم وقاتلهم هناك حتى هزمهم، فطلبوا منه الأمان، وأن يصالحهم ويعاهدهم من جديد، لكن «عقبة» بخبرته معهم جعلته يتوقف فى ذلك، ثم أبى عليهم، وقال لهم: (إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول فى كتابه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧] ولكن أبايعكم على أنكم توفون ذمتى، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بِعْناكم).

كما عقد «عمرو» لـ «عقبة» على «هوارة» وهى أيضًا من قبائل البربر، شديدة المراس، كثيرة العدد، قوية الشكيمة فراوغوا، هم و«لواتة» وأظهروا الطاعة والقبول، ثم كفروا..، فغزاهم «عقبة» سنة (٤١) هـ، فقتل وسبى.

وفى سنة اثنتين وأربعين (٤٢) هـ، افتتح «عقبة» «غدامس» - على الحدود الليبية الجزائرية - فى قلب الصحراء وقتل وسبى..

وفى سنة ثلاث وأربعين(٤٣)هـ، افتتح كورا من كور السودان[1]، وافتتح «ودّان» ثانية وهى من توابع إقليم «برقة».

وفى سنة ست وأربعين(٤٦) هـ، خرج حتى نزل «مغداش» بلدة قريبة من «سرت» على الساحل الليبى، وكانت «ودّان» قد نقضت عهدها الذى عاهدته من قبل سنة ثلاث وعشرين (٢٣)هـ، فترك «عقبة» جيشه فى «مغداش» واستخلف عليهم اثنين من قادته المعاونين «عمر بن على القرشى» و «زهير بن قيس البلوىّ».

وسار هو إلى «ودّان» فى أربعمائة فارس، وأربعمائة جمل، وحمل على كل جمل قربتين من الماء.

---

(١) ليس المقصود (السودان) الحالى ، ولكن قلب القارة الأفريقية من ناحية ليبيا والجزائر.

فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة، فحاربهم «عقبة» حتى أخضع البلاد بلدًا.. بلدًا. وقبض على ملكهم فجدع أُذُنَهُ، فقال: لم فعلت هذا بى؟: فقال «عقبة»: فعلت هذا بك أدبًا لك، إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب!!.

واستخرج منهم ما كان قد فرض عليهم من قبل: ثلاثمائة رأس، وستين رأسًا من العبيد.

***

هل من ورائكم من أحد؟

ولما استتب الأمر لـ «عقبة» فى بلاد «ودّان» سأل «عقبة» أهلها.

- هل من ورائكم من أحد ؟ فقيل له «جَرْمَه»[1].

فسار إليها فى ثمانى ليال من «ودان»، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام، فأجابوا فنزل قريبًا منها على ستة أميال.

وخرج ملكهم يريد «عقبة» فى موكب من الخيل والحرس، فأرسل «عقبة» إليه خيلاً حالت بينه وبين الموكب، ثم أمشوه راجلاً حتى أتى «عقبة» وهو فى غاية التعب والنصب..، فراح يبصق الدم..، وقال لـ «عقبة»: لم فعلت هذا بى وقد جئتك طائعًا؟؟ فأجابه «عقبة»: أدبًا لك..، إذا ذكرته لم تحارب العرب، ولم تفكر فى الانتقاض عليهم!! وفرض عليهم ثلاثمائة رأس وستين عبدًا .

ومضى «عقبة» من فوره لإنجاز فتح بلاد «فزان» حتى أتى على آخرها، ونشر الإسلام فى ربوعها، وهذه كانت أول مرة ، يدخل فيها جيش من المسلمين إلى تلك المناطق فاتحين.

***

(١) هى عاصمة ولاية «فزان».

(٢) تقع فى جنوبى «فزان» ، وهى من أكبر المدن هناك.

وسأل «عقبة» أهل «فـزان»: هل من ورائكم أحد؟ فقالوا: أهل خاور[٢]، وهو قصر عظيم على رأس المفازة[١]، فى وعورة على ظهر جبل..، فسار إليها «عقبة» فترة خمس عـشرة ليلة، فلما وصلها دعا أهلهـا إلى الإسلام فأبوا، وطلب منهم الجزية، فـامتنعـوا فى حصنهم، فـحاربهم وأقـام على حصـارهم مدة شـهر دون جدوى.

ثم تقدم يفتح بقيـة بلاد الإقليم، ففتحها واحـدة بعد الأخرى، ثم قبض على ملكهم وقطع إصبـعه..، فقال: ولم فـعلت هذا بى؟ فقال «عقـبة» أدبًا لك، إذا أنت نظرت إلى إصـبعك لم تحـارب العرب!!، ثم فـرض عليهم ثلاثمـائة رأس وستين عبدًا.

«عقبة» والصحراء:

وكان فى نية «عـقبة» أن يمضى قدمًـا فى مجاهل الصحـراء، فسأل أهل تلك المناطق: هل من ورائـكم أحـد؟ فقـال الدلـيل: ليس عندى بذلك مـعـرفـة ولا دلالة!!؟

فانصرف «عقبة» راجعًا..

فمر بقصر «خاور» الذى تركه من قبل، فلم يعرض له..، ثم سار ثلاثة أيام، مما جعل أهل الحصن يطمئنون، ففتحوا الأبواب..!

ماء فرس:

وأقام «عـقبة» بمكان يُدعى اليـوم «ماء فرس».. ولـم يكن به يومـئذ ولا قطرة ماء، فـأصابهم عطش شديد أشـفى بهم على الهلاك...، وصلى «عقـبة» ـ رضى الله عنه ـ ركعتين ودعا الله تعالى..!

فراح فرس «عقـبة» يبحث بقوائمه فى الأرض حتـى كشف صفاةً[٢]، فانفجر الماء منها، فجعل الفرس يمص ذلك الماء..، وأبصره «عقبة» فنادى فى الناس: أن

---

(١) أول الصحراء الإفريقية.

(٢) الصفاة: الصخرة الملساء.

احتفروا. . ، فاحتفروا سبعين حسيا(١)، فشربوا واستقوا ، وسمى ذلك المكان «ماء فرس».

ثم ارتد «عقبة» برجالهِ إلى حصن «خاور» فى طريق آخر، غير الذى سلكه إليه من قبل فلم يشعر به أهل الحصن إلا وقد طرقهم ليلاً. . فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا فى أسرابهم، فانقض عليهم، وأعمل فيهم السيف، واستباح ما فى المدينة من ذرياتهم وأموالهم، وقتل المقاتلة منهم.

لقد كانت عودة «عقبة» إلى «خاور» حركة بارعة طبق بها مبدأ المباغتة، إذ أطبق على أهل الحصن فى وقت لم يتوقعوه أبدًا. . ، و«الحرب خدعة» ـ كما قال رسول الله ﷺ، من غير غدرٍ ولا ظلم ولا فحش.

***

وكانت فترة غياب «عقبة» عن جيشه الأساسى فى «زويلة» خمسة أشهر، جال خلالها وصال، واستطاع أن يمهد للسلطان فى تلك الأنحاء على أحسن وجه وبأقل الخسائر وأعظم النتائج.

يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب» فى تعليقه على هذه الحركة من «عقبة»: (لقد أقدم «عقبة» على التغلغل فى الصحراء بقوات خفيفة، لأن الحركة فى الصحراء صعبة جدًا بقوات كبيرة، لِقِلَّة المياه فيها، ولأنه قدر أنه لن يصادف فى تغلغله قوات ضاربة كبيرة للعدو. . ، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال فى مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التى تتوفر فيها المياه، والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام «عقبة» غير قوات سكان الصحراء الأصليين، وهؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل «عقبة») ا.هـ.

***

(١) مفردها : حسْية ، وهى الحفرة القريبة العمق

باتجاه المغرب..!

ثم انطلق «عقبة» بقواته غربًا، وسلك طريقًا غير مأهول، مُتْجهًا إلى أرض قبيلة «هوارة» فافتتح كل حصن فيها..، ومضى بعدها إلى مدينة «صفر» ـ تعرف اليوم باسم «صفرد» وهى إحدى مدن شمال المغرب، فى قلب جبال أطلس الوسطى.

ثم بعث خيلاً إلى «غدامس» فافتتحها ثانية بعد أن انتقضت، ثم توجه إلى «قفصة» ـ إحدى مدن تونس المشهورة ـ، فافتتحها، ثم افتتح «قسطيلية» فى الشمال التونسى ،وبعدها عاد إلى «القيروان» .

***

«القيروان» من أعظم إنجازات «عقبة» ـ رضى الله عنه ـ:

والمقصود بقولنا: عاد إلى «القيروان»،عودته إلى «قمونية»، إذ لم تكن «القيروان» قد اختطت بعد، أو أنشئت.وكانت «قمونية» منذ أيام «ابن السرح» منزلاً لجيوش المسلمين، لأنها فى بسيط من الأرض، كثير المراعى، خصب التربة، كثير المياه.

لكنه لا يصلح من الناحية العسكرية، فيكون قاعدة أمينة، لأن بعض غير المسلمين كانوا يسكنونه مع المسلمين، وقد يكون بعض هؤلاء (طابورًا خامسًا)، وعينًا تتجسَّس على المسلمين، وفى هذا خطر شديد على المسلمين الذين دأبوا على الفتح والحركة فى كل اتجاه، توطئة لنشر الإسلام، فى كل ربوع الشمال الأفريقى.

قال «عقبة» لرجاله: (إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر).

فقال بعض أصحاب «عقبة»:

ـ قرِّبها من البحر ليكون أهلها مرابطين ..

فقال لهم: إنى أخاف أن يطرقها صاحب «القسطنطينية» فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مـالا يدركها معه صاحب البـحر ، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللُجَّـة حتى يسـتره الليل، فـهو يسـير إلى سـاحل البحـر إلى نصف الليل، فيخرج، فيقيم فى غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبدًا. . ، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير[1] فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر وميتهم فى الجنة.

فاتفق رأيهم على ذلك.

فقال: قربوها من السبخة . . .

فقالوا: نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها فى الشتاء وحرها فى الصيف. .

فقال: لابد لى من ذلك، لأن أكثـر دوابكم الإبل ، وهى التى تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بدٌ من المغـازى والجهـاد ، ونفتح الأول منهـا فالأول، فـتكون إبلنا على باب مصرنا فى مرعاها آمنةً من غارة البربر والنصارى .

فركب إلى موضع «القـيروان» اليوم. . ، وكان غيـضة كثيرة الأشـجار ، مأوى للوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه. وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليـهم من أسلم من البربر فأمر ببناء الـقيروان[2]، سنة خمسـين للهجرة (٥٠)هـ وأنجز بنـاءها سنة خمس وخـمسين، وبنى المسجد الجـامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

فأصبحت المدينة معـسكرًا للمسلمين وأهلهم وأموالهم، يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوِىَ جـنان من هناك من الجنود وأمنوا واطمأنوا، وثبت الإسلام فيهم.

***

(١) أى مسافة قصر الصلاة .

(٢) القيروان معناه فى اللغـة : مدينة أو معسكر وهو فارسى معـرب ، أصله كروان أو : كربان ، ومعناه : قافلة ، أو مراح القوافل.

وفي سنة خمس وخمسين هجرية (٥٥)هـ استعمل «معاوية بن أبي سفيان» على مصر وإفريقية «مسلمة بن مخلد الأنصاري» وعزل «عقبة» عن إفريقية، وعين «مسلمة» بدلاً من «عقبة» مولى له اسمه «أبو المهاجر دينار».

وأساء هذا الأخير معاملة «عقبة» فسجنه وقيده بالحديد، ولبث القائد في السجن بضعة شهور، حتى جاء كتاب «معاوية» بإخلاء سبيله، وإشخاصه إليه في دمشق.

فلما بلغها كان معاوية قد تُوفي[1]، وتولى«يزيد بن معاوية» الخلافة، فاستسمح «عقبة» مما أنزل به، وأعاده إلى عمله على الولاية، وأطلق يده .

عاد «عقبة» من الشام إلى إفريقية، حتى بلغ «القيروان» ومعه عشرة آلاف مقاتل، فلم يلبث بها سوى أيام، ثم تركها وفيها حامية كثيفة من الجند على رأسهم «زهير بن قيس البلوى» أحد قادته المشهورين.

وقبل الخروج دعا أولاده ووصاهم قائلاً: (إني قد بِعْتُ نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله[2] يا بني إني أوصيكم بثلاث خصال، فاحفظوها ولا تضيعوها:

(أ) إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه.

(ب) وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدَّين ذل بالنهار وهمٌّ بالليل.

(ج) ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا.

---

(١) ابن الأثير (٤ ـ ٤٢).

(٢) رياض النفوس (١ ـ ٢٢).

وعليكم سلام الله، وأراكم لا ترونى بعد يومكم هذا.

اللهُمَّ تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك[1].

وانطلق «عقبة» فى أكبر وأطول سياحة من مسيرة جهادِهِ..

سار «عقبة» فى عسكر عظيم حتى انـتهى إلى مدينة «باغاية»، لا يدافعه أحد، والروم يهربون فى طريقه يمينًا وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها، فقاتلهـم قتالاً شديدًا [2].

فانهـزموا عنه، وقـتل فيـهم قتـلاً ذريعًا، وغنم منـهم غنائم كثـيرة، واحـتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل «عقـبة» فنزل على «تـلمسان» ـ فى الجـزائر ـ وهى من أعظم مـدنها، فانضم اليها مَـنْ حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليـه فى جيش ضخم لَجِب، والتحم القتـال، حتى ظن المسلمون أنه الفناء ولكنهم هاجموا الروم هجـومًا عنيفًا حتى ألجأوهم إلى حصونهم فقاتلوهم حتى أبوابها، وأصابوا منهم مغانم كثيرة.

***

وسار«عقبة» إلى بلاد «الزاب» فسأل عن أعظم مدينة فى بلاد الزاب، فقيل له: «أربة» وهى دار ملكهم ـ العاصـمة ـ، وكان حولهـا ثلاثمائة وستون قـرية، كلها عامرة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل «عقبة» إلى «تاهرت» فاستغـاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم فقام «عقبة» فى الناس خطيبًا:

(أيها الناس، إن أشـرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنـزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان[3]، على من كفر بالله إلى يوم القيامة،

---

(١) رياض النفوس (١١ - ٢٢).

(٢) ابن الأثير (٤ ـ ٤٢).

(٣) يوم الحديبية .

وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم فى دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه، فأبشروا، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم - عز و جل - لا يسلمكم. . ، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين).

***

ويكفى - عزيزى القارئ - أن تعيد قراءة كلمة «عقبة» مرة ثانية لتتأكد من سمو الروح الإيمانى الذي كان متغلغلاً فى كيان «عقبة».

***

. . . والتقى المسلمون بأعدائهم، وقاتلوهم قتالاً شديدًا، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخيراً. . ، فانهزم الروم والبربر، وأخذهم السيف، وكثر فيهم القتْل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

***

وسار «عقبة» حتى نزل على «طنجة» فلقيه بطْريق من الروم اسمه «يليان»[1] فأهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه.

وأراد «عقبة» فتح الأندلس. . !

فقال له «يليان»: أتترك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك فى بحبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد؟

فقال «عقبة»: وأين كفار البربر ؟

فأجابه «يليان»: فى بلاد «السوس» وهم أهل نجدة وبأس.

---

(١) تحريف لـ « جوليان ».

فقال «عقبة»: وما دينهم؟

قال «يـليان» ليس لهم دين، ولا يعـرفون أن الله حق، وإنما هم كـالبهـائم. . (وكانوا على دين المجوسية يومئذ).

فـتوجـه «عقـبـة» فنزل على مديـنة «وليلى» بالقرب مـن «طنجة» بإزاء جـبل «زرهون» - بالقرب من «فاس»، وهى يومـئذ أكبر مدن المغرب، فيـما بين النهرين العظيمـين «سبُو» و«ورغة»، وهـذه المدينة المسماة اليوم عـلى لسان العامة «قـصر فرعون» فافتتحها «عقبة» وغنم وسبى.

***

وانتهى «عـقبة» فى غزوه إلى «السـوس الأدنى» - وهو مغرب «طنجة»- فـقاتل جمـوع البربر الكثيـرة، وقتل منهم قـتلاً ذريعًا، وبعث خـيله فى كل مكان هربوا إليه.

ثم سار حـتى وصل إلى «السوس الأقصى» وقـد اجتمع له البـربر فى عدد لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم.

وسار «عقبة» زاحفًا حتى بلغ «مالبان» فى أقصى بلاد المغرب عند شاطئ المحيط الأطلسى، ورأى البحر المحيط، الذى كان يسميه العرب «بحر الظلمات» . .

واندفع - كما تقول بعض روايات التاريخ - بفرسـه فى مياه البحر حتى بلغ الماء قوائم الفرس، ثم قال قولته الشهـيرة، التى ما تزال تتردَّد فى الأسماع إلى اليوم، شاهدةً على صدق جهـاد «عقبة» وبطولته وفروسيتـه، قال «عقبة»: (يا رب . . . لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك)[1] ثم قال: (اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهـود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كـفر بك حتى لا يُعْبد أحد من دونك).

***

---

(١) ابن الأثير (٢ - ٤٢ ، ٤٣) .

الشهادة:

رجع «عقبــة» باتجاه «القيروان» قاعدته الأمــينة الحصينة، الحبيبــة إلى نفسه. . ، فلما بلغ «طنجــة» أذن لمن معه من أصــحابه أن يتفرقــوا ويتقدموا إلى «القــيروان» فوجًا فوجًــا، للتَّخفُّفِ والراحة، ثقة منه بما نال من العدو، وثقــة منه بنفسه، وأنه لم يبق أحد يخشاه.

ومال «عقبة» بخيل يسيرة يريد «تهوذه»، وهم قبيلة من البربر يقيمون فى أرض تعرف باســمهم، وكــان معه حــوالى ثلاثمائة فارس. . . ، فلــما رآه الروم فى قلة طمعــوا فيه فــأغلقوا الحــصن وشتمــوه، وهو يدعوهم إلى الإســلام، ولم يقبلوا منه[1].

***

وبعث الروم سرًا إلى رجل زعــيم من البربر فى قوات «عــقبة» يدعى «كُسَيْلة» كان قد حارب المــسلمين من قبل ووقع أسيرًا، ثم أَظْهر الإســلام. . ، فدعوه إلى الانتقاض على «عقبة» والتحالف معهم، فأظهر ما كان يضمر من الغدر، ثم جمع أهله وبنى عمه، وقصد «عقبة».

فقال لـ «عقبة» أحد رجاله: (عاجله قبل أن يقوى جمعه !).

وهذا الرجل هو «أبو المهاجر دينار» الذى تولى على إفريقــية حين عزل «معاوية ابن أبى سفــيان»«عُــقبة» عــنها وهو الذى حبس «عــقبــة» وعَذَّبه قبــل إرساله إلى «دمشق».

وكان مع «عقــبة» فى قواته مقيــدًا بالسلاسل، استئــمانًا من غدره، يطوف مع «عقبة» فى كل تنقلاته وزُحُوفِهِ.

***

استمع «عقبة» إلى نصيحــة «أبى المهاجر» فزحف على «كسيْلة»، لكن «كسيلة» لم يواجهه، بل تنحى عنه، انتظارًا لوصول الأمداد إليه من قبيلته وأتباعه.

---

(١) ابن الأثير (٤ ـ ٤٣)

فلما رأى «أبو المهاجر» هذه الحركة العسكرية، وكان فارسًا بطلاً، مجربًا فى القيادة، تمثل بقول «أبى محجن الثقفى» - يوم القادسية - . إذ حبسه «سعد بن أبى وقاص» لشربه الخمر، وكان هو الآخر من الفرسان الأشداء:

كفى حزنًا أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدودًا على وثاقيا

إذا قمت عنّانى الحديد وأغلقت ... مصارع من دونى تَصُمُّ المناديا

فبلغ «عقبة» مقالة «أبى المهاجر» فأطلقه من قيوده وقال له: الحق بالمسلمين، وقم بأمرهم - أى الذين قصدوا «القيروان» -، وأنا أغتنم الشهادة !!!

فلم يفعل ذلك «أبو المهاجر»، بل قال: (وأنا أيضًا أريد الشهادة).

وكسر «عقبة» والذين معه أجفان[1] سيوفهم - كناية عن الاستماتة، والقتال حتى الشهادة - وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعًا. . ومعهم « عقبة» - رضى الله عنه - ورحمهم، وكانوا قرابة ثلاثمائة، من كبار الصحابة والتابعين.

***

استشهد «عقبة» - رضى الله عنه - سنة ثلاث وستين هجرية (٦٣)هـ، فى معركة «تهوذة »من أرض «الزاب» بـ«المغرب». وكان مولده - كما عرفنا - قبل الهجرة بسنة واحدة.

وقبره يزار بـ «الزاب»[2]، كما أنّ أجداث الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض «الزاب»، يزارون حتى يومنا هذا، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف بـ « مسجد عقبة »[3].

***

رضى الله عن البطل المجاهد، والفاتح العظيم «عقبة بن نافع الفهرى » وأكرم نزله ومثواه.

***

(١) أجفان السيوف : أغمادها

(٢) الخلاصة النقية (٥).

(٣) الاستقصا (١ - ٧٤).

٥- عبد الله بن سعد بن أبى السرح

كلمة لابد منها .. !

كى لا تلتبس عليك شخصية «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» ـ رضى الله عنه ـ بين فترتين من حياته، فتتأرجح الرؤيا عندك، وتتحير فى تحديد معالم تلك الشخصية، ثم يزيغ بك الرأى إلى هضم الرجل حقه، أريد أن أقدم لك مطالعة هامة، هى خلاصة رأى لرجل من رجالات الإسلام المعاصرين ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ، الذى صرف أكثر عمره وفكره، وخلاصة تجربته فى إبراز عدد جَمٍّ من قادة الفتح الإسلامى، شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، وغاص فى بطون التاريخ مدققًا باحثًا ليقدم لنا تلك النماذج، صافية نقية بما لها وما عليها .

يقول اللواء الركن :

(ينبغى أن نجعل حدًا فاصلاً بين «عبد الله بن سعد» فى إسلامه الأول و«عبدالله ابن سعد» فى إسلامه الثانى، لأن الوقائع تبيِّن أن الرجل يختلف كثيراً فى الدور الأول عنه فى الدور الثانى، فـ«عبدالله» الأول (كان) فتى يافعًا لا يكاد يحسن فهم الأشياء، فيستهين بشقة الرسول ﷺ، وتؤثر فيه دعايات قريش، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبى ﷺ، فلا يلبث أن يفتتن [١]ويرتد إلى الشرك ويلقى بنفسه فى أحضان قريش، ويقول فى نزق :

(كان يُمْلِي عَلَيَّ : «عزيز» حكيم، فأقول: أو« عليم حكيم»، فيقول : كُلٌّ صواب »[٢] . . !

فلا يبالى أن يفترى الكذب على رسول الله ﷺ **«مجاراة» لـ «قريش»** فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام .

---

(١) طبقات « ابن سعد » (٧ ـ ٤٦٩).

(٢) أسد الغابة (٣ ـ ١٧٣).

أما عبد الله الثانى . . . فجندى باسل، وقائد ممتاز، وإدارى حازم، وهو فوق ذلك وثيق الإيمان، كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته، حسن إسلامه ولم يظهر منه شىء ينكر عليه بعد ذلك[1]، وحسن حاله، يأمر بقراءة القرآن ويأمر بالصبر فى المعارك[2].

ويعتزل الفتنة الكبرى (بين على ومعاوية) ورعًا، وهو أحد العقلاء النجباء، من قريش، وفارس «بنى عامر بن لؤى» والمقدم فيهم .

ولما ولى «مصر» أحسن السيرة فى الرعية، وكان جوادًا كريمًا[3]، وكان محمودًا فى ولايته .

له مواقف محمودة فى الفتوح .

وقد أخطأ بعض المؤرخين فى الحكم عليه لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى، وهى ارتداده عن الإسلام، فأنكروا عليه كثيرًا من فضله ومزاياه قائدًا وإداريًا وإنسانًا) ا. هـ.

***

بعد هذه التوطئة، أو الكلمة التى كان لابد منها، أدعوك عزيزى القارئ إلى مطالعة سيرة وحياة «عبدالله بن سعد بن أبى السرح»، وأسأل الله تعالى - لى ولك - أن لا نكون من المفتونين الضالين، أو الظالمين. . ، والله يتولى الصالحين.

***

النسب والنشأة:

هو: «عبدالله بن سعد بن أبى سرح، أو (السَّرح) بن حبيب بن جذيمة بن حسل بن عامر بن لؤى - القرشى العامرى -. وكنيته : أبو يحيى .

---

(١) الاستيعاب - أسد الغابة.

(٢) تاريخ الطبرى (٣ - ٣٤١).

(٣) النجوم الزاهرة [٧٩١].

وكان اسم جده «أبى سرح» : «الحسام»، وكان من كبار المنافقين المشركين، وعدوًا لدودًا للإسلام والمسلمين .

أما أم «عبد الله» فهى أشعرية، من أشاعرة اليمن، اسمها «مهابة بنت جابر الأشعرى» وقيل هو اسم جَدَّتِهِ لأمه.

***

أرضعت «مهابة» «عثمان بن عفان» فنشأ هو و«عبد الله» أخوين من الرضاع، وكانت بينهما علاقات الأخوة، فى التواد والتعاون والتآزر والتراحم .

***

كما نشأ «عبد الله» فى مكة نشأة الفروسية حتى عُد من فرسان قريش المشهورين، فيه شجاعة وإقدام وبطولة .

***

إسلامه وارتداده !!

أسلم «عبد الله» قبل فتح «مكة» وهاجر إلى المدينة، وقد اختاره رسول الله ﷺ كاتبًا من كتاب الوحى وقربه وأدناه .

لكن «عبد الله» افتتن . . . !

حدثه شيطانه، ووسوس له، وزين له . . . ، فارتد عن الإسلام، وخرج ذات يوم من المدينة، فارًا إلى «مكة». . . ، إلى قواعده الأولى .

ويبدو أن «عبد الله» كان يومئذ وهو فى عنفوان الشباب ميالاً إلى حب الظهور، وقد استأثر به الغرور، فأراد أن يخالف ليعرف ويشتهر، أكثر وأكثر . . . ، فراح يشيع بين الناس أنه حرَّف فى القرآن الكريم ـ حاش لله وكتابه ـ فصدقه بعض الناس من المشركين، واستطابوا قوله وادعاءه .

وفى هذا الصدد نزل قـول الله تعالى ـ فى سـورة الأعراف: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وكذلك قـوله فى سورة الأنـعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

***

لكن هذه الفرية وأمـثالها، من «عبـد الله» فى طَيْشِهِ وغروره، ومن غـيره ممن دأبوا على الكفـر والبهتـان، تسفـعهم فى نواصـيهم، وتدحض أكاذيـبهم، الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولا نريد ـ عزيزى القـارئ ـ أن نسهب الكلام فى هذا المضمار، أو نعطيـه أكثر مما يستحق من الاهتمام مساحة .

***

إلى الإسلام من جديد:

هذه الواقعة الـسيئة من «عبـد الله» جعلت رسول الله ﷺ يهـدر دمه يوم فتح «مكة»، فقد عهد ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار ـ أربعة رجال وامرأتين ـ، هم «عكرمـة بن أبى جـهل «وابن خطل» و «مقـيس بن صـبابـة» و«عبـد الله بن سعد»، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، لائذين بها، بعد أن أمَّن جميع الناس، لما كان لهؤلاء النفر من شدة، وافتراء وظلم . ماذا يفعل «عبدالله» وقد أحس ـ فعلاً ـ مدى الظلم الذى ارتكبه، وأنه مقتول لا محالة ؟ لجأ إلى «عثمان بن عفان» أخيه

من الرضاع، واحتمى به، وأعلن توبته، ورجاه أن يشفع له عند رسول الله ﷺ.

وكان «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ حييًا ستيرًا . . .، وقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه رجل تستحى منه الملائكة .

فحن لـ «عبد الله» ورقّ له. . .، وظن فيه الصدق والخير. . .، فغيبه عنده وأخفاه عن العيون، ولما اطمأن الناس والمقام برسول الله ﷺ فى «مكة» جاء «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ ومن ورائه «عبد الله» إلى رسول الله ﷺ ليشفع له ويستأمن عليه.

وقال : يا رسول الله . . هذا «عبد الله بن أبى السرح» قد جاء تائبًا آئبًا، فبايعه . . ! فسكت رسول ﷺ ولم يجب، فكرر «عثمان» ذلك ثلاث مرات، ورسول الله ﷺ لا ينطق بحرف، بل ينظر فى وجوه أصحابه من حوله .

ومن ثم قال رسول الله ﷺ «نعم» :

فانصرف «عبد الله» وهو لا يظن أنه قد نجا من الموت المحقق، وأدرك أنه قد أخزى نفسه زمنًا فى استجابته لوسوسة شيطانه، وأنه لابد أن يكفِّر على ما كان منه إزاء عفو النبى ﷺ عنه، وهو القادر عليه .

من هنا ـ عزيزى القارئ ـ يبنى كثير من العلماء والمؤرخين آراءهم على حسن إسلام «عبد الله» بعد افتتانه، ويؤيدون رأيهم هذا بما كان فى سيرته ـ رضى الله عنه وغفر له ـ بعد ذلك، إلى أن فارق الحياة الدنيا .

***

وبعد انصراف «عبد الله» و«عثمان» من حضرة النبى ﷺ قال ﷺ لمن حوله : **(لقد صَمَتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه .. !)**

فقال رجل من الأنصار ـ وكان قد أقسم ليقتلن «عبدالله»: ـ فهلاَّ أومأت إلىَّ يا رسول الله !! فقال ﷺ: **(إن النبى لا يقتل بالإشارة)** (١).

---

(١) يعنى« غمزًا » أو « إيماءً».

الإسلام يجبُّ ما قبله:

ولم يقف الأمر مع «عبد الله» عند حد العفو .. ! بل بايعه رسول الله ﷺ على الإسلام، وكان مما قاله له : **(الإسلام يجب ما قبله)** [1].

ويروى: أن «عبد الله» كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه، خجلاً منه، وقد ذكر ذلك «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ لرسول الله ﷺ، فقال: **«الإسلام يجب ما قبله»** فكان «عبد الله» بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ ويسلم عليه[2].

ويقول صاحب «الروض الأنف» : أسلم «عبد الله» وحسن إسلامه، وعُرف فضله وجهاده، فأصبح وثيق الإيمان، كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته .

***

فى سبيل الله :

بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولى: «الصِّديق» ـ رضى الله عنه ـ الخلافة، ظهرت فتنة الردة، كأخطر قضية واجهت الإسلام الفتىّ ..

فثبت «عبد الله» على ما عاهد عليه الله ورسوله، وهذه ظاهرة تؤكد حسن إسلامه وصدق إيمانه، ونقاء توبته .

ولم يكتف بهذا الثبات وحده، بل انضم راضيًا إلى صفوف المسلمين الذين جاهدوا أهل الردة فى كل مكان .

وبعد أن قُضى على الفتنة قضاءً تامًا، جهز «الصديق» ـ رضى الله عنه ـ الجيوش لغزو الشام، بناءً على وصاةٍ من رسول الله ﷺ؛ وكانت أربعة، أحدها بقيادة «أبى عبيدة» والثانى بقيادة «شرحبيل بن حسنة» والثالث بقيادة «عمرو بن العاص» والرابع بقيادة «يزيد بن أبى سفيان»، أما القيادة العامة فكانت لـ «أبى عبيدة» ـ رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) الطبقات (ابن سعد) (٧ ـ ٤٩٧) والعبارة الشريفة ذاتها كانت قد قيلت لـ «عمرو بن العاص» يوم إسلامه .

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧ ـ ٤٣٤) .

وخرج «عبـد الله بن سعد» فى جيش «عـمرو بن العاص» وكان قـائد الميمنة، باتجاه فلسطين، فلما كـان اجتماع الروم فى «اليرموك»، وراسل القـادة الخليفة فى المدينة يخبرونه ويستمدونه ويستـشيرونه، أمرهم بالتجمع، وأرسل إلى «خالد» فى العراق يأمره بالتوجه إلى الشام مددًا لإخوانه . . .

ثم كان اللقاء الحاسم، والمعركة الفاصلة التى غيرت وجه التاريخ ومساره .

ولا نتحدث عن جهـاد «عبد الله»، فقد كان واحدًا من فـرسان المسلمين الذين بايعوا «خـالدًا» على الموت . . . ، وقلبُوا باندفاعـهم فى قلب جيش العدو مـيزان النصر لجانب جند الله .

***

إلى فلسطين، ثم إلى مصر :

وظل «عبـد الله» على ميـمنة «عمـرو» طوال أيام الفتح لمدن وقـرى فلسطين، وتطهير أرضها من رجس الرومان، ولقد أبلى فى كل معركة بلاءً حسنًا، مما تشهد له كتب التاريخ، وممّا قدمه على غيره من القادة والرؤساء والعرفاء .

وتقدم الجيش الإسلامى من بعد إلى حدود مصـر، وكان الوجود الرومانى فيها مصدر خطـر عظيم على المسلمين فى بلاد الشام، وكان لابد مـن غزوها. . ، وقد بين ذلك «عمـرو بن العاص» للخليفة «الفـاروق» ـ رضى الله عنه ـ، فلما أذن له وأمده، اندفع باسم الله وعلى بركة الله، وبتوفيق منه إلى الديار المصرية .

وكان «عمرو» ـ رضى الله عنه ـ يعتـمد اعتمادًا كبيرًا وبعيـدًا على كفاءة «عبد الله» ومقدرته، وبطولتـه وفروسيته . . ، فكان يرسله على رأس قوات خـفيفة إلى أطراف مصـر جنوبًا ليقضى على فلول الرومان، وليـثبت أقدام الإسلام فـى مصر بعد أن تم فتحها، من الفسطاط حتى الإسكندرية .

وكانت أكثر غزواته باتجاه الشمـال الإفريقى ـ ليبيا وتونس. . ، وكان يعود على الدوام غانمًا ظافرًا .

ثم اتجهت همة «عمرو» إلى الصعيد وبلاد النوبة، فأرسل «عبد الله» على رأس قوات إلى تلك المناطق، وأمده بالرجال والسلاح، واستطاع «عبد الله» ـ رضى الله عنه ـ أن يوطئ تلك الأماكن ويطهّرها ويحميها .

ومن ثم جاءت الولاية له على صعيد مصر من قبل الخليفة «الفاروق» ـ رضى الله عنه ـ وبقدر ما كان « عبدالله » قائدًا عسكريًا ناجحًا، قَلَّ أن يُهزم فى معركة، كان أيضًا حاكمًا إداريًا ناجحًا، فاستطاع خلال ولايته على « الصعيد » أن يضبط الأمور العامة وينظم الشئون، وينشر الإسلام، ويوثق الصلة مع الناس، دونما إجحاف أو ظلم، فأحبوه . . . وتعاونوا معه، ولم ينتقضوا عليه .

الوالى على مصر كلها :

وهذا دور جديد، وعظيم، فى حياة «عبد الله» . . !

فقد حدث بعد استشهاد الخليفة «الفاروق» ـ رضى الله عنه ـ وتولى «عثمان بن عفان» ـ رضى الله عنه ـ الخلافة أن حضر «عمرو بن العاص» من مصر إلى «المدينة» مبايعًا بنفسه، وحاملاً بيعة من وراءه وطلب إلى الخليفة «عثمان بن عفان» عزل «عبد الله» عن ولاية الصعيد، وضمها إليه هو على أن يكون «عبد الله» تابعًا. . ، فرفض «عثمان» ذلك وقال لـ «عمرو» :

ـ ولاه «عمر بن الخطاب» الصعيد، وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة، وقد علمت أنه أخى فى الرضاعة، فكيف أعزله عما ولاه غيرى ؟! .

فغضب «عمرو» وقال: لست راجعًا إلى عملى ذلك !!، فكتب «عثمان» إلى «عبد الله» يؤمِّره على مصر كلها، وقبل استقالة «عمرو»

ووَصَلَهُ كتاب الولاية وهو فى « الفيوم » .

***

وحين ولى «عبد الله» على مصر، بعث البعوث والسرايا وجرائد[1] الخيل باتجاه الشمال الإفريقى (ليبيا وتونس) فأصابوا وغنموا وأثبتوا وجودهم .

(١) جرائد الخيل : القوات الخيالة فقط ، ليس فيهم مشاة .

فكتب «عبد الله» إلى «عثمان» ـ أمير المؤمنين ـ يشرح له ذلك، ويخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين، واستأذنه فى غزوها، وبسط السلطان فوق ربوعها .

وقبل اتخاذ أى قرار، استشار «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ من عنده من كبار الصحابة فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية .

فجهز «عثمان» العساكر من «المدينة»، وأمد «عبد الله» بجيش عظيم، وخرج فى هذه الغزاة ممن حول «المدينة» خلق كثير [1]، وكان فى الجيش: «عبد الله بن عباس» و«عبد الله بن عمر بن الخطاب» و«عبد الله بن عمرو بن العاص» و«عبد الله بن الزبير » و«عبد الله بن جعفر » و«الحسن» و«الحسين». . ، لذلك سمى هذا الجيش «جيش العبادلة».

***

القائد الغانم:

وسار «عبد الله» بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفا من الجند، سنة ست وعشرين هجرية (٢٦) هـ إلى الشمال الإفريقى، فلما وصلوا إلى «برقة»[2] لقيهم «عقبة بن نافع الفهْرى» فى مَنْ معه من المسلمين ـ ولقد كان «عقبة» ومن معه حامية هناك ـ فساروا جميعًا إلى «طرابلس» ـ الغرب ـ، فقاتلوا من عندها من الروم، وانتصروا عليهم، وأسروا ونهبوا منهم .

ثم تقدم «عبد الله» بجيشه نحو الحدود التونسية، مُعمِّقًا فى الشمال الإفريقى، ثم بث السرايا فى كل اتجاه .

وكان ملك الروم وقائدهم هناك يدعى «جرجيريوس» ويمتد سلطانه من«طرابلس» إلى «طنجة». فى أقصى المغرب، أما عاصمة ملكه فقد كانت «قرطاجنة» فى تونس، وتعرف اليوم باسم «قرطاج»، وأما ولايته على هذا الشمال

---

(١) فتوح البلدان (البلاذرى) (٢- ٢٢٨)

(٢) برقة: إحدى مدن ليبيا الآن.

الإفريقى فقد كانت من قبل«هرقل» ـ قيصر الروم وملكهم ـ، وله عليهم الخراج فى كل سنة والطاعة .

***

ثم التقى جيش المسلمين بقيادة «عبد الله بن أبى السرح» بجيش الروم بقيادة «جرجيريوس» عند موقع يسمى «عقوبة» وكان عدد الروم يزيد على مائة وعشرين ألفًا من الجند .

فراسل «عبد الله» ملك الروم يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع . . وتكبر عن قبول أحدهما .

ومن ثم نشب القتال بين الطرفين فى معارك حامية شديدة، واستمرت الحرب أيامًا، ووصل إلى المسلمين مدد بقيادة «عبد الله بن الزبير» . . !

***

رؤية خبير ونصيحة عارف:

ورأى « عبدالله بن الزبير » أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر، فإذا ما أذن لصلاة الظهر، عاد كل فريق إلى خيامه ومعسكره .

كما أنه افتقد فى اليوم التالى «عبد الله بن سعد» فى المعركة . . ، فسأل عنه، فقيل له : إنه سمع منادى «جرجيريوس» يقول: من قتل «عبد الله بن سعد» فله مائة ألف دينار ـ وأزوجه ابنتى . . . وهو ـ أى «عبد الله» ـ يخاف [1]!! فأتاه «ابن الزبير» فى خيمته وأشار عليه بأن يأمر مناديًا ينادى : من أتانى برأس «جرجيريوس» فله مائة ألف دينار وزوجته ابنته واستعملته على بلاده » .

ففعل ذلك «عبد الله»، فصار «جرجيريوس» يخاف أكثر وأشد من «عبد الله». وقال «ابن الزبير» لـ «عبد الله» :

(إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم فى إمداد متصل، وبلاد هى لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال

---

(١) ليس المقصود خوف الجبانة بل خشية المغامرة.

المسلمين فى خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة. . ، فلعل الله ينصرنا عليهم).

فقبل «عبد الله» النصيحة والمشورة، واستحسنها . . ، ثم أحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم . . ، فوافقوا على ذلك .

وفى اليوم التالى فعل «ابن سعد» ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة، وحضر الباقون، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديدًا، فلما أذن للظهر، همَّ الروم بالانصراف كالعادة، فلم يمكنهم «عبد الله بن الزبير» وألَحَّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم وأرهقهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، وألقى كل من الطرفين سلاحه .

وكان التعب قد بلغ من الروم أقصاه . . ، ثم خرج « ابن الزبير» بمن كان مستريحًا من شجعان المسلمين وهاجم بهم الروم . . ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم .

وحملوا حملة رجل واحد . . وكبَّروا الله تعالى . . ، فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتى غشيهم المسلمون فى قلب معسكرهم. . ، وقُتِل «جرجيريوس» قتله «ابن الزبير». . ، وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأُخِذَت ابنة الملك « جرجيريوس » سَبِيَّةً .

***

وحاصر «عبد الله» مدينة «سبيطلة» (١)، ورأى فيها من الأموال مالم يكن فى غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار .

التوغل :

وبعث «عبد الله» جيوشه فى البلاد، فبلغت «قفصة» (٢) فسبوا وغنموا، كما

(١، ٢) فى تونس.

سير جيشًا إلى حصن يدعى «الأجم »، احتمى به أهل تلك البلاد، فحاصروه، ثم فتحه بالأمان .

وصالحه أهل تلك البلاد على مليونين وخمسمائة ألف دينار، يدفعونها سنويًا جزية .

وحمل بشائر هذا النصر كله « عبدالله بن الزبير » إلى الخليفة « عثمان بن عفان » - رضى الله عنه - ثم عاد « ابن سعد » إلى « مصر » بعد أن أمضى فى حملته تلك سنة وثلاثة أشهر .

***

وفى البحر أيضًا !!.

فى سنة ثمان وعشرين للهجرة استجاب «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - لإلحاح «معاوية بن أبى سفيان» - والى الشام - فى غزو «قبرص» وكان مِمّا قَالهُ له بعد موافقته :

- (لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم . . . ، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه).

فسار المسلمون من الشام إلى « قبرص »، فى أول غزوة بحرية. . . ، كما ركب إليها أيضًا « عبدالله بن سعد بن أبى السرح» من مصر، فاجتمعوا عليها، وتم الفتح، وصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة .

***

فى النوبة :

وكان «عمرو بن العاص» أثناء ولايته على مصر، قد حاول أكثر من مرة فتح بلاد «النوبة» [1]، على يد « عقبة بن نافع الفهرى » ولقد لقى المسلمون هناك قتالاً مريرًا، إذ كان أهلها ماهرين برمى السهام، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جُرح عامتهم، فانصرفوا عنها بجراحات كثيرة، خاصة فى حُدُق أعينهم .

---

(١) بلاد واسعة عريضة فى جنوبى مصر. أول بلادهم بعد أسوان، معجم البلدان (٨-٣٢٣).

ولم يصالحهم «عمرو»، ولم يزل يهاجمهم المرة تلو المرة.. حتى كان عزله عن ولاية «مصر»، وتولى «عبد الله بن سعد» مكانه. و«عبد الله» - كما سبق وعرفنا - كان واليا على الصعيد، وهو أقرب إلى بلاد «النوبة» وأدرى بها.

فلما وُلّى غزاهم سنة إحدى وثلاثين بنفسه، فقاتله الأشاوس من أهل «النوبة» قتالاً شديدًا وأصيبت يومئذ عيون كثير من جند المسلمين.

ولقد قال أحد الشعراء فى ذلك:

لم تر عينى مثل يوم «دنقلة» والخيل تعدو بالدروع مثقلة

وعلى الرغم من هذه الشدة، لم يكف عنهم، فسأله أهل «النوبة» الهدنة، فهادنهم وصالحهم على أنهم لايغزونه ولا يغزوهم، وأن يؤدوا كل سنة إلى المسلمين عددًا من السبى، ويؤدى إليهم المسلمون كمية من (القمح والعدس) وغيرها من البقول.

كما عقد لأهل «مقرة» إحدى مدنهم - بعد دخول جيش المسلمين «دنقلة»، عقدًا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان والأمان حتى حدودهم الجنوبية، وتكون «النوبة» مفتوحة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق يكونون فى خدمة الدولة الإسلامية.

وقد اختلط عدد من العرب بأهل «النوبة»، مما كان سببًا هامًا من أسباب انتشار الإسلام فى أهلها.

***

إلى إفريقية ثانية :

إن المتتبع لمسيرة الفتح الإسلامى فى الشمال الإفريقى سوف يلحظ كثرة الانتقاض أولاً، وطول المدة الزمنية التى استغرقتها المسيرة ثانيًا، بداية من انطلاقة «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» حتى «موسى بن نصير».

وسوف يلاحظ المتتبع أيضًا أن الشمال الإفريقى لم تهدأ ثائرته إلا بدخول قبائل البربر ـ السكان الأصليين ـ حوزة الإسلام.

أما الوجود الرومانى فقد كان يراهن على كل هذا مجتمعًا، فلما انخرطت قبائل «البربر» فى الدين الحنيف، وهضمته عقيدة وسلوكًا، انتهت المراهنة . . ، وانزاح عن البلاد ظل الاستعمار الرومانى، الذى كان همه الأوحد امتصاص جهد الناس وأموالهم واستنزاف خيرات البلاد .

أما الإسلام . . فقد حملهم بروحه السمحة على أن يكونوا عدته فى غزو الأندلس وفتحها، وتركيز الوجود الإسلامى فيها، وإشراقة حضارتها، على مدى قرون طوال .

***

عزيزى القارئ : كان لابُد من هذه الكلمة تمهيدًا للعودة إلى «عبد الله» فى انطلاقته الثانية إلى الشمال الإفريقى، رغم وجود حامية إسلامية فيها بقيادة «عقبة ابن نافع الفهرى».

تقول مجريات الأحداث : وفى سنة ثلاث وثلاثين هجرية أعاد «عبد الله» الكرَّة على إفريقية، حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم، وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرَّهم على الإسلام والجزية .

***

ويعلق بعض الخبراء العسكريين [1] على هذا فيقول :

لقد كان فتح «إفريقية» فتحًا «مستدامًا» بدون شك، ولم يكن «غارة» من الغارات .

أى ليس غزوًا يقصد منه السلب والنهب والغنيمة، بل تركيز وتثبيت الوجود العقائدى والسلوك الدينى، والنظام العام، وهذا مفهوم (الفتح الإسلامى) بكل معانيه وأبعاده .

---

(١) اللواء الركن (محمود شيت خطاب).

ذات الصوارى:

تعتبر معركة «ذات الصوارى» من أعظم وأشهر المعارك البحرية فى التاريخ القديم، ولقد أفاض المؤرخون فى الحديث عنها إفاضةً كثيرة واسعة، كما خصها بعضهم بالحديث .

ففى سنة أربع وثلاثين هجرية غزا «عبد الله بن سعد» غزوة «ذات الصوارى» فى البحر من ناحية «الإسكندرية» (١).

إذ خرج «قسطنطين بن هرقل» فى جمع من السُّفُن لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فقد خرجوا فى خمسمائة مركب (أو ستمائة) (٢)، يريدون العودة وبقوة إلى الشمال الإفريقى فلقيهم «عبد الله» فى البحر بمائتى مركب .

ومن هنا ـ عزيزى القارئ ـ سميت الغزوة بـ « ذات الصوارى » لكثرة، الصوارى التى احتشدت، والسفن التى تزاحمت، والجند التى كانت تحمل .

* * *

فحين علم «عبد الله» بخبر خروج الروم وقدومهم بحرًا بهذا الحشد الكثيف، قام بين ظهرانىِ الناس خطيبًا، فقال :

ـ بلغنى أن «ابن هرقل» قد أقبل إليكم فى ألف مركب، فأشيروا علىَّ !!

فما كلَّمه رجل من المسلمين .

ثم جلس «عبد الله» قليلاً لترجع إلى سامعيه أفئدتهم، ويستوعبوا مطمئنين إلى كلامه، ثم قام الثانية فكلمهم . . ، فما كلَّمه أحد . . ، فجلس . . ، ثم قام الثالثة فقال :

ـ (إنه لم يبق شىء . . . ، فأشيروا علىَّ !!)

فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعًا مع « عبد الله بن سعد » فقال :

---

(١) النجوم الزاهرة (١-٨).

(٢) الطبرى وابن الأثير أما صاحب النجوم الزاهرة فيقول بأنها كانت ألف مركب.

- (أيها الأميـر !! إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

عندئذ أعطى «عبد الله» أوامره بالركوب، والانطلاق قائلاً :

- (اركبوا باسم الله . .) فركبوا، وكان عدد مراكب المسلمين مائتى مركب .

كما قـدم أهل الشام فى مراكبـهم أيضًا بقيـادة «معاوية بن أبى سفـيان» مددًا، وظلت القيادة العامة لـ «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» .

وكان اتجـاه الريح لغير صـالح المسلمين حين واجـهوا الروم. . . ، فأمر «عـبد الله»، بإرساء السفن ولمِّ الأشرعة، وكذلك فعل الروم، وقال للروم : الأمان بيننا وبينكم، فرضوا، وبات المسلـمون ليلتهم يقرءون القرآن، ويصلون، ويتـهجدون، داعين الله تعالى أن ينصرهم على عدوهم، ويمدهم بمدد من عنده بالصبر والثبات وحسن المآب .

وأصبحوا جـميعًا . . . وقد أجمع الروم أن يقاتلوا فـقربوا سفنهم . . ، وقرب المسلمـون سفنهم. . ، فـربطوا بعضـها إلى بعض، وصف «عـبد الله بن سـعد» المسلمين على نواحى[1] السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر .

واقتـتل الطرفان بالسيوف والخناجـر، فقُتل من المسلمـين بشر كثيـر، وقُتل من الروم ما لا يحصى، وصبر المسلمون يومئـذ صبرًا لم يصبروا مثله فى موطن قط، فجُرِح «قسطنطين» ملك الروم وقائدهم فـى هذه المعركة، وانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد[2].

كما تعـرضت حياة «عبـد الله بن سعد» فى هذه المعركـة إلى خطر داهم، كاد يودى به، فـقد قرن مـركبـه بمركب من مراكب الروم، فكـاد مركب العـدو يجر

(١) نواحى السفن: أطرافها.

(٢) الطبرى (٣-٣٤٠ ، ٣٤١).

مـركب «عبـد الله» إليـهم، لولا أن أحـد رجالـه ضرب السلسـلة التى تربط بين المركبين بالسيف فقطعها، وبذلك نجا «عبد الله» من الموت أو الأسر [١]!!

ولقد أظهـر «عبد الله» فى معـركة «ذات الصوارى» بطولة فائقـة، تلك الغزوة التى أبعدت خطر الروم ـ بعد اندحارهم ـ عن مصر وبلاد الشام [٢].

***

الفتنة :

عاد «عـبد الله» إلى«مصـر» بعد معـركة «ذات الصوارى» سـنة خمس وثلاثين للهجرة (٣٥)هـ، وكانت المؤامرة التى نسج خيوطها وحبك فصولها « عبد الله بن سَبَأ » ـ اليـهودىّ ـ . . ، قد استـفحلت، وثار عدد لا يستهـان به من وجوه الناس على «عثـمان» ـ رضى الله عنه ـ واضطربت بعض الولايات، فاسـتقدم «عثـمان» ولاته إلى المدينة يستشيرهم ويستنصحهم .

فلما اجتـمعوا عنده قال لهم: (إن لكل امـرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقـتى، وقد صنع الناس ماقد رأيتم وطلبوا إلىّ أن أعـزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم !!).

***

وكان « عبد الله بن سعد » أقرب الولاة إليه، وكذلك« معاوية بن أبى سفيان » فاتفق رأيهما، مع غـيرهما على مبدأ وسياسة، وقـالوا لـ « عثمان » : (إن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم . . !![٣]

***

لكن المتآمرين الثائرين،وعلى رأسهم كبيرهم «ابن سبأ»[٤]. كانوا فى اتجاه آخر لا يرغبون مالاً ولا منصبًا، بل كانوا يهـدفون إلى قتل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ وإغراق المسلمين فى بحر من الفتن والدماء .

---

(١) فتح مصر والمغرب (ص - ٢٥٧).

(٢) النجوم الزاهرة (١-٨٠).

(٣) ابن الأثير (٣-٥٧) الطبرى (٣-٣٧٣).

(٤) ويعرف أيضًا بـ (ابن اليهودية)، وأيضًا بـ (ابن السوداء).

فما هى إلا أيام معدودات حـتى أحيط بـ «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ فى داره، ومنع عنه الماء والطعام، وحوصر حصـاراً شديداً . . ، وهو يرفض أن يستنجد بأىٍّ جند من المسلمين، سواء من الـشام أو من مصر أو أية جهة أخـرى، منتظراً قضاء الله تعالى .

ثم قُتل ـ رضى الله عنه ـ شهيدًا وهو يتلو القرآن . . !

ولقد همَّ «عـبد الله بن سـعد» أن ينجده فى الحـصار، من غيـر أن يطلب منه ذلك، وغادر«مصر» على رأس قوات من جنده باتجاه الحجاز،غير أنه حين علم بنبأ الفاجعة ارْتد إلى «مصر»

***

عزل « عبدالله بن سعد »:

وتمت البيـعة لـ « على » ـ رضى الله عنه ـ فكان أول مـا فعله هو عزل «عـبد الله» عن ولاية مصر وتعيين «قيس بن سـعد بن عبادة » مكانه، راغبًا فى أن تهدأ نفوس الثائرين، وتسكن الفتنة، التى كان مصدرها وأهم أسبابها فى مصر. . !

***

وقد تتساءل ـ عزيزى القارئ ـ : ما الذى جـعل « عبدالله بن سعد» يغفل عن المتـآمرين والثـائرين وهو الوالى على «مـصر». . ، وله من الصلة بـ «عـثمـان»، وحسن الدراية، والحزم ما يؤهله لقمعها ووأدها ؟ .

لقد كان «عبد الله» ـ كما سبق وعرفت ـ مندفعًا إلى جهاد العدو الرومانى على امـتداد الشـمال الإفـريقى كله، طوال سنوات ولايتـه، وكان قليـلاً ما يقـيم فى «مصر» .

وكان ـ رحمه الله وغفر له ـ مشـغولاً بتوطيد أركان الوجود الإسلامى فى تلك الأنحاء، أما الآخرون فكانوا مشغولين بفتنة « ابن سبأ »، والتآمر . . !

***

إلى المنفى:

خرج «عبد الله» من «مصر» بعد عـزله، وفى قلبه غصة، وفى نفسه حنين إلى أرض كانت أول مسرح وميدان لجهاده . . إلى «فلسطين».

وأقام فى «عسقـلان» وهى إحدى المدن الساحلية تقع قريبًا من «غـزة» معتزلاً، بعيـدًا عن الصراع الذى دار بـين «على» ـ رضى الله عنه ـ وبين «معـاوية بن أبى سفيان» حتى إنه لم يبايع لأحدهما، ولم ينصر فريقًا على فريق . . !

وهذه ـ ولاشك ـ محطة هامة وعلامة مميـزة، تؤكد صدق «عبد الله» مع ربه، واستخلاصه لذاته من بين براثن الهوى والغرض .

***

الوفـــــاة:

ولم يمض على إقامته فى « عسقلان » أكثرمن عام . . ، وقد تفاعل الأسى فى كيـانه وبين جوارحـه . . ، وكان يدعـو ربه: (اللهم اجعـل خاتمة عمـلى صلاة الصبح).

فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضـأ ثم صلى الصبح، فقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب و(العاديات)، والثـانية بأم القرآن وسورة . . ، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه سنة ست وثلاثين هجرية (٣٦)هـ[١].

ودفـن بمـوضع مـعـروف يقال لـه «مقـابر قـريش» بـ« عسقلان ».

رحمه الله وغَفَر له، وأبدَلَهُ من بعد خَوْفٍ أَمْنًا.

***

(١) معـالم الإيمان (١-١١٢) الروض الأنف (٢-٢٧٤) النجـوم الزاهرة (١-٣٨) تهذيب الأسـماء واللـغات (١-٢٧٠) شذرات الذهب (١-٤٤) الاستيعاب (٣-٩٢٠).

٦- نور الدين محمود

على مقربة من الجامع الأموى فى دمشق الشام، وعلى بعد خطوات منه، يرقد جثمان البطل «نور الدين محمود - آل زنكى» - رحمه الله -، فى مقام متواضع. . ، ورمس متواضع. . ، قد جلل بستارة خضراء ، يطل عليه الزائر من نافذة حديدية إلى جانبها سبيل ماء [١].

زقاق ضيق قد انتشرت على جوانبه حوانيت باعة المنسوجات القطنية .

أقف عند النافذة وأقرأ الفاتحة ، وأترحم على البطل، ثم أستذكر التاريخ، ولو للحظات قليلة .

أفعل ذلك كلما زرت دمشق العريقة - وكثيراً ما أزورها -، ذلك أنى بينى وبين نفسى لا أشعر بتمام الزيارة إلا إذا قمت بهذا الواجب !!!

فـ «سوق الحميدية» و «الجامع الأموى» و «قبر الشهيد نور الدين» و «سوق البزورية» و «قبر الناصر صلاح الدين» كلها وغيرها فى إطار مكانى متقارب، له عبق التاريخ . . ومجده العظيم. . ومنارته التى يطل منها . . ، ويتراءى لى كإنسان شامخ الرأس، مرفوع الهامة، يفرك يديه، ويعض على شفتيه، وتدمع عيناه، حسرة وحزنًا على واقعنا المرير، ويقول بأسى: أليس فيكم رجل رشيد ؟

إن من يستعرض الواقع التاريخى الذى كانت عليه أمة الإسلام ، وديارها ، من المشرق إلى المغرب، وعلى اتساع رقعة الأرض ، فى الوقت الذى برز فيه «نور الدين»، وانبثق من ضمير الغيب، يدرك أنه - رحمه الله - كان كالفجر المضىء أو كالصبح السافر بعد ليل طويل دامس .

كانت أمة الإسلام أشلاءً ممزقة، ودويلات مبعثرة، ومؤامرات وفتن ودسائس، تغلَّب فيها العنصر غير العربى على السلطة، وتحكم فى مجريات الأمور ، ولو أنه

(١) هو جزء من المدرسة (النورية » التى بناها « نور الدين »

تأصلت فيه روح الإسلام والإيمان وأضاءت جوانب نفسه، لهان الخطب وزال الخطر، لكنه - أى هذا العنصر - كانت تحكمه شهوة السلطة والاستبداد، رقيق الدين، ضعيف الإيمان ، قليل الالتزام .

ومن ثم أضحى الخليفة فى «بغداد» رمزًا . . ،فاقدًا لأهلية الحكم ، ليس له من الأمر شىء، قد كثرت من حوله (العصابات) . . ! فى «الموصل» وفى «حلب» وفى «فارس» الممزقة، و«خراسان» ، و«دمشق» . . ، وغيرها ، وغيرها .

والأنكى من ذلك وجود خلافة « فاطمية » فى مصر ، قد استغرقتها المذهبية ، والاستئثار بالسلطة ، وحب الشهوات .

ووجود خلافة «أموية» فى «الأندلس» تناثرت رقعتها قِطعًا بين «قرطبة» و«أشبيلية» و«غرناطة» و«طليطلة» ، تغترف من لذائد الدنيا ومتعها بلا حساب .

أما المغرب العربى فحدث عنه ولا حرج إذ تعصف به رياح الأثرة ، وجنون الحكم، وكرسى السلطة، من غير مراعاة لدين، أو خلق، أو ضمير .

***

ومن ثم - أيضًا - جاء الموج الصاخب من كل مكان فى «أوروبا » ، يغزو ديار الإسلام ، تحت شعار الصليب ، فاستمكن من الأرض والناس، واغترف من الثروات، وأسس ممالكه الأربعة، من أقصى شمال الديار الشامية حتى عمق جنوبها على الحدود المصرية ، سهلاً وساحلاً وجبلاً، من «الرها » و«أنطاكية» على تخوم آسيا الصغرى، إلى «القدس الشريف» و«عكا » و«الكرك». . !

***

من هذا الخضم المتلاطم، انبثق «نور الدين»، وطفا على السطح، ربانًا جديرًا بقيادة السفينة إلى شاطئ الأمان والسلامة، وعاش سنين حياته كلها فى جهاد

متواصل على جبهتين: فى الداخل والخارج، يوحد ويحرر، لا يهدأ ولا يستكين حتى يحقق الأمل المنشود .

***

ولعل شخصية البطل «صلاح الدين» ـ رحمه الله ـ قد نمت وترعرت ، ثم أزهرت وأثمرت ، وأعطت أكلها ، بفضل من الله تعالى أولاً وأخيرًا ، ثم بقسط من شخصية «نور الدين»، أو على حسابها . . !

فمن الإنصاف للتاريخ وحقيقته أن لا تطوى شخصية «المعلم» على حساب التليمذ فلكل دوره، ولكل نصيبه، ولكل حقه.

ونحن لا نغمط الحقيقة التاريخية سطوعها إذا ما قلنا بأن «نور الدين» قد وضع الأساس، وأن «صلاح الدين» قد رفع البناء، فى عمليّة تكاملية .

«نور الدين» ـ رحمه الله ـ شخصيّة نادرة، فى عمق الإيمان، فى الفقه والعلم، فى الحفظ والرواية، فى الزهد والورع، فى الإدارة والحكم فى بُعد النظر السياسى، فى القيادة العسكرية الفذة. . !

والآن ، هيا ـ عزيزى القارئ - نتصفح معًا سيرة حياة البطل «نور الدين محمود آل زنكى» ففيها العظة والعبرة والقدوة والأسوة .

***

الولادة والنسب والنشأة:

هو: محمود بن زنكى «نور الدين بن عماد الدين» بن آق سنقر. كان جده «آق سنقر» من موالى «السلجوقيين»، وهم عنصر زكى الأصل، كان لهم ـ بعد إسلامهم ـ باع طويل فى خدمة الإسلام ، وظهور سياسى وسلطان، ونفوذ قوى، استطاعوا من خلاله أن يؤسسوا ملكًا عريضًا ما بين «فارس» و«العراق » وشمال الشام ، على الرغم من وجود الخلافة العباسية التى أفل نجمها مع بزوغ وسطوع العناصر غير العربية، فى الإدارة والقيادة.

***

أمـا والده «زنكى» ـ الذى تلقب بـ « عـمـاد الدين» ـ فـقـد تقلَّب فى ظروف حياتية متباينة كانت العامل الأساسى فى بناء شخصيته الفذة الرائدة .

كان فى العاشرة من عـمره عندما قتل أبوه «آق سنقر»، فضـمه إليه قوام الدولة «كـربوقا» وقـال: « هو ابن أخى وأنا أولى بتـربيـته»، وضـم مماليكه إلى جنده، وأقطعهم الإقطاعات.

ثم توفى «كـربوقا » سنة ٤٩٦هـ، فـدخل «زنكى» فى خـدمة «شـمس الدين جكرمش» ـ صاحب الموصل ـ، وبقى معـه إلى أن قُتل سنة ٥٠٠ هـ ، وكان فى مرحلتى الطفولة والفتوة يتلقى مختلف فنون العلم ، درسًا وَحفظًا، ويتدرب على الفروسية والقتال ومقارعة الأبطال، وتتأصل فى ذاته أساليب الإدارة والحكم، كما أن نزعة الجهاد ضد الصليـبيين، الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيـها الفساد،كانت تتعاظم فى أعماقه يومًا بعد يوم.

ظل مقيمًـا فى « الموصل » يعمل مع أمرائها حتى صار فى عـداد فرسان شرف الدولة « مودود » السلجوقى، ومن رجاله الذى يعهد إليهم فى عظائم أموره .

وإلى صحبته الطويلة لـ «مودود» يرجع إيمان «زنكى» ـ «عماد الدين » ـ بقضيَّة توحيد الديار وجهاد الصليبيين وطردهم.

وكانت الشام نصب عينيـه وفى صميم قلبه لا يفتأ يذكرها، سـواء ما كان منها فى أيدى الصليبـيين أو بأيدى حكام من المسلمين الـذين لاهم لهم سوى السلطان على حساب أرواح الناس وأعـراضهم وأموالهم ، حتى إن جنده وأتباعـه لقبوه بـ «زنكى الشام» قبل أن يصل إلى الولاية بزمان بعيد .

وبقى «عماد الدين» طيـلة عقدين من السنين ركنًا من أركان الدولة السلجـوقية يتقلب بين أمرائها ، مـخلصًا ناصحًا وفيًا، لكنه فى آخر الأمر نازعـته نفسه الأبيَّة إلى أن يقول :

«قد ضجرنا بما نحـن فيه،كل يوم قد مَلَكَ البلاد أمير، ونؤمـر بالتصرف على أختياره وإرادته، تارة بالعراق، وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة وتارة بالشام » .

وفي عام (٥٢١)هـ، ولاه السلطان «محمــود السلجوقي» إمارة الموصل، وكانت منها البداية . . !

فأخــذ يرتب أمور الموصل ويضــم بلادها وأطرافها ويــوطد الأمن فيهــا وينظم شئــونها، وحين تهــيأت له الظروف والأســباب عبــر إلى «حلب» عام (٥٢٤)م، فاستولى عليها واستقر فيها ، وكانت أولى محطاته إلى الديار الشامية .

وفي نفس الوقت كان «عماد الدين » يشاغل الصليبيين من حين لآخر ، إظهاراً للبأس والقــوة، خاصة في « أنطاكيــة »، تلك المملكة التي كانت تعتــبر مع مملكة «الرها» البوابة الرئيسية لجند الصليبيين القادمين أفواجًا متتابعة من أوروبا .

لكن عينيــه كانتــا دومًا على «دمشق»، إذ لم يكن من المــيسور توحــيد الجبــهة الإسلاميــة في وجه الصليبيــين إلا إذا دخلت دمشق ـ وما بينها حــتى « بانياس » جنوبًا ـ في سلطانه وتحت يده، ولقد حــاول محاولات كثيرة في هذا الصــدد فما ترك قلعة ولا حصنًا ولا بلدًا إلا هاجمه، ومهد للوصول إلى « دمشق » .

وكان القضاء على مملكة «الرها »ـ الصليبية ـ أعظم إنجازات «عماد الدين »، وقد تم له ذلك عام ٥٣٩هـ،(وقد طربت شعوب العرب والإسلام للنبأ العظيم، وجرت به البشرى من بلد لبلد، فارتفعت الهامات وطابت النفوس واشرأبت إلى الجهاد).

وقد ساء ذلك الفتح العظيم بعض النفوس الضعيــفة ، فراحوا يكيدون لـ«عماد الدين» و يتوجَّسون من إخلاصه وجهاده سراً.

ومن ثم مضى «عماد الدين» غير عابئ بما يحاك له إلى محاصرة قلعة «جعبر»، وهناك كانت تنتظــره الشهادة، فبــينما هو نائم في خــيمتــه ذات ليلة إذ دخل عليه جماعــة من غلمانه، أوغرهم عليه خصــومه ، فوثبوا عليه، وطعنه كــبيرهم طعنة قاتلة، توفي على أثرها في اليــوم التالي، وكان ذلك في الســادس من ربيع الثاني سنة (٥٤١)هـ واختــفى البطل من الميدان ليقــوم بطل آخر، هو صاحب ترجــمتنا «محمود نور الدين بن عماد الدين »، ويكمل المسيرة.

***

«نور الدين» ـ محمود ـ عضد أبيه:

كان « نور الدين » ـ محمود ـ قد أتم الثلاثين من عمره يوم استشهاد أبيه «عماد الدين» وكان ساعده الأيمن فى معاركه ، منذ أن كان فتيًّا قد أتقن فنون القتال والفروسية، وأبلى فى الميادين بأحسن البلاء .

كما كان أقرب إخوته الثلاثة إلى قلب أبيه ، وهم «سيف الدين » ـ غازى ـ و«قطب الدين » ـ مودود ـ و«نصرة الدين» ـ محمد ـ ، لأنه تشبع بصفات أبيه كلها، فى بُعد النظر السياسى، وحسن القيادة للجند ، والتقوى والمواظبة على الفرائض، والعدل فى الحكم، والشجاعة والإقدام .

وبعد استشهاد « عماد الدين »عند قلعة «جعبر»، تفرق الأبناء، كل بقواته وجنده إلى الجهة التى كان واليًا عليها من قبل أبيه، فعاد «سيف الدين» ـ غازى ـ إلى «الموصل»،كما مضى «نور الدين » ـ محمود ـ إلى «حلب»واستقر فيها، وكان فى جملة جنوده « أسد الدين » ـ شيركوه ـ و«نجم الدين» ـ أيوب ـ والد «صلاح الدين» والأول عمه، وهذان الرجلان البطلان سيكون لهما الأثر البالغ واليد الطولى فى استتباب الأمر لـ «نور الدين»، واتساع ملكه ، وبسط سلطانه، وزعزعة ملك الصليبيين، والقضاء على وجودهم فى ديار المسلمين .

***

وأقام «نور الدين» فى «حلب» يوطد الأمن والنظام فى البلاد، ويحصنها تحصينًا شديدًا وقويًا، ولقد أحبه الناس فى كل المقاطعات وأخلصوا له، إذ وجدوا فيه الصورة المتجدِّدة من والده «عماد الدين».

ثم بدأ انطلاقه فى كل اتجاه ، يقض مضاجع الصليبيين، ودون هوادة، وكانوا قد أحسوا بالأخطار تتفاقم وتتعاظم، خصوصًا بعد زوال مملكة «الرها» .

فلجأوا إلى تدبيرين يحاولون من خلالهما تقوية وجودهم وتثبيت أركان ممالكهم، فأرسلوا إلى «البابا» فى روما والملوك فى أوروبا يستنجدون بهم ويستحثونهم، فراحت تتدفق على المشرق الإسلامى من جديد حملات الطامعين

والمغامرين والحاقدين، كما أكثر الصليبيون من إقامة القلاع والحصون فى ممالكهم ، فكان هذان الأمران من أسباب اشتعال الحروب، فى تواصل دائم لا ينقطع، ولقد عانى المسلمون المجاهدون أشد المعاناة من حرب القلاع، لأنها تستنفد وقتًا وتستنزف مالاً كثيراً، وكانت خطة «نور الدين» ـ القائد الخبير ـ أن يستنزلهم إلى الميادين .

***

ولقد قدر لـ «سيف الدين» ـ غازى ـ أن يرث مع القسم الشرقى من المملكة (الموصل)، مشاكلها ومتاعبها، مثل مطامع السلطان السلجوقى، وتطلعات الخليفة فى بغداد، وكذلك حماية الحدود الشرقية من غارات أصحاب الأمر فى فارس، وأيضًا الثغور الشمالية من عدوان أتراك آسيا الصغرى، والبيزنطيين . . ، فاستطاع بما حباه الله تعالى من صفات ومواهب أن يقوم بكل تلك المهام الصعبة وينجح فيها .

كما قدر لـ « نور الدين » ـ محمود ـ الذى استقر فى «حلب» أن يواجه وحده أخطر ما تعرضت له الدولة الإسلامية وبلادها وأقطارها ، ألا وهو الخطر الصليبى.

ولقد ظن بعض المهووسين وأصحاب المطامع أن هذا الانقسام بين الأخوين «سيف الدين» و«نور الدين» لا بد أن يؤدى إلى الاختلاف ، ثم الحرب. . ، لكن الرجلين خيبا ظن أولئك جميعًا.

وكان «أَنَرْ» صاحب «دمشق» الخبيث اللعين ، الذى باع دينه بدنياه، وهادن الصليبيين وتحالف معهم ، أول من سعى إلى الاستفادة من هذا الانقسام. إذ أسرع واستولى على «بعلبك»، وأرغم صاحب «حماه » على أن يدخل فى طاعته، وكانت تابعة لـ «حلب».

كما أن الصليبيين أنفسهم راودتهم تلك الظنون، فتقدم «رايموند» ، صاحب «أنطاكية» واكتسح بلاد «نور الدين» حتى بلغ أسوار «حلب» نفسها .

ولقد ظن «جوسلين» صاحب «الرها» سابقًا أن الفرصة مواتية لاسترداد مملكته الضائعة، فجمع جنده وسار بهم إليها، وتواطأ معه نفر من أهلها الأرمن، فتمكن من دخولها، ولكنه عجز عن اقتحام قلعتها..!

وكان «نور الدين»غازيًا فى نواحى «أنطاكية» فارتد على عقبيه مسرعًا إلى «الرها» فدخلها، وفر «جوسلين»..، فتبعه المسلمون وأوقعوا به هزيمة منكرة، قتل فيها نفر من قادته وحلفائه، وجُرح هو فى رقبته، فلجأ إلى «سميْساط» وتحصن بها.

***

«نور الدين» و «دمشق» و «بيت المقدس»:

وواتت الفرصة لـ « نور الدين » أن يدخل « دمشق » وينازل جيش مملكة «بيت المقدس» فى أرض « حوران » .

إذ إن «أنر» صاحب «دمشق» كان قد ولى على «بصرى» و«صرخة» من أعمال «حوران » رجلاً أرمنيًا دخل فى الإسلام حديثًا، لكن هذا الأرمنى حاول أن يستقل بما ولاه عليه «أنر»، وأرسل إلى «مليزاند» ملكة بيت المقدس يعرض عليها تسليمها ما بيده على أن يكون أمير المنطقة ، فاستجابت له وأرسلت جيشًا كثيفًا طمعًا فى الاستيلاء على «حوران» كلها .

عندئذ أرسل «أنر» إلى «نور الدين» يطلب مساعدته، ويعرض التحالف معه، وما أسرع ما لبى«نور الدين» الطلب، وترك منازلته لبعض حصون «أنطاكية»، وزحف على جناح السرعة إلى «دمشق».

ولم يكن يريد الاستيلاء عليها.. إلا إذا تنازل له «أنر»..، فقد كان فى طبع «نور الدين» أن لا ينازع حاكمًا مسلمًا،ولا يدخل فى حرب معه، ضنًا بأرواح الناس، وتمشيًا مع تقواه وتدينه .

ثم زحف مع «أنر» إلى «حوران » فاسترد «بصرى» و«صلخد» ودخل فى حرب تعددت معاركها مع جيش «بيت المقدس» الذى انهزم جنده وفر أكثرهم لا يلوون على شىء ، ولم يدركوا « بيت المقدس» إلا بعد هلاك أكثرهم .

وتأبى النفس الخبيثة إلا أن تسىء لمن أحسن إليها ، فما أن شعر «أنر» بالاستقرار حتى عاود الاتصال بمملكة «بيت المقدس» عارضًا التحالف معهم ومهادنتهم سرًا ، لكن «نور الدين» علم بذلك ، ثم تجاهله ، وعاد إلى «حلب» ليجهز نفسه وجيشه لمعاودة مقارعة حصون «أنطاكية» التى لم يكن ليكف عنها أبدًا، ساعيًا إلى إزالتها واقتلاعها ، كما فعل والده ، بـ«الرها».

***

الحملة الصليبية الثانية:

قاد الحملة الصليبية الثانية «كونراد» ملك ألمانيا و«لويس السابع ملك فرنسا »، وقد احتشدت معهما جموع كثيرة من مختلف دول أوروبا، وساروا فى طريقين، فقد سار «كونراد» برًا ولقى من الأهوال والشدائد الشىء الكثير، سواءً من البيزنطيين أو من مسلمى السلاجقة فى آسيا الصغرى، حتى استقر فى أنطاكية، كما سار «لويس السابع» بحرًا فى سفن حملته وجنده، ثم نزلوا على سواحل «أنطاكية» وهناك انضم بعضهم إلى بعض.

وأغرتهم كثرتهم على مناوشة «نور الدين» ، تمهيدًا للاستيلاء على «حلب»، والقضاء على دولة «نور الدين»، واستعادة السلطان كاملاً على الديار الشامية، فجهزا حملة من أجل ذلك، لكنها أبيدت واضطر هؤلاء إلى مراجعة حساباتهم، ثم قرروا أن يضربوا ضربتهم فى «دمشق» بدلاً من «حلب »، فالتقارير تقول بأن حاميتها وصاحبها «أنر» أضعف من أن يقفوا فى وجه جيوشهم . فساروا إليها. . . عاقدين العزم على فتحها .

ولقد تجلت نزعة الجهاد وروح الإسلام الوثابة كأروع ما يكون، فعلى مدى خمسة أيام من المعارك الطاحنة، أبرز فيها المدافعون والمجاهدون عن المدينة غاية ما يطيقون من الصبر والمصابرة والاندفاع والاستشهاد. . ، فلم تستطع الجيوش الصليبية أن تحقق أى ظفر أو نصر .

حتى إن موقف «أنر» صاحب المدينة تغير وتبدل ، فكان مجاهدًا حق الجهاد، يحث على القتال ويباشره أحيانًا بنفسه، مما شهد له به المؤرخون، وإن كان فى

نفسه ما يزال يخاف على سلطانه ، إذ لم يستنجد بـ «نور الدين» بل استغاث بأخيه «سيف الدين» صاحب «الموصل» .

لكن «نور الدين» زحف من غير طلب حتى بلغ «حمص»، تمهيدًا للوصول إلى «دمشق» والدفاع عنها .

ومع مضى الأيام الخمسة كانت قد أصبحت قوى الصليبيين فى غاية السوء، فانسحبوا باتجاه «بيت المقدس» مخلفين وراءهم الفشل الذريع، والقتلى والأسرى.

***

وما كادوا يبلغون «بيت المقدس» حتى عزموا على العودة من حيث أتوا، فرحلوا عن طريق البحر إلى أوروبا . . ، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية من قبل أن تحقق لنفسها سلطانًا، أو تبلغ هدفًا.

***

«نور الدين» صاحب «دمشق»:

كيف ؟ ومتى ؟..إن من يتتبع مراحل جهاد «نور الدين» فى مختلف الميادين، يدرك أن هذا القائد العظيم والبطل المُلهم كان يسعى إلى وحدة بلاد المسلمين وانصهار شعوبها فى بوتقة العقيدة والشريعة واستنهاض هممهم لدفع الصليبيين عن أرضهم المغتصبة، ويدرك أيضًا أن الرجل كان ذا همة عالية، ونفس أبية، وشجاعة نادرة، ومصابرة لا حد لها، تفوق التصور والخيال .

يقول الدكتور « حسين مؤنس » نقلاً عن مؤرخى العصر:

[لم يكفّ «نور الدين » شهرًا عن الخروج للغزو، كان أمن البلاد إذ ذاك معقودًا بنشاط الحاكم، فإذا توقف عن التجوال فى نواحى بلاده، والإلمام بالعواصم والمعاقل لم يأمن أن يخرج عليه بعض ولاتها، ولو كانوا أقرب الناس إلى الأمير، وكذلك الحدود. . . كانت سلامتها رهينة باستمرار المرابطة فيها وموالاة الغزوات منها فى أرض الأعداء ، لا هدنة تدوم، ولا محالفة تقعد العدو عن افتراس بلد حليف إذا أنِسَ منه تراخيًا عن الدفاع .

ثم إن أعداد جيوش « نور الدين » كانت تتزايد كل يوم ، وكل رجالها راغبون في الحرب، ناظرون إلى ما فيها من ثواب ومغانم، ولم يكن يستطيع أن يدع هذه الجموع خالية من العمل فترة من الفترات ، فما هو إلا أن يعود من غزوة حتى ينهض بالتي تليها، حتى أنهك هذا النشاط المتصل بدنه، وسار به نحو المشيب قبل أوانه.

وينبغي أن نذكر أن حملات هذه العصور كانت طويلة تستغرق الواحدة منها الشهر والشهرين ، ينقضي معظمهما على صهوات الخيل ، أما الراحة فلا تصاب إلا لمامًا ، ساعة هنا وساعة هناك ، بالليل أو بالنهار ، وأما النوم فكان في خيام جافية، مفتّحة الجوانب ، يحوم حولها الجند والفرسان والخيل والحرس والخدم، محدثين من الضوضاء ما يحول دون النوم المريح الذي يتطلبه البدن، وقد كان «نور الدين» زاهدًا في النعم، قلما يستريح إلى فراش وثير، وكان مهما استأخر به النوم لا يأذن لجنبه أن يمس الفراش إلا إذا صلى.. فأطال الصلاة، فقلت ساعات نومه ، وزاد جسده جهدًا، ثم إنه كان زاهدًا في الطعام فلا يصيب منه ما يكفيه إذ كان كغيره من أصحاب الرسالات يعيش بإيمانه وقوة روحه لا بجسده وقواه.. ، فلا عجب أن بدأت صحته تضعف، حتى بدا وهو فوق الأربعين بقليل وكأنه شيخ في الستين][1] ا.هـ.

***

ومع اقتراب موعده مع القدر في ضم « دمشق » إلى الديار المحررة ، كانت هناك عوامل تعيقه بعض الشيء منها :

١ـ ظهور القلاقل والاضطرابات في مملكته ، هنا وهناك ، سواء من بعض العاملين عليها، أو من محاولات الصليبيين في «أنطاكية» وبقايا «الرها» و«مملكة بيت المقدس» في التوسع واستعادة النفوذ .

٢ـ استمرار صاحب « دمشق » « أنر »في المراوغة والخداع، والتعاون مع الصليبيين كلما رأى نفسه ونفوذه في بلاده بحاجة إلى ذلك، ولو على حساب الدين والأمة .

---

(١) كتاب « نور الدين زنكي » للدكتور « حسين مؤنس » (ص : ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

٣ـ ظهور فئة (الباطنية) من الإسماعيلية وغيرهم، الذين كانوا من أخطر العناصر فى الجبهة الداخلية .

٤ـ سقوط ثغر « عسقلان » فى أيدى الصليبيين، وزوال سلطان الفاطميين عنه، وكان هذا الثغر العظيم من أهم الموانئ الإسلامية وأحصنها على الساحل الجنوبى من فلسطين.

***

إزاء هذا كله كان «نور الدين» مع اهتمامه بموقع «دمشق » على الخريطة الشامية يتأنى ويستعد، وينتظر الفرصة المناسبة .

وفى أثناء تلك الفترة توفى «سيف الدين» ـ غازى ـ صاحب « الموصل » ، وهو الأخ الأكبر لـ «نور الدين»، فبادر «قطب الدين» ـ مودود ـ الأخ الثالث، ليضع يده على البلاد ويتولاها، كما أسرع «نور الدين» إلى «الموصل» أيضًا ، ليس طمعًا فى إرث، ولا حبّاً بسلطان ، ولكن توخيًا لوحدة البلاد والعباد .

ولم يدخل «نور الدين» فى نزاع مع أخيه «قطب الدين»، إنما سعى إلى المصالحة فتنازل له عن حكم البلاد مباشرة، وعينه أميرًا عليها ، بشرط أن تكون الخطبة له، فاستقر وهدأت النفوس.

***

كما أنه فى أثناء ذلك ـ أيضًا ـ مات «أنر» صاحب «دمشق» الذى كان كالشوكة فى حلق «نور الدين» أو العقبة الكئود فى الطريق إلى مملكة « بيت المقدس » !!!

وتولى بدلاً عن «أنر» رجل مغامر أكثر سفاهة وخسة ، يدعى « مجد الدين » ـ آبق ـ ، فى عصبَةٍ من أشباه الرجال ، لاهم لهم سوى السلطان ولو على حساب الدماء والأرواح ، واستغلال البلاد، واستعباد العباد .

ولم يكن وصولهم إلى السلطة بالأمر الهين والمحسوم ، فقد نازعهم فى ذلك طوائف أخرى ، هم أشد منهم نزوعًا إلى السوقية، فكثرت المؤامرات، وسالت الدماء، وتخطف الموت رؤوسًا كثيرة ، وما زالت «دمشق» تغلى وتفور .

وعلى الرغم من هذه النزاعات، فإنهم جميعًا كانوا على أفجر ما يكون من الفجور، يتنازعون أمرهم بينهم، ويتسابقون فى التنافس على موالاة الأعداء، أعداء الدين والملة، ولكنهم كانوا يتحدون إذا ما ظهر فى الأفق (خطر) «نور الدين» !!!.

***

هذه الصورة كانت واضحة فى ذهن « نور الدين » ، فاتَّبع فى معالجتها منتهى الحكمة والذكاء .

واستعدَّ «نور الدين» لـ «دمشق»، وأعد قواته وخطته، ثم زحف، وكان همه الأكبر أن يكسب الرأى العام إلى جانبه، ليكون عونًا له على الخلاص من الطغمة الحاكمة، وعصابة المرتزقة، وبدلاً من أن يتوجه إلى « دمشق » نفسها قصد إلى جنوبها ، إلى «حوران» لملاقاة الصليبيين .

ذلك أن قوات مملكة «بيت المقدس» كانت قد توغلت فى أرض « حوران » ، فأسرع البطل ليدفعهم عنها ويردهم ، وكان ذلك فى أواخر سنة (٥٤٥) هـ .

ومن أجل إحكام خطته فى تأليب الرأى العام فى «دمشق» على حكامها الغاضبين ، أرسل إليهم وهو فى الطريق أن يمده بألف فارس مع قائد يعتمد عليه، وكان «نور الدين» يعلم تمامًا أنهم لن يستجيبوا له . . وكان أيضًا بغنىً عن هذه القوة ، فلديه من القوات والجنود والعدة ما يكفى ويزيد . . !

فأساءوا الرد وأغلظوا فى الكلام، وبهذا التصرف الحكيم أظهرهم للناس على حقيقتهم، ولم تكن خافية، ولكنها زادت فى اتساع الخرق بين الشعب وحكامه.

واستمر فى طريقه إلى «حوران»، فلما أحس الصليبيون بقدومه وجرأته، تراجعوا وانسحبوا، من غير مواجهة ولا قتال .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن أحوال الممالك الصليبية قد ساء كثيرًا بعد فشل الحملة الثانية، التى رحلت بخفى حنين عن البلاد، وتضعضعت أمور تلك الممالك، سواء من الناحية الأمنية، أو السلطوية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية.

***

ثم كر راجعًا إلى «دمشق» فلما اقترب منها أصدر أوامره إلى جنده أن لا يمسوا شجرة، أو يفسدوا زرعًا، وأغدق على الفلاحين المحيطين بتلك المنطقة الأقوات والأموال، للتخفيف عنهم، ورفع معنوياتهم، وكسب ودهم، فهفت إليه القلوب ولهجت الألسنة بالدعاء .

ومن المصادفات العجيبة أن المطر الذى كان قد انحبس عن تلك المنطقة زمنًا نزل مدرارًا مع قدوم «نور الدين»، فكان فألاً حسنًا على البلاد والعباد .

***

وكان نزول «نور الدين» بقواته فى مكان يُدعى «منازل العسكر» على بعد أربعة أميال من «دمشق» المدينة، ومن هناك كتب إلى «مجير الدين» - آبق - وأصحابه كتابًا قال فيه:

(إننى ما أردت بنزولى هذا المنزل طلبًا لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل «حوران» والعربان (البدو) بأن الفلاحين أخذت أموالهم، وسُبِيَتْ نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعنى - مع ما أعطانى الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال - أن أقعد عنهم، ولا أنتصر لهم، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم ومقاطعاتكم والذب عنها، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتى، وبَذْلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعيَّة ظلمًا لهم وتعديًا عليهم، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدًا من المسلمين ولابد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر «عسقلان» و«غزة» .

***

وكان الرد منهم :

(ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا).

مما دعا «نور الدين» إلى الإصرار على الخلاص منهم والتعجيل بذلك ، مهما غلت التضحيات .

***

وإزاء هذا الإصرار رأى «مجير الدين» - آبق - ورجاله أن يكتبوا إلى «نور الدين» طالبين الاجتماع به والتفاوض معهم، وكانوا بذلك يريدون كسب الوقت من ناحية ، والغدر من ناحية أخرى .

ولم يكن «نور الدين» من الذين تغرهم المؤامرات والدسائس، أو تفوت عليه مثل هذه المكائد والحيل، فرحب بهم ، واجتمع إليهم، وكان طلبهم الوحيد: أن يدخلوا فى طاعته بشرط أن يمكثوا حكامًا على البلد . . !! فوافق من حيث المبدأ.

وكان أهل المدينة قد اغتنموا الفرصة فخرجوا جماعات غفيرة ليلقوا «نور الدين» ، ويشرفوا بطلعته. . ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم، واختص طلبة العلم وقراء القرآن الكريم وضعفاء الناس بعطفه وإحسانه ، ولم يكن منه هذا تزلفًا وإنما طبعًا أصيلاً فى أعماق ذاته وإيمانه وحسن خلقه .

وما كاد «نور الدين» يعلن نفير الرحيل عن «دمشق» حتى عاود «مجير الدين» - آبق - وزمرته - الاتصال بالصليبيين، يمدّون لهم يد المودة، ويدفعون الأموال ، ويأذنون لهم بدخول البلد . . !

فعاد «نور الدين» من حيث وصل، ولم يكن قد ابتعد كثيرًا، وأقام معسكره، وبعث إلى «مجير الدين» - آبق - وعصابته يقول: (أنا ما أوثر إلا صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص ما فى أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معى فى عسكر «دمشق» وتعاضدنا على الجهاد، فذلك هو المراد).

فردوا بالرفض، ومضوا يبعثون جماعات من جندهم تفسد الزروع المحيطة بالبلد، حتى لا يستعدى بها «نور الدين» - على حد زعمهم وسوء نواياهم -، كما استنجدوا بالصليبيين، فأسرعوا إليهم.

وقد استطاع ملك «بيت المقدس» «أموري» أن يدخل «دمشق» مع نفر قليل من فرسانه، ويجتمع مع الطغمة الحاكمة للتشاور والتعاون .

لكن «نور الدين» بادر فأرسل فرقة من جيشه قوامها أربعة آلاف فارس ليردوا عسكر «بيت المقدس»، فأوقفوهم عند «بصرى» وردوهم .

ثم اقترب «نور الدين» بباقى قواته من المدينة أكثر من ذى قبل، وهو يحاول تجنب قتال المسلمين، وطال مقامه خارج الأسوار حتى سنة (٥٤٩)هـ .

وساءت الأحوال داخل المدينة إلى حد ينذر بالثورة، ومما زاد فى تأججها أن «مجير الدين» ـ آبق ـ قد أذن لرجال الصليبيين بالبحث عن أسراهم داخل البلد، فمن أحب المقام منهم تركوه، ومن أراد العودة إليهم أخذوه. . ، هكذا. . وبمنتهى امتهان كرامة الشعب المسلم ، وتضحياته، وأرواح شهدائه !؟.

عندئذ انفجر الموقف، وثار الناس على «مجير الدين» ـ آبق ـ، فحصروه فى القلعة مع رجل من مؤيديه، يدعى«مؤيد الدين بن الصوفى» .

فكتب إليه «نور الدين» يلومه ويؤكد له أن رحمته ما زالت تتسع للعفو عنه وإكرامه إذا هو أسلم البلد .

وقد عرض عليه مواقف أصحابه الذين يراسلونه سرًا، ويبدون استعدادهم للانقلاب عليه، ومعاونة «نور الدين». .

فماذا كان من شأن هذا الطاغية ؟

كان يلقى القبض عليهم واحدًا بعد الآخر، ثم يقتلهم ، حتى لم يبق حوله أحد.

الضربة القاصمة:

ومن ثم أقدم «نور الدين» على خطوته الأخيرة ، والنهائية ، فأمر رجاله أن يتصلوا بمؤيديه وأنصاره داخل «دمشق» ليقوموا بالوثبة الأخيرة، فثار أهل المدينة ثورة رجل واحد .

وتقدم القائد «أسد الدين» ـ شيركوه ـ (عم صلاح الدين)، نحو سور البلد من الناحيـة الشرقـية، فأدلى الناس لجنده الحـبال والسلالم، فـصعـدوا وعلوا السور ونادوا: (نور الدين يا منصور). . ، ثم كسر الجند البـاب، وتدفق عسكر «شيركوه» إلى الداخل .

وفتح «بـاب توما » ودخل منه «نور الدين» وخـاصة قادته وجنده، فـاستـقبله الدمشقيون استقبال الفاتح المخلص .

ثم استـقدم كـبراء الناس من القـضاة والفـقهـاء والتجـار، وخاطبهـم بما ملأ صدورهم وقلوبهم غبطة وأنسًا ، ورجاهم الاجـتهاد فى إصلاح ما وهن من أمور البلد، كمـا ألغى الضرائب التى كـان « مجيـر الدين » قد فـرضها على الفـواكه والخضر ومياه الرى والسقيا . . !

فزاد حب الناس له، واسـتبشارهم بمقدمـه، وولى على المدينة «أسد الدين» - شيركوه-، وكان ذلك فى شهر محرم الحرام سنة (٥٤٩)هـ .

***

إلى «مصر»:

وكما كانت «دمشق » فى قلب «نور الدين» وفى عينيه، كانت مصر ، كذلك، فإن خلاصها من أيدى الفاطميين الذين عبثوا بعقيدة أهلها زمنًا ، وامتصوا خيراتها ومقدارتهـا ، ثم كانوا حربًا مسمـومة على وحدة الأمة والبـلاد عشرات السنين ، وها هم أخيـرًا يتنازلون للصليبيـيـن فيعطونهم من أنفسـهم ذلاً ، ومن أموال بيت المال عـشرات الألوف من الدنانيـر سنويًا . . ، هؤلاء الحكام المتـطفلين على بيت النبوة الكريم زورًا وبهتانًا ،كان لابد من الخلاص منهم والقضاء عليهم.

أضف إلى ذلك موقع « مصر » من قلب العالم الإسلامى ، ومكانتها التاريخية والحضارية، وموقـعها الاستراتيجى بالنسبـة لأعداء الإسلام، كل ذلك جعل «نور الدين» لا يغفل لحـظة عما يدور فى مـصر، ويتحـين الفرصة المـناسبة للمـشروع الخطير، وهو ضم جناحى الأمـة، ثم إزالة الوجود الصليـبى الذى جثم على قلب

البلاد والعباد عقودًا طويلة من السنين فأرهقها ومزق شملها وجعل منها أشلاء متناثرة .

ولم يكن «نور الدين» بالمغامر الذى تستخفه الأحداث العارضة أو البسيطة، بل كان ذكيًا أريبًا متأنيًا، يحسب لكل خطوة حسابها، ويدرس كل جزئيات الموقف، ثم يتخذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، وبهذا كان فعلاً بطل العصر ورجله بلا منازع، وتتضاءل أمام اسمه وشخصيته كل الأسماء والأشخاص .

***

وها هو قد تجاوز الأربعين من عمره بقليل، لكن استمرارية الجهاد الذى نذر نفسه له، قد أوهن جسمه وبدنه، فكَلَّ وتعب، ولولا روحه الوثابة بإيمانها العميق لما استطاع أن يكمل المسيرة، فقد كان يستمد عزمه ونشاطه من قلبه لتحقيق ما يَصْبو إليه ويتطلع.

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت فى مرادها الأجسام

***

زلزال « حماه » :

ها نحن الآن فى منتصف القرن السادس الهجرى ، وعلى التحديد عام (٥٥٢)هـ، وها هى الديار الشامية كلها ، من أقصاها إلى أقصاها، تتعرض لأعنف الزلازل، وأشدها قسوة وتدميرًا ولم تغادر بلدًا إلا وخلفت فيه أضرارًا جسيمة ، من تهديم للدور والمبانى ، وخراب للزروع ، وهجرة عطلت العمل. . . ، ولقد استمرت هذه الزلازل وتوابعها على مدى عامين، لا تهدأ حينًا حتى تثور أحيانًا ، كما كانت « حماه » أكثر المدن الشامية تضررًا وأذى ، ويقول بعض المؤرخين : إنها كانت فزالت . . !

***

هذه الكارثة شغلت « نور الدين » وأهمته ، وملكت عليه كل فكره ووجدانه ، فكان ـ رحمه الله ـ ينتقل من بلد إلى بلد ليواسى أهله ، ويمد لهم يد العون ، ويبذل كل ما يستطيع لإعادة الإعمار والبناء ، واستمرار دوران دولاب الحياة .

وعلى أثر ذلك كانت واقعة مرضه الأولى ، التى كادت تقضى عليه لولا لطف الله تعالى وتقديره .

***

وحملت رسائل الحمام الزاجل أنباء خروج الملك «بلدوين» -ملك «بيت المقدس» - فى جند كثيف للإغارة على إقليم «حوران»، وأنه قد أقام معسكره عند الركن الشمالى لبحيرة «الحولة»، بين «طبرية» و«بانياس» . . فبادره «نور الدين» على الفور . . .

فلما أطلت رايات جيش «نور الدين» تهيأ «بلدوين» للحرب، وقسم جيشه أربع فرق، فأدرك «نور الدين» وهو الخبير المحنَّك - أنها خطة رسموها ، وأنهم بيّتوا أمْرًا عظيمًا فترجَّل «نور الدين» عن فرسه استعدادًا لخوض المعركة ، وقد جرد سيفه فى يده . . ، وكان لتصرُّفه هذا فعل السحر فى رجاله الأشداء الشجعان ، ففعلوا مثله ، خاصة كبراؤهم والمقدمون فيهم .

والتحم الجند من الطرفين فى قتال رهيب ، وأخذ رماة جيش « نور الدين » يصبون وابلاً من السهام على العدو ، وتقدم حملة الرماح يطعنون فرسان الصليبيين المدرعين بدروع الحديد السابغة، فيلقون بهم من فوق متون خيولهم .

كانت الاندفاعة قوية كالصاعقة زلزلت قوات الصليبيين زلزالاً شديدًا، وأعمل المسلمون فيهم سيوفهم، فسقط الكثيرون منهم صرعى، واستأسَرَ المئات، وفر بضع عشرات، وكان «بلدوين» أول الفارين .

وعاد « نور الدين » بالأسرى والغنائم إلى « دمشق » وخرجت المدينة بكل طوائفها فى مهرجان عظيم ترحب بمقدم البطل الظافر وجيشه المنصور، وكان يومًا مشهودًا .

***

وعكة جديدة ... شديدة:

وكان الجهد قد بلغ بـ «نور الدين» مداه، وكان لزامًا عليه أن يستريح ليستعيد بعض عافيته، لكنه لم يفعل بل اتجه من فوره إلى «أنطاكية»، واستعد للهجوم عليها . .

وبينما هو كـذلك أحس دبيب المرض يسرى إلى جسده المرهق، ودفـعة واحدة دهمته العلة واشتدت به الحمى ، وبات طريح الفراش ، حتى أَرْجت بعض الناس بدنو أجله.

وأرسل «نور الدين» إلى أخيـه «نصرة الدين» وقائده «أسد الدين» - شـيركوه - يستدعـيهما ، ثم أوصى إليهمـا، على أن يكون أخوه فى «حلب» - يعنى سلطانًا من بعده - وينوب عنه «أسد الدين» فى دمشق . . وطلب أن يرفع من مكانه الذى فيـه وينقل إلى «حلب» على مـحفًـه، فتم له مـا أراد ، ورقد فى قلعـة «حلب» يتمرض ويعالج.

وترددت أنباء مرضه هذا وتطايرت فى كل جهة، فـانتهزها الطامعون والحاقدون والصليبيون فرصة، فجاشت البلاد واضطربت، وبدأت الغارات تشن هنا وهناك .

حتى إن «مجـد الدين بن الداية» أحد قادة «نور الدين» المقـربين ، منع «نصرة الدين» من دخـول «حلب»، مـعـتذرًا بخـوفـه على السلطان ، فنشب الـقتـال، واستمرت الفتنة بضعة أيام.

***

وفجـأة أبل البطل من مرضه رحـمة من الله تعالى ، وتعـافى وعاود مبـاشرة المهـام، ففـرح الناس لذلك أيما فـرح ، ثم اسـتدعى إليـه قائده « أسـد الدين » وشكره على وفائه وإخلاصه، كما أنه التـمس العذر لقائده «مجد الدين بن الداية» وأرضى أخاه « نصرة الدين » وولاه على إقليم «حوران» .

***

وأنت ترى - عـزيزى القارئ - كم كـان بطلنا «نور الدين» إلى جـانب قيـادته العسـكرية فى ميادين القتال والفـروسيـة، وإحكام الخطط الحربيـة، أنه فى نفس الوقت كان سياسـيًا حكيمًا بارعًا واسع الذكاء، أريبًـا فى حسم الفتن ، ميالاً إلى التضامن والوئام، حفـاظًا على وحدة القاعدة الشعبيـة العريضة التى كانت تؤازره وتقف من خلفه وتدعمه .

***

ونحن لا نقول هذا الكلام من فراغ . . وإليك دليل آخر . .

لقد عـاود المرض « نور الدين » مرة أخرى سنة (٥٥٤)هـ ، ولكنه كان وعكة عارضـة ، لم تطل زمنًا . . ،ومع قصر مـدتها ، فقـد عاين فى أثنائها خـيانة من بعض رجاله، إذ اتصلوا بأخـيه « نصرة الدين» فى «حوران» ودعـوه أن يسرع إلى «دمشق» ليسلموا له البلد، ويُبَايعُوهُ سلطانًا .

فماذا فعل « نور الدين » ؟

لم يزد على أن اعتـقل هؤلاء النفر، وحـبسهم، ولم يـرق نقطة دم واحدة من دمائهم ، كـما صـرف أخاه إلى عـمله فى «حوران » ولم يمـسه بأذى، واكـتفى بالتأنيب، لكنه غير رأيه فى وصيته، بأن يكون خليفته من بعده أخاه «قطب الدين» ـ مودود ـ، صاحب «الموصل»، وأسر بها إلى بعض خواصه «المقربين» .

***

الطريق إلى «مصر» :

الطريق إلى «مصر» طويل بعيد ، وغـير آمن ، لكن لابد منها. . ، لأنها جناح الأمـة، ولأن أهلهـا خـير أجـناد أهل الأرض، وهم فى رباط دائم ، هكذا كـان التصور الذى استقر فى قلب «نور الديـن» وعقله ، وإيمانه ووجدانه ، ولقد عالج كل ذلك بحكمة وروية وخطة مدروسة، مع مـا كان يشغله فى الشام والعراق، أو يشاغل به « أنطاكية » التى هى بمثابة الشوكة فى الحلْق .

***

كـانت الأمـور فى « مصـر » قـد تدهورت بشكل خطـير وسـريع، وأصـبح الفاطميون بعد سقوط « عسقلان » وتهديدات «بلدوين» ملك مملكة «بيت المقدس» رهينة فى يده ، يدفعـون له فى كل عام مائـة وستين ألفًا مـن الدنانير، ليكف أذاه عنهم .

***

تسلم الخلافة فيها طفل لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، سنة (٥٥٥)هـ، ولقب بـ « العاضد »[1]، وكان الوزير الأول «طلائع بن رزيك »، وهو من أصل أرمنى، طاغية مستبدًا، شرهًا إلى المال، يبيع الولايات لمن يدفع الثمن الأكبر، وقد تلقب بالملك الصالح !!

لكن عمَّة الخليفة دست عليه من قتله تخلصًا من شروره وآثامه، وخلا منصب الوزير الأول ، أو السلطان ، فاستجار الخليفة برجل كان يتولى أمور الصعيد، اسمه «شاور» فبادر هذا إلى «القاهرة» وقضى على «طلائع بن رزيك» وعصبته، ثم خلص الأمر إليه .

***

وتولى مملكة «بيت المقدس» «أمورى» بدلاً من « بلدوين» الذى مات، وكان فى «أمورى» روح المغامرة، شابًا فى الخامسة والعشرين من عمره، يمتلئ حيوية وحماسًا ، ورغبة فى الانتقام، وميلاً شديدًا إلى الشر .

ومرت سنة لم يدفع فيها الفاطميون الضريبة، فاغتنمها «أمورى» فرصة للانقضاض على «مصر» والاستيلاء عليها، فجهز جيشًا قويًا كثيفًا سار به جنوبًا باتجاه مصر ، وكان ذلك عام (٥٥٨) هـ، فحاصروا «الفرما» . . !

لكنه لم يتقدم خطوة بعد ذلك، والسبب أن الفلاحين والمجاهدين، قاموا بكسر السدود وفتح الجسور، وكان الموسم موسم فيضان ، فانساحت الماء فى الأرض الزراعية على مساحات شاسعة، عطلت تقدم «أمورى» وجيشه فعاد أدراجه من حيث أتى، وفى نفسه غصة وحرقة، وفى قلبه عزم على تكرار الحملة حين تسنح الظروف.

***

هذه الحركة من «أمورى» لم تكن لتغيب عن علم «نور الدين» وعن عينه الساهرة ، ومن أجل أن يشغل «أمورى» حالاً ومستقبلاً عن مثل هذه المغامرة، لجأ إلى خطة يحول بها أنظار «أمورى» عن «مصر».

---

(١) كان « العاضد » آخر خلفائهم ، وترتيبه فى سلسلتهم : الرابع عشر ، خلفه «صلاح الدين » عام (٥٦٦)هـ.

فسار فى جيش كثيف شمالاً غربًا ، مخترقًا أرض «طرابلس ـ الشام »، ثم حاصر «حصن الأكراد» ـ الكرك ـ الذى تشرف على إقليم «البقاع» من ناحية، وعلى سهل «عكا» من ناحية ثانية، وكاد يستولى عليه .

غير أن مجموعة من الحجاج كانوا فى طريق عودتهم من «بيت المقدس» وفيهم مجموعة من الفرسان المشهورين، فانضموا إلى قوات «رايموند» صاحب «طرابلس ـ الشام»، الذى خرج للدفاع عن «حصن الأكراد»، كما استنجد هؤلاء بقوات «أنطاكية» فجاؤوهم على عجل .

ولم يكن «نور الدين» ليتصور أن يتكاكأ عليه الصليبيون بهذه الجموع، وفوجئ بحصار معسكره: ففزع الجند وأسرعوا فى الهرب، ويقال بأن موقع «نور الدين» نفسه تعرض للهجوم المباغت، فأسرع بامتطاء جواده وانفلت من بين عسكر الصليبيين، وجنوده يتلاحقون من خلفه، حتى إذا بلغ مكانًا آمنًا، توقف وأعاد ترتيب جنده، وتعبئة جيشه استعدادًا للقتال، إذا ما لحق به الأعداء .

لكن بعض جنده رجوه أن يسرع بالعودة إلى «حمص» اتقاءً لشر الهزيمة المحققة، فقال لهم: (إذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأرى وثأر الإسلام !!!).

ثم أرسل الرسل إلى «دمشق»، فجاءه المدد من العتاد والأموال، خيلاً وسلاحًا ومالاً، فأعطى جنده ما عوضهم، فطابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم .

ولقد أدرك الصليبيون أنهم غير قادرين على مواجهة «نور الدين» بعد هذا الاستعداد ، فتوقفوا عن المتابعة، وهم يعرفون أنهم لولا عنصر المفاجأة لما تحقق لهم فك الحصار عن «حصن الأكراد» .

«شاور» يستنجد بـ « نور الدين» :

بعد أن سار «شاور» سيرته السيئة فى «مصر» ، فحكم واستبد وطغى، أحس الخليفة «الفاطمى» ـ «العاضد» ـ بوطأة «شاور» عليه، فاستغاث بحاكم الصعيد «ضرغام بن ثعلبة»، فأنجده وأزاح «شاور» الذى نجا من الموت، فهرب إلى الشام

يستغيث بـ «نور الدين» وعرض عليه أن يكون نائبه فى مصر، وأن يؤدى له ثلث دخل بيت المال «الفاطمى» كل سنة ، ويدفع له رواتب جنده .

كان العرض سخيًا مغريًا، ولكنه لا يستخف الحليم مثل «نور الدين»، فوعده خيرًا ، وفى نفس الوقت بدأ يعد العدة ، ويرسم الخطة ، ويهيئ الظرف، ذلك أنه يواجه أكثر من خطر . .

فـ «أمورى» فى «بيت المقدس» طامع فى «مصر»، يريد السبق إليها، حتى لا تشكل جبهة جنوبية، إن أطبقت عليه مع جبهة الشمال، انتهى أمره .

والطريق إلى «مصر» من «دمشق» محفوف بالمخاطر، فما أكثر الحصون والقلاع الصليبية على امتداد الطريق .

و«سيناء» صحراء شاسعة، لا تؤمن مخاطرها . . !

وجند الفاطميين كثيف ، وعدتهم وافرة ، ومصر بلد مترامى الأطراف !!

كل أولئك جعل«نور الدين» ـ كما قال المؤرخ «أبو شامة» عنه [1]:

[كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصْد «شاور» وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الإفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الإفرنج فيه].

***

فلما اكتملت له عناصر الخطة قرر إرسال جيش إلى مصر بقيادة أنجب قواده وأعظمهم ، وأشجعهم وأفرسهم «أسد الدين» ـ شيركوه ـ، وفى الجيش «صلاح الدين ـ يوسف بن أيوب ـ»، وكان ما يزال شابًا فى أول فروسيته وخوض معامع القتال ، ولكنه أظهر فى هذه السن المبكرة بطولة وإقدامًا لفتا إليه الأنظار .

وقام « نور الدين » ـ رحمه الله ـ بإشغال « أمورى » ـ ملك « بيت المقدس » عن جيش « أسد الدين » ، فجهز جيشًا وقصد إلى « بانياس » .

***

(١) فى كتابه «الروضتين فى أخبار الدولتين».

«ضرغام» بعد «شاور» :

وكــمــا أسرع « شــاور » فى الاســتنجــاد بـ «نور الدين» بادر «ضــرغــام» إلى الاستعانة بـ «أمورى» ملك «بيت المقدس» ووعده بالطاعة ودفع جزية سنوية له .

ولم يكن «أمورى» بحاجـة إلى مثل هذا الطلب لأنه جزع جزعًـا شديدًا عندما علم أن « نور الدين » قد أرسل جـيشًا إلى «مصر» بقـيادة «أسد الدين»، فتَـحفَّز للوثوب، وزادته الرغـبة فى المـال تحفـزًا، فجـهَّز جـيْـشًا ومـضى فى الطريق إلى «مصر». غير أن «أسد الدين» كان قد سبقه ، إذ انطلق بجيشه من «دمشق» مسرعًا لا يعول على راحة أو محطة، إلا فيما ندر .

دخل «أسد الديـن» «مصر» وكـان أول لقاء له وقـتال عند «محلة بـسطا» قرب «الزقازيق»، مع جيش للفاطميين يقوده «نصر الدين» أخو «ضرغام»، فقضى عليه وكان ذلك فى سنة (٥٥٩)هـ.

***

مقتل «ضرغام» :

ووصل « ضرغام » إلى القـاهرة قادمًا من الصعيد ، ينتظر قـدوم جيش حلفائه الصليبيين ، فأخذ يمهد لذلك ، ويستحث عامة الناس على تأييده ومحاربة « أسد الدين » ، لكن الناس الذين قهرهم وأذلهم، واستعـان بالصليبيين عليهم ، خذلوه واجتمعوا عليه فقتلوه عند مشهد السيدة « نفيسة » ـ رضى الله عنها ـ .

***

المـواجهـة :

كان وصـول الجيش «النورى» إلى القاهرة حـدثًا تاريخيًا، له ما بعـده، إذ كان بداية تنفيذ خطة «نور الدين» بضم جبهة مصر إلى جبهة الشام، والعراق، للقضاء على أعظم ممالك الصليـبيـين ـ مملكة «بيت المقدس»، وتـطهير ديـار الإسلام من أولئك الذين دنسوها باسم الصليب .

يقول المؤرخون :

ثم إن «أسد الدين» وابن أخيه «صلاح الدين» اتصلا بهذا القطر العظيم ـ مصر ـ اتصالاً مباشراً واسعًا، واطلعا على ما فيه من أسباب القوة والثروة، وتعلق قلباهما بالاستقرار فيه، وكان «شيركوه» قد طالت خدمته لـ«نور الدين»، وأبدى من الإخلاص للسلاطين ما جعله رأس قواده وأمراء جنده، فتاقت نفسه إلى أن يكون نائبًا لـ «نور الدين» على مصر، ولم يكن لهذا العمل سواه، فهو خير من يستطيع تنفيذ الحملة التى كانت ترمى إلى حصر مملكة «بيت المقدس» بين شقى الرحى ـ كما قدمنا ـ .

***

وأحس «شاور» كأن أرض مصر تتزلزل من تحت قدميه ، وندم على ما كان منه فى استنصار «نور الدين» ، فتنكر لـ «أسد الدين»، ونقض ما كان بينهما من عهود ومواثيق وهدده بالحرب إن لم يرحل فوراً عن مصر . . !

كما عاود الاتصال بـ« أمورى » الذى كان فى الطريق إلى مصر.

***

لم تكن قدم « شيركوه » قد استقرت فى مصر بعد ، وما هو إلا قائد جيش صغير ، فى بلد بعيد ، تفصل بينه وبين الشام تجمعات الصليبيين ، ويعرف من غَدْر الفاطميين ومؤامراتهم فى الاغتيال الشيء الكثير . . . فماذا يفعل ؟

***

نصيحة «صلاح الدين» :

وكان «صلاح الدين» بالنسبة إلى عمه «أسد الدين» كالوزير والمشير، لا يقطع أمرًا بدون استشارته والوقوف على وجه الصواب عنده، فأشار «صلاح الدين» بالارتداد عن القاهرة إلى بلد يتحصن فيه ، ويسيطر عليه ، ويأمن غدرات الفاطميين ، واستقر الرأى على «بلبيس» فانتقلوا بجندهم إليها، وجددا فى

أسوارها الضعيفة، واستمدوا «نور الدين» بالجند، والمال، مع إطلاعه على الموقف بكل أبعاده وتفاصيله، وانتظرا ما تجد به الأيام .

***

وتباطأ «أمورى» بعض الشيء وهو فى الطريق، فزاد «شاور» من إغرائه بالمال ، ووعده أن يدفع له سبعة وعشرين ألف دينار عن كل مرحلة بين «بيت المقدس» و«القاهرة» ويقوم بتقديم ما يلزم من علوفة الخيل . . !

إلى هذه الدرجة من الهوان والخسة بلغ الأمر بـ «شاور»، إذ لم يكن همه الإسلام وأهله وبلاده، بقدر ما كان يهتم بالمنصب والمال ولهو الحياة الدنيا .

***

وعند «فاقوس» التقى جيش «شاور» بجيش «أمورى»، ثم تقدموا إلى «بلبيس» فحاصروها، وكان ذلك فى «رمضان» من عام (٥٥٩)هـ.

وطال أمد الحصار ثلاثة شهور، لم يستطيعوا خلالها أن يقتحموا المدينة ، أو يفتحوا ثغرة فى أسوارها .

***

الانسحاب:

فى تلك الأثناء وصلت إلى «أمورى» أنباء روعته، وجعلته يسرع فى العودة إلى «بيت المقدس»، فقد قام «نور الدين» بالسير إلى «أنطاكية» فى جيش كثيف يريد الاستيلاء عليها. . .، وكان غرضه إشغال «أمورى» عن «مصر» وعن جيش « أسد الدين » .

وقد وفق «نور الدين» فى حملته هذه توفيقًا عظيمًا، فقد نازل الصليبيين والبيزنطيين فى أكثر من موقعة وهزمهم، وأسر عددًا من قادتهم وعظمائهم، ولكنه لم يتابع طريقه إلى «أنطاكية»، حتى لا تكون هناك حملة صليبية ثالثة، تتدفق من أوروبا متحدة مع بيزنطية للدفاع عن «أنطاكية»، وليس ذلك أوانها، وقد

اكتفى «نور الدين» بالاستيلاء على حصن «حارم»، وهو من أمنع وأعظم حصون الصليبيين، ويقع فى منتصف الطريق بين «حلب» و«أنطاكية» .

***

واتفق «أمورى» مع «أسد الدين» على أن يكون خروجهما من مصر فى وقت واحد ، وكان ذلك بموافقة «نور الدين»، مكتفيًا بما حققته حملته هذه على مصر.

ومن أعجب ما ذكر فى هذا الصدد أن الجيشين سارا فى طريق واحد ، أحدهما بإزاء الآخر ، مخترقين شبه جزيرة سيناء!

***

الصلح بين «نور الدين» و «أمورى»:

أسرع «أمورى» إلى «أنطاكية» ليتدارك أمرها، ثم بعث الرسل إلى «نور الدين» يطلب إليه الصلح، فوجد عنده قبولاً، فقد كان «نور الدين» يريد أن يتفرغ للأمر العظيم - فتح مصر -، ورضى «نور الدين» أن يطلق سراح كبار الأسرى لقاء فِدْية كبيرة، ورفض أن يطلق سراح «رايموند» - صاحب طرابلس - و«رينودى شاتيون».

***

ومن ثم راح يعد العدة لإعادة الحملة على مصر بقيادة «أسد الدين» أيضًا ومعه «صلاح الدين» .

ولإشغال الصليبيين عما يفعل، قرر أن يوجه للصليبيين فى الشام ضربة قوية، تلقى فى نفوسهم الرعب، وتلزمهم خطط الدفاع دون الهجوم .

فعبأ جيشًا قويًا، وأشاع أنه يقصد «طبرية»، فبادر الصليبيون إلى التجمع عندها وحولها، ثم قصد إلى «بانياس» التى كانت بابًا هامًا من أبواب الطريق إلى مصر، وحصنًا شامخًا. . ، وظن الصليبيون أنها تصمد طويلاً . . ، لكنها وقعت بسهولة ويسر فى يد «نور الدين»، فدخلها وحصنها وملأها ذخيرة وعتادًا ، وجعل فيها حامية قوية من رجاله وفرسانه الأشداء ، وقد تم له ذلك فى شهر محرم الحرام سنة (٥٦٢)هـ.

وبعث « أسد الدين» إلى «بغداد» للحصول على موافقة الخليفة العباسى لفتح مصر ، باعتبار ذلك العمل جهادًا فى سبيل الله وقتالاً لعدوّين من أعداء الدين هما : الفاطميين والصليبيين. ورجع «أسد الدين» وهو يحمل الفتوى من الخليفة، وأمرًا بتعيينه واليًا على مصر إن تم له الفتح .

***

وفى الوقت نفسه الذى كان فيه «نور الدين» يحاصر «بانياس» كان «أسد الدين» - شيركوه - قد بدأ حملته الثانية على مصر ، وفى رفقته وزيره ومشيره ابن أخيه «صلاح الدين».

واستنجد «شاور» كعادته «أمورى» الذى كان مشغولاً بموضوع «بانياس» فعقد مجلسًا حربيًا لكبار رجاله وقادته وحلفائه، وبينما هم فى أخذ ورَدّ جاءت الأنباء بأن «أسد الدين» يجتاز صحراء «سيناء» بقواته .

ولقد هبت ريح عاتية على جيش «أسد الدين»، كادت تطمره ورجاله وجنده تحت الرمال ،ولكن العزائم كانت قوية ، والروح المعنوية عالية، فصمدوا للعاصفة حتى تجاوزوها بسلام، ودون أدنى خسارة ، اللهم إلا ما بذلوه من جهد وما عانوه من مشقة .

وصل «أسد الدين» بقواته إلى «أطفيح» على بعد أربعين ميلاً جنوب القاهرة، ومن هناك اجتاز النيل إلى الضفة الغربية، ثم سار شمالاً حتى نزل «الجيزة» وعسكر عندها مقابل «الفسطاط» .

***

ثم وصل « آمورى» فضرب معسكره عند أسوار القاهرة ، ولم يدخل فى قتال مع «أسد الدين»، بانتظار استنزاف «شاور»، والتأكد من صدق تحالفه .

وراح يساومه ، فتعهد له «شاور» بدفع مبلغ أربعمائة ألف دينار «بيزنطى»، نصفها معجل، والنصف الآخر مؤجل، فرضى «أمورى» ولكنه أراد أيضًا أن

يستوثق من تأييد الخليفة الفاطمى. . ، فأجيب إلى طلبه، وتم الاتصال وأخذ موافقة الخليفة !!!.

***

المعركة:

ظل الجيشان فى مواقعهما ينتظر أحدهما الآخر فى بدء الهجوم، وكان «أسد الدين» غير متعجل، وهو يعلم أن «آمورى» سوف يقلق، خصوصًا وأن موضوع محاصرة «نور الدين» لـ«بانياس» وارد فى الاعتبار والتقدير .

وفعلاً حدث ما توقعه « أسد الدين » فقام « آمورى » بالبدء فى الهجوم .

تقدم وعبر النيل عند رأس جزيرة «وراق الحضر»، وترك حامية تؤمن عسكره يقودها «شجاع بن شاور» و«هيودى إيلين » ـ أحد قادته ـ ولم تطق هذه الحامية البقاء فى المعسكر، فأذن لها شجاع بدخول البلد، وكان ذلك نكبة عليهم ، إذ اندفع الفرسان الصليبيون يجوسون هنا وهناك، فارتاع الناس، وازدادوا نفوراً من «شاور» وابنه الخسيس «شجاع».

***

كانت قوات الصليبيين والفاطميين تفوق قوات «أسد الدين» من ناحية العدد، تفوقًا ملحوظًا ، لكن قوات « أسد الدين » كانت من ناحية الفرسان والخيالة أشد وأصلب وأوفر .

تراجع «أسد الدين» أمام «آمورى» فلما وصل إلى «الأشمونين» تريث واستعد للمعركة عند «البابين» وقد رسم « أسد الدين » خطته للقتال على أن يقف «صلاح الدين» فى القلب، ويتقهقر به إذا هجم العدوّ ليستوعبه . . ، فلما تراجع «صلاح الدين» ظن «آمورى» أنها هزيمة دارت على خصمه، فاندفع بمن معه وراءه، عندئذ أطبق «أسد الدين» بجناحى جيشه عليه وعلى من معه، فأسرع هو و«شاور» باتجاه الشمال وعبرا النيل فى فلول قليلة ممن نجا، ولم يطمئنا إلا عندما وصلا إلى الحامية التى تركاها عند أسوار القاهرة، ولقد وقع مئات الفرسان

الصليبيين فى الأسر، وكان فيهم صاحب قيسارية «قيصرية»، وكانت تلك الموقعة فى الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ٥٦٢ هـ.

***

إلى الإسكندرية:

لم يتتبع «أسد الدين» المنهزمين، اعتقاداً منه بأن «آمورى» لن يلبث فى مصر، أولاً بسبب انشغاله بموضوع «بانياس» وثانيًا بسبب الهزيمة النكراء التى حلت به وبجنده .

فاتجه «أسد الدين» إلى «الفيوم»، ومنها اخترق مديرية البحيرة حتى بلغ الإسكندرية، ففتحت له المدينة، ورحبت به، واستقبله أهلها أعظم استقبال .

ويبدو أن «أسد الدين» كان يرغب التحصن فى مدينة كبيرة، لأنه غير متعجل العودة إلى الشام حتى يرفع لواء «نور الدين» فى مصر، ولعل من أسباب هذا التحصن ما عاينه «أسد الدين» من تفوق عدوه عليه بالعدد والعدة، فهو مقيم فى تحصنه إلى أن يأتيه مدد من الشام .

وجمع قادته فى مجلس وشاورهم فى الأمر الذى اعتزمه ، فوجد أكثرهم يميل إلى العودة للشام ، لا هروبًا من المواجهة ، ولكن لإعادة الترتيب والاستعداد ، أما أقلهم فقد وافقوه على رأيه فى البقاء فى مصر ، ومواصلة القتال إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

وكان لـ «أسد الدين » فى هذا اللقاء كلمة مأثورة ألهبت حماسهم جميعًا وشدت من عزائمهم، وبعثت فيهم الحمية، لقد قال: (إن من يخاف القتل والأسر لا يخدم الملوك ، بل يكون فى بيته مع امرأته . . !!).

***

بين « أسد الدين » و « شاور » :

وظن «أسد الدين» أن نفسية «شاور» قد تغيرت بعض الشىء بعد هذه المعركة ، أو أدرك ما غاب عنه زمنًا وهو خطأ الاستعانة بعدو الله ، أو لعل فيه بقية من دين

وضمير ، فأرسل إليه رسولاً يحمل كتابًا يذكره فيه ويعظه ويعده إن هو تعاون معه على الصليبيين أن لا يقيم فى مصر أبدًا ، ويتركها له .

لكن «شـــاور» اللئـيم، الذى فــقــد كل ذرة من إيمــان وديــن وخلق أبى أن يستـجيب، بل فـعل أسوأ من ذلك، إذ قتل رســول «أسد الدين»!! ،كـما أطلع حلفاءهُ الصليبيين على مضمون هذه الرسالة ، ليوكد لهم إخلاصه فى خيانة أمته.

***

حصار «الإسكندرية» :

وكان هذا الموقف من «شاور» مدعاة زيادة تعــاون من «آمورى»، فقرر البقاء فى مـصر، وخــرج بما بقى من قــواته ومعــه «شاور» فى جـيــشه نحــو الإسكندرية، فحاصروها وأقاما على هذا الحصار، يضيّقان ويشدّدان، وأراد «أسد الدين» أن يفُكَّ هذا الحــصــار الذى ليس فى صــالحــه ولا صــالح قــواته، فــخــرج فى كـتلة من جيشه،واتجه نحو الصعيد، وترك فى الإسكندرية «صلاح الدين» ومعه ألف فارس.

وأراد «آمورى» تتـبع «أسد الديــن»، لكن «شاور» نصــحه بالبـقاء فى حــصار الإسكندرية، فنــزل عند رأى «شـــاور» ولقــد واجــه «صــلاح الدين » هذا الموقف الصعب بكل حــزم وعزم، مع اشتــداد وطأة الحصار، كــما بعث إلى عمــه «أسد الدين» يستنجد .

ولقد تحدث المؤرخون على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، سواء كانوا من مؤرخى المسلمين، أو الصليـبـيين عن بطولة « صلاح الدين » وفروسيته، بإعــجاب وإكبار وتقدير، إذ استطاع بألف فارس فقط أن يصــمد فى وجه ألوف مؤلفة من العدو ، ولا يمكنه من فتح ثغرة ، أو التسلل إلى « الإسكندرية ».

***

الانسحاب:

عاد «أســد الدين» إلى «الإسكندرية» مــتجــهًا لنجــدة ابن أخيــه البطل الهــمام «صلاح الدين»، فلما أصــبح قاب قوسين أو أدنى منها، أطلق ســراح أسير فارس

من الصليبيين، وحمّله رسالة إلى «آمورى» يعرض فيها أنه مستعد للانسحاب من مصر إذا وافق الصليبيون على الخروج منها أيضًا، فوافق «آمورى» من غير تردد، وخرج «صلاح الدين» بحاميته من «الإسكندرية» معززًا مكرمًا لم يمسسه سوء، وكان ذلك فى شهر«شوال» سنة (٥٦٢)هـ.

***

وغادر الجانبان مصر:

ولقد استاء « نور الدين » كثيرًا من نتائج هذه الحملة ، لكنه كظم غيظه فى نفسه ثقة منه بقائده البطل « أسد الدين » لأنه يعلم مدى إخلاصه وتفانيه ، وارتاحت نفسه أكثر عندما واجه القائد وعلم منه أمورًا كثيرة تتعلق بمصر ، كما هنأه على كسر شوكة الصليبيين فى مصر وهزيمتهم الشنعاء .

***

الحملة الثالثة:

ومع مطلع عام (٥٦٤)هـ، بدأ «نور الدين» يعد للحملة الثالثة على «مصر»، ولكن بتمهل ورويّة، حتى لا تتكرر مأساة الخروج منها كما حدث فى المرتين السابقتين.

وكان «أسد الدين» خلال ذلك يستحث سيده، ويدعوه إلى الإسراع، لا لشىء إلا لأن قلبه قد تعلق بهذا البلد، وخوفًا من سبْق «آمورى» إليه .

وكانت الأوضاع فى مصر تسير من سيىء إلى أسوأ ، وتتدهور فى كل المجالات، ولا أدل على ذلك من الخلاف الذى استشرى بين «شاور» وابنه «شجاع» .

وكان « شاور » قد طلب من « آمورى » إرسال حامية «صليبية» تعاونه على ضبط الأوضاع وتثبيت السلطان ، ويقوم هو بكل تكاليفها ، بالإضافة إلى الجزية السنوية التى يدفعها ، فوافقه « آمورى » بشرط أن تكون هذه الحامية مطلقة اليد فى كل تصرفاتها ، ولا سلطان لأحد عليها .

***

وفى نفس الوقت كان « شـجاع بن شاور » قد رأى أنه أحق بالأمـر من أبيه ، فأخذ يراسل « نور الدين » ويدعـوه إلى مصر ، وتعهد له بالتعـاون التام ، رغبة منه فى أن يكون له من الأمر شىء.

***

وهذه المراسلات عـرف بها « آمورى » ولكنه لم يعطهـا بالاً ، وكانت الحامـية التى طلبهـا « شاور » قد وصلت ، وتسلمت زمـام الأمور ، وأمعنت فى الفـساد والإفساد ، والإضرار بمصالح العباد.

***

المفاجأة:

اطمأن « شاور » بعض الشىء . . ، لكن سوء تصـرف الحامية أهاج الناس إلى درجة كبيرة ، وأخذت طلائع ثورة الـشعب على السلطة الباغية تلوح فى الأفق ، مما دعا قائد حامية الصليبيين إلى إرســال كتاب إلى « آمورى » يستعجله فيه العودة إلى مصـر ، وأن الظروف ملائمـة جدًا لاحـتلالهـا وإزالة « شاور » و« شـجاع» والخلاص منهما إلى الأبد .

فاستشار «آمورى» قادته وحلفاءه، فرأوا التعجيل، فأعد العدة وخرج إلى مصر فى السادس عشر من شهر محـرم الحرام سنة (٥٦٤)هـ، معلْنًا أنه يقصد «حمص» فى الشـمال. . ،ثم انكشف الأمـر. . ، فعـجل «نور الدين» بإرســال قائده «أسـد الدين»، ومعه «صلاح الدين» فى إثر « آمورى » (ربيع الأول : ٥٦٤) هـ.

وصل «آمورى» إلى «بلبيس»، فـاستولى عليها، وقـد أعانه على ذلك نفر من أعداء «شاور» وقد فوجئ «شاور» بهذه الحملة وتصرفاتها، وأوجس فى نفسه خيفة من سوء نوايا «آمورى» حليف الأمس واليوم .

وأخذ يبعث الرسل إلى «آمورى» يذكره بالعهود والمواثيق التى بينهما ، فلم يأبه لذلك ، بل طلب من «شاور» مليونين من الدنانير ثمنًا لانصرافه، فتحقق «شاور»

من الغـدر، وشعر بـأنه أمام أكثـر من عدو. . ، كل ذلـك ـ ولا ـ شك ـ نتيـجة طبيعية لخيانته هو ، وغدره هو، وتذبذبه هو . . !

***

وكان «آمورى» قد نظم خطته ، بحيث يطبق على مـصر برًا وبحرًا ، فبينما هو فى «بلبـيس» كانت سفـنه البحرية تـنزل عند شاطئ بحـيرة «المنزلة» ، واسـتولى جنودها على بلدة «تنيس» وارتكبـوا فيـها مجـزرة هائلة، مما ألهب شـعور الناس وعامة الشعب، فهـبوا وقاموا فى وجه الغزاة قومة رجل واحـد، مسلمين وأقباطًا للدفاع عن أرضهم ووجودهم .

***

حـرق الفسطاط :

(أكبـر جريمة ارتكبهـا «شاور»، وأضافهـا إلى سجله بالخزى والعار)، فـحين وصل «آمـورى» إلى «القـاهرة» فى العـاشـر من مـحـرم (٥٦٤)هـ، نزل قـبـالة «الفسطاط»، فـلم يجد «شاور» وسـيلة يدفع بها عن مـصالحه وتـسلطه سوى أن يحرق «الفسطاط »، التى ظلت مـشتعلة بالنار طوال أربعة وخمـسين يومًا، وأتت على دورها وكنوزها وآثارها .

ثم أرسل إلى «آمورى» يتهدده بحرق القاهرة نفسها إذا لم يرتد هو ورجاله عنها.

***

وكان « آمورى » ينتظر قدوم رجال الحملة البحرية ليستعين بهم ، غير أن الثورة الشعبيـة التى قامت فى وجههم بعدما ارتكبـوه من فظائع ومنكرات ، جعلتهم فى مهب الريح ، لقد أحـرق الناس أكثر سفنهم ، ووضعـوا السدود فى طريق الباقى من هذه السفن ، فحيل بينهم وبين الحركة ، وباتوا كالمحاصرين .

وأدرك « آمورى » بأن أمله فى الاستيلاء على مصر قد تلاشى، وتبدد، فالثورة الشعبية فى مختلف أنحاء القطر أهمته وجعلت أحلامه تذروها الرياح . . ، ثم إنه ساوم «شاور» على الانسحاب لقاء مالٍ معلوم ، فبعث إليه «شاور» بمائة ألف دينار

وقام « آمورى» بالتحرك إلى ناحية «المطرية» ووصلته وهو فى معسكره هذا أنباء قدوم «أسد الدين» فى جيش كثيف قوامـه ثمانية آلاف فارس، غير المشاه، وأدرك أنه لا طاقة له اليـوم بـ«أسد الدين» وقرر الـعودة من حيث أتى، وأمـر باقى قواته البحرية بالتحرك إلى «عكا».

***

انقلاب السحر على الساحر ..!

ودخل «أسد الدين» إلى مصـر من غير قتال ولا دمـاء هذه المرة، ووجد أبوابها مفـتوحة أمامـه ، ودخل القاهرة من ناحيـة «باب اللوق»، ثم قصد دار الخـلافة، والتـقى «العاضـد» الذى رحب به، وقدم لـه المال، وتعهـد مئـونة الجيش،وكـان «شاور» حـاضرًا، يظهر الـسرور ويبطن الحسـرة ، يبدى الصداقـة ويخفى الحـقد والتآمر.

وبلغت البشرى «نور الدين » فى الشام، فطابت نفـسه ، وبعث رسله ينشرونها فى كل مكان، واعتبر دخول قائده المظفر «أسد الدين» القاهرة، فتحًا أكرمه الله به خدمة للإسلام ، وتأكد بينه وبين نفسه أن سـاعة القضاء على الوجود الصليبى قد دنت وحانت، وهذا ما نذر له حياته وجهاده .

***

هل يسكت الخائن «شاور» على كل ما يرى ويشـاهد..؟ كلا.. فإنه لا يعرف أى جانب من جوانب الخـير، ولا أى معنى من معانيـه ، وليس فى قلبه ذرة من إسلام وإيمان.

فأخذ يحـيك خيوط مؤامـرة يتخلص بها من «أسد الدين» ومـعظم قادته الأبطال الأفذاذ ، وأطلع ابنه «شجاعًا» عليهـا، حيث يولـم لـ « أسد الدين» ورجاله فى مصر ، ثم يفتك بهم ، فرفض ابنه مشاركته الجريمة النكراء ، ليس تعففًا ولكن تعقلاً.

وجَرَتْ بين الاثنين ملاحاة فى الكلام ، وأصر كل منهما على موقفه .

***

واكتشف «صلاح الدين» المؤامرة، فقد علـمته الأيام التى قضاها فى مصر، أن الغدر والخيانة والاغتيال أسلوب لا يحيد عنه الفاطميون وأعوانهم ، فكان له عيون من خواصه ترقب فى سرية تامة ، تحركات «شاور» العدو اللدود !!

فلما استيقن من ذلك، أحاط به ذات يوم مع نفر من أتباعـه، وطرحوه أرضًا عند ضريح «الإمام الشافعى » ـ رضى الله عنه ـ، ثم أسروه وأبلغوا « أسد الدين» بالتفاصيل .

وعندما علم الخليفة الفاطمى « العاضد » بذلك أبى إلا أن يحظى برأسه تخلصًا من شروره وآثامه ، ووافق «أسد الدين» ، وتم قتل « شاور » فى مطلع شهر ربيع الثانى سنة (٥٦٤هـ)، وتخلصت مصر من هذا الطاغية الخائن الذى لعب بمقدراتها ردحًا من الزمن .

***

وفاة «أسد الدين»

ولم يمهل القدر «أسد الدين » ـ شيـركوه ـ لينعم بخيرات الفتح ، إذْ لم يمض عليه سوى شهرين فى تولى الوزارة حـتى توفاه الله تعالى، وكان ذلك يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٦٤)هـ .

وبوفاته ـ رحمه الله ـ اختفى من الميدان رجل يعد فى الطليعة من قادة المسلمين فى العصور الوسطى، ويتمتع بكفاءة عالية فى الإدارة والسياسة والنبوغ العسكرى.

***

خير خلف لخير سلف

كان «صلاح الدين» ـ يوسف بن أيوب ـ منذ تفتـحت عيناه على الحياة، الرفيق الدائم لعمـه «أسد الدين» ـ شيركـوه ـ ، سواء كان ذلك فى حروبهم تحت قـيادة «نور الدين»، فى الديار الشاميـة، أو خلال حملاتهم على مصـر، وبالإضافة إلى هذه المصاحـبة كان «صلاح الدين» من الشـجاعة والإقدام وبعد النظـر ، ما جعل عمه يختصه بمشورته وأخذ رأيه .

فمـا أن توفى «أسد الدين» حـتى برز اسم «صلاح الدين » كخلـيفة لعـمه فى الوزارة، وأيد ذلك الخليفة الفاطمى «العاضد » وأصدر مرسومه بتعيينه، كما جاءته البراءة من السلطان « نور الدين » فى التـثبيت، وقام «صلاح الدين» بالمهمـة خير قـيـام، ولسوف نرى ذلـك مفـصـلاً ـ بإذن الله ـ عندمـا نكتب فى سـيـرة بطل «حطين».

وحاول «صلاح الدين» أن يهـادن الخلافة الفاطمية فى مصـر، بانتظار ما سوف تسفـر عنه مؤامرات الصليـبيين، الذين لم يكفوا عن شن حـملات متتـابعة على مصر، بغرض القضاء على «صلاح الدين» وجنده، واستخلاص البلد إلى أيديهم، البلد التى ما زالوا يطمعون فيها، حماية لمملكتهم فى بيت المقدس، وكسبًا لخيرات مصر الوفيرة يتقوون بها وينعمون .

لكن هذه الحملات التى استمرت طوال عام (٥٦٥)هـ ، برًا وبحرًا، ردها كلها «صلاح الدين» وأوقع بها الهزيمة تلو الهزيمة .

***

كمـا أنه اكتشف أكثـر من مرة نوايا القصـر الفاطمى، وضبط أكثـر من رسالة سرية بعث بها الخليفة إلى الصليبيّين، فقبض على من كان يدعى«مؤتمن الخلافة»، وهو عبـد خصى أسود، ثم قـتله. . ، فثار أصحـابه من السودان، وكانوا بضـعة آلاف، فقضى عليهم وأطفأ نيران ثورتهم .

ثم إنه عين عددًا من أتباعة فى القصـر، وفى وظائف حساسة، يمسكون بزمام الأمور، ويضبطون الشئون، وينقلون إليه كل كبيرة وصغيرة .

***

بين «نور الدين» و«صلاح الدين» :

أقام «صلاح الدين » فى مصر ينظم شئونها، ويدافع عنها، ويؤكد سلطان «نور الدين» عليهـا، ولـم تنقطع المراسلات والإرسـاليات بينهـما، وقد طابت مـصر لـ «صلاح الدين» فلا يريد التحول عنها إلى بلد آخر، وهو مازال يجاهد أعداء الله،

سواء كان هؤلاء من الصليبيين أو الفاطميين، وقد استدعى إليها والده «نجم الدين» وعدداً كبيراً من الأيوبيين .

وكان قد بيت فى نفسه الخلاص من الخلافة الفاطمية فى مصر ، وما خلفته من آثار مذهبية وعقيدية فى نفوس الناس، ويحتاج ذلك منه إلى زمن ومناسبة .

كما أن «نور الدين» كان من ناحيته يتابع أنباء عامله على «مصر» فيقره عليها ، وفى نفس الوقت لا يكف عن مطاردة الصليبيين هنا وهناك، يضرب ضرباته، ويؤكد سلطانه، كما كان يقوم بقمع الفتن التى قد تظهر على الساحة من وقت لآخر فى مختلف أنحاء مملكته التى اتسعت كثيراً وامتدت شرقًا وغربًا .

***

الضربة المنتظرة :

كانت مملكة «بيت المقدس» هدفًا رئيسيًا لـ «نور الدين»، وقد تم له الآن ضم جناح مصر إلى الشام والعراق ، وبهذا يمكن الإطباق على مملكة «بيت المقدس» والخلاص منها .

ولقد مضت أربعة أعوام على فتح مصر ، وتثبيت سلطان «نور الدين » - أو «صلاح الدين» - فيها ، وقد آن الأوان وحان الحين للضربة المنتظرة .

وهنا - عزيزى القارئ - تبدو أحداث التاريخ على شىء من الغموض، بحيث خاض العديد من المؤرخين فى تصوير خلاف نشأ بين السلطان «نور الدين» وواليه على مصر«صلاح الدين» بعضهم يلوم «صلاح الدين» فى عدم التجاوب مع رغبة السلطان، ويزعم أن «صلاح الدين» قد رغبت نفسه فى الاستقلال بمصر.

***

حتى إنه فى آخر مرة اتفق فيها بين الطرفين على القيام بهذه الضربة الفاصلة، وكان ذلك فى عام (٥٦٩)هـ، وقد خرج «نور الدين» من «دمشق» حتى بلغ «الرقيم »، وخرج «صلاح الدين» من مصر. . ،ولم يبق على لقائهما غير يوم واحد، تغير الموقف. . ، وذلك تحت ضغط نفر من قادة «صلاح الدين» وأقربائه

الأيوبيين الذين أساءوا القول أكثر من مرة بحق «نور الدين»، فخافوا لقاءه وامتنعوا عن المسير، مما اضطر «صلاح الدين» إلى التعلل والاعتذار والعودة ،وضاعت الفرصة .

وعاد «نور الدين» إلى دمشق آسفًا، وطوى حزنه فى صدره، وقال لرسول «صلاح الدين» : (حفظ مصر أهم عندنا من غيرها).

***

وفاة « نور الدين » :

كان «نور الدين» على رأس السنة التاسعة والخمسين من عمره ، يبدو أنشط ما يكون وأكثر انصرافًا إلى الجهاد مما كان عليه أيام شبابه ، وقد حنكته السنون وصهرته التجارب وعلت هيبته ، وامتد سلطانه حتى خطب له فى الموصل والجزيرة وأربل وخلاط (شرقى آسيا الصغرى) ، وبلاد سلاجقة آسيا الصغرى، وديار مصر والحجاز واليمن وعدن ، وأصبح بذلك أوسع رجال زمانه سلطانًا فى الشرق والغرب، وكان قاب قوسين أو أدنى من القضاء على ما بقى للصليبيين فى الشام .

***

وقد أهل عليه عيد الفطر من عام (٥٦٩)هـ وهو فى تمام العافية ، واحتفل بختان ولده وولىّ عهده «إسماعيل» ـ الملقب بالملك الصالح ـ، وعاد من صلاة العيد وقد شعر بضيق فى صدره وألم فى حلقه وحنجرته ، فاعتكف قليلاً .

ثم خرج فى اليوْم التالى يتريَّض مع بعض أصحابه . . ، ثم عاد وقد اشتد عليه الألم ، وما زال التهاب لوزتيه يتفاعل حتى اختنق وأسلم الروح لبارئها ، وكان ذلك يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر شوال سنة (٥٦٩)هـ.

كلمة أخيرة:

من يظن أو يتصور أن حياة «نور الدين» من خلال عرض سيرته، كان الجهاد هو الجانب المشرق منها وحده يكون مخطئًا وبعيدًا عن الصواب ، فعلى الرغم من

أنه ـ رحمه الله ـ كان لا يفتر يومًا عن ركوب الخيل وقيادة الجند ومحاربة أعداء الله ، فإنه كان أيضًا من العباد الزهاد .

يقول المؤرخون عن صلاته: (كان حريصًا على الصلاة فى أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، وكانت له أوراد وتسابيح بالليل والنهار، حتى كان لا ينام إلا منتصف الليل، ثم ينهض فيتوضأ ويقبل على الصلاة والدعاء والأوراد حتى يقبل الصباح فيصليه، ثم يأخذ فى شئون دولته).

ومن هذا الإيمان العميق والشعور بالمسئولية ، أمام الله والناس، نبعت سياسته الإنشائية التى جاوزت كل حد مألوف، ذلك أنه كان يعتقد أن المدارس والمساجد هى قاعدة الدين ، فمضى ينشئها فى كل بلد دخلها تحت سلطانه حتى بلغت مدارسه ومساجده المئات ، وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة فى بنائها واجتهد فى اختيار شيوخها ، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة .

كما كان سبيله إلى ازدهار التجارة والصناعة فى بلاده بسط سلطان الأمان ، وعدم إرهاق الناس بالضرائب والمكوس، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الدخول وتميز المملكة النورية عن غيرها.

وأكد على هذا الأمان بانشاء محطات فى الطرق التى تصل البلاد بعضها ببعض، وتدبير ما يلزم المسافر إذا نزل فى خان من الخانات .

***

إلى غير ذلك من الأعمال الإصلاحية فى مختلف القطاعات ، والتى يذكرها المؤرخون لعهده بالفخر والإعزاز.

***

رحم الله « نور الدين » ـ محمود ـ وأجْزل له المثوبة ، وأكْرم نزله، وهيأ للأمة الإسلامية أمثاله من القادة العظام .

***

٧- الناصر صلاح الدين

بين يدى الناصر «صلاح الدين»:

بكل تواضع الذات والقلم والقرطاس نسطر هذه الصفحات ، ليس استجرارًا للذكرى ، ولا بكاءً على الأطلال ، ولكن حفزًا للنفوس التى أوشكت ذبالة إيمانها أن تنطفئ ، وبعثًا للهمم التى سلبتها ترابية الأرض أشواقها العليا ، وأهدافها السامية .

***

«صلاح الدين» ومن قبله «نور الدين»، و«خالد»[1] و«أبو عبيدة» و«سعد» و«أبو موسى» و«النعمان» و«عمرو» و«عقبة» و«موسى» و«طارق» و«محمد بن القاسم» و«قتيبة» . . .

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم.. إذا جمعتنا يا «جرير» المجامع

«صلاح الدين»: و«بيت المقدس» مع «حطين» صنوان لا يفترقان، وتوأمان ضمهما رحم الأمة، وغذاهما لبن الإسلام، فكان بروزهما إلى الوجود، وولائهما، إيذانًا لفجر جديد مضىء، بعد أن ران الظلام والظلم على قلب العالم الإسلامى ردحًا من الزمن فغشى على بصره وبصيرته .

***

(١) خالد بن الوليد ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ، سعد بن أبى وقاص ، أبو موسى الأشعرى ، النعمان بن مقرن ، عمرو بن العاص ، عقبة بن نافع ، موسى بن نصير ، طارق بن زياد ، محمد بن القاسم الثقفى ، قتيبة بن مسلم الباهلى.

«بيت المقـدس» أولى القبلتـين، ومـسرى ومـعراج النبى «مـحمـد» ﷺ وإلى مسجدها تُشَد الرحال، ولكن أين الرجال ؟؟

تتلاعب بمصـيرها أيد تدنَّست، بدمـاء الأنبياء، وتتـجاذبها أيد سـفلى ونفوس دنيا، رخصت وهانت،وبيعت فى أسواق نخـاسة النظام العالمى الجديد. .، وليس فينا رجل رشيد !؟.

قد قيل: لقد فـتحها «عمر» وحررها «صلاح الديـن» فمن لها اليوم؟ يكفكف دمعها، ويمسح عبرتها ، ويجلو عن وجهها قتار الهوان. .!

***

« صلاح الدين »، ليس هذا اسمه، بل هو لقـبه، فى عصر كثرت فـيه الألقاب وزادت وطمت، وكلها معلق بـ «الدين» (بدر الدين، شمس الدين، قطب الدين، مجير الدين. .) سلسلة لا تنتهى . . !

فقط . . أسـماء قليلة تجـاوب الحس فيـها ، وأدركت مـعنى الربط بين الاسم والمسمى ، فعاشت به وله ، وقامت أو استشهدت فى سبيله .

فكان « يوسف بن أيوب » ـ رحمه الله ـ صلاحًا للدين فـعلاً ، وصلاحًا للدنيا حقـيقة، فكان إلى جـانب مقامـه السلطانى (الإدارى والعسكرى) عـالمًا حافظًا محدثًا أديبًا طبيبًا ، كيميائيًا (صيدلانيًا) ، جمع فأوعى ، وتجاوب فأدى .

***

عزيزى القارئ :

فى الصفـحات التاليـة تجد إن شاء الله تـعالى ـ سيـرة البطل «صلاح الدين» ـ رحمـه الله ـ وأجزل مثـوبته ، قد تخـيرت لك فصـولها وأبوابها ، فى مـحاولة متواضعة أن أضيف إلى ما كُتب عنه بعض الذى غاب ، سائلاً المولى عز وجل أن ينفع بها، ويجعلها فى ميزان حسناتى يوم القيامة .

إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين.

الولادة والنسب والنشأة:

هو «يوسف بن أيُّوب بن شـاذى»، ينتـسب إلى قرية فى شـرقى «أذربيجـان» اسمها «دوين»، وهم ـ أى أهله وعائلته ـ من «الروادِيّة» من قبيلة «الهذانية»، وهى قبيلة «كردية» ، دخلت الإسلام منذ أيام الفتح .

ثم نزحت من ديارها فى «أذربيـجان» ونزلت فى «تكريت»، وهى إحـدى مدن شمال العراق، من أعمال «الموصل»، وفيها ولد «صلاح الدين» ـ يوسف بن أيوب ـ ونشأ نشأته الأولى .

***

وكانت هذه الأسـرة العريقة ذات تطلعات، وفـيها مؤهلات، وبعـد وفاة الجد «شاذى» سعى «أيوب» ـ نجم الدين ـ إلى الدخـول فى خدمة «آل زنكى» الذين بدأ ظهورهم على الساحة السياسية والعسكرية فى ظل الخلافة العباسية.

وتنقل «أيوب» بين «بغداد» و«الموصل» و«دمشق» وتقلب فى المناصب العليا، مما جـعل الفتـى الناشئ «صلاح الـدين» يعيش أوسـاط المجـتمـع الحاكم، صـاحب السلطة، ويقتـبس منه الكثير مـن أساليب الإدارة والسياسـة، كما أن جـو المعارك والحروب حفَّزه إلى الفروسية وإتقان فنون القتال .

وكـان إلى جانب ذلك قـد أتقن العـربيـة، وحفظ القـرآن الكريم، والحـديث الشريف، وألمَّ ببعض جوانب الفقه، وحفظ كثيرًا من أشعار العرب، حتى قيل إنه حفظ «ديوان الحماسة»، وما من شك أنه تأثر بأسلوبه ومعانيه وأغراضه.

***

ظل والده « أيوب» عامـلاً فى خدمـة «نور الدين» آل زنكى، ولكن فى النطاق الإدارى، أما عـمّه « أسد الدين» ـ شيـركوه ـ فقد مـال إلى الفروسية، والقـتال، وأظهر فى حروبه مع «نور الدين» براعـة فائقة، وإقدامًا وشجـاعة، مما جعل «نور الدين» يقدمه على غيره من قواده، ويعـتبره عضده الأيمن لذا لَزِم «صلاح الدين» عمه «أسد الـدين»، وكان لا يزال فى دور الفتوة، فلما بلغ مبلغ الـشباب، وكان

ذلك فى «دمشق» أعجب به «نور الدين» أيما إعجاب، وأحبه وقربه، وكان يخاطبه بلقب «الإسفهلار» - أى الأمير الفارس - وتركه فى رفقة وملازمة عمه «أسد الدين» يؤديان الخدمات وأعظمها للدولة «النورية».

***

عود على بدءٍ:

ومن أعظم ما قام به «أسد الدين» و«صلاح الدين» من إنجاز فى المجال العسكرى هو دخول «مصر»، وبسط سلطان «نور الدين» عليها، ورفع علمه، وإزالة كل المعوقات التى كانت تقف فى طريق ذلك، بدءًا من عام (٥٥٩)هـ، وانتهاء بعام (٥٦٤)هـ، فى ثلاث حملات متتالية [١].

ويهمنا هنا أن نذكر أن «صلاح الدين» - رحمه الله - كان الرجل الثانى بعد عمه «أسد الدين» فى تلك الحملات، وأن حنكته وشجاعته وإقدامه كانت من العوامل الرئيسية فى الفتح وبسط السلطان.

ويبدو من خلال تصرفاته وأعماله فى مصر أنه قد عشق البلد وأحب أهلها واستطاب جوها، وألف وجوده فيها كأنه واحد من أهلها، وقد بادله الناس هذا الحب العظيم بحب أعظم، وطاعة لاحد لها، سوف تترك بصماتها مستقبلاً على جهاده وفتوحه.

وكما كان «نور الدين» يرى فى مصر جناح الأمة الثانى - بعد الشام والعراق -، لا تنهض إلا به، ولا تحلق إلا من خلاله، كذلك كان «صلاح الدين»، فقد آمن إيمانًا مطلقًا بتوحيد القطرين (مصر والشام) تمهيدًا للإطباق على الوجود الصليبى فى ديار المسلمين والقضاء عليه.

وتلك - ولاشك - نظرية تتصل جذورها بأعماق القلب المؤمن، ثم تتجاوب مع ما أوتيه الرجل من عبقرية عسكرية فى القيادة والتخطيط والقتال.

---

(١) راجع كتابنا عن « نور الدين » ففيه التفصيل الكافى عن تلك الحملات.

لماذا اختلف «نور الدين» و«صلاح الدين»؟

بعد وفاة «أسد الدين» اختار «العاضد» الخليفة الفاطمى «صلاح الدين» ليتولى الوزارة، بدلاً من عمه، فقام بمهامها أحسن قيام، وضبط الأمور، وأعاد الأمن إلى أهلها فى مختلف نجوعهم وربوعهم، وخفف عن كاهل الناس أعباء ماكان يُجبى منهم من ضرائب ومكوس، فانشرحت صدورهم، وأقبلوا على العمل بنشاط وهمة، سواء كانوا فلاحين أو تجارًا، فازدهرت الأمور فى أيامه وعهده .

***

وكان «نور الدين» فى «دمشق» يخطب للخليفة العباسى، وحيث إن حملاته إلى مصر كانت تستهدف القضاء على الخلافة الفاطمية، إذ لا يجوز شرعًا أن يخطب لخليفتين فى بلاد الإسلام فى آن واحد، فقد كان يطلب ويلح فى الطلب من «صلاح الدين» أن ينهى مهزلة ما يسمى بالخلافة الفاطمية!!

لكن «صلاح الدين» كان يتمهل فى ذلك ويتأنى، وقد ظن بعض المؤرخين أن هذا التردد من «صلاح الدين» مرجعه إلى نواياه فى التفرد بمصر، والاستئثار بها ، دون سيده «نور الدين» .

كما أن بعض أصحاب الفتنة من الحاقدين والحاسدين كان يصور ذلك لـ «نور الدين» لينقلب على قائده الهمام، لكن، نور الدين «ظل مقيمًا على حسن الظن بـ«صلاح الدين» يحترمه ويتودد إليه .

***

والواقع أن «صلاح الدين» ـ رحمه الله ـ كان قد عاش بضع سنوات فى مصر وتأقلم بجوها العام، وأدرك مدى عمق المذهبية (الفاطمية) فيها طيلة قرون من الزمن، فليس من الحكمة استعْداء الناس. . ، واقتلاع ما فى نفوسهم بجرة قلم، وقد وظف الوقت لخدمة فكرته .

فما أن توفى «العاضد» آخر الخلفاء الفاطميين حتى بدأت عملية استعادة مصر إلى حضن أهل السنة والجماعة، فى إصلاحات جذرية، فأسست المدارس، وانتشر

شيوخ وفقهاء المذاهب الأربعة يعيدون إلى القلوب والعقول ماغاب عنها، ثم كانت الخطبة للخليفة العباسى فى «بغداد».

وهناك أثر آخر ...

فقد قيل على لسان بعض المؤرخين إن «صلاح الدين» كان أيضًا يتوانى فى الرد على «نور الدين» بالإطباق على الصليبيين، وفتح جبهتين، إحداهما من قبل مصر والأخرى من قبل الشام، وقد تكرر ذلك ثلاث مرات، وعزا هؤلاء المؤرخون هذا التباطؤ إلى خوف «صلاح الدين» من «نور الدين» . . ! ولماذا يخافه؟ .

***

والسبب الحقيقىّ هو أن نفرًا من قواد «صلاح الدين» هم الذين كانوا يخافون لقاء «نور الدين»، لأنهم بدرت منهم عبارات فى حقه تدل على خِسَّةٍ ونكران للجميل وتستوجب العقاب، من أجل ذلك خافوا لقاءه، بل ذهب بعضهم إلى تحريض «صلاح الدين» بالخروج عن طاعة «نور الدين». . ، فماذا كان قوله لهم؟ .

قال: (كان بلغنا عن «نور الدين» أنه قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة من أصحابنا يشيرون بأن نكاشف، ونخالف ونشق عصا الطاعة، ونلقى عسكره بمصاف ترده إذا تحقق قصده، وكنت وحدى أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شىء من ذلك).

ثم إن أقارب «صلاح الدين» كانوا كثيرين حوله، وكانوا جماعة من الطامعين، لا ينظرون إلا إلى الإفادة من هذه الفرصة التى أتيحت لهم، من غير جهد بذلوه، أو جدارة يستحقون عليها شيئًا، وقد شَقِىَ بهم «صلاح الدين» فى حياته، كما شقى بهم المسلمون بعد وفاته وهؤلاء الأذناب هم الذى حفزهم الخوف على أنفسهم وعلى ما فى أيديهم على ضرورة الإسراع بالعودة إلى مصر !

وكان قد تم التفاهم بين «نور الدين» و«صلاح الدين» على ضرورة القيام بحملة من كلا الجبهتين فى آن واحد، وإنزال الضربة بالصليبيين، وخرج كلاهما بجيوشه، حتى لم يعد يفصل بين لقاء البطلين سوى يوم واحد. . !

وضاعت الفرصة التاريخية . . !

بعد وفاة «نور الدين»:

كان لوفاة «نور الدين» ـ رحمه الله ـ ردود فعل واسعة شملت العالم الإسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه، وكان طابعها العام الحزن العميق لرحيل رجل كان من أعظم الرجال خلقًا ودينًا وسماحة، وجرأة وشجاعة وقيادة وتصديًا لأعداء الله والإسلام .

لكن فترة الحزن هذه لم تطل كثيرًا، خصوصًا بعد أن أطلت الأفاعى برؤوسها من جحورها تنفث سمومها .

لقد أجمع القادة فى «دمشق» على تولى «إسماعيل» ابن «نور الدين» مقاليد السلطة بعد أبيه، وكان فى الحادية عشرة من عمره، طفلاً صغيرًا، قد أهمه الحزن على أبيه، وليس بيده من الأمر شىء، وأقسم هؤلاء القادة على الإخلاص والتفانى فى خدمة «الملك الصالح إسماعيل»، والحذْو على نهج أبيه .

وأرسلوا إلى «صلاح الدين» بالخبر، فجاءهم رده بالعزاء والأسى، والتعهد بالطاعة، كما أرسل إلى «الملك الصالح إسماعيل» بعضًا من الدنانير قد ضرب عليها «اسمه»، وأن الدعاء له على المنابر، وأنه فى خدمته وطوع أمره.

***

لكن الأحوال فى الشام أخذت فى التدهور والاضطراب الشديد، فقد غزا «سيف الدين» ـ زنكى ـ بلاد الجزيرة، وقارب اجتياز «الفرات»، وضم كل ما استحوذ عليه إلى «الموصل»، وقام بعض الجيوش الصليبية فى تهديد أطراف الدولة «النورية» . .

ونزلت حملة صليبية ضخمة ميناء الإسكندرية، حملتها السفن من مختلف، البلاد الأوروبية، محملة بالفرسان والمشاة، وآلات الحرب من مجانيق ودبابات، وذخيرة وأطعمة، وقدر ـ لهذه الحملة ـ رغم قوتها وكثافة عددها ـ أن تبوء بإثمها، وتندحر ولا تبلغ غايتها، فقد هب المصريون للدفاع عن أرضهم وعرضهم ودينهم، وألحقوا بالعساكر الصليبية هزيمة شنعاء، قلَّ الناجون منهم، ووقع أكثرهم قتلى وأسرى.

وهذه الحملة قد أخرت «صلاح الدين» بعض الشىء عن قصد دمشق، وإعادة الأمور إلى نصابها .

***

صلاح الدين فى «دمشق»:

كانت رسائل المقدمين والأمراء تتوالى على «صلاح الدين» فى مصر، تشرح له الموقف فى الديار الشامية، وتستحثه فى الحضور ليمسك بزمام الأمور، ويضبط الأوضاع الشاذة، ويعيد الحق إلى نصابه والسيف إلى قرابه.

فلما فرغ من موضوع الحملة الصليبية ـ الآنفة الذكر ـ استعد للقدوم إلى «دمشق» تلبية لدعوة الداعين، ورغبة فى ضم الشام إلى جبهة القتال مع الصليبيين.

نفس الإحساس والمسعى الذى كان يراود «نور الدين» ـ رحمه الله ـ بالنسبة إلى مصر.

***

وكان مروره بعساكره على «بصرى» و«صلخد» فاستسلمتا إليه وانضمتا إلى سلطانه، ثم تابع سيره إلى دمشق، فدخلها من غير قتال ولا نزال، ولا طعن ولا إراقة دماء.

وكان أول ما فعله أن دخل دار «العقيقى» ـ مسكن أبيه من قبل ـ وتوافد عليه كبار المسئولين يعلنون الطاعة والولاء، عدا القائم بـ «القلعة» ـ «جمال الدين ريحان» ـ، فراسله السلطان واستماله وأجزل له عطاءه ونواله حتى استنزله، ودخل السلطان القلعة .

***

ثم أقام أيامًا شغل فيها نفسه برد المظالم ، ورفع كابوس الاستبداد ، ومنع المكوس والضرائب التى كانت تؤخذ قسرًا ، فانشرحت لذلك صدور العامة من التجار والفلاحين وغيرهم ، وأتوه وفودًا طائعين معلنين الولاء .

وتحقق للسلطان «صلاح الدين» أول هدف مرحلى من أهداف هذه الحملة، ولم يبق سوى أن يضم «حلب» ليكتمل العقد، وتتهيأ الفرصة للضربة الكبرى.

***

ومن أجل بلوغ «حلب» لابد من المرور بـ «حمص» و«حماه» وتأمينهما، ثم إن كلا المدينتين بقلعتيهما وجندهما وقيادتهما، قد دخلتا سلمًا فى طاعة السلطان، فاشتد أزره وحمى ظهره، ثم انتهض إلى «حلب».

وقد كان الملك الصالح «إسماعيل بن نور الدين» قد انتقل إليها، وأقام فيها، تحيط به طائفة من أصحاب المطامع، فلا يصدر إلا عن رأيهم، ولا يتحرك حركة إلا بأمرهم وحسب رغبتهم.

هؤلاء ... راسلوا «صلاح الدين» وهو فى الطريق إلى «حلب»، يتهددون، ويتوعدون، وينذرون بالحرب الضروس، وكان - رحمه الله - يستقبل رسلهم بكل حفاوة وترحيب، ولا يبدى انزعاجًا، ثم يرد على هذه الطغمة بأدب جم، وأسلوب مهذب، ويعلن لهم أنه لم يأت غازيًا أو طامعًا، إنما غرضه يتمثل فى رعاية «الملك الصالح» أولاً، ثم وحدة البلاد الإسلامية ثانيًا، والخلاص من الفرنجة ثالثًا. !

***

حصار «حلب»:

ووصل السلطان بجيوشه إلى «حلب» وعسكر قبالتها، ثم حاصرها، ولم يحدث بين الطرفين أدنى قتال.

إلا أن عصابة الحكم فى داخل المدينة، راسلوا ابن عم «الملك الصالح» - حاكم «الموصل» وصاحبها - واستعدوه على السلطان «صلاح الدين»، وما زالوا يفعلون حتى استجاب لهم وتهيأ للخروج من «الموصل» إلى «حلب» لنجدتهم.

وفى نفس الوقت راسلوا طائفة «الحشاشين» من الإسماعيلية، وكانت بينهم وبينهم موافقات مذهبية، وكلا الطرفين فيهما تشيع وباطنية، لكن «الإسماعيلية» كانوا أكثر رفضًا وتشددًا وغلوًا، ولهم آراء غاية فى البعد عن الدين الحنيف، وقد

ظهرت فيهم طائفة «الحشاشين» الذين اختطوا لأنفسهم خطة الاغتيال لكل من يقف فى طريقهم من القيادات فى مختلف البقاع والأقطاع، من أقصى الشمال الشرقى إلى أدنى الجنوب الغربى، من ديار الإسلام، فأرعبوا وأرهبوا.

***

وكان الخلاص من السلطان «صلاح الدين» أحد أهدافهم الأساسية، لأنه الذى أنهى الوجود «الفاطمى» فى مصر، وقضى على كل مظاهره الدينية المذهبية وانحرافاته عن أهل السنة والجماعة.

وهم ـ أى الإسماعيليون ـ بذرته الأولى فى «سلمية» وبؤرته التى باضوا فيها وأفرخوا .

***

النجاة:

تجهزت مجموعة من الحشاشين ، فى سرية تامة ، وكانوا فتاكين غدرة ، واندسوا ذات ليلة فى معسكر السلطان ، وما ريع الناس، من حرس وقادة، إلا والخناجر المسمومة تعمل فى بعضهم وتقضى عليه، حتى بلغ هؤلاء الغدرة ، خيمة السلطان، ولكن الله تعالى سلم وأنقذ وحمى ، فألقى القبض عليهم ، ونالوا جزاء ما قدمت أيديهم .

***

الاستنجاد بالفرنجة:

وحيث إن السهم لم يبلغ هدفه، ولا أصاب صاحبه، فكرت طغمة الحكم فى «حلب» تفكيراً آخر، فاستنجدوا بصاحب «طرابلس الشام» وبذلوا له كل ما يريد من مال ومؤن إن هو أنجدهم وفك الحصار عنهم، وكان صاحب «طرابلس» له ثأر على «نور الدين» ـ رحمه الله ـ وعلى المسلمين عامة، فوجدها فرصة لرد الاعتبار، فأرسل يتهدد صلاح الدين، وينذر بالحرب، فكان جواب السلطان: لست بمن يرهب بتألب الفرنج وها أنا سائر إليهم.

ثم بعث فرقة من جيشه إلى «أنطاكية»، فأصابوا منها، وعادوا ظافرين غانمين.

ولم يواجه صاحب «طرابلس» جيش السلطان، بل قصد إلى «حمص» مما اضطر السلطان أن يفك الحصار عن «حلب» ويعود إلى «حمص» لمواجهة هذا اللعين، لكن صاحب «طرابلس» ارتد على عقبيه، وقد اكتفى من المناورة، والمراوغة أن يرحل «صلاح الدين» عن «حلب» . . ، وقد تم ذلك.

***

العودة إلى «حمص»:

دخل السلطان «حمص» للمرة الثانية، وتسلم قلعتها ورتب فيها وعليها واليًا من قِبَلِهِ، ونظم شئونها وأمورها، وترك حامية حتى لا تكون مطمعًا للطامعين.

ثم قصد « بعلبك» . . ، فأرسل واليها يستنجد بمن فى «حلب» لما رأى من كثرة عسكر السلطان وجنده وأنه لاطاقة له بقتالهم . . ، فلم يردوا عليه، وتركوه لقدره، فطلب الأمان من السلطان، فأمنه، وتسلم السلطان «بعلبك».

***

أهل «الموصل» و أهل «حلب» إلب على السلطان:

كل هذا التحرك للسلطان «صلاح الدين» أثار حفيظة «سيف الدين» صاحب الموصل، واعتقد أنه إن تركه على ما هو عليه من التوسع استفحل أمره، ولم يعد لأحد قدرة، أو طاقة على الوقوف بوجهه، وزاده إلى اقتناعه هذا ما جاءه من أهل «حلب» من قبل يطلب النجدة، حين حاصرهم السلطان .

فجهز «سيف الدين» جيشًا كثيفًا، عدة وعددًا، ثم خرج إلى «حلب»، فانضم إليه من فيها من الجنود والقادة، وتوجهوا جميعًا لقتال السلطان «صلاح الدين».

والتقوا جميعًا عند «حماه»، فتراسلوا وتفاوضوا، وأظهر السلطان كثيرًا من المرونة والتنازلات، مما أطمعهم فى غيرها، وتشددوا .

وما كان غرض السلطان «صلاح الدين» وأهل «حلب» إلا استنفاد الوقت، ليصل إليه المدد الذى طلبه من مصر، وقد وصلت طلائعه فعلاً.

وإزاء تشدد أهل «الموصل» وأهل «حلب» رفض السلطان كل مطالبهم، فأزمعوا الحرب وأنشبوا القتال ودارت رحى المعارك، وما هى إلاَّ جولات، حتى وقعت بهم الهزيمة فمات أكثرهم، وفر من الميدان بعضهم، وأسر عدد من كبارهم ورءوسهم، فمن عليهم السلطان المظفر وأطلق سراحهم، وعادوا إلى منازلهم ومواقعهم من ديارهم، وترك السلطان موضوع «حلب» إلى أن يحين الوقت المناسب، وعاد إلى دمشق.

***

نحن الآن على أعتاب سنة (٥٧١) هـ، وقد بلغ السلطان «صلاح الدين» من العمر واحدًا وأربعين عامًا، وقد دانت له أكثر بلاد الشام، ولم يبق إلا القليل، رغم أنه لم يدخلها قادمًا من مصر إلا منذ عام واحد فقط.

وها هى الأيام تأخذ دورة جديدة،كلها فى صالح السلطان، فقد كان الرجل جديرًا بحق أن يتولى القيادتيْن العسكرية والسياسية، إذ أوتى الخبرة فى كليهما، أضف إلى ذلك ما تربى عليه من دين وتقوى والتزام بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه .

***

الهدنة:

بينما كان السلطان نازلاً بمرج الصفر، خارج «دمشق» جاءته رسل الفرنجة يطلبون الهدنة، فوافقهم، وكانت لمدة عشر سنوات، إلا أنه اشترط عليهم شروطًا التزموا بها، وتعهدوا بالوفاء ببنودها .

وقد وافقت تلك الهدنة خطته، فلابد من «حلب» وحتى «الموصل»، ولابد من إقرار الأمن والأمان فيها، وتوحيدها، تحت راية الدولة الصلاحية، وهذه الهدنة تهيئ له الظروف المناسبة للتحرك شمالاً وشرقًا دونما خطر صليبى يتهدده من الجنوب .

وفى ذلك العام (٥٧١هـ) أصاب البلاد الشامية جدب وقحط، فقلت الموارد وارتفعت الأسعار، فبعث «صلاح الدين»، بجند إلى مصر، ليقيموا فيها ريثما تتحسن الأوضاع، ثم يعودوا حين الطلب، وأوصاهم بحمل ما يستطيعون من المؤن والزاد .

***

عند « إعزاز» وإعزاز من أعمال «حلب»:

وكان نزول السلطان عند «إعزاز» بسبب اغتنام فرصة الهدنة لترتيب الوضع الداخلى للديار الشامية، وسد الثغرات، وتنقية الجبهة الداخلية من كل الشوائب.

وكانت «إعزاز» حصنًا منيعًا، فحاصرها وشدد عليها، وأقام على ذلك أيامًا، وفى ليلة الحادى عشر من شهر ذى القعدة تعرض السلطان للاغتيال على أيدى الحشاشين للمرة الثانية، وكانت هذه المرة قاسية مريرة.

يقول صاحب كتاب «الروضتين»:

(قفز الحشيشيَّة على السلطان ليلة الأحد وهو نازل على «عزاز» ، وكان للأمير «جاولى الأسدى» خيمة قريبة من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات، وترتيب المهمات، وحض الرجال، والحث على القتال، وهو بار يبث أياديه قار على الدهر بكف عواديه، الحشيشيَّة فى زىّ الأجناد وقوف، والرجال عنده صفوف، إذ نفر واحد منهم فضرب رأسه بسكينة، فعاقته صفائح الحديد المدفونة فى لِمَّتِه عن تمكينه، ولفحت المدية خده فخدشته، فقوى السلطان قلبه، وحاش رأس الحشيشى إليه وجذبه ووقع عليه وركبه، وأدركه «سيف الدين بازكوج» فأخذ حشاشة الحشيشى وبضعه وقطعه. . ، وجاء آخر فاعترضه الأمير «داود ابن منكلان» فمنعه، وجرحه الحشيشى فى جنبه، فمات بعد أيام، وجاء آخر فعانقه الأمير «على بن أبى الفوارس» وضمه من تحت إبطيه، وبقيت يد الحشيشى من ورائه لا يتمكن من الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب، فنادى: اقتلونى معه، فقد قتلنى وأذهب قوتى وأذهلنى . . فطعنه «ناصر الدين ـ شيركوه » بسيفه ، وخرج آخر من الخيمة منهزمًا وعلى الفتك بمن يعارضه مقدمًا، فثار عليه أهل السوق فقطعوه .

وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه، وقد جزعه الحادث وفزعه الكارث، وصوته جهـورى، وزئيره قسْورىّ، ودم خده سائل، وعطف روعـه مائل، وطوقه «كراغنده» بتلك الضربة مفكوك، ونهج سلامته مسلوك) .

ثم يستطرد صاحب «الروضتين» فى وصف ما أصـاب السلطان وقواده ومخيمه من بلبلة ورعب، ولم يتـزحـزح السلطان عن موقـفـه فى حصـار «إعزاز» حـتى فتحها، ثـم إنه قصد «حلب» والسبب فى ذلك أن الطغمة الحاكمـة فيها هم الذين دبروا مؤامرة الحشاشين، من الإسماعيليـة «الباطنيين» لاغتيال السلطان، وأحضروا لهم زِىَّ جند السلطان، ورسموا معهم خطة المؤامرة .

وأحاط بحلب من كل مكان وشدد الحصار عليها تشديدًا لم تعهده من قبل، فأرسل إليه أصحـابها، وعلى رأسهم «الملك الصـالح إسماعيل » يطلبـون الصلح، ويتذللون ويتعطـفون، ويبدون غـاية الخضـوع، فرق لهم وكف عن حـصارهم، وعقـد الصلح معهم، وأبقى الملك الصالح قائمًا بالأمر عليها وكان ذلك مع مطلع سنة (٥٧٢) هـ.

***

العودة إلى مصر:

خرج السلطان من دمشق يوم الجمعـة رابع شهر ربيع الأول، بعد أن استتب له الأمر فى الشـام، واستمكن، وكـان وصوله إلى القـاهرة بعد اثنى عشـر يومًا من رحلته، وكان وصحبه فى شوق زائد إلى مصر، لا يوصف ولا يقدر .

وبعد أن أقام أيامًا لـلراحة واستطلاع أحوال القطر خلال غيـابه، استدرك أمورًا لا بد من عملها وعلى الفور:

أولاً : الحـركة العلمـية، إذ أقـام سـوقًا فى القـصر لـبيع الكتب، يومـان فى الأسبوع، فـأخرجت المخطوطات من الخزائن وقد تراكم فوقـها التراب، ونشطت حركة البيع والشراء و أقبل العلماء على الاقتناء والدرس والبحث والسرح .

ثم عول على إنشاء المدارس، هنا وهناك، وامـتلأت، بل اكتظت بطلاب العلم والمعرفة، وازدهرت حركة الثقافة .

ثانيًا : الرعاية الصحية، فقد أنشأ السلطان عددًا من المستشفيات، وكانت تعرف - آنذاك بـ «البيمارستان» - جند لها عددًا وافرًا من الأطباء فى مختلف الاختصاصات.

ثالثًا : القلعة، والتى لا تزال إلى يومنا هذا شاهدًا حيًّا على روح البطولة العسكرية والفروسية التى كان يتمتع بها السلطان الناصر «صلاح الدين الأيوبى» - رحمه الله -.

يقول صاحب كتاب «الروضتين»:

(وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أدير عليهما سورًا واحدًا من الشاطئ إلى الشاطئ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد «سعد الدولة» على جبل «المقطم»، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقطم، وانتهى إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم. . ، وبنى القلعة على الجبل وأعطاها حقها من إحكام العمل وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه).

إلى الإسكندرية:

ولـ «الإسكندرية» فى نفس السلطان ووجدانه مقام عظيم، ومنزلة عالية، فهو لا ينسى على الإطلاق يوم حصاره فيها، وما لقيه من تأييد شعبها وتضامنهم معه، وصد الأعداء عنها.

أضف إلى ذلك موقفها كثغر عظيم فى حوض البحر الأبيض المتوسط، لا يعادله ثغر آخر، لذا حركه الشوق إليها، وفاءً منه لها، واستطلاعًا لأحوالها وأوضاعها، وما هى بحاجة إليه، سواء على صعيد الأمن، أو على صعيد العمران.

فقصدها فى الثانى والعشرين من شهر شعبان سنة (٥٧٢) هـ، وجعل طريقه على دمياط ثانى أشهر الثغور، وكان أيضًا معقلاً من معاقل الشاطئ الشمالى

للقطر المصرى، فاطلع السلطان على حاله وما يلزمه، وأمر بما يجب، ثم تابع طريقه إلى «الإسكندرية».

فلما أتاها نوى الإقامة فيها طيلة شهر رمضان، يوزع وقته بين العبادة والاطلاع على أحوالها، وكان أهم مالفت نظره الأسطول..! فأمر بتجديده وإعداده وتزويده وأشرف بنفسه على كل ذلك، وجعله على أتم الاستعداد للقيام بأية مهمة توكل إليه.

***

وقبل عيد الفطر بأيام عاد السلطان إلى القاهرة ، فأتم بها صومه .

يقول صاحب كتاب «الروضتين»:

(... والسلطان متوفر ليله ونهاره على نشر العدل وإنشاره ، وإفاضة الجود وإغزاره، وسماع أحاديث رسول الله ﷺ وأخباره، وإشاعة العِلْم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإفناء إعلام الباطل وإنكاره)[١].

***

إلى غزة و« عسقلان»:

وكانتا من أمنع الثغور على الشاطئ الفلسطينى، التابع لمملكة بيت المقدس، وحيث إن الفرنجة قد نقضوا عهد الهدنة الذى طلبوه من السلطان ووافقهم عليه، فإنهم بعملهم هذا قد آذنوا بالحرب واستمرارها، فقصد السلطان هذين الثَّغْرين بجند كثيف وعدة كاملة، ولما أتاها عاث فيها وخرب، وسبى وغنم، وقتل وأسر.

ثم أوغل فى البلاد هنا وهناك، يغير على الحصون والقلاع، ويضرب ضرباته الموفقة، حتى بلغ «الرملة»، وهى على بعد أميال من «بيت المقدس»، وهناك حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد تجمع له فرسان «الداوية»[٢] من الصليبيين فى

(١) يقصد الكاتب : طمس معالم المذهب الإسماعيلى الذى كان يدين به الفاطميون.

(٢) فرقة من متشددى الصليبيين ، أضحى لهم شأن كبير ونفوذ واسع، ولا يبتغون مملكة معينة من الممالك، ومثلهم مثل «الاستبارية » أيضًا.

كمين، فلما أراد السلطان اجتياز نهر اعترضه، وقد توسط جنوده بآلاتهم الحربيَّة ومُعدّاتهم وزادهم وخيولهم ماء النهر، خرج عليهم الكمين الصليبى من كل مكان، وأوقع بقوات السلطان..

وقد استشهد العدد العديد منهم، وقتلوا وهم فى دفاعهم عن أنفسهم أضعاف من راح منهم..، وما نجا من المسلمين إلا القليل، وقد استطاع السلطان أن ينقذ بعض فرسانه وجنده، ويتقهقر بهم.

وكانت هذه الهزيمة عند «الرملة» من أقسى ما واجه السلطان فى تاريخ حروبه مع الصليبيين، حيث لم يُهزم له جيش ولم تسقط له راية.

وعاد «السلطان» إلى القاهرة بمن معه، وتتابع من بعده من استطاع النجاة، وكانت وقعة «الرملة» (٥٧٣)هـ.

***

عشر سنوات من المناوشات:

ومنذ عام (٥٧٣)هـ حتى عام (٥٨٣) هـ..، والسلطان يعمل على أكثر من جبهة؛ انشغل بإصلاح البلاد فى مصر والشام، بالعمارة ورتق الفتوق، وإعادة من شذ إلى الأصول وتحصين الحصون، والإغارة على الصليبيين، وتأمين طريق الحج للمسلمين وكان من أهم الإنجازات هدم «بيت الأحزان» على رءوس أصحابه من الفرنجة.

ذلك أن فرسان «الداوية» أقاموا حصنًا منيعًا فى الطريق التى كان يسلكها السلطان بين الشام ومصر، وقريبًا من «صفد» و «طبرية»، وبذلك ضيقوا على المسلمين حركتهم، فأرسل إليهم السلطان طالبًا هدمه وإزالته، لكنهم تمسكوا به وحاولوا استنزاف الأموال من السلطان، متذرعين بتكاليفه الكثيرة، وعرض عليهم ستين ألفًا من الدنانير، لكنهم رفضوا ذلك، فلم يعد يفكر فيه إلى أن يحين الوقت المناسب، ليجعله ركامًا على رءوس أصحابه.

***

موقعة «مرج عيون»:

(وهى بلدة لبنانية الآن، تقع تحت سفح «جبل الشيخ»، وتكتب: «مرجعيون»).

فقد ظن فرسان «الدواية» أصحاب حصن «بيت الأحزان» وعدد غير قليل من قادة الصليبيين، أن السلطان فى تراخيه عن موضوع «بيت الأحزان» إنما هو ضعف منه ، وكانوا يعلمون انشغاله الكثير فى الشام وغيرها، على مدى اتساع الديار التى انضوت تحت سلطانه وحكمه، فجهزوا حملة كبيرة وقصدوا الشام.

وكان السلطان «صلاح الدين» آنذاك متنقلاً بين «بعلبك» و«دمشق» وغيرهما، حتى بلغ «بانياس» و«تل القاضى»، يغير بفرسانه على بعض نواحى السواحل فيخرب زروعها ويجمع غلاتها، ويعود بالأسرى.

ثم أجمع رأيه مع بقية القادة على أن يقتحموا على الصليبيين ديارهم، ويَسْتَوعِبُوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد، ثم يرجعوا.

فرحلوا صوب «البقاع»،وفى صبيحة اليوم التالى (ثانى المحرم) سنة (٥٧٥)هـ، جاءه الخبر بأن الفرنجة قد خرجوا ـ كما قدمنا ـ.

فالتقاهم، وأنزل الله نصره على المسلمين، وقد قتل من أمراء وقادة الصليبيين عدد كبير، وأسر من زعمائهم ما زاد على مائتين وسبعين.

***

إلى «القاهرة»:

ورجع السلطان الناصر «صلاح الدين» إلى مصر، وأقام فيها حتى سنة ٥٧٧هـ، وفى تلك الأثناء مات صاحب «الموصل» ثم تبعه صاحب «حلب»، وقد انضمتا من بعد إلى المملكة الصلاحية، وأضحت الديار الشاميَّة بتمامها وكمالها، وشمال العراق ، تخضع لنفوذ «صلاح الدين» مما جعل مسئوليته أكبر وأشد وطأً.

***

وأقام فى الديار المصرية طوال عام ٥٧٧هـ، يجوب البلاد شرقًا وغربًا، يوطد الحكم ويعزز السلطان بالأعمال العمرانية، والزراعية والتجارية والعسكرية.

ولما أهلت سنة ٥٧٨هـ، خرج من مصر إلى الشام، مستصحبًا العسكر، وقد أبقى النصف الأخر لحماية الأمن، والدفاع عن الثغور.

وكان هذا الخروج آخر عهده بمصر ..!

***

ألا ترى - عزيزى القارئ - كم كان السلطان الناصر «صلاح الدين» قائدًا هماما مهتمًا، لا يستكين لحظة ولا يهدأ دقيقة، دائم التنقل والترحال، والانشغال، رافعًا راية الجهاد مستمسكًا على جواده ،كأنه يقضى فوقه ليله ونهاره!!.

وقد صدق الشاعر إذ قال:

يومًا بجُيٍ ويومًا فى دمشق وبالفـ ... سطاط يومًا،ويومًا بالعراقَينِ

كأن جسمى وقلبى الصَّبّ ماخُلِقا ... إلا لِيَقْتَسِما بالشوقِ والبَيْنِ

***

قلعة «صلاح الدين» :

وهى غير قلعة جبل «المقطم».

إنها تقوم فى الطرف الشرقى من شبه جزيرة «سيناء» فما الداعى إلى وجودها هناك ؟ومتى أقيمت؟

كان صاحب حصن «الكرك» فى جنوبى «الأردن» كثير التعرض للحجاج المسلمين، القاصدين بيت الله الحرام لأداء الفريضة، وقد اضطر أكثرهم إلى استخدام البحر الأحمر وسيلة إلى بلوغ الساحل الحجازى، تجنبًا للخطر.

لكن هذا اللعين بنى أسطولاً أنزله ميناء «العقبة» عند «أَيْلَهَ» ثم أخذ يتعرض من جديد للسفن التى تقل حجاج المسلمين إلى الديار المقدسة.

عندئذ أمر السلطان ببناء أسطول أيضًا للدفاع عن حرمات هؤلاء المسلمين المؤمنين، وتأمين سلامتهم فى طريقهم إلى الحجاز.

وبنى القلعة فى ذلك المكان النائى، وأصبح الطريق سالكًا آمنًا، وكان السلطان قد أقسم يمينًا إن تمكن يومًا من صاحب «الكرك» ليقتلنَّهُ بيده.

وقد وفى السلطان بقسمه هذا بعد فترة من الزمن، حين وقع صاحب «الكرك» فى أيدى المسلمين، بعد معركة «حطين» و«فتح بيت المقدس».

***

معركة «حطين»:

تعتبر معركة «حطين» بالمقاييس العسكرية فى حينها أعظم إنجاز للسلطان الناصر «صلاح الدين» فى التخطيط لها، وإدارة المعركة، وروح الفروسية التى تجلت لدى أبطالها، سواء من استشهد منهم وقضى نحبه، أو من بقى منهم ينتظر (وما بدلوا تبديلا).

***

و«حطين» قرية صغيرة من قرى فلسطين تقع بين بحيرة طبريّا (الحولة)، وبين مدينة «عكا» على الساحل، وهى أقرب إلى « طبريا » منها إلى«عكا».

دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، ولولا المعركة الحاسمة الشرسة التى جرت عندها لبقيت هملاً لا يذكر، وهكذا قدر لها أن تبرز وأن تظهر، وأن يرتبط اسمها باسم «الناصر صلاح الدين» والقضاء على جيوش الصليبيين، وتكون إرهاصًا بفتح «بيت المقدس»، وتضاؤل الوجود الصليبى فى البلاد الإسلامية بعد أن أقاموا فى البلاد عقودًا من السنين قاربت القرنين من الزمان.

وقبل الحديث عن المعركة وتفاصيلها والتى يتحدَّث عنها المؤرخون الذين عاصروها والذين أتوا من بعدهم، بشىء كثير من الإسهاب، حتى أدقّ دقائقها، وجزئيات تفاصيلها، وكأنَّك تشاهدها بأم العين، قبل ذلك كله أقدم للقارئ العزيز أبياتًا من قصيدة نظمها «أبو الحسن على بن الساعاتى»:

جلت عزماتُك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنينا
وهان بك الصليب وكان قدمًا يعز على العوالى أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء دينا

وما طبرية إلا هـدى	ترفّع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء	وسل عنها الليالى والسنينا
فَضَضْت ختامها قسرا ومن ذا لقد	يصد الليث أن يلج العرينا
أنكحتها صُمُّ العوالى قضيت	فكان نتاجها الحرب الزبُونا
فريضة الإسلام منها	وصدقت الأمانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجًا	وترضى عنك مكة والحجونا

***

وهى قصيدة طويلة تبلغ (٣٧) بيتًا .

وهنا ـ عزيزى القارئ ـ أترك « ابن شداد » ـ أحد مؤرخى عصر الدولتين ـ النورية والصلاحية ـ يتحدث بلسانه وأسلوبه عن مجريات المعركة .

***

يقول: «ابن شداد»:

(لّما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين، عزم السلطان على قصد «الكرك»، فسير إلى «حلب» من سيحضر العسكر ـ وبرز من «دمشق» فى منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض «الكرك» منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على من فى طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك.

وأقام ـ رحمه الله ـ بأرض «الكرك» حتى وصل الحج الشامى إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر ومعه بنت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض «أنطاكية» وبلاد «ابن لاون»، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه «لاون» بالملك، وكان الملك المظفر بـ «حماة»، وبلغ الخبر السلطان، فأمر بالدُّخول إلى بلاد العدو، وإخماد ثائرته، فوصل «تقى الدين» إلى «حلب» ونزل بدارة العفيف «بن زريق»، وانتقل إلى دار «طمان».

وفى تاسع صفر خرج بعسكر «حلـب» إلى «حارم» ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل.

وعاد السلـطان فوصل إلى السواد ونزل بــ «عشتـرا» سابع عـشر ربيع الأول، ولقيـه ولده «الأفضل» و«مظفر الديـن» وجميع العـساكر، وكـان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجـانب الحلبى مع الفرنج ليتفرغ البال مـع العدو فى جانب واحد، فصالحهم، وتوجه إلى «حماة» يطلب خدمة السلطان للغزاة.

فسار العـساكر الشرقية فى خـدمته وهم عسكر «الموصل» يتقدمـهم «سعود بن الزعفرانى»، وعسكر مافاردين. . . إلى أنأتُوا «عشترا» فلقيهم السلطان وأكرمهم.

ثم عرض السلطـان العساكـر منتصف ربيع الأول على تل يعـرف بتل «تسيل» ورتبهم واندفع قاصداً بلاد العدو فى وسط نهار الجمـعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمع، لاسيمـا أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعـاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة.

وبلغه أن الفـرنج اجتمـعوا إلى مرج «صفـورية» بأرض «عكا» فقصـد نحوهم للمصـاف معهم، فـسار ونزل على بحـيرة «طبرية» عند قـرية تسمى «الصـبرة»، ورحل من هناك ونزل غربى طـبرية، على سطح الجبل لتـعبيـة الحرب، منتظراً أن الفرنج إذا بلغهم ذلـك قصده، فلم يتحركـوا من منزلهم، فنزل جريدة [١]، على طبرية، وترك الأطلاب [٢] على حالهـا قبالة وجه العـدو، ونازل «طبرية»، وزحف عليها، فهجمها وأخذها فى سـاعة من نهار، وامتدت الأيدى إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها.

فرحل الفرنج وقصدوا «طبرية» للدفاع عنها، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الفرنج، فسير إلى السلطان من عـرَّفه ذلك، فترك على «طبرية» من يحفظ قلعتها، ولقى العسكر هو ومن معـه، فالتقى العسكران على سطح جبل «طبرية»، الغربى منها، وحال الليل بين الفـئتين، فباتتا على مصاف، شـاكيتيْن فى السلاح

---

(١) الجريدة : فرقة من الخيالة .

(٢) الأطلاب: فرق الجيش المواجهة للعدو فى تعبئتها الكاملة.

إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمى «اللوبيا»، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهما الظلام.

وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة مالم يحك عمن تقدم، وبات كل فريق فى سلاحه ينتظر خصمه فى كل ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذى بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس.

وتحقق المسلمون أن من ورائهم «الأردن»[1] ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم إلا الله، وكأن الله تعالى قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ما قدره، فحملت الأطلاب الإسلامية فى الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين).

وكان «القمص» ذكى القوم وألمعيهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مجاسنة جنسه عن يقينه، فهرب فى أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو «صور»[2]، وتبعه جماعة من المسلمين، فنجا وحده، وأمن الإسلام كيده .

واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة، تتبعها أبطال المسلمين، فلم ينج منها واحدة واعتصمت الطائفة الأخرى بتل «حطين»، وهى قرية عنده، وعندها قبر النبى «شعيب» ـ عليه السلام ـ.

فضايقهم المسلمون على التل ، واشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفًا من القتل، فأسر مقدَّموهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفًا على نفسه.

***

(١) أى : نهر الأردن .

(٢) على الساحل الجنوبى للبنان .

ولقد قيل فى عدد القتلى والأسرى مقالة تدل على الكثرة، التى لا تعد ولا تحصى، إذ قال أحد الذين حضروا المعركة وباشروا القتال: (إذا نظرت إلى جثث القتلى ظننت أنه لم يكن هناك أسير، وإذا نظرت إلى عدد الأسرى ظننت أنه لم يكن هناك قتلى).

***

ونعود إلى متابعة حديث «ابن شداد» فى وصف المعركة، فيقول: (ولقد حكى لى من أثق به أنه لقى بـ «حوران» شخصًا واحدًا ومعه طنب[1] خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرًا يجرهم وحده!! بخذلانٍ وقع عليهم.

وأما «القمص» الذى هرب فإنه وصل إلى طرابلس وأصابه «ذات الجنب» فأهلكه الله بها، وأما مقدمو «الاسبتارية» و«الداوية» فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما «البرنس أرناط»[2] فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله ـ وقد مر ذلك بنا ـ، وذلك أنه كان عبر به فى «الشوبك» قَفْل من الديار المصرية فى حالة الصلاح (أيام الهدنة) فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله الصلح الذى بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبى ﷺ وقال : قولوا لـ «محمدكم» يخلصكم . . » وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر، جلس فى دهليز الخيمة ـ فإنها لم تكن قد نُصبت ـ والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة، وجلس فرحًا مسرورًا شاكرًا لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك «جفرى».[3] وناول الملك شربة من جلاب مثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها «البرنس أرناط» فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذى تسقيه . . ، وإلا أنا ما سقيته.

وكان على جميل عادة العرب، وكريم أخلاقها، أن الأسير إذا أكل وشرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بذلك الْجَرىَ على مكارم الأخلاق.

---

(١) طنب الخيمة : عامودها فى وسطها الذى يرفعها .

(٢) البرنس الأمير ، صاحب حصن «الكرك».

(٣) جفرى « جودى فروان».

ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئًا، ثم عادوا واستحضروهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك فى الدهليز، واستحضر «البرنس أرناط»، وأوقفه على ما قال. . ، وقال: ها أنا أنتصر «لمحمد»، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، ثم سل السلطان سلاحه وضربه به، فحل كتفه[1]، وتمم عليه من حضر، وعجل الله بروحه إلى النار، فأخذ ورمى على باب الخيمة.

فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك فى أنه يثنى به.

فاستحضره السلطان وطيب قلبه وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا (أى: البرنس أرناط) فإنه جاوز حده، فجرى ما جرى.

***

وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حُبُور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح فى يوم الأحد، فنزل (السلطان) ـ رحمه الله ـ، على «طبرية»، وتسلم فى بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

***

إلى « عكـــا »:

ثم رحل السلطان طالبًا «عكا» وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر، وقاتلها بكرة الخميس مُستهل جمادى الأولى، فأخذها، واستنقذ من كان فيها من أسرى المسلمين، وكانوا زهاء أربعة آلاف، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والمؤن.

***

ومنها إلى « نابلس»:

وأقام السلطان أيامًا بعد فتح « عكا » على التل مخيمًا، وقد انتوى فتح بلاد الساحل كلها، وكتب إلى أخيه «العادل» فى مصر بما فتحه الله عليه، وطلب إليه

(١) أى أصابه فى كتفه.

أن يقدم عليه بعسكره، فجاءه على جناح السرعة، وفتح فى طريقه حصن «مجدل بابا» ومدينة «يافا» عنوة، ثم أمره السلطان أن يقيم مكانه بانتظار أوامره.

ثم وجه السلطان عدة من الأمراء والجنود إلى «الناصرة» و«قيسارية» والبلاد المجاورة لـ «عكا» و«طبرية»، فعادوا بالغنائم والظفر المبين.

ثم توجه إلى «نابلس» فافتتحها وعين عليها واليًا هو ابن أخته «حسام الدين عمر بن محمد بن لاشين».

***

وظل السلطان ـ رحمه الله ـ عاملاً دائبًا فى فتح المدن والقلاع والحصون، حتى أصغر القرى، ساحلاً وجبلاً، امتدادًا من «جبيل» و«بيروت» شمالاً إلى أقصى الجنوب عند «يافا» ومن «عكا» إلى «نابلس» وما يحيط بهما، وكأنه يُطَهِّر الأرض المحيطة ببيت المقدس، تمهيدًا لفتحها وتخليصها من أيدى الصليبيين.

***

المقصد الأسنى:

قال «العماد»: (نزل السلطان على غربِّى القدس من يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان فى «القُدْس»، حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسهام، واستوقنوا للحمام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة منا بمئتين، ودون «العَمَامة»[١]. تقوم القيامة، وبِحُبِّ سلامتها تقل السلامة.

وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسم على حصاره أهل الجلد، وأبصر فى شماليِّه أرضًا رضيها للحصار، متسعة المجال للأسماع والأبصار، ممكنة للدنو منه للنقب إن صار من حيز الأنصار.

(١) كنيسة القيامة .

فانتقل إلى المنزل الشمالى يوم الجمعة، العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنيقات ـ قد نصبت بلا نصب قدام القتال والنزال، وفرسانهم فى كل يوم يباشرون دون الباشورة أمام جموعهم المحصورة المحسورة المحشورة، ويبرزون ويبارزون، ويطاعنون ويحاجزون، المطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائهم ينهلون وينتهلون، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [البقرة: ١١١].

وممن استشهد مبارزًا الأمير، «عز الدين عيسى بن فلك»، كان أبوه صاحب قلعة «جعبر»، فاغْتَنَمَّ المسلمون من صرعته، وهان عليهم إتلاف المهج، فركبوا أكناف الرهج، حتى وَصَلُوا إلى الخندق فخرقوه، وبدَّدوا جمع العدو وفرقوه، والتصقوا بالسور فنقبوه، وحشوه وأحرقوه وصدقوا وعْد الله فى القتال لأعدائه وصدقوه.

ولّما غضَّتهم الحرب، ووقع السور واتسع النقب، فصعب على العدو الهين، وهان للمسلمين الصعب. عقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا ما بينهم ضرورة،وقالوا: ما لنا إلا الاستئمان، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان.

وأخرجوا كبراءَهم ليأخذوا لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم، وقال ـ رحمه الله ـ: لا آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين، منذ إحدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل. . ، فأنا أفنى رجالهم قتلاً، وأحوى نساءهم سبيًا.

فبرز ابن بارزان ـ ليأمن السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان، وتسامى فى سومه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نديم لكم الهوان، ونأخذ مملكتكم قسرًا، ونوسعكم قتلاً وأسرًا، ونسفك من الرجال الدما، ونسلط على الذرية والنساء السبا، وأبى فى تأمينهم إلا الإبا. فتعرضوا للتضرع، وخوفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم وخبْنا من إحسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولاسلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنا نستقل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم،

ونلقى أنفسنا على النار بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبة[1]، ونترك عليكم فى سبينا السُّبة، ونقلع الصخرة[2]، ونوجدكم عليها الحسرة، والمصانع نخسفها، والمطامع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير، ما بين غنى وفقير، وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم وشت شملهم، وأما الأموال فإنا نعطيها ولا نعطبها، وأما الذرارى فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبى، ولا يقبل لكم سعى، ولا يسلم عمرو ولا عمارة، ولا نصار ولا نصارة، ولا نساء ولا صبيان، ولا جماد ولا حيوان، فأى فائدة لكم فى هذا الشح، وكل خسر لكم فى هذا الربح، ورب خيبة جاءت من رجاء النجح، ولا يصلح السوء سوى الصلح.

فشاور السلطان أصحابه، فقيل له: الصواب أن نحسبهم أسارى فتتبعهم نفوسهم، ونعم لصغار الجزية رءوسهم، ويدخل فى القطيعة مرءوسهم ورئيسهم.

واستقر الحال بعد مراودات، ومعاودات ومفاوضات، وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنَّه من عجز بعد أربعين يومًا عما لزمه، أو امتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرِّق، وثبت فى تملُّكه الحق، وهو عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغير أوصغيرة ديناران، الذكر والأنثى فيهما سيّان.

ودخل «ابن بارزان» و«البطريق» ومقدمو «الداويّة» و«الاسبتارية» فى هذا الضمان، وبذل «ابن بارزان» ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء، ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج من بيته آمنًا ولم يعد إليه ساكنًا.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردوه بالرغم والغضب لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم من

---

(١) قبة المسجد الأقصى.

(٢)ـ الصخرة : مربط براق النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

الدواب، ووكَّل بكل باب أمير ومقدم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبْس وعدم الفرج، ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوْفر حفظه، لكنْ تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخففًا فى الرحال، ومنهم من غيرً لبسته فخرج مخفيًا بِزِىّ الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد، والثقاة الأكابر استنابوا أصاغر فأقاموا فى تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر.

وادعى «مظفر الدين كوكبرى» أن منهم جماعة من أرمن «الرها» وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها.

وكذلك صاحب «البيرة» ادعى ما عدته الكثيرة، زهاء خمسمائة أرمنى، ذكر أنهم من بلده، وإن الواصل منهم إلى «القدس» لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلعها وحصل له مرفقها.

ثم تولى الملك «العادل» استخراجهم، وقوَّم على الأداء منهاجهم.

وسهل على «السلطان» لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفّر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سماحة الابتهاج.

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، فى كل ديوان منها عدة من النواب المصريين، وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطابًا بالأداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطة على من بالباب من الأُمناء والوكلاء.

***

وكانت بـ «القدس» ملكة رومية متعبدة مترهبة، فى عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها متلهبة، وفى التمسك بملَّتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدر القطرات من الحزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فاستعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن فى إخراج كل ما لها فى الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من

مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها ، وأسفاطها[1]، وأعدالها، الصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها.

وكذلك خرجت الملكة ابنة الملك «آمورى» وكانت مقيمة فى جوار «القدس»، مع مالها من الخول والخدم والجوارى، فاستأذنت فى الإلمام بزوجها الأسير، وكان بقَيْدِهِ مقيمًا فى برج «نابلس» موكلاً به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها، فخلصت هى ومن تبعها، وأقامت عند زوجها.

وكذلك خرجت «البرنسيسة ـ أم هنرى»، محاطة بنوابها، وجاءت بولدها العانى، فوعدت إن سمحت بِحصْنِها سمح بولدها، ثم أعفيت وأطلقت، وعصمت على أن يستحضر ابنها «هنفرى ابن هنفرى» من دمشق إليها، فقرت برؤيته عينيها، وسار معهما من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل).

***

عزيزى القارئ:

لقد أحببت أن أنقل لك الصورة بأسلوب من كتبها من مؤرخى تلك الفترة الزمنية، وعلى لسانهم، وبعباراتهم نفسها ـ مع قليل من التصرف ـ لتكون عندك أوقع وأوثق، ومع التاريخ أصدق.

ولقد رأيت ـ عزيزى ـ القارئ ـ من أريحيَّة السلطان «الناصرصلاح الدين» وشهامته ودينه وخلقه، ما سجله له التاريخ بأحرف من نور، وما زال يشع على مدى الأزمان وعرف له ذلك العدو قبل الصديق.

وما تزال سيرته العظيمة تملأ قلوب كل الناس.

***

---

(١) الأسفاط : البسط والسجاد .

دخول الملك الناصر «بيت المقدس»:

كان الفتح يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب وكان مصادفة كريمة طيبة أن يكون ذلك اليوم يوم ذكرى «الإسراء والمعراج» ولله تعالى فى تدبيره وتقديره شئون.

وقد ذكرنا أن تدفق الناس للخروج من «بيت المقدس» قد استمر أيامًا.

فلما كانت الجمعة التالية، وقد تطهر بيت المقدس ممن دنّسوه، وآذوه، دخل السلطان «الناصر صلاح الدين» تحف به القيادات والعلماء والكبراء، وتتقدمه الرايات والبُنُود، حتى بلغ المسجد الأقصى، وكانت يد الكفار الصليبيين قد عَبَثَتْ به، وغيرت كثيرًا من معالمه وأحدثت فيه من التشويهات والأذى مالم يكن يخطر على بال.

لقد طمسوا معالم المحراب والمنبر، وألصقُوا بهما مبنيين أحدهما يكون أهراء للغلال، وآخر مراحيض لقضاء الحوائج، فأمر السلطان العُمّال على الفوْر بإزالة هذه المنكرات، وإبراز معالم المنبر والمحراب الشريفين، وسد الثغرات، وعُلِّقَت القناديل، وفُرِشَت الأرض بالسجاد بعد تطهيرها وغسلها، وارتفع الأذان يجلجل ويدوى، وترددت كلمات التكبير والتهليل فى أرجاء المسجد الشريف.

وحضرت الصلاة، فأداها السلطان مع جموع المسلمين مؤتمين بالقاضى «محى الدين أبى المعالى محمد بن على القرشى الزكى بن الزكى»، وكان قد خطب فيهم خطبة بليغة، مست القلوب، وأنعشت الأرواح، وجلَتْ صدأ النفوس.(ولولا الإطالة لكنت سردتها بتمامها).

وكان السلطان ـ رحمه الله ـ قد أمر أيضًا بإزالة كل المبانى التى أُلصقت بالمسجد من كل ناحية حتى بات منفردًا متميزًا، طاهرًا مطهرًا .

***

ولم يكتف السلطان بما فعل، بل أمر من بَعْد بتجديد المحراب، وتسويته بالرخام وزخرفته بالآيات، وإقامة منبر جديد لائق غير الذى كان قائمًا؛ ثم تذكر السلطان شيئًا . !

لقد كان الملك العادل «نور الدين» ـ رحمه الله ـ قد أنشأ مِنْبراً لبيت المقدس، قبل الفتح بعشرين سنة، وهيأه لليوم الموعود، فأرسل السلطان إلى «حلب» فى الطلب، فحمل منها إلى «بيت المقدس» ووضع مكان المحراب القديم، فكان تحفة فنية راقية قل نظيرها.

ولا ننسى ـ عزيزى القارئ ـ هذه اللفتة الكريمة من الملك «الناصر صلاح الدين» التى تحمل أسمى معانى الوفاء والحب، والذكرى الجميلة، لمن وضع أسس الجهاد ضد الفرنجة، وفجر الحروب الصليبية، وقضى شطرًا كبيراً من عمره يجاهدهم ويضيق عليهم، ويحضرهم، حتى حمل الراية من بعده البطل «صلاح الدين » فأتم الرسالة وأكْمَلَ المهمة.

***

« الصخرة » وقبتها:

و«الصخرة» الشريفة ـ عزيزى القارئ ـ هى التى توقف عندها البراق ..، حين أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام ـ فى مكة ـ إلى المسجد الأقصى ـ فى بيت المقدس ـ ، وعندها صلى رسول الله ﷺ إمامًا بإخوانه الأنبياء . . ، ومنها كانت رحلته التاريخية العظيمة إلى السماوات العلى مع «جبريل» عليه السلام.

هذه الصخرة الشريفة لها فى قلب كل مسلم مؤمن منزلة ومكانة، فلا يفرط فيها، ولا يستهان بها . . !!

***

ويقول المؤرخون المعاصرون لفتح «بيت المقدس»: (أما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا ـ قد بنوا عليها كنيسة وأعادوا رسومها القديمة، وستروها بالأبنية، وعوجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هى أشنع من التعرية، وملئوها بتصاريف التصاوير . . . . . . إلخ. . إلخ).

فتولاها بناءً على أمر السلطان القاضى «ضياء الدين عيسى» فصانها بشبابيك من حديد وثبت أركانها وأزال ما كان عليها وحولها، وأعادها صافية نقية كما كانت،

ووقف عليها السلطان دارًا وأرضـا وبستانًا، وخصص لها إمامًـا وقرّاءً، فلا تنقطع فيها الصلاة، ولا تسكت الآيات، وتتردد فى جنباتها آناء الليل وأطراف النهار.

***

تطهير البلاد:

كان لوقعـة «حطين» وفتح «بيت المقدس» دوى كبير فى مـختلف الأنحاء وأثره البـالغ على نفوس الناس، فـقد اشـتـدت العزائم، وقـويت الرغبـة فى إزالة كل المظالم.

وأخـذ السلطان الناصـر «صـلاح الدين» - على مـدى ثلاثة أعـوام، من عـام (٥٨٣) إلى عام (٥٨٥)هـ، لا يهدأ ولا يكل، فما ترك حصنًا ولا قلعة ولا مدينة ولا ثغرًا إلا نزل به، وحاصره، وقضى عليه، من ساحل البحر المتوسط إلى أقصى بادية الشام شرقًا، ومن الديار الشامية، حتى عمق الساحل عند البحر الأحمر.

ولم يبق للصليبـيين، سوى فلول بسيطة لا تقوى علـى مناهضة، ولا تقوم إلى قتال .

***

الصليبيون فى « عكـا»:

وغلت مراجـل الحقد فى كل أنحـاء أوروبا، وجاش التـعصب فى نفـوسهم، خاصة بين الملـوك والأمراء، والقساوسة، فـعادوا ينفخون فى النار حـتى اشتعلت وتوقدت، وتطايرت شـررًا، وقصدوا فى جـيوش متـحالفة إلى السـاحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، عبر سفن كثيرة وفيها جنود غفيرة، وعتاد وذخيرة، ومؤن وفيرة.

وقصـدوا إلى «عكا» . . لسـببين، أولهـما: أنها الطريق إلى «بـيت المقدس»، وثانيهما لضعف حاميتها، ومناعة حصونها من ناحية البر.

واستطاعوا مع عـام (٥٨٦)هـ أن يحطوا الرحال على شواطئها، ثم يقتـحموها من ناحية البحر، ويستولوا عليها،

وكانت هذه بداية معاناة شديدة للسلطان الناصر «صلاح الدين»، فلقد أنفق وقتًا طويلاً، ومالاً جزيلاً، وجندًا كثيفًا دون أن يحقق الفوز والنصر على فرنجة عكا.

فقد كانت إمداداتهم من ناحية البحر تتوالى.

وبعد لأيٍ، صرف السلطان النظر عن فتحها، جراء ما لقى هو وجنده من العنت والمشقة، وعاد إلى «دمشق» وفى النفس غصة وفى القلب حرق.

ثم جاءته الأنباء بعزم الفرنجة على الخروج من «عكا» إلى «بيت المقدس» لاستعادته، فهب على الفور فى جنده وخيله، واتجه إلى «بيت المقدس» وأقام فيها يزيد فى تحصيناتها، وأسوارها، ثم توجه نزولاً إلى الساحل، مارًا بمختلف الحصون والقلاع، يزيد مناعتها وقوتها للدفاع عن أرض الإسلام.

***

فلما علم الصليبيون ذلك، توقفوا عن متابعة خطتهم، واكتفوا بما حققوه على طول الساحل من «عكا» إلى عسقلان من بسط نفوذ وسلطان، وهم يعلمون تمام العلم أن لا قدرة لهم على منازلة السلطان فى معركة مكشوفة، ولولا أنهم وراء الأسوار المنيعة العالية فى «عكا» لما صمدوا واستمروا.

***

والواقع - عزيزى القارئ - أن موضوع «عكا» قد شغل حيزًا كبيرًا من جهود السلطان، وأفنى فيه وقتًا، واستشهد من جنوده العدد العديد، ولكن الله تعالى لم يأذن بالفتح.

وبقيت «عكا» شوكة فى جنب الجسم الشامى تؤرقه وتولمه.

ولقد أسهب المؤرخون فى وصف وقائعها المتعددة المتكررة إسهابًا كبيرًا ومطولاً، لأنها فى النهاية سوف تسقط وينتهى أمرها ولكن على يد بطل آخر، تسلم الراية بعد «صلاح الدين»، ومن بعد عصره، ذلكم هو «الظاهر بيبرس البندقدارى»، وفى ظروف - أخرى.

***

الصلح مع «ديكاردوس» الملقب بـ «قلب الأسد»:

وحيث إن الفرنجة قـد أقاموا لأنفسهم فى «عكا» رأس جسـر، توالت حملاتهم من أوروبا إلى شـرقى حـوض البحـر الأبيض المتـوسط، وكـانت كلهـا تنزل فى «عكا»، أو على السواحل القـريبة منها، ولكن رأس هذا الجسر كـان مقطوعًا. . ، لا يستطيعون أن يجتازوه، فقد كانت لهم العساكر الإسلامية بالمرصاد، رغم تردى الأحوال بين الطرفين، وكثرة الوقائع، وفناء العدد الذى لا يحصى من الجند.

ثم كثرت المفاوضات والـرسل بين ملوك الفرنجة، وعلى رأسهم «ريكاردوس» - قلب الأسد - وبين السلطان، حتى عُقـد الصلح بين الطرفين ، وبقيت «عكا» فى أيدى الصليبيين، وسُـمح لمن أراد منهم الحج إلى «بيت المقدس» على أن يكون فى حماية المسلمين.

***

«صلاح الدين الطبيب»:

عزيزى القارئ: هناك ظاهرة فى شخصية السلطان «الناصر صلاح الدين» قل أن تعرض لهـا المؤرخون، فقد شـغلهم الحديث بجهـاده وبطولاته، وحكمه وإدارته، وقيادته السيـاسية. . ، عن الحديث فى علو كعبه العـلمى، وخاصة فى الطب. لقد كان «صلاح الدين» - رحـمه الله - من حفظة القرآن الكريم، ومـن حفظة حديث النبى ﷺ وله باع فى الأدب، خصـوصًا فى الشعر، إذ حـفظ - وهو لا يزال فتى صغيـرًا «ديوان الحماسة» للشـاعر أبى تمام، وقيل أيضًـا إنه كان على علم بالفلك والنجوم وحركاتها.

ولكن الأهم من هذا كله (غير حفظ القرآن والحديث) إتقانه للطب، فى حدود ما تعارف عليه العصر، وكان مقدمًا فى ذلك.

مرض «ريكاردوس» مرة، فأرسل إلى السلطان، فى أيام الصلح، يسـتسعفه فى إرسال طبيب ليعالجه، وكان العرب مـتقدمون على الفرنجة فى هذا المضمار، وهم يعلمون.

ولقد قيل بأن «صلاح الدين» بدلاً من أن يرسل طبيبًا إلى «ريكاردوس» قصده بنفسه مع مرافق له متخفيًا، ثم عالجه بالعقاقير والأدوية اللازمة، حضرها بنفسه - أيضًا-، ثم شفى «ريكاردوس» وما علم بحقيقة الواقعة إلا بعد شفائه، فأكبر ذلك وعظمه.

ونحن لا تهمنا الواقعة إلا بحدودها الزمنية وظروفها الموضوعية، ولكن الذى يهمنا هو إلقاء الضوء على شخصية «صلاح الدين» - الطبيب.. والصيدلى...، أين تعلم هذا ؟ وعلى يد من؟ ومتى؟ وما مدى الممارسة؟.

كلها أسئلة لا يجيب أى مرجع عنها، ولا أى مؤرخ، فيبقى هذا الجانب الهام من شخصية «الناصر صلاح الدين» فى ضمير التاريخ.

الوفاة:

وما أطلت سنة (٥٨٩)هـ، حتى كانت شمس السلطان قد آذنت بالمغيب ... كان مقيمًا فى دمشق، يرعى شئونها وشئون الولايات والأمصار، والأقطار، وقد أشرف بنفسه يومًا على وصول موكب الحجيج، وقد دمعت عيناه، لأنه لم يؤد هذه الفريضة واستطلعهم عن أحوالهم وأحوال الحجاج، وأبدى اهتمامًا كبيرًا.

***

وفى ذات يوم خرج إلى الصيد، وكان يحبه، وحمل معه زادًا لخمسة عشر يومًا وما عاد منه إلا وهو فى حالة من الضعف، والكلل.

***

ولزم داره، وقد ثقل بدنه، وزادته الصفراء ألمًا.

وفى ليلة السبت السادس عشر من شهر صفر بلغ منه المرض غايته، وقد غشيته الحمى الصفراوية، وكانت فى باطنه أكثر منها فى ظاهره.

وفى اليوم التاسع من مرضه غشيته غيبوبة، وامتنع عن تناول أى شراب، وأصابته رعشة شديدة، وتناقل الناس خبر مرضه هذا، فى حُزْن ظاهر، وغم عظيم.

وفى اليوم العاشر من مرضه، عاودته بعض العافية، ففرح الناس لذلك أيما فرح وظنوا أنها حالة من الحالات التى كانت تلم به، فما يلبث أن يعود إليه نشاطه، ويخرج من فراشه، ويتوسط دست مجلس سلطانه.

ولكنه كان ظن فى غير محلّه، فما أتى اليوم الثانى عشر من مرضه حتى انتكس انتكاسة شديدة، وغاب عن الوعى كليًا.

ثم اختاره الله تعالى إلى جواره، وكان ذلك صبح ليلة الأربعاء الثانى والعشرين من شهر صفر، سنة (٥٨٩)هـ، ـ رحمه الله تعالى ـ وأنزله منازل الشهداء والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقا .

***

وكان يوم الجنازة يومًا مشهودًا، لم تعرف دمشق له مثيلاً، فما بقى فى البيوت والمنازل إنسان إلا وخرج يشيع البطل إلى مثواه الأخير، وصلى عليه الناس، أرسالاً[1]، بإمامة القاضى «ابن الزكى».

***

كلمة أخيرة:

كلمة أخيرة، وليست نهائية . .

لأنه لا يزال فى القلب والعقل والوجدان متسع لصلاح الدين ولا يزال للقلم مجال، وأى مجال!!

ليس لنا وحدنا بل لكثير من المفكرين والكتاب.

ولا تزال سيرته وشخصيته ميدانًا فسيحًا وأرضًا طيبة خصبة لكل من أراد أن يسهم ولو بجزء ـ مشكور ـ فى الحديث عن البطل.

لقد ارتبط اسم سيدنا «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ بفتح بيت المقدس مع نهاية العقد الثانى من الهجرة، وارتبط اسم البطل الناصر «صلاح الدين» ـ رحمه الله ـ بتحريرها فى نهاية القرن السادس للهجرة.

* وها هى اليوم تستغيث . . !

---

(١) ارسالاً : جماعات جماعات .

* تستغيث من الإرهاب الصهيونى . . !

* وتستغيث من دنس التآمر العالمى . . !

* وتستغيث من تنازع الورثة . . ! وكأنها سلعة يتاجرون بها ، ولا يملكون من أمرها شيئًا . . .

اللهم إلا نفوس مؤمنة، ما تزال تركع وتسجد، وتبتهل فى جنبات الأقصى الشريف.

وأخشى ما أخشاه أن يصدق فينا حديث رسول الله ﷺ (...**حتى يدعو خيارهم فلا يستجاب لهم**).

***

القدس تستغيث سائلة أين البطل ؟

أين الحر الشـريف؟ أين المؤمن الصادق؟ أين المسلم الحق؟ أين «عـمر» . . أين «نور الدين»؟ أين «صلاح الدين»؟

أولئك ـ رضى الله عنهم ورحـمهم ـ قـد انتـقلوا إلى جوار ربهـم، فـهل نحن أموات غير أحياء كالأنعام بل أضل سبيلا!!..

والقدس رمز لكل مقدس . . .

فأين قدسيـة الإسلام فى نفوسنا؟ وأين قدسية الإيمان فـى قلوبنا؟ وأين قدسية الإنسان فى أوطاننا؟

هانت النفوس، وهانت الدماء، وهانت الأموال والأعراض. . ، وهان المسلمون فى كل أنحاء العالم، اللهم إلا من فـئة مؤمنة، قد طحنتهـا رحى الظلم من جهة والإرهاب من جهة أخرى، فلا تملك نفعًا ولا ضرًا.

عُزلت عن المشاركة فى صنع المصير، وحُبست فى غير حبس، وغُلت فى غير قيد. . !

***

اللهم إنا نسألك الهـداية والرشاد، والصحوة الحق، على كل المسـتويات، كى نلقاك وأنت راض عنا، يا أرحم الراحمين.

***

٨- سيف الدين قطز

هل يصنع الرجال أنفسهم ؟ أم تصنعهم الأحداث ؟

تساؤل لمعادلة قد تكون مبتورة أو ناقصة إذا ما أخذنا بأحد طرفيها فقط دون الآخر، إذًا لا بد أن تكون فى الرجل طاقة مهيأة مكنونة تنفجر مع الحدث العظيم، فيصبحا كلاهما وحدة لا تتجزأ. فـ«عين جالوت» و«سيف الدين قطز» وحدة تاريخية لا يمكن الفصل بينهما ، على الرغم من وجود عوامل أخرى ثانوية جانبية، سواء كانت شخصية، أم ظرفية، أم مكانية، تضافرت جميعها، وساعدت على ظهور (البطل) و(النصر)؛ فاقترنا وتزاوجا، وأصبحا علمًا واحدًا.

ونحن حين نترجم لـ «سيف الدين قطز» يدفعنا إلى ذلك تسجيل حدث تاريخى من أخطر وأشد ما واجهته الأمة الإسلامية على امتداد قرون حياتها، ألا وهو خطر «التتار»، الذى انبثق من أواسط آسيا زاحفًا كأرْتال الجراد، فى كل اتجاه، يأكل الأخضر واليابس، ويدمر كل شىء، كأنه الإعصار . . .

ما ترك دولة أو دويلة من منطلق زحفه، من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، إلا جعلها أثرًا بعد عين أو قاعًا صفصفًا، وكلها ديار إسلامية، من «خوارزم» إلى «خراسان» إلى «فارس» إلى « العراق » إلى « الشام » حتى كاد يبلغ « مصر » .

وما القضاء على «بغداد» عاصمة الخلافة الإسلامية بالصورة الهمجية التى تمت بها، إلاّ مثالاً حيًا على هذا الزحف الرهيب المخيف.

لقد كانت «بغداد» يومئذ ليس فقط عاصمة الخلافة، بل حاضرة العالم كله، بكل ما فى الكلمة من معنى، موئل علم ومصدر إشعاع، وغنى ما بعده غنى ؛ فإذا بها بين عشيَّةٍ وضحاها أطلالاً تنعى من بناها . .

الحرائق تأكلهـا، والدماء تصبغ «دجلة» باللون الأحمـر، إذ غلبت الدماء على الماء، وأزهقت أرواح أكـثـر من مليـونين من السـكان، شيـبًـا وشـبـانًا، نسـاءً وأطفالاً . .، مـجزرة بكل المعانى والـصور، مجـزرة للحضارة الإنسـانية فى ذروة اكتمالها.

ثم حـدث ولا حـرج عن باقى المدن والأقطـاع من «حلب» و«الجـزيرة» إلى «حـمص» و«حـمـاه» و «دمشـق» ، فقـد لاقى الجـمـيع بعض مـا جـرى فى «بغداد». . .

كان الهدف واضحًا هو القضاء على الإسلام والمسلمين !!!

ولسنا نبالغ فى هذا . . .، فقد تكالبت نصارى البلاد الشامية، وبقايا الصليبيين مع غزاة التتار يؤيدونهم ويعاونونهم، ويقاتلون معهم أحيانًا ؛

ولـم تكن أخطار الحملات الصليبية قـد زالت بعد، فإنه ما يزال لها فى الديار الإسلامـية بعض الوجـود الذى يؤرق المضاجع ، والعـملاء الذين تحركـهـم بين الحين والحـين عوامل المذهبيـة ، ودوافع الحقد ، والأنانيـة ، يتواصلون مع هذا الطرف أو ذاك حسب المصلحة ووفق المكاسب الرخيصة ، ولو على حساب الأمة والدين.

وكما كانت «حطين» فى أرض فلسطين بدء النهاية للوجود الصليبى. . .

كذلك كـانت «عين جـالوت» فى فلسطين ـ أيضًا ـ وقـفًا للزحف التـتارى ، وارتداده ، ثم تلاشيه ونهايته !

ولا يفوتنا هنا أن نسـجل بفخر وإعزاز ـ وثقة ـ أن (جند مـصر) كانوا هم الدعـامة الأسـاسية فـى دحر هذين الخطرين الهـائلين، على امـتداد عـشرات السنين؛ ولقـد صـدق فيـهم قـول الصادق الأمـين ﷺ **[إنهم خيـر أجناد أهل الأرض]**.

ولقد ارتبط اسم سيف الدين « قطز» بمعركة «عين جالوت» ارتباطًا وثيقًا. . . !

و«عين جالوت» فى التاريخ مفصل هام وأساسى، لابد من الوقوف عنده طويلاً، استذكارًا واعتبارًا، ودرسًا وتحليلاً للقائد وشخصيته، للظروف السياسية. . .، والدينية. . .؛ لكل جزئية كبيرة أو صغيرة رافقت ذلك اليوم الأغر، وللآثار التى ترتبت عليه من بعد .

ونحن حين نترجم لسيف الدين «قطز» ـ رحمه الله ـ، ونؤرخ لـ «عين جالوت» نهدف إلى أمرين اثنين ؛ أولهما : بعث الروح الإيمانية فى نفوس أبنائنا واعية ناضجة ، ليكونوا عباد الرحمن حقًا ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣]! وثانيهما : التحذير والتنبيه بأن معركة الحق مع الباطل قائمة أبدًا ، مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن أولياء الشيطان عصبة واحدة ، مهما اختلف اللون واللسان والجنس .

لكن ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢].

جاء فى الصفحة (٢١٠) من كتاب (ذيل الروضتين) ، فى وصف سيف الدين « قطز » (القائد) ، ما يلى :

[وكان « قطز » هذا موصوفًا بمواظبة الصلاة ، والشجاعة ، وتجنب شرب الخمر ، رحمه الله]

عبارات قليلة تؤدى أغراضًا شتى ، وتوحى بمعان كثيرة تتمحور حول شخصية (القائد). . !

***

المغول والتتار

يختلط الاسمان عند كثيرين من الناس فلا يميّزون بينهما، حتى من بعض ذوى العلم، أو أدعيائه فيطلقون هذا على ذاك، وذاك على هذا .

والواقع أن التتــار فرع من أصل هم المغول، كــانوا يعيشون جــميعًا قــبائل فى أواسط شرقى قارة آسيا، مــثل حياة البدو تمامًا، بكل معطياتها وظروفهــا السياسية والاجتماعية والمعيشية، وكانوا وثنيين، فيهم قسوة وغلظة وجفاء .

إلى أن ظهر فــيهم «جنكيزخــان» ـ فى نهاية القــرن السادس الهجــرى، وكلمة «جنكيزخان» تعنى :المحارب الكامل؛ فأعلن نفســه إمبراطوراً، سيدًا مطلقًا، ومن ثم بدأ تحركــه، وكان أخطر تحرك عــرفته القــارة الآسيويــة على امتداد تاريخــها، واتساع رقعتها .

اجتاح الصين. . . ، ثم اتجه غربًا فدخل أرض الإسلام، وغزا «خوارزم» وقتل من جيــشهــا (١٦٠) ألف جندى، ثم دخل «بخــارى» وأحرقهــا، وسلب ونهب وسبى منها ما شاء له طغيانه، ثم استمر فى تقدمه نحو الغرب، فقاومته «نيسابور» فكان جزاءُ أهلها الذبح والقتل، وبقى فى تقدمه إلى أن لقى حتفه .

فخلفه ابنه «مانجو» فسارعلى خطة أبــيه، فغزا ما بقى من الصين، ثم ارتد غربًا واكتسح روسيا وجعلها ولاية مغولية، عام (٦٣٣)هـ؛ وكذا استولى على «بولندا» و«المجر» .

وتم لـ «مانجو» السلطان الكامل على المغــول عام (٦٤٩)هـ؛ فولّى أخًا له على الصين، وسيَّــر أخاه الثانيِ «هولاكو» ليغــزو غرب آسيا، فدخل «بغــداد» وهدمها (٦٥٦)هـ؛ وقضى على الدولة العــباسيــة، ووَصَل إلى فلسطين، ولكنه هُزِمَ على أيدى المماليك فى معركة «عين جالوت» سنة (٦٥٨) هـ .

بعد هذه الهزيمة توقفت فتوحات المغول ، وتجزأت دولتهم إلى أجزاء ، يحكم كلاً منها «خان» مستقل اعتنق ديانة المنطقــة التى يحكمها، فاعتنق حكام شرق آسيا (البوذية)، ودخل خانات غرب آسيــا وأواسطها فى الإسلام؛ وكان من بين هؤلاء «التتار» بزعامة «تيمورلنك» .

***

اسمه ، وأصله ، ونسبه:

أما الاسم فشأنه شأن كثير من أسماء المماليك، لها مدلولها فى لغتهم الأصلية؛ مثل: «بيبرس» و«أقطاى» وغيرهم .

حتى إن كثيراً من المفردات والاصطلاحات قد شاع استعمالها فى إبان استيلائهم على السلطة وظهور نفوذهم، سواء فى مصر أو فى الديار الشامية، من «دمشق» حتى «حلب» وأقاصى «الجزيرة». والجزيرة يا عزيزى القارئ - فى الطرف الشمالى الشرقى من البلاد السورية، إنما سميت بذلك لأنها تقع بين نهرى «دجلة» و«الفرات» وتعد من أجود الأراضى خصوبة .

وفى نفس الوقت الذى عُرف فيه «قطز» باسم المملوكى، كان قد عرف عنه أيضًا اسمه العربى واشتهر به: «محمود» .

***

أصله: من «خوارز» وكانت دولة مستقلة لها كيانها ولها حضارتها ولها تاريخها، وشهدت عهوداً مجيدة فيما بعد إسلامها، ولقد نبغ فيها كثير من القادة السياسيين (ملوكها) الذين حافظوا بحبات القلوب على إسلامها ونهضتها؛ وتميزها، كما نبغ فيها كثير من علماء المسلمين الذين تركوا بصماتهم جلية ظاهرة على تراثنا .

ويقال بأن «قطز» كان من أفراد العائلة المالكة[1]؛ ولكنه كان صغيراً حين احتدمت المعارك الطاحنة بين «التتار» المغيرين على البلاد الخوارزمية، وبين جيشها وأهلها، ووقع «قطز» فى السبى بعد هزيمة الخوارزميين .

فحُمل إلى «دمشق» وبيع فى أسواق النخاسة فيها، فاشتراه المعز «أيبك» وضمه إلى مماليكه؛ وهكذا كان شأن قادة المماليك البارزين، ذوى النفوذ والسلطان، يَسْتقوون بهؤلاء، ويستكثرون منهم، يربونهم ويدربونهم على الفروسية والقتال، ليكونوا لهم عدة فى تنافسهم على السلطة.

---

(١) كان « قطز » ابن أخت الملك - كما تقول الروايات التاريخية .

وبهذا أصبح «قطز» أحد العنـاصر المقربة والمحببة إلى المعز «أيبك» ولقـد اشتهر بالإخلاص والتبعية والطاعة، أضف إلى ذلك أخلاقه وصفاته، فقد كان نزاعًا إلى التدين، مـواظبًا على الصـلاة، لم يذق خمـرًا ولم يقترف إثمًـا أو معـصية، فـيه شجاعة وشهامة .

ولقد ترك كل هذا سمعة طيبة لدى العـامة من أهل «مصر» التى انتقل إليها مع سيده «عز الدين أيبك» .

***

فى ميدان الحياة العامة

ومع تقدم «قطز» فى السن والمنصب والمكانة، وما لديـه من مؤهلات وما تَزْخَرُ به نفسه الأميرية من تطلعات، أصبح له دور فى الحياة السياسية العامة، ولكنه دور خجول إلى حد ما، وعلى استحياء؛ فإنه ما يزال على الساحة «الملك الصالح نجم الدين أيوب» و«أقطاى» أحد أبرز فرسان المماليك،و«بيبرس» الداهية المراوغ، وكل له أتباعه وأعوانه، وكذلك سيده «المعز أيبك». وهنا لابد لنا ـ عزيزى القارئ ـ أن نعايش الحـياة المصرية العـامة، بكل أبعادهـا، الداخلية والخارجـية؛ ومن ثم نرى موقع «قطـز» منها ، وكيف سـنحت له الفرصـة ليكون فى ذات يوم سلطانًا على مصـر، وقائدًا لأعظم معركـة حسمت هجـمة التتار الوحـشية الرهيـبة على بلاد المسلمين؛ وقضت عليها إلى الأبد .

لقد كثر فى العهد الأيوبى ـ كما ذكرنا من قبل ـ استجلاب طائفة المماليك بغية الاعتزاز بهم، وتقوية نفوذهم.

وكـان «الصالح نجم الدين أيـوب»ـ آخر ملوكـهم فى مصـر ـ أكـثر الأيوبيـين استجلابًا لهم، حتى كان عامة عسكره وجنده منهم[1]، حتى زاحموا أهل البلاد، وسرعـان ما انتشـر بينهم الفساد، حـتى ضج منهم العامة. ولقـد أشار إلى ذلك بعض الشعراء فقال:

---

(١) أبو المحاسن فى (النجوم الزاهرة) ، وابن إياس فى (بدائع الزهور)

« الصالح » المرتضى « أيوب » أكثر من   تُرّكٍ بدولته يا شَرَّ مَجلُوبِ
قد آخذ الله « أيوبًا » بفعلته   فالناس قد أصبحوا فى ضر «أيوب»[1]

وأشهر هؤلاء ـ كما قدمنا «الظاهر بيبرس»[2] و«فارس الدين أقطاى» أحد أعظم منافسى «عز الدين أيبك»؛ هذا الثلاثى ـ من غير شك ـ رغم منافستهم وصراعهم، كانوا الرحم التى أفرزت «قطز » فتحمل عن جدارة واستحقاق بطولة قيادة معركة «عين جالوت » سواء طواعية منهم ، أو رغمًا عنهم ، فقد كانت الأحداث تهيئة لِصُنْع التاريخ ، ودخوله إليه من أوسع أبوابه .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر ودور « المماليك»

لما انقضت الجيوش «الخوارزمية» على الديار ـ الشامية سنة (١٢٤٤)م، وخربت «بيت المقدس»، أثار ذلك ملوك أوربا، واتجهت مجهودات لويس التاسع «ملك فرنسا ـ أو القديس «لويس» لما كان يتمتع به من تدين ، ويتصف به من تعصب ـ إلى تجهيز حملة صليبية (معظمها من الفرنسيين) لمهاجمة مصر، يقودها بنفسه. غير أن هذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عند مرورها بجزيرة «قبرص»، فجنح أكثر من نصف سفنها إلى سواحل الشام، ولم يصل منها إلى السواحل المصرية سوى «٧٠٠» قطعة؛ ونزح سكان «دمياط» إلى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك «لويس التاسع»، وتركوا مراكب التعدية، فعبرت جيوش «لويس» عليها من غير عناء [3].

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخيره فى التقدم جنوبًا، إذ كان عليه أن يتقدم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان، وقبل أن يفيق المسلمون من صدمة الفرار من دمياط.

وبدلاً من التقدم بسرعة ضرب الملك «لويس التاسع» خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التى بعثرتها العواصف؛ ثم تقدمت جيوشه من دمياط فى طريقهم إلى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور !!!

(١) « أيوب النبى » عليه السلام .

(٢) ولسوف نترجم له ونتحدث عن عهده فى دراسة منفصلة إن شاء الله تعالى

(٣) من كتاب (دولة الظاهر بيبرس فى مصر) ـ «محمد جمال الدين سرور»

غير أن جهلهـا الطريق كان سببًا فى تأخـيرها فاستغرقت شهـرًا كاملاً فى قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة، وهو لا يزيد طولاً عن خمـسين ميلاً؛ وبتأخر تلك الحملة فى دمياط وتعثرها فى الطريق ذلك الوقت الطويل؛ أتيحت للمسلمين الفرصة فجمعوا شملهم وضموا صفوفهم .

أما الصليبـيون فإنهم وصلوا إلى «شار مساح» ـ وتقع فى منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة، ولكى يتـقدموا جنوبًا وينفذوا فكرة مهاجمـة القاهرة كان عليهم أن يعبـروا فرع دمياط أو قناة «أشـموم طناح»، فاختـار «لويس» الطريق الأسهل، وعمل على بناء سد فى عرض النهـر الصغير[١]، وأنشأ أبراجًـا متحركة لتـحمى الجنود الذين يعملون فى السد .

غيـر أن المسلمين بدءوا فى مـقاومة هؤلاء الجنود ، وعـبرت فـرقة منهم هذا النهر من مكان بعـيد، وحاولت تطويق مؤخرة الجـيش الصليبى، فطاردها الملك «لويس» ولكن معسـكره ـ على الرغم من ذلك ـ كان معرضًا للـخطر من جميع الجهات .

***

وفى تلك الأثناء تقدم أحـد أهالى بلدة «سلامون» وعرض على الصليـبيين أن يدلهم على مـخاضـة كـبيـرة جهـة «أشمـوم طناح» فى مـقابل مـبلغ من المال، فاسـتخدمـه الملك «لويس» دليلاً، وسيـر فرقة الخـيالة على ثلاث دفعـات، أولها «الفرسان الداويَّة» ، وثانيها الخيالة الرماة وثالثها فرقة الملك .

لم يلق الصليبـيون مقاومة وهـم يعبرون النهر أول الأمر، غـير أنه بمجرد عبـور الفرقة الثـانية التى كان يقـودها أخو الملك «لويس» ـ عزم على التـقدم للحـاق بالعدو، ثم اقـتحم مـعسكر المسلمـين، فاخـترقـه من مقـدمتـه إلى مؤخرته، وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد «فخر الدين»، فانهزم المسلمون وتفرقوا.

(١) يعرف الآن بـ « البحر الصغير » .

ثم دارت الدائرة على الفرنسيين «الصليبيين»؛ فـقد ثبتت فرقة من المماليك أمام هذا الهجوم العنيف المباغت، وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الاستيلاء على قصر السلطان .

وكـان قائد تلك الفـرقـة «بيبـرس» الذى انقض عليـهم، وقلب نصـرهم إلى هزيمة، واندفع جنود الصليبيين فى شوارع «المنصورة»، وسيق كثير منهم قتلى من بينهم أخو الملك «لويس» نفسه، وكذلك عدد من الأسرى.

أما بقية الصـليبيين فلحقت بالملك «لويس» فى معـسكره، عند السد الذى كان قد شرع فى بنائه على النهر الصـغير، وقد عرض نفسه بموقفـه هذا لهجوم الفرق المملوكـية التى أحـاطت به وأصبح من الصـعب عليه أن يهـزم جيش المسلمـين، خاصـة بعد أن كان قد فـقد كثـيراً من فرسانه وخـيالته، ولـم يبق مـعه إلا الجنود المشاة، الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

***

وفاة الملك الصالح «نجم الدين أيوب»

عندما أصبح مـركز الملك «لويس» حرجًا فكر فى بناء جسـر مؤقت على الجزء الذى لم ينته من السـد؛ ولما تم بناؤه استطاعت فرقة من الضـفة الأخرى أن تأتى لنجـدته، غيـر أن النجاح فى بناء هذا الجـسر لم يغـير شـيئًـا من موقف جـيش «لويس». . . ، فلم يمهله المسلمـون حتى عاودوا الهجـوم عليه، موجهـين همهم نحو هذا الجسر، فى الوقت الذى لم يكن لهم فيه سلطان يأتمرون بأمره .

لقد توفِّى الملك الصـالح «نجم الدين». . . وكان ابنه وولى عهـده «توران شاه» الذى عرف بـ «الملك المعظم» بعد ذلك ـ بعيداً عن مصر، فى حصن «كيفا» (١) .

هنا تأخذ الحياة السياسيـة القيادية مَنْحى جديدًا . . ، إذ رأت زوجة «الصالح» ـ شجرة الدر ـ أن تخفى نبأ وفاته حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين، فيفروا من ساحـة القتال إذا علمـوا بموت السلطان وبذا يتم للصليبـيين الاستـيلاء على

(١) يقع حِصن «كيفا» على الضفّة الغربية لنهر «دجلة» بالقرب من آمد.

الديار المصرية، وأحضرت الأميرين «فخر الدين» والطواشى «جمال الدين محسن» وهما مـن حاشيـة السلطان وخاصيتـه ، وأسرَّت إليـهما بموت الملك «الـصالح» واتفقت مـعهما على القـيام بتدبير شـؤون الدولة حتى يحضر ابن زوجـها «توران شاه» من حصن «كيفا» .

وكـان ذلك التصـرف من «شـجرة الدر» يَنم عن دهاء وحـكمة، وبُعـد نظر، ولعلها كانت تتطلع إلى الحكم والسلطان حين تسنح الظروف .

أما صاحـبنا « قطز » فقد كان حـتى ذلك الحين فارسًا من أتبـاع «عز الدين» - أيبك يتحـرك معـه وتحت مظلته يقـاتل معه ، ويسـالم معه ، لا يـملك من أمره شيئًـا، ولكنَّه يزداد مع مرور الأيام بروزًا وظهوراً وتقدمًـا، مما لفت إليه الأنظار، بعضها إعجابًا، وبعضها حـقدًا وحسدًا ، والبعض الثالث ازدراءً واحتقاراً ، إذ لـم يخرج عن كونه مملوكًا تابعًا .

***

«تـوران شاه» يحسم الموقف

وعاد «توران شـاه» إلى مصـر على جناح السرعة ، وقـصد إلى المنصـورة فوْر وصوله، ونزل بقصر السلطنة، وكانت «شجرة الدر» زوج أبيه قد استقبلته وسلمته مقاليد الأمور .

وأشرف «توران شاه» بنفـسه على الحرب، ووضع الخطة المناسبة، وخـتم واقعة المنصورة بنصر مؤزر على الصليبيين، كيف؟

كان أول ما قام به من الأعمال هو نقل أسطول من المراكب على ظهور الجمال إلى نقطة على فرع «دمياط» شمالى المراكب الفـرنسية، حيث فاجأها من حيث لا تحـتسب، وهناك اشـتبك الأسطولان : المـصرى والفـرنسى، ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيراً من مراكبه .

وأصبح مركز «لويس التاسع» سيـئًا للغاية ، إذ لـم يعد لديه من القوى ما يمنع تقدم المسلمين ، وقلت عنده الأزواد ، وتململ الجند ، وتفشى فيهم الوباء . . . ،

وأخيـراً طلب الهدنة وتسليم دميـاط على أن يكون للصليبيـين « القدس » وبعض بلاد الساحل ، فرفض المصريون ذلك .

عندئذ أحرق الصليبيـون مراكبهم ، ولجـأوا إلى التحصن فى دمياط ، فتـبعهم المسلمون، وحاربوهم حتى أوصلوهم إلى «فارسكور» .

وهناك كانت المعركة الفاصلة ، إذ حمل المسلمـون على الصليبيين حملة صادقة قوية واستماتوا فى القتال، وكان قائدهم يومـئذ «بيبرس» فأزاحوهم عن مواقعهم، وأسروا عدداً كبيراً منهم ، واستولوا على كثير من الغنائم .

وفر «لويس التاسع» ومـن بقى معه من الجند إلى تل (منية عـبد الله) ـ بالقرب من المنصورة ، واعتصم هناك ، لكن المسلمين تبعوه ، وشددوا عليه الحصار ، مما اضطره ـ أخيراً إلى التـسليم طالبًا الأمان له ولمن معه ، وكان عددهـم يبلغ خمسة آلاف ، معظمهم من الفرسان و النبلاء والأشراف .

***

لويس التاسع فى الأسر

وسيق «لويس التاسع» مـعتقلاً إلى دار القاضى «إبراهيم بن لقمـان» وأقيم عليه حرس هو الطواشى «صبيح»؛ وبقى مدة، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغًا كبيراً من المال، وأجبر على إخلاء دمياط.

هذا النصر العظيم ، بقيادة «بيبرس» جعل المماليك فى مركز قوة واعتداد، ومن ثم بدأ خلافهم مع «توران شاه»، الذى أخـذ يقرب إليه أعوانه،وحاشيـته الذين حضروا معه من حصن «كيفا»، وقلدهم المناصب العليا التى كان يتمتع بها مماليك أبيه.

وكذلك بدأ يعـزل «شجـرة الدر» عما بأيـديها من سلطات، وكانـت تظن أنها تسـتطيع أن تسيطر على هذا الشـاب، وتسيـره حسـبمـا تريد، فشـعرت بالمهـانة والعزلة، فلجـأت إلى المماليك ، وهى تعـرف مقدار كـرههم لـ« توران شاه » ؛ وأرسلت إليهم تقول: (اقتلوا «توران شاه» وعلىَّ رضاكم) . . .

***

نهاية «توران شاه»

وصادف قولها هذا هوى فى نفوسهم الثائرة الحاقدة . . .

كما بلغهم أن «توران شـاه» عندما يثمل من شرب الخمر يضع أمـامه صفًا من الشمـوع الموقدة ، ثم يتناول السيف ويضـربها واحدة بعد الأخـرى، وهو يقول: (هكذا أفعل بالمماليك البحرية)، ويذكر أسماءهم واحدًا بعد الآخر .

وكان من بيـن هؤلاء الأسماء بالطـبع «بيبرس» و«أقطـاى» و«أيبك» و«قلاوون الصالحى» ؛ فـاجتمع هؤلاء وأخـذوا قرارهم بالتخلص من «توران شـاه » قبل أن يغدر بهم .

***

كـان الجمـيع لا يزالون فى «فارسكور» بـعيـدًا عن القاهرة، وقـد انتهى أمـر الصليبيين . . . ،

وفى ذات يوم مُدَّ السماط لحفل طعام احتفاءً بالنصر، وحين تصدر « توران شاه» المجلس، تقدم إليه هؤلاء المـماليك شاهرين سيوفهم، وبادره «بيـبرس» بأول ضربة فأصابت يده وانقطعت أصابعه، وتبعه الآخرون، إلا أنه فر من بين أيديهم ولجأ إلى برج خشبىّ كان قد أعده على النيل ليجلس فـيه أثناء إقامته بـ «فارسكور»، فأدركوه هناك وأشعلوا النار فى البرج، فاستغاث . . ثم ألقى بنفسه فى النيل وراح يسبح، وما زالوا يـرمونه بالسهـام وهو يقول : (خـذوا ملككم ودعونى أرجع إلـى حصن كيفا) ، ويصرخ ويستغيث ولكن دون جدوى، حتى قضى غريقًا .

ثم انتشلت جثته وتركت على الشاطئ ثلاثة أيام، لا يجرؤ أحد من أعوانه على الاقتراب منه أو دفنه، ثم وورى التراب فى المكان نفسه.

***

وبدأ عصر المماليك :

بهذا الفصل المأساوى انتهت حياة «توران شاه» دون أن يجلس على عرش أبيه، أو يدخل القاهرة . . ، وبقـتله انتهى حكم الأيوبيـين بالديار المصرية، وبدأ عـصر المماليك .

فلقد أجمع أمراء المماليك على تـولية «شجرة الدر» مكان «توران شاه » ؟! ظنًا منهم أنهم يحكمون من خلالها، وحتى لا تقع فتنة بينهم، أيهم أولى من الآخر .

واسـتطاعت « شـجرة الدر » بما أوتـيت من ذكاء حـاد وبصـيـرة نافذة وقـوة شخصية، أن تتحبب إلى الناس وتستميلهم إليها ؛ لكن طائفة من الشعب رفضت هذا المبدأ، فما تعود المسلمون خلال دهورهم الطويلة أن تحكمهم امرأة، وكان أهل الشـام أول الخارجـين عليهـا، حين بايعـوا «الناصـر يوسف الأيوبى» والى حلب سلطانًا عليهم .

وأدركت «شجرة الدر» خطورة الموقف، فاستشارت أعوانها من أمراء المماليك، فأشـاروا عليهـا بأخذ رأى القـضاة وأهل الشـورى، فارتأى هؤلاء أن تتـزوج من الأمير«عز الدين أيبك» ـ أتابك العسكر ـ[1]، وتفوض إليه أمور الدولة وقد تم هذا بالفعل بعد ثمانين يومًا من الحكم المطلق الذى باشرته بنفسها .

***

وتدور عجلة التاريخ . . . ويتبـوأ الأمير «عز الدين أيبك» سلطانًا علـى مصر، تحت اسم «المعز» ولكنه كـان يواجه أكثـر من خطر، من الخارج والداخل، وأثبت فى أكثرها كفـاءة ومقدرة . كان أولها استغـلال الملك «الناصر» ـ صاحب الشام ـ الاضطراب الذى ساد مـصر فزحف بجيـوشه يريد الاستيـلاء عليها، فاسـتعد له «أيبك» ومن معـه، والتقوا عند «العـباسيـة» فكانت النصرة أول المعركـة لصاحب الشام، ثم كر عليه المماليك فهـزموه شر هزيمة، ارتد على أثرها إلى الشام، دون أن يحقق غرضه .

وكان صاحبنا «قطز» الساعد الأيمن لسـيده «أيبك» ، وكان قد بلغ منزلة عالية عنده، ولم يكن بينه وبين أن يسـمى أميـرًا من أمراء المـماليك إلاّ طفرة بسـيطة؛ وذلك لما تحلى به من خلق واستقـامة وشجاعة وإخلاص، قل أن توجـد فى أمثاله من المماليك .

***

(١) أتابك العسكر : قائدهم ورئيسهم .

وحانت الفرصة :

لم يكد «عز الدين أيبك» يفرغ من قتال صاحب الشام حتى وافته الأخبار (٦٥٠) هـ ؛ بأن «هولاكو» قد خرج من مقره فى (قرة قورم) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار أن يقضى على طائفة الإسماعيلية فى أرض «فارس» ويهدم «بغداد» والخلافة العباسية فيها. فاستعد لذلك وقد أوجس فى نفسه خيفة من امتداد الخطر إليه...

لكن استعداده جاء على حساب الشعب ، إذ أرهق الأهلين بالضرائب والمكوس وجمع الأموال؛ ثم إنه عين (الأمير سيف الدين قطز) نائبًا للسلطة بمصر..، وهذا مما أوغر صدور بقية أمراء المماليك،وعلى رأسهم «أقطاى» و«بيبرس» . وعقد صلحًا مع صاحب الشام ليْأمن جانبه.

وحدثت فى داخل البلاد فتنة تزعمها رجل يدعى « حصن الدين بن ثعلب»، زعم أنه ينتمى إلى آل البيت، فاجتمع حوله العديد من الأعراب، من كلا الوجهين: البحرى والصعيد، فتصدى لها « أيبك » بحزم ، واستغرقت منه وقتًا ، واستنفدت منه قوة... حتى قضى عليها ووأدها.

***

رأس «أقطاى»:

كان الأمير « أقطاى » أكثر أمراء المماليك تضررًا من تصدر «سيف الدين قطز» لنيابة السلطنة، وكان لا يخفى ذلك، وينشر آراءه المعادية لـ «أيبك» ونائبه فى كل مجلس ومكان، ويثير فى النفوس كوامن الحقد، حتى استفحل أمره واستشرى خطره.

فدبر له «أيبك» مكيدة الخلاص، واستقدمه إليه فى «قلعة الجبل»، واتفق مع طائفة من حرسه الخاص أن يهاجموا «أقطاى» ويضربوه ضربة رجل واحد، وقد تم ذلك بالفعل، وعندما علا صراخ أتباع « أقْطاى » خارج القلعة، وقد علموا بما وقع لأميرهم ، واشتد هياجهم ، ألقى إليهم « أيبك » برأس « أقطاى » ، فوقعت فى نفوسهم الرهبة، وتفرقوا

***

هروب «بيبرس» :

وكان «بيبرس» ـ رغم فروسيته ونجدته ـ صاحب حيلة ومكر وغدر، وتشوق إلى المناصب والرياسة، فلما رأى ما حل بصاحبه وصديقه «أقطاى» أدرك أنه فى طريقه إلى نفس المصير، إن هو استمر على ما هو عليه، فعزم على الخروج من مصر هاربًا. . ، ولكن إلى أين؟

اجتمع مع بعض أمراء المماليك ، الذين هم على شاكلته فى العداوة لـ «أيبك»، أمثال «قلاوون الألفى» و«سنقر الأشقر» و«الأمير بيسرى» وتداولوا الرأى، ثم اتفقوا على الخروج أولاً من البلاد.

ولقد استطاعوا الإفلات من قبضة « أيبك » وتَضْيِيقه عليهم، حتى إذا بلغوا «غزة» من أرض فلسطين، راسلوا صاحب الشام مستأذنين فى القدوم عليه واللجوء إليه ، فأذن لهم .

وكان هؤلاء الأمراء يرجون أن يثيروا صاحب الشام على «أيبك» ويغروه باحتلال مصر، فسمع لهم وقنع بما قالوا، وجهز جيشًا، كانوا فى مقدمته؛ واستعد لهم «أيبك» بجيش كبير ، ثم التقوا جميعًا عند قرية «العباسية» لكنه لم يجر بينهم قتال، فتفاوضوا وتم الصلح على أن تكون مصر وساحل الشام من نصيب «أيبك»، وأن لا يؤذى صاحب الشام أحدًا من أمراء المماليك؛ وكان ذلك عام (٦٥٤)هـ.

***

هذا الصلح لم يكن فى مصلحة أمراء المماليك، فعادوا مع «الملك الناصر»- صاحب الشام ـ بِخُفَّىْ حنين، وأحسوا بأنهم قد انتقلوا من سجن فى مصر إلى سجن غيره فى دمشق .

***

المواجهة بين «قطز» وأمراء المماليك :

وصل إلى مسامع الملك «الناصر» ـ صاحب الشام ـ أن «بيبرس» ومن معه يدبرون لقتله والفتك به، فلم يقبض عليهم حتى لا يثير بين أتباعه وجنده وبين

أتباع أولئك، بل أمر بإجلائهم إلى غزة، ووجههم إليها؛ وهناك شعروا بأنهم قد أصبحوا تحت رحمة «أيبك»، وفى متناول يده، فراسلوا الملك «مغيث» - صاحب «الكرك» - ونزلوا عنده .

وما زالوا بـ «المغيث» يثيرونه ويشدون من أزره حتى اقتنع منهم بفتح مصر، والاستيلاء عليها فجهزهم بالعدد والعُدد . . . وساروا متجهين إلى «مصر».

***

علم «المعز أيبك» بتحركهم هذا . . !ولكنه كان فى وضع لا يمكنه مغادرة البلاد على رأس الجيش لمقاتلة أمراء المماليك، فقد كان خلافه مع «شجرة الدر» - التى تزوجها - قد بلغ أوجه، وهى التى عُرف عنها المكر والدهاء وتدبير المؤامرات،عندئذ قرر إرسال «سيف الدين قطز» - نائب السلطنة - على قيادة الجيش.

وكانت المواجهة !! وعند قرية «الصالحية» اصطدم الفريقان، واستطاع «قطز» - بما أوتى من شجاعة وفروسية أن يكسب المعركة، ويأسر الأميرين: «قلاوون الصالحى» و«بلبان الرشيدى» ، أما الباقون ففروا منهزمين إلى «الكرك» .

أيهما يسبق ؟

ساءت العلاقة بين «عز الدين أيبك» وبين زوجته «شجرة الدر» ؛ فقد كانت تظن عندما تزوجته أنها ستبقى صاحبة الأمر والنهى على البلاد والعباد، وأنها بحكم قوة شخصيتها الطاغية - تأمره فيطيع وينفذ لها كل رغباتها، إلا أن «أيبك» تفرد بالسلطة وحجز بين «شجرة الدر» وبين رغبتها، وسد عليها المنافذ والطرق، فأضحت أسيرة القصر، لا تملك أمرًا ولا نهيًا.

ومما زاد فى حقدها على «أيبك» وأشعل نار الغيرة فى قلبها أنه أرسل إلى «بدر الدين لؤلؤ» - صاحب الموصل - يخطب عليه ابنته!!

هنا . . . لم تطق «شجرة الدر» صبرًا، فأجمعت أمرها، ودبرت حيلتها ومؤامرتها للخلاص من «أيبك». . . ، إذ أمرت خمسة من خدمها أن يقتحموا عليه الحمام ويقتلوه، ثم يزعمون أنه مات مغمى عليه .

وفى الصباح أذيع قتله بين الناس، فدفنه ابنه «على» - من زوجته الأولى - ومماليكه، ثم قبضوا على «شجرة الدر» وسلموها إلى الجوارى، فضربنها بالنعال حتى ماتت فى «ربيع الثانى» سنة (٦٥٤) هـ، وألقيت جثتها فى أحد الخنادق ثلاثة أيام، ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها اليوم .

كان عمر «على» خمسة عشر عامًا فتولى السلطنة مكان أبيه، فأقرَّ بقاء « قطز » فى نيابة السلطنة، وفوض إليه كثيرًا من الشؤون الإدارية والعسكرية، وانصرف هو إلى هواياته .

ولقد كان «قطز» بحق وجدارة أهلاً لهذا المنصب وتلك المهمات ، فقام بها خير قيام، كما استطاع أن يقف بحزم فى وجه أطماع أمراء المماليك الذين فروا من البلاد، وكانوا يتنقلون بين الشام وبين «الكرك» - فى الأردن -، وبين «طور سيناء» لا يدرون أين يستقرون، وعلى رأسهم الظاهر «بيبرس» .

وأخيرًا وبعد طول تشرد وارتحال وقد جاءتهم أنباء الزحف «التتارى» الذى ينطلق كالإعصار مدمرًا كل ما يواجهه، وأنه فى طريقه إلى «دمشق» بعد سقوط «بغداد» - عاصمة الخلافة العباسية - وما حل بها من قتل وسبى وتدمير .. وإفناء.. وحرق وسلب ونهب... ، أزمعوا العودة إلى مصر ؛ وليكن ما يكون!!؟

***

ولم يخيب «قطز» ظنهم، فاستقبلهم ورحب بهم وأكرم نزلهم وعفا عنهم ...، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل تجاوز كل ذلك إلى تعيين «بيبرس» أتابكًا للعساكر - أى قائدًا للجيش -، لأنه يعلم ما يتمتع به «بيبرس» من فنون فى القيادة والفروسية والشجاعة، إلى جانب أنه كان يريد أن يتجنب شره .

***

وحين توالت الأنبـاء من العراق والشام بما فعـله التتار، وأنهم يريدون متـابعة الزحف على مـصر، وقد تأكـد لديه ذلك من خلال رسله وجـواسيسـه، عندئذ جمع الأمراء على مـختلف مشاربهم واتجاهـاتهم، وتحدث إليهم، وناقشهم فـيما يجب اتخـاذه من تدابير، فـأدلى كل بدلوه وأعطى رأيه، فلما انـتهى من سـماع آرائهم، قـال لـهم: (لابد من «سلطان» قـاهر يقـاتل هذا العـدو. . ، والملك «المنصور» صبى لا يعرف تدبير المملكة. . ! وكان الملك «المنصور» ـ علىٍّ بن أيبك ـ غِرًا صغيرًا مستهتـرًا بأمور الدولة، جل همه اللهو واللعب. . . ، وقد فتح بهذا الانصراف البـاب لأمه كى تتدخل فى كل كـبيرة وصـغيرة، تحاول أن تعـيد دور «شجرة الدر».

ولم يقل الأمراء رأيهم فى «المنصور» وخاصة «بيبرس» الذى كان يطمع ويطمح إلى السلطان، حتى لا يكشف نفسه، متحينًا فرصة أخرى .

وفى ذات يوم ضرب «قطز» ضربته . . !

اغتنم فرصـة خروج الأمراء للصيد، فـقبض على «المنصور» وأخيه، وأمـهما، واعتقلهم بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطانًا على مصر، سنة (٦٥٧) هـ.

وعندما جاءه الأمـراء محتجـين على ما فعل، غاضبـين ثائرين، هدأ من حدة ثورتهم بقوله، ـ معتذرًا إليهم ـ : إنى ما قـصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا فى السلطنة من شئتم[(١)]

فاطمأنوا وبايعوا ، وتوحدت الكلمة .

وبدأ الاستـعداد على أشـده فى طول البلاد وعـرضهـا ، للدفاع عن مـصر ، والذود عن حياض الإسلام .

***

---

(١) المقريزى : (السلوك) (ج١) القسم الثانى : (ص : ٤١٧ ـ ٤١٨) .

العز بن عبد السلام :

لايفوتنا - عزيزى القارئ - ونحن نتحدث عن فترة الاستعداد لمجابهة التتار، أن نتحدث عن شخصية كان لها الأثر الكبير واليد الطولى فى تهيئة الجو العام على الصعيدين : الشعبى والرسمى فى الديار المصرية، لتأخذ البلاد الأهبة ، وتستعد الاستعداد المناسب لملاقاة العدو. هذه الشخصية هى: عز الدين بن عبد السلام .

قال عنه «ابن كثير» - رحمه الله - فى«البداية والنهاية»:[١]

[عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذب - الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أبو محمد السلمى الدمشقى، الشافعى المذهب، شيخ المذهب ومفيد أهله، وله مصنفات حسان، منها : التفسير، واختصار النهاية، والقواعد الكبرى والصغرى، وكتاب الصلاة، والفتاوى الموصلية، وغير ذلك.

ولد سنة سبع (أو ثمان) وسبعين وخمسمائة (٥٧٧ - ٥٧٨)هـ؛ وسمع كثيراً، واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره وبرع فى المذهب ،وجمع علومًا كثيرًا ، وأفاد الطلبة، ودرس بعدَّة مدارس بدمشق، وولى خطابتها، ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق.

وكان لطيفًا ظريفًا، يستشهد بالأشعار ؛ وكان سبب خروجه من الشام إنكاره علىَ «الصالح إسماعيل» - ملكها - تسليمه «صَفَر» و«الشقيف»[٢] إلى الفرنج «الصليبين»؛ ووافقه الشيخ «أبو عمرو بن الحاجب المالكى»؛ فأخرجهما «الصالح إسماعيل» من دمشق،فسار «أبو عمرو» إلى «الناصر داود» صاحب «الكرك»

---

(١) (ج : ١٧) (ص : ٢٤٨).

(٢) صفر : شمالى فلسطين وكانت ذات أهمية عسكرية بالغة، والشقيف : قلعة صخرية على جبل شاهق تطل على نهر الليطانى - جنوبى لبنان .

فأكرمه؛ وسار «ابن عبد السلام » إلى مصر - فى عهد «الملك الصالح أيوب بن الكامل» - زوج شجرة الدر - فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس «الصالحية ».]

***

وكان لهمته وجرأته وعلمه، وقوة شخصيته، دور كبير فى إيقاظ الهمم، وبعث موات الأرواح والنفوس، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يسكت عن باطل أبدًا ، ولقد أحبه الشعب حبًا عظيمًا، وهابه أمراء المماليك هيبة كبيرة، يحسبون لغضبته ألف حساب وحساب، خصوصًا بعد تولى «أيبك» ثم «شجرة الدر» ثم «سيف الدين قطز» فحين حاول (هؤلاء الأمراء) إرهاق الناس بالضرائب والمكوس والجبايات، بحجة إعداد الجيش وتسليحه لملاقاة التتار والأعداء من الصليبيين حملة القديس «لويس» - التاسع - ملك فرنسا - على المنصورة و«دمياط». وقف الشيخ «العز بن عبد السلام» فى وجههم جميعًا ، وحذرهم وأنذرهم، ثم صرح لهم بأنهم ليسوا أهلاً للملك والسلطان لأنهم «مماليك» ، فإن تحرَّروا من رقهم كان للشعب حق الاختيار من بينهم . . . ! ولقد اضطر هؤلاء جميعًا بلا استثناء أن ينزلوا عند فتواه ، ويشتروا أنفسهم بالأموال التى كانوا قد اغتصبوها من الناس والعامة.

ولقد اشتهر عنه - رحمه الله - لقب : «بائع الأمراء» . . . !

***

وكان «سيف الدين قطز» من أقرب المقربين إلى الشيخ «العز» إذ كان متدينًا، خلوقًا تاليًا للقرآن ، يخشى الله تعالى ، يستشيره ويستنصحه، ويستمع إليه، وينفذ آراءه.

***

رؤيا «قطز»

حكى الشيخ «قطب الدين اليونينى» (١) فى «الذيل على المرآة» عن الشيخ «علاء الدين بن غانم «عن المولى» تاج الدين أحمد بن الأثير» - كاتب السر - فى أيام «الناصر» صاحب «دمشق» قال: [لما كنا مع «الناصر» بوطأه «برزة»(٢) جاءت البريدية بخبر أن «قطز» تولى الملك بمصر ، فقرأت ذلك على السلطان، فقال: اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا، قال: فلما خرجت عنه لقينى بعض الأجناد فقال لى: جاءكم الخبر من مصر بأن «قطز» قد تملك؟ فقلت: ما عندى من هذا علم... وما يدريك أنت بهذا ؟ فقال: بلى...، والله سيلى المملكة ويكسر التتار..، فقلت: من أين تعلم هذا ؟ فقال:كنت أخدمه وهو صغير، وكان عليه قُمَّل كثير، فكنت أُفلِّيه وأُهينه وأذمّه، فقال لى يومًا: - ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟ فقلت له : أنت مجنون؟ فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار؛ وقول رسول الله ﷺ حق لا شك فيه: فقلت له حينئذ - وكان صادقًا -: أريد منك إمرة خمسين فارسًا، فقال: نعم ..، أبشر.

قال «ابن الأثير»:

[فلما قال لى هذا قلت له: هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة، فقال: والله ليكسرن التتار؛ وكان كذلك. ويتابع «ابن الأثير» فيقول:

[ولما رجع «الناصر» إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها. ثم رجع عنها، ودخلها أكثر الجيوش الشامية ، كان هذا الأمير الحاكى فى جملة من دخلها، فأعطاه «المظفر» إمرة خمسين فارسًا ووفى له بالوعد، وهو الأمير «جمال الدين التركمانى» فلقينى بمصر بعد أن تأمر فذكرنى بما كان أخبرنى عن «المظفر»، فذكرته..، ثم كانت وقعة التتار على أثر ذلك ، فكسرهم وطردهم عن البلاد..]

***

---

(١) البداية والنهاية (ج : ١٣) (ص : ٢٣٩)

(٢) من قرى ضواحى دمشق .

عزيزى القارئ :

ونحن إذ نورد لك هذه القصة كما دونتها كتب التاريخ لا نريد أن نحملك على تصديقها أو نفـيها ـ معاذ الله ـ، ولكنا نريد أن نذكرك ونذكر أنفسنا بـأن شخصية «قطز» ـ رحمه الله ـ كانت مميزة بالتقـوى والتدين، وصفاء القلب والنفس، وزكاء الإيمان فى الروح، والشجاعة والإقدام، وحسن التدبير والقيادة.

وما النداء الذى كان شعارًا يوم «عين جـالوت»: واإسلاماه ، إلا صورة صادقة لمعنى الجهاد فى سبيل الله على حقيقته، مبنى ومعنى ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ...﴾ [الحج: ٤٠].

***

والآن هيـا بنا إلى «عين جـالوت»... المعـركة ...، التى تذكـرنا بـ «حطين» و«اليرموك» و«القادسية»، وغيرها من معارك الإسلام الخالدة .

معركة « عين جالـوت » :

ذكرنا فيمـا سبق أن الأمير «بيبرس» قـد عاد إلى مصر مع مجمـوعة من أمراء المـاليك ، بعد أن طوفـوا فى الديار الشامـيَّة دون أن يسـتقـروا فى مكان معـين وهؤلاء وإن كانوا قد فـعلوا ذلك حقدًا على « قطز » وتوليه السـلطة فى «مصر»، إلا أنهم فى نفس الوقت كـانوا فى غيرة شديـدة على الإسلام وأهله، يريدون أن يكونوا فى جيش قوى يسـتطيع أن يجابه الهجمة المغـولية على أقطار الإسلام؛ إلا أنهم لم يوفقوا إلى القائد الذى يتخذ هذا القرار، سواء فى «دمشق» أو «حلب» أو «حماه» أو «الكرك»...

وكانت فاجعة سقوط «دمشق» من أعظم المؤثرات على نفوسهم!!!

وفى نفس الوقت نقطة الانطلاق لمعركة «عين جالوت» الفاصلة الحاسمة !!!

فكيف كان ذلك ؟

يحدثنا «ابن كثير» - رحمه الله - فى «البداية والنهاية» عن ذلك فيقول[1]: [أرسل «هولاكو» - وهو نازل على «حلب» - جيشًا مع أمير من كبار دولته يقال له: «كتبغا»، فوردوا «دمشق» فى آخر شهر «صفر» - (٦٥٨)هـ ، فأخذوها سريعًا من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة .

وقد كتب «هولاكو أمانًا لأهل البلد فقرئ بـ «الميدان الأخضر»[2] ونودى به فى البلد ، فأمن الناس على وجل من الغدر - كما فعل بأهل «حلب» - ؛ هذا . . . والقلعة (قلعة دمشق) ممتنعة مستورة ، وفى أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة ، فأحضر التتار منجنيقًا يحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل، وأسلحتهم على أبقار كثيرة؛ فنصب المنجنيق على القلعة من غربيها، وخربوا حيطانًا كثيرةً وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رميًا متواترًا كالمطر المتدارك فهدموا كثيرًا من أعاليها وشرفاتها، وتداعت للسقوط - وذلك فى نصف «جمادى الأولى» من هذه السنة ، وقتلوا المتولى بها «بدر الدين بن قراجا »و«نقيبها» «جمال الدين بن الصيرفى الحلبى» ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له: «إبل سيان» - وكان معظمًا لدين النصارى - فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم وذهب طائفة من النصارى إلى «هولاكو» فى حلب - وأخذوا معهم هدايا و تحفًا ، وقدموا من عنده ومعهم أمان (فرمان) من جهته .

ودخلوا من باب «توما» ومعهم صليب منصوب ، يحملونه على رءوسهم ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح، دين المسيح ؛ ويذمون الإسلام وأهله . . ، ومعهم أوان فيها خمر ، لا يمرون على باب إلا رشوا عنده خمرًا ، وقمائم ملآنة خمرًا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به فى الأزقة والأسواق ، أن يقوم لصليبهم . . . .

ودخلوا من «باب الحجر» عند رباط الشيخ «أبى البيان» ورشوا عنده خمرًا وكذلك على باب مسجد «درب الحجر» الصغير والكبير؛ واجتازوا فى السوق حتى

---

(١) (ج : ١٣) (ص : ٢٣٢) - بتصرف -

(٢) «الميدان» من أهم أحياء مدينة دمشق، ولا يزال قائمًا حتى اليوم.

وصلوا «درب الريحانى» أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق «كنيسة مريم» .

فوقف خطيبهم إلى دكة دكان فى عطفة السوق، فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله؛ ثم دخلوا بعد ذلك إلى «كنيسة مريم» وكانت عامرةً . . .، وكان هذا سبب خرابها .

ودخلوا إلى الجامع بخمر ، وكان فى نيتهم ـ إن طالت مدة التتار ـ أن يخربوا كثيرًا من المساجد وغيرها .].

***

هذه ـ عزيزى القارئ ـ صورة من صور الحقد الصليبى على الإسلام، فما أن تتاح لأهله الفرصة حتى يبدو ما فى داخل نفوسهم تجاهه، نذكر ذلك دون مبالغة أو إثارة؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] .

ونعود إلى متابعة رواية «ابن كثير» ـ رحمه الله ـ فيقول: [ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها «إبل سيان» فأهينوا وطردوا وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم .

وهذا كان فى أول هذه السنة، وسلطان الشام «الناصر بن العزيز» ـ الأيوبى ـ؛ وهو مقيم فى «وطأة برزة» ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم. وكان فى جملة من معه الأمير «بيبرس ـ البندقدارى» فى جماعة من المماليك البحرية؛ ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة. . .، وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع «الناصر» وسجنه ومبايعة أخيه ـ الملك الظاهر «على» ـ ؛ فلما عرف «الناصر» ذلك، هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مَذَر، وساق الأمير «بيبرس» فى أصحابه إلى ناحية «غزة»، فاستدعاه الملك المظفر « قطز » إليه، واستقدمه عليه، وأقطعه ناحية «قليوب» وأنزله بدار الوزارة، وعينه (أتابكًا) قائدًا للعساكر وعظم شأنه لديه] .

***

اشتدت وطأة التتار على البلاد الشامية بأسرها ، قتلاً ونهبًا وسلبًا وتدميرًا. . . ، ولم يبق أمامهم سوى مصر . . . ، فعزموا على غزوها .

فأرسل «هولاكو» ـ وهو نازل بـ «حلب» ـ رسالة إلى الملك المظفر «قطز» يتهدده ويتوعده فيها إن لم يسلم إليه ويستسلم، ولقد جاء فى الرسالة:

[من ملك الملوك شرقًا وغربًا، القائد الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك «المظفر قطز» الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، ينعمون بأنعامه، ويقتلون من كان لسلطانه بعد ذلك؛ يعلم الملك «المظفر» وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية، وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه؛ فلكم فى جميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ؛ فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن اشتكى؛ وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب؛ فأى أرض تؤويكم؟ وأى طريق تنجيكم ؟ وأى بلاد تحميكم؟ فمالكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لدينا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع . . .] إلى أن يقول :

[أسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خاوية ؛ فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى] [١، ٢]

---

(١) (صبح الأعشى) (القلقشندى) (ج:٨) (ص: ٦٣).

(٢) (السلوك) (المقريزى) (ج: ١) القسم الثانى (ص: ٤٢٧ ـ ٤٢٨) .

كانت رسالة « هولاكو » هذه إنذارًا وتحذيرًا ... وخطرًا على البلاد كبيرًا .

ولم يكتف بما فعل بل أرسل جيشًا كثيفًا، فيه العدد والعدة، مع قائده «كتبغا»، الذى كان نازلاً فى «بعلبك»[1]، باتجاه «غزة » لدخول «مصر» ، إذ لم تكن رسالته إلا نوعًا من التضليل والتمويه.

***

وصل هذا الكتاب إلى الملك المظفر « قطز » فما اضطرب ولا خشى ولا تزعزع..، ثم جمع الأمراء، وشاورهم فى الأمر كى لا ينفرد باتخاذ القرار، فيرمى بالتسلط ...، فتردد بعضهم أول الأمر فى الخروج لملاقاة العدو ...، الذى أرهب القلوب وأطاش العقول، وزرع الرعب فى النفوس ...، لكن الملك «قطز» اتخذ قراره فى الحال، وقد رأى فى بعض أمرائه تشجيعًا وتصميمًا، خصوصًا الأمير «بيبرس» ؛ فأمر بقتل هؤلاء الرسل، ثم تعليق رؤوسهم على «باب زويلة»[2]، إرهابًا للعدو وحفزًا لنفوس قادته وجنده ؛ ثم أمر بالتجهز للخروج إلى « الصالحية » .

ولما كان يوم الاثنين الخامس عشر من شهر «شعبان» سنة (٦٥٨)هـ ؛ خرج الملك المظفر «قطز» بعسكر مصر، ومن انضم إليهم من عسكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل، قاصدين «الصالحية» .

ولما بلغوها طلب « قطز » الأمراء، وأمرهم بمتابعة المسير فامتنعوا فقال لهم: [يا أمراء المسلمين..، لكم زمن تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزو كارهون..، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين][3]

ولقد كان لهذا القول أثره فى نفوس أمراء المماليك الذى امتنعوا أول الأمر عن الخروج من «مصر» إلى «الصالحية» للدفاع ثم تجابنوا عن الزحف لملاقاة العدو وصده ...

---

(١) إحدى مدن « البقاع » اللبنانى الشهيرة .

(٢) (السلوك) (المقريزى) (ج : ١) القسم الثانى (ص : ٤٢٩)

(٣) (السلوك) (المقريزى) (ج : ١) القسم الثانى (ص : ٤٢٩) .

فلم يكد ينتهى «قطز» من كلمته حتى ثارت حميتهم ونخوتهم، واتفقوا جميعًا على مهاجمة هذا العدو الغاشم، ودفعه عن البلاد ورفع أذاه عن العباد.

وعهد الملك المظفر «قطز» إلى الأمير «بيبرس» أن يتقدم إلى بلاد الشام مع طليعة من العسكر ليقف على أخبار التتار وأحوالهم ويستكشف. . !وكان «بيبرس» مقدامًا ، شجاعًا، مغامرًا. . ، يتقن فن الحرب. . ، يعرف كيف يقاتل، ومتى يقاتل، وأين يقاتل. . ، فتقدم بجنده حتى وصل إلى «غزة». . . ، وهناك ضرب ضربته الأولى، وأجبر حاميتها من التتار على الفرار وإخلاء البلد، فاستولى عليها وطهرها. . وأعدها لتكون قاعدة انطلاق داخل الأرض والديار الشامية، ثم لبث ينتظر وصول «قطز». .

ولم يطل انتظاره، إذ وافاه السلطان، الملك المظفر «قطز» بالعساكر والأمراء، ثم انطلقوا جميعًا نحو الشمال، على طول خط الساحل، حتى بلغ «عكا» ـ وكانت لا تزال فى أيدى الفرنجة من الصليبيين ـ فأخذ عليهم العهد أن لا يتحالفوا مع عدوه، ويلتزموا الحياد، ففعلوا .

***

وكان جيش التتار الذى بلغه مقتل الرسل، وعزم «قطز» على المواجة والمجابهة، قد ثار وانتشر، وخرج كالإعصار ـ قاصدًا الديار المصرية ، يغلى حقدًا ويفور غيظًا، يكتسح كل شىء فى طريقه.

***

والتقى الجيشان عند «مرج بيسان» فى مكان يسمى بـ «عين جالوت» . . .وكان ذلك يوم الجمعة فى الخامس والعشرين من شهر «رمضان» عام (٦٥٨) هـ .

استمرت المعركة ثلاثة أيام، كانت الرحى فيها شديدة الوطء على الطرفين، ورغم قلة عدد جند الإسلام أمام كثافة جيش التتار، وعدته الحربية، وضراوة قتاله. . ، فإن شجاعة القائد المظفر «قطز» وبسالته، ومغامرات قائده «بيبرس» واندفاعاته، جعلت جند المسلمين فى غاية الحمية، لا يخشون بأسًا ولا رهقًا.

وصمدوا فى وجه العدو صمود الأبطال ، وأظهروا من حسن البلاء ما يذكر بأمجاد الأوائل والسابقين، ـ رضوان الله عليهم ـ .

وكان للخطة الحكيمة التى وضعها «قطز» مع قائده «بيبرس» أشد الوقع على العدو المغتر ، الذى كان يفاجأ بين الحين والحين من سير المعركة بمفاجآت لم يعهدها من قبل . . . ، مما أوقع البلبلة فى صفوفه وأثر على اندفاعه .

ومما زاد فى حماس جند المسلمين يومئذ مقتل فرس الملك المظفر «قطز» ثم وقوفه راجلاً فى قلب الميدان، يقاتل عن اليمين وعن الشمال. . وينادى على الجند بأعلى صوته: واإسلاماه . . !؛ واإسلاماه. . !

فلما رآه بعض الأمراء على تلك الحال ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنَّها .

فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك. . !

وظل كذلك فى موقعه إلى أن جئ بفرس آخر، فامتطاه وتابع القتال .

هزيمة التتار

وتمكن أحد أمراء الجيش الإسلامى من الوصول إلى قائد التتار «كتبغا» فأرداه قتيلاً، بعد مبارزة لم تدم طويلاً وحز رأسه ورفعه على رمحه. . ، وهنا سقط فى أيدى الأعداء، فانقلبوا منهزمين وولوا مدبرين، وتشتتوا لا يلوون على شئ . . .

وتبعهم جند المسلمين يضربون أقْفيتهم ويستولون على ما يخلفون من مغانم وأسلاب، فى طول البلاد الشامية وعرضها. . . من دمشق إلى بعلبك إلى حمص إلى حماه إلى حلب، حتى بلغ أقصى البلاد والديار الشامية، وأعاد لكل منها ما خلفته يد التتار من دماء وتخريب وإضعاف .

ولقد استقبل الملك المظفر « قطز » فى كل البلاد بأعظم مظاهر التكريم والحفاوة والترحيب، خصوصًا أنه قد خلصهم من خطر داهم عانوا منه الأمرين .

***

بين قطز وبيبرس :

وكان الملك المظفر «قطز» قد وعد قائده ورئيس أتابكه الأمير «بيبرس» بولاية «حلب» . . . ، لكن «قطز» لم يف بوعده، وأعطاها لـ «علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ» لأسباب سياسية منها ضمان تأييد «علاء الدين» له، وعدم خروجه عليه، ومنها معرفته بطموحات «بيبرس» وتطلعاته، فقد يجعل من «حلب» قاعدة له ينطلق منها إلى الديار الشامية، ثم يهدده هو فى عقر داره، فى مصر ؛ ومنها أن يجعل«بيبرس» تحت جناحه يطويه، فلا يغيب عن ناظريه، لأنه ـ أيضًا ـ يدرك انفلاتات «بيبرس» وتحركاته المريبة بين الحين والحين .

لكنه لم يحسب حسابًا لغدر «بيبرس» !!؟

***

نهاية الملك المظفر سيف الدين «قطز»:

وعاد الجيش المنتصر إلى مصر، وفى الطريق عند «الصالحية» كانت نهاية «قطز». فلقد أضمر «بيبرس» ومن معه من أمراء المماليك الخلاص من «قطز»، لأنه بدا لهم أنه لا يريد لأحدٍ منهم أن يكون ذا شأن رغم تفانيهم معه وأمامه . واتفقوا على الكيفية . . ! الطريقة التى يتم بها الخلاص .

وخرج «قطز» ذات يوم من معسكره فى «الصالحية» للصيد، ترويحًا عن نفسه، ومزاولة لهوايته التى ألفها منذ نعومة أظافره، فلما عاد ودخل خيمته جاءه الأمراء المماليك وعلى رأسهم «بيبرس» يسلمون عليه، ثم طلب إليه «بيبرس» أن يعطيه بعض أسرى التتار، فأنعم عليه «قطز» بامرأة من سبى التتار، فما كان من «بيبرس» إلا أن تظاهر فى تقبيل يد السلطان، ثم انقض عليه بسيفه، وتبعه الأمراء الآخرون، حتى أجهزوا عليه ـ رحمه الله ـ.

وكان ذلك فى شهر « ذى القعدة » سنة ٦٥٨ » هـ .

***

ويقول « ابن كثير » :

[ودفن بالقصر ، وكـان قبره يزار ، فلما تمكن « الظاهر » «بـيبرس» من الملك بعث إلى قـبره فغـيبـه عن الناس ،وكان لا يعـرف بعد ذلك ، قتل يـوم السبت السادس عشر من ذى القعدة ـ رحمه الله][1] وهكذا طويت صفحة بطل من أبطال الفتح الإسلامى ، سـيف الدين « قطز » ، ليبدأ صفحـة جديدة مع الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» البندقدارى .

***

(١) (السلوك) (المقريزى) (ج : ١) القسم الثانى (ص : ٤٢٩) .

٩- الظاهر بيبرس

عزيزى القارئ :

لا شك أنك تسمع بـ «حى الظاهر» و«مسجد الظاهر » و«ميدان الظاهر» فى مصر (القاهرة) . . . !

وأرجو أن تكون قد سمعت بـ «المكتبة الظاهرية» فى «دمشق» ـ سوريا ـ كلها ـ جميعًا ـ منسوبة إلى الملك « الظاهر» «بيبرس البندقدارى» أحد أعلام ورموز وأبطال الفتح الإسلامى .

ولئن قدر للسلطان الناصر«صلاح الدين -يوسف- الأيوبى» أن يحمل لواء جهاد الصليبيين الذين غزوا الديار الإسلامية، وأقاموا فيها ممالك لهم على مدى عشرات السنين، ثم كان استيلاؤهم على «بيت المقدس» فاجعة الفواجع، ونكسة الدهر للمسلمين.

ولئن قدر لهذا السلطان أن يهزمهم ويكسر شوكتهم فى معركة «حطين»، ويطهر «بيت المقدس» من رجسهم ودنسهم، وكذلك بقاعًا أخرى من أرض الإسلام . . .

ولئن قدر للسلطان «المظفر» «سيف الدين ـ قطز» أن يتصدى لأعظم وأخطر هجمة شرسة تعرضت لها البلاد الإسلامية؛ فيقف فى وجه التتار، الذين دمروا «بغداد» عاصمة الخلافة، وجعلوها أرضًا بلقعًا، ثم عاثوا هنا وهناك، يسفكون الدماء، ويهتكون الأعراض، ويهلكون الزرع والضرع . . .

لئن قدر لهذا السلطان «قطز» أن يصد إعصارهم، ويخضد شوكتهم ويلقنهم درسًا قاسيًا بليغًا فى معركة «عين جالوت» . . .

فإن القدر كان يدبر ويهيىء للمسلمين رجلاً فذًا على غرار «الناصر» و«المظفر» ليحمل الراية من بعدهما ويقود على مدى عشر سنوات ـ تقريبًا ـ أعظم معركة تطهير لديار الإسلام من بقايا ورواسب «الصليبيين» و«التتار» على حد سواء. . .

ذلكم الرجل هو الملك «الظاهر» ـ «بيبرس البندقدارى» .

يقول الأستاذ الدكتور : جمال الدين سرور فى كتابه القيِّم «دولة الظاهر بيبرس فى مصر »[1]:

[إن أهم ما تميز به عصر «الظاهر بيبرس» فى مصر تطور الحضارة فيه، وظهورها بمظهر يعتبر نواة لنهضة دولة المماليك، فإلى جانب ما نلمسه من تقدم فى نظم الإدارة والحكم، يتجلى لنا انتعاش الحياة الاقتصادية، بفضل ما بذله «بيبرس» من جهود موفقة فى سبيل تنمية موارد الثروة، كما نلحظ عناية كبيرة بإعداد القوات البرية والبحرية، واهتمامًا بإقامة المنشآت؛ وفضلاً عن ذلك. . . فإن هذا العصر أظهر لنا شخصيات بارزة فى نواحى العلم والأدب،كان لها أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى مصر].

***

أصله ونشأته :

عزيزى القارئ : تسمع الآن وتقرأ عن حرب «الشيشان» بين جمهوريتها الإسلامية الصغيرة وبين دولة «روسيا»، بعد أن كانت كلاهما جزءًا لا يتجزأ من «الاتحاد السوفياتى» . .

وجمهورية «الشيشان» جمهورية إسلامية تريد أن تأخذ حقها فى الاستقلال، شأنها شأن كثير من الجمهوريات التى كانت تُكون «الاتحاد السوفياتى» أمثال : «ليتوانيا» و«وأستونيا» و«أذربيجان» و«قيرقيزيا» و«كازاخستان» وغيرها . . . وغيرها . . .

لكن التسلط «الروسى» يأبى عليها ذلك، ولأكثر من سبب. . .، وهذا الموضوع ليس بحثنا اليوم، إذ قد يخطر على ذهنك سؤال: ما الرابط بين الحديث عن الملك الظاهر «بيبرس» ـ البندقدارى ـ وبين حرب الشيشان ؟

---

(١) «دولة الظاهر بيبرس فى مصر » ـ ص (٢٦).

فنقول - مستعينين بالله عز وجل - بأن «بيبرس» كان أصله من تلك البلاد، التى عُرفت مرة باسم بلاد «القفجاق»، أو بلاد «القوزاق» مرة أخرى؛ كما عُرف شعبها باسم «الشراكسة» ؛ ويعتبرون على مدى التاريخ من أشرس وأشجع المقاتلين .

وهذه البلاد تقع على حوض نهر «الفولجا » التى حول بحر «قزوين» ؛ أو بحر «الخزر» كما جاء فى كتب التاريخ الإسلامى. هناك ولد ونشأ، وقضى شطرًا من حياته الأولى؛ وعلى أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة (٦٤٠) هـ وقع فى السبى، وبيع لأحد تجار الرقيق، الذى حمله إلى «حماه» ليبيعه فى أسواقها - على أرجح الأقوال ؛ لكن صاحب «حماه»: «الملك المنصور محمد» لم يعجبه «بيبرس»، فقد كان فى إحدى عينيه بياض، فرده على بائعه الذى نقله إلى «دمشق» وهناك اشتراه الأمير «علاء الدين أيدكين» - البندقدارى - مملوك الملك الصالح «نجم الدين أيوب»؛ فلما عاد هذا الملك إلى مصر بعد الإفراج عنه من الحبس، حمله معه؛ ثم انتقل «بيبرس» إلى خدمة الملك «الصالح» نفسه .

ومن ثم بدأت شخصية «بيبرس» تأخذ دورها على مسرح الأحداث بصورة مؤثرة وفاعلة، وبارزة فى نفس الوقت، مما لفت إليه الأنظار، وجعله فى مقدمة أمراء المماليك؛

[بدأ «بيبرس» على أثر انتقاله إلى مِلك الملك «الصالح» حياة جديدة تغاير تمام المغايرة ما كان عليه فى حياته الأولى، من يوم أن وصل إلى بلاد الشام، فقد اتخذه الملك «الصالح» سنة (٦٤٤) هـ، رئيسًا لإحدى فرق حرسه الخاص، لما رآه فيه من الهمة الشماء والفطنة والذكاء، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج فى المناصب حتى أصبح قائدًا لفرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى صد حملة «لويس التاسع» عن مصر][(١)]

وما زال «بيبرس» يقدم خدماته ويعلو شأنه فى كل ميدان حتى تولى «عز الدين - أيبك» سلطنة مصر، بعد وفاة الملك «الصالح» وزواج «أيبك» من «شجرة الدر» -

---

(١) المقدمة : (ص: ٣) - نشر : دار الفكر العربى (القاهرة) .

زوجة «الصالح» ـ! ولقد كان «بيبـرس» بذكائه وطموحه الذى لاحد له يسعى لأن يكون صاحب الشأن المطلق، وينتظر الفرصة المواتية .

فلما قضى «أيبك» على الأمير «أقطاى» ـ أحد فرسان وأمراء المماليك الأشداء ـ، وقامت ثورة المماليك، تريد الثأر قضى عليها «أيبك» أيضًا، ثم هرب أكثرهم من «مصر» ناجين برؤوسهم، محاولين الكرة على البلاد، من خلال صاحب الشام أو صاحب حماة أو صاحب الكرك. . ! لا فرق عندهم فى ذلك، بل المهم هو الثأر لأنفسهم، واستخلاص البلاد لأيديهم ومن هنا بدأت رحلة التشرد والعذاب والمؤامرات . . .

وكان على رأس هؤلاء الأمراء المماليك «بيبرس»ـ البندقدارى ـ!

ولا أريد أن أكرر هنا ما سبق وذكرته فى الكتابة عن « قطز » فيما يتعلق بتطور الأحداث التى عاشها « بيبرس» أثنائها من تباعد ونفرة وتشرد وتآمر، ثم التقاء فى «عين جالوت» على محاربة التتار، وانتصار المسلمين، بفضل من الله ورحمة، ورد عادية هؤلاء عن ديار المسلمين، بعدما أفحشوا ودمروا، وأبادوا وأهلكوا.

ثم كان الافتراق النهائى بين «بيبرس» و«قطز» ودخول «بيبـرس» فى مرحلة السلطان والملك . . . !

وهناك سؤال يَسْتَـوْقف الدارس لشخصية «بيبرس»: هل كان ميالاً بطبعه إلى سفك الدماء وإلى الغدر؟ وللإجابة يجب التوقف عند كثير من المؤثرات التى أفرزت الأحداث، والتى من جرّائها نُسب إلى «الظاهر» ما نُسب . . .

نعم . . لقد كانت فى طبعه شدة وحزم وذكاء، يترقب الفرص لضرب الخصم والخلاص من العدو . .

ولعل الحالة السياسية والاجتماعية فى عصره ـ من قبل ومن بعد ـ كانت ذات أسلوب معين وطابع عام، لم يسلم منه أحد ممن كانت له طموحات فى الإمارة والسلطنة والحكم .

ونحن . . . وخلال الحديث عن فتـرة حكمه، لا يسعنا إلا أن ننصف الرجل، - فقد أدى خـدمات جلى لأمة الإسلام، فى مـختلف أقطارها، كما أكـمل الرسالة التى بدأها [نور الدين «محـمود آل زنكى»]، وتابعه عليهـا صلاح الدين «يوسف ابن أيوب»؛ فى دحر «الصليبيين»، ثم قتال التتار، وتثبيت أركان الدولة، ليس فى مـصر وحـدها، ولكن فى الديار الشـاميـة ـ أيضًـا ـ؛ وفى الحجـاز . .وفى بلاد «النوبة» التى استـعصت على كثـيرين من أمراء الفـتح . . .، ليس تثبيـتًا سلطويًا فـقط. . . بل إصلاحـيًا فـى الإدارة والمال ورقى الحيـاة العلمـية والأدبيـة، ونقلة حضارية بعيدة المدى .

ومنذ عـام (٦٥٨) هـــ ؛ منذ أن تولى «الظاهر» الـسلطنة حـتى وفـــاته عـام (٦٧٦)هـ كان دائم الحركة، لتثبيت دعائم الحكم، والقضاء على جيوب العدو من الصليبيين والتتار، والحركات المناوئة .

فضلاً عن أنه كان قبل ذلك دائم الحركة ـ أيضًا ـ فى تطلع مستمر إلى الإمارة، يدفعه طموحه المشبوب بين جنبيه كالنار المتوقدة الملتهبة. . !

وعلى هذا فقد قضى «الظـاهر» أكثر سنى حياته فوق متن فرســه وفى يده سيفه . . . خائضًا للمعارك والحروب؛ فليس من عـجب أن تصبح سيرة حياته من بعده مادة قصصية تستهوى النفوس وتستميل القلوب، ويسهر الناس فى البيوت والمقاهى يقرءونها ـ مع ما فيها من مبالغـات وأغاليط أو يسمعونها من «الحكواتى» مصحوبة أحيانًا بأنغام الربابة، أو حركات الراوى . . !

وكان ذلك إلى عهد قريب .

***

«بين القاهر» و«الظاهر» :

بعد أن تولى «بيبرس» عرش السلطنة بإجمـاع من الأمراء وبيعتهم له، وصعوده إلى «قلعـة الجـبل»؛ اخـتار لنفـســه لقب الملك «القـاهر» ـ ركن الدين بيـبــرس

البندقدارى ـ، لكن وزيره «زين الدين بن الزبيـر» أشار عليه بتغيـير اللقب، وقال له: مـا تلقب به أحد فـأفلح. . . ، فـاستـمع «بيبـرس» لمشـورته، وتلقب بالملك «الظاهر».

***

الإصلاحات الداخلية :

بدأ «الظاهر» أول مـا بدأ من أمـور الإصـلاحـات الداخليـة بتقـريب الأمـراء واستـمالتهم إليـه، بمنحهم الإقطاعات الواسـعة، ثم أعاد ترتيب الناحـية الإدارية بتولية وتنصيب الأمراء، الذين يريدهم أن يكونوا ساعـده وعضده، يستقوى بهم، ويركن إليهم

فعين الأمـير «فارس الدين أقطاى المستغـرب» «أتابكًا» للعساكر (قـائدًا عامًا)، وعين الأمـير «بدر الدين الخـازندار» نائبًا لـلسلطان، وفوض إليـه جميـع الشؤون الإدارية والتنظيمـية؛ كما عـين الأمير «تاج الدين ـ ابن بنت الأعز» علـى ـ قضاء مصر ـ .

كما عزل الوزير « زين الدين بن الزبير » وولى مكانه « بهاء الدين بن حنا » .

ثم اتجه إلى الشعب . . .

فـأبطل كل ما اسـتحـدثه «قطز»[1] من ضـرائب ومكوس. . ، فـتنفس الناس الصعداء، وحمدوا له ما أنزله عن كـواهلهم من أثقال؛ ثم جمع إليه كل المماليك البحرية الذين تفـرقوا فى البلاد بعد مقتل الفارس «أقطـاى» ـ أيام «أيبك»، خشية أن يعيـثوا فى الأرض فسادًا، ويرهقـوا الناس بالإتاوات. . . أو البطش؛ وقد نجح فى ذلك؛ فـاكتـسب الأمـراء إلى جانبـه، وأمن ثورتهم، واسـتفـاد رضى الناس كذلك.

وأصبـحت القاعـدة الشعبـية العريـضة، بمن عليهـا من الأمراء تـتـوجه بالحب والشكر والطاعة للسلطان «الظاهر» وبكل الولاء أيضًا.

***

(١) «دولة الظاهر بيبرس فى مصر» ـ ص (٢٦).

محاولات يائسة :

وحـاول بعض أصحـاب الإقطاعات من المـلوك والأمراء خـارج مصـر القيـام بالاستقلال بما فى أيديهم، ونزع الطاعـة. . . ، وكان «علم الدين سنجر الحلبى »- صـاحب دمشق- أول الثـائرين المنشـقين، وهذه فـى نظر الملك « الظاهر » بادرة يجب أن تقمع حتى لا تتكرر فإن وحدة الأمة خير ضمان لرد عاديات الأعداء من التتار ومن جـيوب الصليبيين الذين ما يزالون يحـاولون الإبقاء على وجودهم فى ديار الإسلام .

فجـهز جيـشًا بقيادة «عـلاء الدين - أيدكين البندقـدارى» وأرسله إلى «دمشق» وكان ذلك فى شـهر «صفـر»(٦٥٩)هـ، فالتقى بجـيش «الحلبى» ظاهر «دمشق»، فتغلب عليه، وفر «الحلبى» وأتباعه إلى قلعة دمشق يحتمون بها، ثم اتخذوا ظلام الليل سـتـارًا وفـروا هاربين إلى«بعلبـك» فلحـقهـم جند «الظاهر» فـأمـسكوا بـ «الحلبى»وأتباعه وعادوا به إلى«مصر» حيث اعتقل بها إلى أن مات.

***

وعلى نفسها جنت «براقش» :

وكذلك كانت محاولة «علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ» صاحب «حلب»، الذى ولاه «قطز» عليها بدلاً من الظاهر «بيبرس» بعد الانتصار فى «عين جالوت». . !

فقد قام هو الآخـر بمغامرة فاشلة قضت عليه؛ فقـد غرته نفسه ذات يوم، وهو الذى سار فى الحكم سيرة سـيئة كرهه الناس من أجلها. . ، فقد بلغـه أن جموعًا من التتار تريد الاستـيلاء على «البيرة» فجهـز ثلة من الجند لمواجهة هذا الزحف، ولم يستمع لنصيحة أحد من أصحاب المشورة، بضرورة تكثيف الجند. . ، فسرعان ما وقعت الهزيمة بجند «علاء الـدين» وأبيدوا عن آخرهم. . ، فثار الناس والأمراء فى«حلب» وقبضوا على «علاء الدين» واستولوا على السلطة، وحازوا إليهم كل ما كان اغـتصبـه من الحقوق ظلمـًا وعدوانًا[1] وولوا بدلاً منه «حسـام الدين لاجين العزيز» ؛و أعلموا «الظاهر» بذلك، فوافقهم عليه .

---

(١) يقدر المؤرخون مقدار الثورة بألف من الدنانير الذهبية.

لكن « التتـار » أعادوا الكرة. . . ، فـفر «حسـام الدين» إلى «حمـاه» وحذروا صـاحبـهـا «المنصور» من الخطـر الداهم؛ فظن بادئ الأمر أن ذلـك خدعـة منهم وحيلة، فلما تحقق ذلك، انضم إليهم وساروا جـميعًا إلى «حمص». . . والتتار من ورائهم .

فلما بلغـوها أجمعـوا على لقاء التتـار، وجرت المعركـة فى ظاهرها، فكانت النصرة للمسلمين .

لكن مـثل هذه الأحوال من الـطفرات والثـورات، وغدر الأمـراء ببـعضـهم، وانتقاض المدن الكبيرة، أمثال «دمشق» و«حلب» و«حمص» و«حماه» و«الكرك» لم يهدأ ولم يستقر إلا بعد سنوات من الكفاح، وخروج « الظاهر » بنفسه إلى الشام، وقمع تلك الفتن وتثبيت وتوطيد الأمن، واطمئنانه إلى استقرار الأمور ؛ فإن هناك من الواجبات ما هو أهم، ومن الأخطار ما هو أدهى ؛ لكن تعويل «الظاهر» على إصـلاح الوضع الداخلى وتمتيـن الصلة بين مصـر والشـام، كان فى غـاية الحنكة والوعى .

***

« الظاهر » والخلافة العباسية

ظلت ديار الإسـلام بضع سنوات لا خلافـة فيهـا، منذ أن قتل التـتار الخليـفة العباسى فى بغداد واحتلوها وأبادوا معالمها. . .(٦٥٨)هـ

مضى «أيبك» و«شجرة الدر» و«قطز». . . ، وكـرسى الخلافة فارغًا، وهى تمثل بالنسبة للمسلمين عامة رمزًا دينيًا يشـير إلى وحدتهم فى التبعية الدينية على أبسط الفروض ـ، مع ما تثيره فى نفوسهم من معانى الإيمان والإسلام .

وكان من شأن الملك «الظاهر» ـ بالإضافة إلى عسكريته الفذة، وحزمه وعزمه، بعيـد النظر فى الشؤون الإدارية والسـياسيـة، فرأى بثاقب فكـره أن يجدد منصب الخلافة، ويبعثـه قبل أن ينساه الناس، وإن كانوا يشعرون بأن شيئًـا ما ينقصهم فى حياتهم كأمَةٍ وجماعة .

ولا نريد أن نركب موجة القائلين بأن هذا التصرف من «بيبرس» كان يريد من خلاله كسبًا شخصيًا وزيادة فى تثبيت الأقدام فى السلطة، ذلك أن «الظاهر» لم يكن ضعيفًا محتالاً، بل كان قويًا ذكيًا مؤمنًا، يحمل علمًا وفقهًا؛ ووجود خليفة للمسلمين ضرورة سياسية ودينية، كما أن وجود خليفة عباسى فى «مصر» يقضى على مطامع بذور «الفاطميين» ورواسبهم فيها وفى الديار الشامية أيضًا حيث تتمركز «الإسماعيلية».

واختار «الظاهر» بمحض الصدفة رجلاً اسمه «أحمد بن الإمام الناصر ـ العباسى-»، كان قد وصل إلى دمشق، فاستحضره إلى «مصر» وخرج إلى لقائه ومعه الوزراء والكبراء والأمراء وحشود الناس، وتقول بعض المصادر إن «اليهود» و«النصارى» قد خرجوا أيضًا للترحيب به .

وما زال «الظاهر» يمشى معه ـ متأخرًا عنه حتى أوصله بنفسه إلى قلعة الجبل؛ وجلس بين يديه غير متقدم ولا مستعلٍ عليه .

وزيادة فى التوثيق والتوكيد، وتنظيم المقام، عقد الظاهر مجلسًا فى قاعة الأعمدة، دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الخليفة. ثم تمت البيعة .

وضربت السكة باسميهما، على أحد وَجْهَيْها اسم الخليفة، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان «الظاهر» ؛ وكذلك كان الدعاء للخليفة على المنابر يتقدم الدعاء للسلطان .

المهم فى الموضوع ـ عزيزى القارئ ـ أن هذه اللفتة البارعة من السلطان «الظاهر» تركت أثرها الطيب الجميل فى كل الديار الإسلامية، وأفاضت على السلطان «الظاهر» شيئًا جديدًا من الأبهة وقوة النفوذ وسعة السلطان .

وزاد فى هذا الشأن ذلك التفويض[1] الذى صدر عن الخليفة الجديد للسلطان «الظاهر» بالحكم .

***

(١) أورد نص التفويض: النويرى فى «نهاية الأرب» (جـ:٢٨) القسم الأول (ص٢١-٢٨) والمقريزى فى «السلوك» (جـ١) القسم الثانى (ص ٤٥ - ٤٧) وأبو المحسن فى «النجوم الزاهرة» (جـ٣) القسم الثانى (ص ١٨٨) - (أ - ب) .

الملك «الظاهر» وبقايا الصليبيين :

كانت الديار الشامية مـا تزال مرتعًا لبقايا الصليبيين، الـذين كان أكثر تمركزهم على السواحل والثغور، من «عكا» جنوبًا حـتى «طرابلس ـ الشام» شمالاً، ثم فى بعض القلاع الداخليـة أمثال « شقيف ـ أرنون » و«حـصن الأكراد» فى «تل كلخ» وغيرهما .

وكانوا وما يزالون خطرًا يتـهدد فى كل حين تواصل الديار المصرية والشـامية؛ ويؤرق مضجع السلطان «الظاهر» وسلامة حُكْمه.

ومما زاد فى خطورتهم نشـأة الدولة التـتارية فـى « بغداد » ـ والعـراق ـ، التى كانت على صلة طيبة بهم، تمدهم ويمدونها، تساعدهم ويساعدونها .

إذًا . . . هناك أكـثر من جبـهة لابد من خـوضهـا ومواجـهتـها لتأمـن البلاد الإسلامية من شرور الطامعين والحاقدين والمغامرين .

فـالمهمـة صعـبة، لكن هـمة «الظاهر» وأداءه العـسكرى والسـياسى يسـتطيع مواجهتها، والتغلب عليها ـ بإذن الله ونصره و تأييده .

***

المناورة

قبل أن يواجه « بيبرس » الصليبيين فى الميدان العسكرى عقد عدة محالفات مع الدول المحيطة بمملكته، فتحالف أولاً مع «بركة خان» ـ سلطان مغول «القفجاق» ـ القوقاز ـ ضد خانات فارس والعراق، وتبـادل مع «بركة خان» السفارات والبعوث (١٢٦١ـ١٢٦٣)م .

كما عقـد حلفًا دفاعيًا مع إمـبراطور الدولة البيزنطية «ميـخائيل باليولوجس». وأيضًا أرسل بعثًا إلى «مانفرد» ملك «صقلية» و«توسكانيا» ليأمن خط التواصل بين الجزر فى البحر المتوسط والثغور الشامية .

كذلك تحالف مع سلطان «سلاجقة» الروم .

كان كل ذلك تمهيداً لبدء الحملة على بقايا الوجود الصليبي في الديار الشامية، وتطهيرها من رجسهم وأذاهم .

والسبب الذى اتخذه ذريعة لذلك هو كثرة نقضهم للعهود والمواثيق التى كانت قائمة بينه ـ أو بين من سبقه ـ وبينهم؛ وأكثر ما كان يهمه فى ذلك إيذاؤهم لأسرى المسلمين فى أيديهم .

ولعل فى إيراد هذه المراسلة التى تمت بين السلطان وأمراء الصليبيين عندما زحف إليهم وتوسط بلادهم ما يدل على ما سبق بيانه .

ويعذرنا القارئ الكريم على طول المقالة، إذ لابد من إيرادها كاملة ؛ جاء فى كتاب [السلوك]- للمقريزى- (ج١) القسم الثانى (ص: ٤٦٣ ـ ٤٦٤):

[حتى إذا توسطها (أى بلاد الشام، جاءته رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان إليهم، فكتب إليهم كتاباً قال فيه : (إن من يتولى أمراً فعليه باليقظة، ومن خفى عليه خروج هذه العساكر، وجهل ما عليه الوحوش فى الفلاة، والحيتان فى المياه من كثرتها، التى لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر؛ ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن فى «موقان»[1] من بلاد التتار .

فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون !!! فأى شيء تعملون؟)

ولما رأى «الظاهر» مراوغتهم وأنهم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة، بعد أن كانوا يكاتبونه بندمهم عليها، أحضر رؤساءهم وقال لهم :

ـ (ما تقولون ؟ . . قالوا : نتمسك بالهدنة التى بيننا . فأجابهم بقوله: لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحاراً . . ، ونحن لما حضرنا إلى ها هنا ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره ؛ وأنتم منعتم الجلب والميرة عن العسكر، وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيرنا

(١) إقليم فى «أذربيجان» - معجم البلدان.

نسخة يمين لم تحلفوا عليها ؛ وسيرنا الأسارى إلى «نابلس» و«دمشق»، وما سيرتم أنتم أحدًا، وسيرنا رسولاً يعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحدًا ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى . . . وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم؛ ثم إنا سيرنا رسلاً إلى بلاد (السلاجقة) الروم، وكتبنا إليكم بتسفيرهم فى البحر فأشرتم عليهم بالسفر إلى «قبرص»، فأُخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم، هذا مع إحساننا إلى رسلكم؛ وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى. ومازالت الحرب قائمة والرسل مترددة؛ فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم) ثم ذكرهم بما كان من عفو «الملك الصالح نجم الدين أيوب» عنهم حين خرجوا عليه مع عمه «الصالح إسماعيل بن العادل»، وأخذهم مقابل ذلك مدينتى «صفد» و«الشقيف»، وأنهم غدروا ونصروا «لويس التاسع» وصحبوه إلى مصر. . . ، إلى أن قال :

(وما بالجملة أنتم أخذتم هذه البلاد من «الملك الصالح إسماعيل» لإعانة مملكة الشام وغيرها. . . ، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم، فردوا ما أخذتموه من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإنى لا أقبل غير ذلك. . . ؛ فقالوا : نحن ما ننقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان فى استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى، ونفك الأسرى . .)

فلم يقبل السلطان ذلك منهم، وأمر بإخراج رسل الفرنجة ؛ ووجه الأمير «علاء الدين طبرس» إلى كنيسة «الناصرة»، فسار إليها وهدمها، ولم يلق من الفرنجة أى مقاومة .

إلى «عكا»:

كانت « عكا» من أمنع مدن الثغور الشامية، بأسوارها وأبراجها، واتصالها بالبحر، ولقد وقفت أكثر من مرة فى وجه «صلاح الدين»، فلم يستطع تحريرها واستعادتها؛ وظلت على مدى عقود من السنين من أهم المدن التى استولى عليها الصليبيون؛ وخطرًا يتهدد الديار الشامية .

كل ذلك كان يعلمه الملك «الظاهر»، فصمم على اقتحامها وفتحها؛ فجرد إليها جيشًا، ثم سار بنفسه وحاصرها من جهة البر، (٦١١) هـ؛ وكان أهلها من الفرنجة قد حفروا خندقًا حول «تل الفضول»، بالقرب من «عكا» واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه .

رأى «بيبرس» صنيعهم هذا، فلم يمنعه من مهاجمة التل حيث تحصنوا، ولما وصل رتب عساكره بنفسه، وهمَّ الجميع بردم الخندق، وسرعان ما انتهوا منه، واعتلوا التل وانقضوا على الصليبيين، ففروا منهزمين إلى داخل المدينة، والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار. . . وامتلأ الجو بالدخان .

دخل الصليبيون المدينة وأغلقوا أبوابها عليهم، وتحصنوا ؛ لكن كتائب جيش المسلمين بقيادة الأمراء حملوا على الأبواب الواحد بعد الآخر، ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة، شتتوا فيه شملهم، إذ ألقى فريق منهم فى الخنادق، وقتل عدد عظيم، وامتلأت أيدى الجيش الإسلامى بالأسرى والغنائم .

***

من « عكا » إلى « قيسارية » و« عتليت » و« حيفا » .

وفى عام (٦٦٣) هـ؛ سار «بيبرس» من مصر إلى الشام على رأس جيش كبير، لمحاربة التتار، فلما بلغته الأنباء بارتدادهم عن «البيرة»، اتجه إلى «قيسارية» ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها، ففر أهلها إلى قلعتها، ثم اضطروا إلى تسليمها، بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها . . وكان « بيبرس» يشارك بنفسه فى هدم هذه الأسوار .

ومن موقعه فى «قيسارية» أرسل جيشًا إلى «عتليت» و«حيفا » أوقع التخريب فيهما، ثم تحول هو نحو قلعة «أرسوف» البحرية، الواقعة جنوبى قيسارية وأخذ فى مهاجمتها، لكن حاميتها دافعت عنها دفاع المستميت، ودام ذلك مدة أربعين يومًا . . . ، وأخيرًا جرت المفاوضة بين الطرفين، فأعطاهم «بيبرس» الأمان على حياتهم، ثم أكرههم على العمل فى تخريب حصونهم بأيديهم .

ولقد أقطع «الظاهر» أمـراءه الأشاوس إقطاعات واسعـة من الأراضى التى كان الصليبيون قد استولوا عليهـا، بتفويضات موقع عليها من الوزير والخازندار وديوان الجيش؛ وسجل ذلك فى صحيفة.

ثم إلى «حمص» و«طرابلس الشام» و«حصن الأكراد» :

وفى عـام (٦٦٤) هـ؛ أغار ملك «أنطـاكيـة» الصليبـى على مدينة «حـمص» فأرسل «بيبرس» قوة لنجدتها، ثم خرج بنفسه على رأس كل جنده، فلما بلغ غزة أرسل مددًا إلـى «حمص»، بقـيادة الأميـرين: «جمـال الدين أيدغدى العـزيزى» و«سيف الدين قلاوون الألفى»، فأغاروا على الفرنجة وهزموهم، ثم جاءهم كتاب من السلطان بالـتوجـه إلى «طرابلس» فـسـاروا على غـرةٍ من العـدو ونزلوا على «حصن الأكراد»، وأغـاروا على ساحل البحر من جهـة «طرابلس» واستولوا على بعض القلاع. أما السلطان «بيبرس» فـإنه توجه إلى «بيت المقدس» و«الخليل» فزار قَبْر سـيدنا «إبراهيم » ـ عليه السـلام ـ وأفاض النعم على حراسه، وأمـرهـم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدس .

إلى « صَفَد » :

ثم اتجه نحو مقـصده، فتقدم نحو « عـين جالوت »، وأرسل بعض الأمراء فى عدة من العـسكر لغزو «صور» و«صيـداء»، ثم سار بنفسه إلى «عكا» وأقـام بها، حتى يوافـيه جنده من مـختلف الأنحـاء، فجاؤوه وقـد حققـوا انتصـارات هامة وفتوحات عظيمة، محملين بالغنائم، فزحف بهم جميعًا إلى «صَفَد» .

فحـاصرها حصـارًا شديدًا، واستـمرت المعارك بينه وبين حـاميتـها طيلة ثلاثة أسابيع، وكـانت حامية طاحنة، وأبلى الـطرفان فيهـا أعظم البلاء، ولم تلبث أن سقطت، فطلب قائد الفرسان الأمان، وأن يرحلوا إلى «عكا» سالمين، فأمَّنهم على أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا عدة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة .

غير أنهـم نقضوا عهد الأمـان ونكثوا به، فخرجـوا محملين بالسـلاح ومعهم بعض أسرى المسلمين ـ على أنهم نصارى ـ !!!

فصادر السلطان ما معهم، وحرر أسرى المسلمين وضرب أعناق المخالفين جميعًا، عدا اثنين أحدهما أسلم وظل من بعد فى خدمة السلطان «بيبرس»، والثانى بعثه رسولاً إلى «عكا» ليخبر الفرنجة بما كان وشاهد؛ فيحذرهم وينذرهم.

ولم يبق «بيبرس» مدينة «صفد» على ما هى عليه من الخراب والدمار، لكنه أعاد بناءها ورقَّمَ أسوارها وأبراجها، وجدد فيها ووسمها وزينها بآيات قرآنية كريمة تدل على انتصاراته منها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وجاء فى كتاب (نهاية الأرب) لـ (النُويْرى) ما نصه :

(ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد، وبدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه - التى هى أعز النفوس - حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان صاحب القرآن، أبو الفتح «بيبرس» قسيم أمير المؤمنين) [١]

المتابعة :

واستمر السلطان «بيبرس» فى متابعة الجهاد ضد الإمارات، والقلاع والحصون الصليبية الممتدة على طول السواحل الشامية، لا يكف عن غزوها ومحاربة من فيها وإخراجهم منها .

ولقد رغب بعضهم فى المصالحة والمسالمة، فعقد معهم العقود والمواثيق التى تحد من سلطانهم، وكان أهم ما يرغب فيه ويهتم به هو تحرير أسرى المسلمين الذين هم فى أيديهم .

---

(١) (جـ ٢٨) القسم الأول (ص: ١٣٦ - ١٣٨).

وكانت قلعة «الشقيف»[1] من أهم الحصون التى يحرص الصليبيون على بقائها فى أيديهم، ولقد رفض أصحابها الدخول فى الأمان .

والقلعة تقع على جبل عال، منحوتة فى الصخر، ذات مُنْحدرات صعبة المنال؛ لكن ذلك لم يمنعه ـ أى السلطان ـ من مهاجمتها وحصارها، ورميها بالمجانيق، وقد استخدم فى ذلك ستة وعشرين منجنيقًا،كما استخدم الحيلة فى الإيقاع بين أفراد حاميتها من فرسان «الداوية»؛ إلى أن استسلموا، فاستولى عليها وأخرجهم منها .

ثم تابع زحفه باتجاه الشمال نحو مدينة طرابلس، التى كانت قد تعرضت من قبل إلى مهاجمة فرقة من جنود السلطان يوم استولى على حصن الأكراد ـ وهو بينها وبين مدينة حمص ـ .

وتعتبر«طرابلس» الخطوة الأولى فى الشمال نحو «أنطاكية»؛ أهم الممالك اللاتينية على الإطلاق. فنحن نرى حين نتابع تحركات «بيبرس» العسكرى، أنها مدروسة ومخطط لها، أو كأنها على خريطة حربية قتالية، هى معركة واحدة مع الصليبيين إلا أنها ذات مراحل، مما يوحى أو يعطى انطباعًا بأن السلطان «بيبرس» يتمتع بكفاءة القائد العسكرى الفاتح دون ريب .

وصلها ـ أى طرابلس ـ بجيشه فهاجم القرى والدساكر والحصون والقلاع التى تحيط بها، فاستولى على الكثير منها، وترك بعضها فى ضعفه. . .، ثم تابع زحفه إلى الشمال؛ إلى «حمص» وإلى « حماه ». . .، وكانت تحت سلطانه.

وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد (إقليم) «أنطاكية»، وتولى قيادة إحدى الفرق بنفسه، ونزل بها على «فامْية» وعندما وصل السلطان إلى «أنطاكية» وافته جيوشه إلى هناك؛ ثم بدأ الهجوم عليها فى رمضان (٦٦٦) هـ؛ وجرى قتال شديد، سالت فيه الدماء غزيرة، ووقع فى أيدى المسلمين أسيرًا حامى المدينة، فوسطه السلطان ليكون رسولاً إلى المقاتلين لعلهم ينزعون إلى السلم

(١) تقع فى القطاع الأوسط من الجنوب اللبنانى، ولا تزال قائمة حتى اليوم.

ويلقون السلاح، ويحقنون الدماء، لكنهم رفضوا وأبوا واستكبروا وتعالوا ـ حينئذ لم يجد السلطان بدًا من الضربة القاتلة، فهاجم المدينة هجومًا شديدًا عنيفًا استمر خمسة أيام متواصلة، ثم انقض عليها بجنده وأمعن فى القتل والأسر، ووقعت المدينة (أنطاكية) فى أيدى السلطان، وهز هذا النبأ العالم المسيحى من أقصاه إلى أقصاه . . . بعدها كر راجعا باتجاه «طرابلس»، وأعاد ما كان قد بدأه من قبل، وهو التمهيد لفتحها بشل حركتها وتقطيع أوصالها من خلال بعض الحصون والقلاع التى كانت ما تزال فى أيدى الصليبيين، وأهمها «حصن الأكراد» فاستولى عليه. .، وعلى غيره، وأصبحت الطريق إلى«طرابلس» ممهدة . ولما بلغها حاصرها وشدد عليها. . . ،فأرسل إليه ملكها «بوهيمند» يفاوضه، فاشترط السلطان شروطًا رفضها «بوهيمند»؛ وحاول السلطان أن يلين جانبه. . .، وأخيرًا اتفقا على هدنة مدتها عشر سنوات ؛ مع تحديد مواقع نفوذ كل من الطرفين فى ذلك الساحل الشمالى الغربى من سورية اليوم .

***

إلى قبرص !!

ما توقفت جهود السلطان «بيبرس» على محاربة الصليبيين فى البر، إنما اتجه إلى البحر أيضًا، فوسع مدى عملياته العسكرية .

والسبب فى غزو «قبرص» أن حاكمها قد أمد فرسان حامية حصن الأكراد عند الحصار، وكأنه يستعدى السلطان «بيبرس» عليه ويدخل طرفًا فى النزاع .

فأمر السلطان «بيبرس» بإنشاء بعض السفن فى ميناء «دمياط»، حملها بالجنود، وتوجهت إلى «قبرص»، فلما قاربت شواطئها عند ميناء «ليماسول» هبت عليها عاصفة شديدة أغرقت منها إحدى عشرة سفينة . . .، فهاجمها أهل « قبرص » وأخذوا الأسرى من المسلمين، وفشلت هذه الحملة .

لكن «بيبرس» بما أوتى من همة وذكاء وسعة حيلة، استطاع أن يعيد إنشاء أسطول آخر، وينتظر الفرصة المواتية للضربة التالية، كما علم أن أسرى المسلمين

فى «قبرص» قد بيعوا إلى «صور» فأرسل من يبتاعهم ويفك أسرهم، لكن الفرنجة رفضوا. . . ، فما كان من «بيبرس» إلا أنه أمر رسله بإغراء الحراس بالمال، ففعلوا. . . ، ونجا الأسرى؛ ووقعت الفتنة بين الفرنجة أنفسهم .

***

«بيبرس» و «الإسماعيلية»

الإسماعيلية فرقة شديدة المغالاة من الشيعة، شديدو العداوة لأهل السنة والجماعة، متطرفون فى آرائهم، لا ينتسبون إلى الإسلام. . إطلاقًا ولو أنهم قالوا ـ ويقولون ذلك ـ؛ ينتسبون إلى «إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على (زين العابدين) بن الحسين بن على بن أبى طالب » .

تفرعت عنهم طائفة «الحشاشين» أو : «القتلة» ـ حسب الترجمة الفرنسية : (ASSASSINS) وكانوا من أخطر العصابات التى تعيث فى الأرض فسادًا، اتخذوا مقرًا لهم فى بلاد «فارس» أسموه: «قلعة الموت»؛ ومنه كانوا ينطلقون فى كل اتجاه، يضربون ويهربون . . .

ولقد عانى منهم «صلاح الدين» معاناة شديدة، وحاربهم وشدد عليهم، لكنه لم يقض عليهم، فقد كانوا لا يواجهون إلا قليلاً، ثم يفرون إلى حصونهم ومعاقلهم، ولقد تجرءوا على «صلاح الدين» ذات مرة ودخلوا معسكره وخيمته . . . ، ولولا لطف الله به لقضوا عليه .

وبقى خطر هذه الطائفة يتزايد ويشتد فى مختلف بقاع البلاد العراقية والشامية، وكان من أخطر ما فعلوه أنهم كانوا حلفًا للتتار حين غزوا البلاد، كما استمروا على تحالفهم مع الصليبيين . . !؟ بعد فتح «حصن الأكراد» ضعف موقف «الحشاشين» فى تلك الأنحاء، إذ اشترط «بيبرس» عند توقيع عقد الصلح مع صاحب الحصن أن تكون الجزية التى يدفعها الحشاشون إليه من حق السلطان «الظاهر بيبرس»؛ فصارت الأموال التى كانت ترسل إلى الفرنجة تحمل إلى السلطان فى «مصر» .

وقد مهد السلطان بهذا التصرف الطريق إلى ضربهم الضربة القاصمة، وراح يستولى على حصونهم فى الشمال السورى واحدًا بعد الآخر، حتى تلاشى وجودهم إلى حد ما، ونقل بعضهم إلى مصر، واستخدمهم فى بعض المهام، وهنا يستغرب ويتعجب بعض المؤرخين والباحثين من ذلك، ويتساءلون : كيف ؟ وهو يعلم مدى خطورتهم !!!

إن من يطلع على أحوالهم ونشأتهم، وظروف العمل العسكرى والسياسى الذى باشره « بيبرس »، يدرك أن « الظاهر » يعرف ماذا يريد، ومن يستخدم، وكيف ينفذ.

«بيبرس» و المغول «التتار»

قلنا فى (التوطئة) إن أصل "بيبرس" من بلاد «القفجاق» القوقاز ـ (شيشنيا)؛ وهناك كانت نشأته الأولى .

وبعد أن تعرضت البلاد لهجمات «التتار» وأسر "بيبرس" وبيع رقيقًا، حمل فى أعماقه عداءً ممزوجًا بالحقد على هؤلاء البرابرة السفاحين السفاكين ؛ فكان منذ ظهوره فارسًا وأميرًا، يقوم ببعض الهجمات الفردية عليهم، على معسكراتهم، أو على جنودهم، أو على أفرادهم منذ أن استولوا على "بغداد" وزحفوا باتجاه «الشام» .

ولم يكن كل هذا ليشفى غليله أو يرد إليه اعتباره، حتى على الرغم من معركة «عين جالوت» ؛ والتى لعب فيها دورًا رئيسيًا وأساسيًا . . . ، فإنه ما زال حتى اعتلائه عرش مصر، وقيادته للأمة وتحرير أكثر أراضيها من الوجود الصليبى، يحمل بين جنبيه قلبًا مشحونًا بالبغضاء لأولئك « التتار » .

وتفرع عن «التتار» الذين أقاموا دولتهم فى «فارس» و«العراق» وجزء من آسيا الصغرى، قبيلة سمت نفسها القبيلة «الذهبية»، ـ أو هكذا اسمها ـ؛ أسلمت هذه القبيلة وآمنت واتبعت الحق؛ ونزلت فى «القفجاق» وطن "بيبرس" الأصلى ـ؛

وكان زعيمها «بركة خان» من القادة المؤمنين، على صلة دائمة بالسلطان «الظاهر بيبرس»، يراسله ويتودد إليه، ويتعاون معه .

أما «تتار» فارس وبغداد؛ فما كفوا أبدًا عن مناوأة «الظاهر» والتحرش به، واستفزازه ليخوض معهم حربًا، لعلهم يكسرون شوكته، ويقضون على سلطانه، ولا ينسون أبدًا أنه عدوهم الأول ؛ وكانوا فى حلف دائم وتعاون مستمر مع الممالك الصليبية.

إلا أنه كان لا يتطلع إلى حربهم فى تلك الأثناء، فقد وجه كل اهتماماته باتجاه الصليبيين، حتى إذا اطمأن بعد عدة سنوات من الجهاد والجلاد، وقَوْقعة الصليبيين والقضاء على نفوذهم، وسيطرته التامة على أنحاء مملكته، من حلب فى الشمال إلى أقصى بلاد النوبة فى جنوب مصر، عندئذ تفرغ «للتتار» ؛ وبدأ معهم حربًا طويلة المدى، كان آخرها معركة «الأبلستين» ـ فى بلاد الروم. .

كان السلطان «بيبرس» قد شرع فى السفر (رمضان: ٦٧٥هـ) للاستيلاء على بلاد الروم، مغادرًا مصر على رأس جيش كبير، فأتى «دمشق» ثم غادرها إلى «حلب»، فجاءته الأنباء باتفاق «التتار» والروم على لقائه ومحاربته .

فرتب «بيبرس» عساكره، وعبأ جيشه، واعتلى جبالاً تشرف على صحراء «الابلستين» (١)

فلما توسط الروم والتتار السهل، انصب عليهم « بيبرس» بجنوده وعساكره من أعالى الجبال انصباب السيول، وأوْقَعُوا فيهم قتلاً وسبيًا وتشريدًا، وهزيمة منكرة لم تقم بعدها للتتار قائمة، اللهم إلا بعض المناوشات التى لا طائل من ورائها ؛ منها مثلاً محاربته لهم عند نهر الفرات سنة (٦٧١) هـ . وهزيمتهم أيضًا .

فيما وراء الحدود

بعد هذا النفوذ الواسع والسلطان الممتد، شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، ودحر الصليبيين وهزيمة التتار، رأى «الظاهر بيبرس» أن تكون له صلات دولية

(١) مدينة فى بلاد الروم اسمها الحالى «البستان» قريبة من «أفسوس» مدينة أهل الكهف - (ياقوت).

ومحـالفات وسفـارات، مع ملوك وحكام أوربا، توطيدًا لهيـبة الدولة الإسلامـية (الظاهرية) .

فكان أول تحالف له مع إمـبراطور بيزنطة (إمبـراطور القسطنطينية) ـ «ميـخائيل بالبولوجس» ؛ يتبادلان الرسل والهدايا، والتواصل .

ثم تبادل مع «مـانفرد» ملك «صـقلية» و«توسكانيا» الرسل والـهدايا، وتوثقت بينهما العلاقات والمصالح.

كما عقد معاهدات تجارية وتبادل مصالح مع ملك « أرجونة » و«ألفونس» ملك «أشبيليا»

فى الأراضى المقدسة

ووجد «الظاهر» بيبرس طريقًا إلى الحجاز، يعيد بها الأمن المهدد والاضطراب، الذى استعر بين شرفائها، سواء فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة، فنزل هناك بثقله السيـاسى والمادى، وأصـلح بين الأطراف، ووطد الأمن، وقـضى عـلى مظاهر الاختلاف والتأخر؛ وأصبح يخطب له على منابر المساجد، ويدعى له .

وفى شهـر «شوال» سنة (٦٦٧)هـ، قصـد الديار المقدسة لأداء فـريضة الحج، واستصحب مـعه قاضى القضاة «صدر الدين سليـمان» ـ الحنفى ـ وصاحب ديوان الإنشاء «فخر الدين بن لقمان» . ونحو ثلاثمائة مملوك، وبعض الأجناد .

وعندما بلغ المدينة المنورة زار مسجـد رسول الله ﷺ ثم أتى مكة المكرمة فأدى شعائر الحج ومناسكه ووضع بيده كسوة الكعبة الشريفة، وأعطى الخواص مبلغًا من المال ليوزعـوه على أهالى الحرمين الـشريفين، كـما خلع على أكابر بلاد الحـجاز وأمير ميناء « ينبع» وأميرى «مكة»، وزاد فى المقرر لـهما، وعين نائبًا له بمكة تلبية لطلب أميرها .

إصلاحات «بيبرس» وإنشاءاته واستحداثاته

استحدث «بيبرس» رغم انشغالاته العسكرية ـ أحدث النظم فى الإدارة والحكم، مما ينبئ عن عقلية فـذة تتحلى بمعطيات القيادة على مختلـف الصُعُد، ولا نستطيع استيفاء ذلك كله فى كتابنا هذا لأنه واسع وشامل، يتناول كل كبيرة وصغيرة .

علمًا بأننا إنما نتناول شخصية «الظاهر بيبرس» من خلال الفتح والجهاد، فهذه خصوصية تقتضى عدم الإسهاب والإطالة فى الجوانب التالية، بل نأتى على ذكرها إنصافًا وعدلاً . ومن الطبيعى جدًا أن يكون هناك تطور ملحوظ فى تنظيم الجيش، وقد كانت كثرة الحروب والمعارك وتعدد الجبهات، وتنوع الجند، والأمراء، والقادة، محكًا لقدرة القائد على «تنظيم» ذلك كله، واستحداث نظم جديدة، وأسلحة متطورة ؛ وقد تم له ذلك، وفاجأ به أعداءه .

وفى الشأن الاقتصادى كان لـ «الظاهر بيبرس» جولات وصولات، فى الزراعة وتطوير أساليبها، وتنويع مواردها ومحاصيلها؛ وفى الصناعة من إنشاءات تعمل على أسلوب الاكتفاء الذاتى، سواء فى الآلة الحربية، أو النسيج، والزجاج بأنواعه، والمعادن وما ينتج عنها، والأدوية العلاجية . . . ، وقد اقتضى ذلك إنشاء مستشفيات متعددة تفى بحاجة الناس، يقوم عليها أطباء مهرة .

كما أوجد أسواقًا خارجية أدت إلى ارتقاء التجارة، فعادت على البلاد والعباد بالربح الوفير والمال الكثير، سواء للأفراد من التجار وشيوخهم، أو موارد الدولة من الرسوم والمكوس ؛

ولقد اهتم أيضًا بالناحية العلمية، فأنشأ عدة مدارس، أنفق عليها الكثير، وأوقف لها أوقافًا كثيرة، وجند لها أساطين أهل العلم فى مختلف الفنون .

وكذلك أكثر من إنشاء المساجد، على أرقى صورة وأكمل شكل، وفرشها وزينها وزخرفها، وأوقف لها ـ أيضًا ـ أوقافًا تدر عليها وعلى من يقومون بالمهام فيها .

وهذا كله لم يكن محصورًا داخل مصر ـ مقر السلطنة ـ ؛ بل تعداه إلى الديار الشامية والحجازية، وكل بقعة من أرض الإسلام بسط عليها سلطانه ونفوذه ؛ إذ لم يكن همه التوسع فى السلطان بقدر ما كان همه إعمار ديار الإسلام .

وكان للناحية العلمية فى البلاد نهضة تتفق وتتساوى مع متطلبات الواقع المعاصر، فأخذت سبيلها إلى ذلك، وإن اقتصرت على بعض النواحى دون البعض الآخر .

فظهر علماء وقضاة وكتاب وشعراء وأطباء وغير ذلك .

تدينه

كان السلطان «الظاهر بيبرس» حنفى المذهب، على جانب من الفقه والعلم، والتدين أيضًا، وكان مثلاً طيبًا وقدوة حسنة لأمثاله من أبطال الفتح، لارياء ولا سمعة، بل إخلاصًا وطاعة لله عز وجل .

والمتتبع لمراحل كفاحه وحروبه ومعاركه يلحظ اهتمامه الشديد البالغ بأسرى المسلمين فى يد العدو، فلم يكن يطيق صبرًا على وجود مسلم أسير فى أيدى الأعداء، ويبذل الغالى والنفيس فى سبيل تخليصه واستعادته وحريته؛ وكأنه ـ رحمه الله كانت لا تفارق جوارحه وعقله الآية الكريمة: ﴿ولَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

كان مؤديًا للصلاة فى أوقاتها، مهما كانت الظروف والشواغل، لم يعاقر خمرًا، ولم يرتكب إثمًا ولا محرمًا؛ شديد الحساسية تجاه العقيدة والسلوك، من ذاته ومن حاشيته وأهله، ومن الشعب .

وفاته

كان السلطان «الظاهر بيبرس» ـ على ما علمنا مما تقدم ـ لا يستقر فى مكان، دائم التنقل. . ، بسبب انشغاله العسكرى الحربى. . . ، وأكثر ما كان يستهويه من أماكن يقيم بها بعض الوقت «القاهرة » و«دمشق»؛ فلما كانت سنة (٦٧٦)هـ وكان فى «دمشق» وافته المنية، ودفن بها؛ وما يزال قبره إلى اليوم محجة ومزارًا للكثيرين من الناس يستلهمون التاريخ، وعبق الجهاد، واسترجاع الذكريات. ومن أشهر المعالم ذات الأثر العلمى «المكتبة الظاهرية» بدمشق، والمنسوبة إلى الملك «الظاهر» ـ رحمه الله ـ؛ وتضم الآلاف من المخطوطات والتراث الفكرى والعلمى، وتقع قريبًا من «الجامع الأموى» .

كلمة أخيرة

على هذه الصفحة الأخيرة من عجالتنا عن الملك «الظاهر بيبرس»، ونحن نودع فارسًا وبطلاً من أبطال الفتح الإسلامى، هيأه القدر ليكون أنموذجًا حيًا للقادة

المجاهدين، خاصة فى عصرنا الحاضر وقد تكالبت علينا أمم الشرق والغرب، يمعن فينا فتكا وسلبا ونهبًا . . . لا يسعنا إلا أن نحنى الرؤوس إجلالاً واحترامًا، ونبعث فى القلوب والعقول والأرواح دفْقَةً من إيمان صادق وإسلام نقى صاف، لعل الله تعالى يأخذ بناصرنا وأيدينا، ويهدينا سواء السبيل، ويرفع عن عيوننا غشاوة الجهل، ويحقق قوله فينا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...﴾ [آل عمران: ١١٠] لأن (الخيرية) مرتبطة بالاستقامة على المعروف قولاً وعملاً، والابتعاد عن المنكر نهيًا وفعْلاً .

***

١٠- عبد الرحمن الداخل

[قال أبو جعفر المنصور ـ رأس الدولة العباسية ومؤسسها ـ لبعض أصحابه وخاصَّته الجالسين عنده :

ـ من صقر قريش من الملوك ؟ فقالوا وهم يمالئونه ـ : أمير المؤمنين، الذى راض الملْك، وسكَّن الزلازل وحسم الأدواء .

قال: ما صنعتم شيئًا . . ! قالوا: فـ «معاوية» قال ولا هذا؛ قالوا: فـ«عبد الملك ابن مروان»؛ قال: لا . . . ، قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: صقر قريش «عبد الرحمن بن معاوية[1]» الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف، يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته .

إن «معاوية» نهض بمركب حمله عليه «عمر» و«عثمان» وذلل له صعبه، و«عبد الملك» ببيعة أبرم عقدها . . . ، وأمير المؤمنين (يعنى نفسه) بطلب عزمه واجتماع شيعته . . ، و«عبد الرحمن» منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب بعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين].

بهذه الكلمات القليلة تصدر عن «أبى جعفر المنصور» تتحدد معالم شخصية «عبد الرحمن الداخل» فما من مغامر جرىء فى التاريخ العربى ـ الإسلامى، يتحرك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وحيدًا بنفسه ثم ينشئ ملكًا امتد عقودًا من السنين، ويعيش أكثر سنى حياته مجاهدًا مكافحًا، لا ينزل السيف من يده، ولا تفتر له همة، ولا يضعف ولا يخور . . . ، ينقض من علٍ على فريسته فلا يتركها حتى يقبض عليها بمخالبه، أو يمزق جسدها بمنقاره الحاد . . . فإذا هى جثة هامدة، لا حراك بها، إنه ـ فعلاً ـ صقر قريش ـ، الذى ما تزال شخصيته ـ إلى يومنا هذا ـ مثلاً حيًا فى الجرأة والمغامرة وإثبات الذات، والقضاء على الفساد، واعتلاء عرش البلاد .

---

(١) ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

وعلى الرغم من المعاناة الداخلية فى تثبيت أركان الدولة والملك، فقد كان أيضًا من أبطال الفتح، فقد حمى الدولة الأموية الأندلسية من مطامع الطامعين وثورات الثائرين، وأعاد إليها وحدتها بعد أن كادت تصبح بددا، هذا أولاً . . ، وثانيًا فإنه واجه المملكة النصرانية فى الشمال الأندلسى لاسعيًا وراء سلطان، ولكن تبشيرًا بكلمة الرحمن ـ جل جلاله .

نهاية وبداية :

يوم الحادى عشر من جمادى الثانية سنة (١٣٢) هـ، كان يوم النهاية لسلطان بنى أمية ودولتهم وبداية الدولة العباسية، على يد «أبى العباس» ـ السفاح وعمه «عبد الله بن على» ؛ وقائد جندهم «أبى مسلم الخراسانى» الذى كانت له اليد الطولى فى انتصاراتهم كلها .

فى ذلك اليوم هزم جيش الأمويين بقيادة «مروان بن محمد» آخر خلفائهم عند ضفة نهر «الزاب» اليسرى، من أرض الجزيرة، هزيمة منكرة، لم تقم لها من بعد قائمة .

ثم كان التتبع والمطاردة، رهيبة دموية فاحشة؛ ولا أدل على ذلك من قول الشاعر «سديف بن ميمون» محرضًا «السفاح» على اجتثاث جذور الأمويين :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داءً دويا

فضع السيف وارفع السوط ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فعهد «السفاح» إلى عمه «عبد الله بن على» ـ وهو بالشام ـ تنظيم هذه المطاردة الدموية؛ فتتبع وجوه «بنى أمية» ومواليهم فى كل مكان، وأمعن فى مطاردتهم وسفك دمائهم، ولم يبق حتى على النساء والأطفال، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء زعم أن ابن أخيه «أبا العباس» قد ندم على ما فرط منه فى حقهم، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه. . . ، فخُدع كثيرون منهم بهذا الوعد. . . وأخذوا يظهرون، وبهذه الحيلة الخديعة استطاع أن يكمل على سبعين رجلاً آخر منهم .

وكانت ـ كما يقول المؤرخون ـ مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة، ومثل بكثير من الضحايا أبشع تمثيل، وألقيت جثثهم للكلاب تنهش لحمها، كما استخرجت رفات الخلفاء الأمويين من القبور وبُددت . . . !

إلا واحداً...

إلا واحداً من ذريتهم تهيأت له ظروف تغيير وجه التاريخ، وكان جديراً بذلك لما أوتيه من جرأة ومغامرة وذكاء وقوة شخصية. . . ! هو: « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك» . ـ بطلنا ـ، ومحور حديثنا .

ولد «عبد الرحمن» سنة (١١٣)هـ؛ فى بلد اسمها «دير خنان» من أعمال «قنسرين» بالقرب من «حلب»

ومات أبوه «معاوية» وهو لا يزال طفلاً، فكفله جده «هشام» مع إخوته، ورعاهم ورباهم . فلما اشتدت وطأة المطاردة على «بنى أمية» فر «عبد الرحمن» بأهله إلى ناحية «الفرات» من أرض الجزيرة، واختفى هناك وقتا فى إحدى القرى، وكانت أمه «أم ولد» تدعى «راح» وهى من قبيلة بربرية اسمها «نفزة» لها عددها ولها بأسها ومكانتها،

الفرار

فلما بلغت خيل المطاردة مكان اختفائه ولحقوا به، ألقى بنفسه فى «الفرات» سابحًا، ومعه أخ له صغير إلا أن أخاه لم يستطع السباحة وغره قول المطاردين له بالأمان، فعاد إلى الشاطئ من حيث نزل، فأمسكوا به وهددوا أخاه «عبد الرحمن» بقطع عنق أخيه إن لم يعد إليهم . . . ، ولقد أدرك «عبد الرحمن» أنه وأخاه سوف يقتلان. . . فلم يرضخ لتهديدهم ؛ ولم يسمع لقولهم، فذبحوا أخاه أمام عينيه. . . !!! وكانت مأساة أليمة تركت أثرها فى أعماقه، إذ كان منظر الدماء يتخايل فى عينيه مع مستقبل الأيام، لا يحول عنه ولا يزول .

***

إلى مصر ثم إلى الشمال الأفريقى

لماذا . . . ؟

لأنه صمم على أن يكون أكثر بعدًا من أن تطاله يد العباسيين، وأن يكون له شأن، فمؤهلاته كثيرة، ونفسه طموحة، والمغامرة والجرأة عنوان شخصيته . . .

وما كانت مصر أو الشمال الإفريقى إلا محطتين فى طريقه إلى الأندلس، حيث لا يزال لبنى أمية وجود وأنصار وجند.

اخترق «فلسطين» ومنها إلى «مصر» حيث لحق به موليان له هما «بدر» و«تمام» يحملان بعض المال والجوهر، أرسلتهما له أخت له تدعى: «أم الأُصبغ» .

ثم تابع سيره إلى «برقة» حيث منازل أخواله من «بنى نفزة»، فاستقبلوه وأكرموا وفادته، واحتضنوه، فأقام عندهم زمنا، لا يفصح عما يريد، ولا يتحدث بما انتوى عليه، لكنه كان فى مقامه هناك يدرس أحوال المغرب، وأحوال العدوة القصوى فى الأندلس، ويرقب التطورات، كى يختار المكان المناسب والزمان المناسب .

الأنـــدلـــس

وكانت بلاد الأندلس فى ذلك الحين قد دخلت فى دوامة من الصراع الطاحن، بين المتطلعين إلى الولاية من ناحية، وبين القبائل العربية التى نزلت تلك الديار مع الفتح من قيسية ومضرية وفهرية . . . وغيرها ؛ وكذلك بين هذه القبائل نفسها وقبائل البربر الذين كانوا - ولا شك - عدة الفتح بعددهم وفروسيتهم وشجاعتهم، ولهم يد فى ذلك الفتح العظيم، تذكر فتشكر، ولا تنسى أبدًا .

لم تطل إقامة «عبد الرحمن» فى«برقة» إلا بعض الوقت، وعندما أحس بخطر المطاردة قد اقترب منه نزح عنها إلى المغرب، وفى ظروف صعبة وقاسية، وقد عانى من خطر الموت أكثر من مرة . . .

وأقام حينًا مختفيًا عند شيخ من شيوخ البربر يدعى «وانوس»، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل على قومه من «زناته» على شاطئ البحر، ولحق حينًا

بـ «مليلة» وغيرها. . . ، وهكذا. . . ! وكـان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس - وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها .

ولا يفوتنا ـ عزيزى القارئ ـ ونحن نتـحدث عن الوضع الأندلسى أن نذكر بأن هذا الوضع القلق المضطرب ؛ المشـحون بالمؤامـرات والدسائس، المنكوب بـالدماء البريئـة تسيل على أرضه، بأن المملكة النصرانيـة فى الشمال الشرقى كـانت تقوى وتشتد على حـساب ذلك كله، وربما اقتطعت أطرافًا من الأرض الـتى كان يسيطر عليها المسلمون .

رسول «عبد الرحمن» إلى الأندلس

مع أواخر سنة (١٣٦) هـ، و«عبـد الرحمن» لا يزال فى المغرب يرقب ويدرس ويبحث وينتظر، إذ لاحت له فـرصة التدخل وأمل العبور، إذ اشـتد الصراع هناك بين «المضريَّة» و«اليمنية» .

فأرسل مولاه «بدرًا» إلى الأندلس ليسبر غورها ويطلع على أحوالها من قريب، ويبث دعوته بين أنصاره من بنى أمية، الذين لا يزالون على ولائهم .

فنزل «بدر» بساحل «إلبيرة» ـ كورة «غرناطـة»، وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة من «بنى أمية» ؛ وكـانت رئاسة الأمويين ـ والشاميين ـ يومئذ لـ«أبى عثمـان عبيد الله بن عثـمان» وصهره «عبـد الله بن خالد»؛ فاجتـمع بهما «بدر» وأبلغهما رسالة «عـبد الرحمن» وعرضه، وناشدهما النصرة والمساعـدة؛ فاستجابا لذلك ووعداه خيرًا.

«يوسف بن عبد الله الفهرى» و«الصِّميل»

وكان الوالى العام على الأندلس يومئذ «يوسف بن عبد الرحمن الفهرى» ـ وهو آخر الولاة، وكـان يأتى تعيـين والى «الأندلس» إمـا من «دمشق» ـ أى الخليـفة ـ مباشرة، أو من والى الشمال الإفريقى بناء على موافقة الخليفة ؛

أما «الصميل» فإنه كان زعيم اليمنيـة بلا منازع، فارس شجاع مقدام، له مهابته وله مكانتـه، ويحسب له ألف حـساب، وقـد لعب أدوارًا متـعددة على السـاحة

الأندلسية منذ وطئت أقدامه البلاد مع الجنود الشاميين، الذين كانوا يتوافدون إليها بين الحين والحين وهو كما تقول أرجح الروايات ينتهى نسبه إلى «الشمر بن ذى الجوْشن» الذى اشترك فى مقتل «الحسين بن على» ـ رضى الله عنهما ـ فى «كربلاء»؛ كما قيل إنه هو الذى احتز الرأس .

وكانت بين «أبى عثمان بن عبيد الله بن عثمان» وبين «الصميل» مودة وصداقة، وتواصل وتعاون، فقصد إليه، وعرض عليه فكرة تأييد «عبد الرحمن»، فأبدى ترددًا وفتورًا . . . ، لأنه كان يحرص على بقاء السلطة فى يد «يوسف بن عبد الله الفهرى» ـ الوالى ـ لأنه يتمتع فى ظله بالنفوذ الواسع، ويعتبر الشخصية الثانية من بعده فى «الأندلس» .

لكن «أبا عثمان» لم ييأس، بل انطلق هنا وهناك يبشر بدعوة «عبد الرحمن» ويستميل القبائل، ويمهد لقدومه، حتى استيقن من التأييد، عندئذ أرسل «بدرًا» فى موكب ومعه نفر من الأمويين يبشرون «عبد الرحمن» بما تم له فى الديار الأندلسية من ترحيب ونصرة .

العبور إلى «الأندلس»

وفى شهر ربيع الآخر سنة (١٣٨) هـ، عبر «عبد الرحمن» إلى الأندلس ووطئت قدماه أرضها، ونزل بساحل «إلبيرة» عند ثغر «المنكب»، فاستقبله «أبو عثمان» وأنزله فى قرية «طُرُش» قريبًا من الساحل، فاستقر بها، يديرخططه ويرسم خريطة تحركه .

وكانت هذه الحركة ـ حركة العبور ـ بداية عهد آخر من حياة «عبد الرحمن»، ملىء بالمعارك والحروب، لإخماد الثورات، والقضاء على المؤامرات، مما استدعى منه يقظة دائمة، وحركة لا تهدأ، وجهادًا متواصلاً لا يفتر ولا ينقطع، وقد دامت أعوامًا طويلة، استنفذت منه زهرة فتوته وشبابه.

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت فى مرادها الأجسام

كان والى الأندلس «يوسف بن عبد الرحمن الفهرى» ـ آنذاك فى الشمال، يعسكر بجنده تحت أسوار «سرقسطة»، وقد استعصم بها بعض الثائرين: «عامر العَبدرى» و«الحباب الزهرى»، فلما تم له فتحها والقبض عليهما وإعدامهما، ارتد بجيشه صوب «طليطلة».

وبينما هو فى الطريق جاءه من يبلغه بمقدم «عبد الرحمن الأموى» ـ الداخل ـ وانتشار دعوته فى جنوب الأندلس، والتفاف الناس حوله ؛ فذعر «يوسف»، وذاع النبأ فى الجيش، فسرى إليه الخلل، وتسللت العناصر الناقمة، ولم يبق معه إلا القليل من الجند، فبادر مسرعًا إلى «طليطلة»، ليبحث مع حليفه «الصميل» فيما يجب عمله إزاء هذا الخطر الداهم .

وكانت دعوة «عبد الرحمن» قد اجتاحت جنوبى الأندلس كله، والتف حوله زعماء القبائل والجند، جند فلسطين، وجند الأردن، وريَّة، وأشبيلية. . ، وكثير من جند الشام حشدهم له «أبوعثمان» .

وأشار «الصميل» على يوسف بمصانعة «عبد الرحمن» ومداهنته، فأرسل إليه يغريه بتزويجه ابنته، وإقطاعه ما يشاء من الأرض، كما أرسل له هدايا وأموالاً .

وجاء فى رسالته إليه (1) :

[أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل «المنكب» وتأبش من تأبش (2) إليك، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر، ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه ـ جل وعلا ـ تستعين عليهم؛ ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمضوا ذلك، واستبْدلوا بالأمن خوفًا، وجنَحُوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى بك ممن لجْأتَ إليه، أكنفك وأصل رحمك، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد، ثم لك عهد الله وذمته بى. . ، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى

---

(1) البيان المغرب (ج: 2) (ص 47)

(2) تأبش :تجمع.

صاحب أفريقية ولا غيره . .] لكن «عبد الرحمن» لم يخدع بوعود «يوسف» وعهده فأبى عرضه، ورد رسله ؛ إذ كان يسمو ويتطلع بطموحه إلى أبعد من ذلك. . . إلى الأندلس كلها .

***

بداية النضال

ثم اتخذ سبيله. . فسار فى صحبه ومن معه من «طرش» إلى «رية» فبايعه عاملها «عيسى بن مساور» ثم إلى «شذونة» فبايعه عاملها «علقمة بن غياث اللخمى»، ثم إلى إشبيلية، فبايعه كبيرها «أبو الصباح بن يحى اليحصبى» - زعيم اليمنية. وقد انضم إليه أثناء التجوال زهاء ثلاثمائة فارس .

ولما ذاعت دعوته فى الجنوب حيث كان أول نزوله، ذاعت أيضًا فى غربى الأندلس كلها، وأقبلت عليه المتطوعة من كل حدب وصوب، من المضرية واليمنية وأهل الشام .

عندئذ آنس «عبد الرحمن» فى نفسه القدرة على مواجهة «يوسف» فسار إليه فى «قرطبة»، وكان ذلك فى أول ذى الحجة سنة (١٣٨)هـ.

وكان «يوسف» و«الصميل» قد حشدا جموعهما، ومعظمها من الفهرية والقيسية، وكان جند «يوسف» قد وهن، وتفرق معظمه خلال الفتن والحروب، وجاءت دعوة «عبد الرحمن»، فزادته تفرقًا وضعفًا .

وخرج «يوسف» بقواته من قرطبة إلى «المسارة» فى ظاهر «قرطبة» من الغرب على ضفة نهر «الوادى الكبير»؛ وكان «عبد الرحمن» قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية، فى قرية مقابلة تعرف عند العرب بـ«بلة نوبة» وهو تحريف لاسمها الأعجمى :(VILANUEVA).

وفرق النهر بين الجيشين على مدى أيام ثلاثة، وفى اليوم الرابع وكان يوم الخميس التاسع من ذى الحجة هبط النهر، وانحسر فى بعض المواقع، فتأهب الفريقان للحرب، ولم تنجح محاولة «يوسف» فى سبيل عقد الصلح، وصمم عبد

الرحمن على القتال فى اليوم التالى (يوم الجمعة) ـ وكان يوم الأضحى ـ، متيمنًا فى ذلك بذكرى موقعة «مرج راهط» التى انتصر فيها جده «مروان بن الحكم» على قوات «عبد الله بن الزبير»، التى كان يقودها «الضحّاك بن قيس الفهرى»، وذلك يوم الأضحى ـ سنة ٦٤هـ ؛ وكان يوم جمعة أيضًا .

***

المعركة:

وفى اليوم التالى دفع «عبد الرحمن» بقواته لاقتحام النهر، وكان أول من اقتحم منهم جند بنى أمية؛ وكان «يوسف» يتفوق بكثرة فرسانه لكن التفرق كان يسود جنده، وكانت جموع «عبد الرحمن» تضطرم على قِلَّتها عزمًا وحماسة؛ فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة، لكن قصيرة، فلم يأت الضحى حتى مُزقت خيل «يوسف» وهُزم جيشه هزيمة شديدة، ونهبت أسلابه، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية،وفر «يوسف» صوب «طليطلة» حيث كان ولده «عبد الرحمن» . وفر «الصميل» صوب «جيان»؛ ثم دخل«عبد الرحمن» وصحبه إلى قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة، وحمى أسر خصومهم وحريمهم وأموالهم من العبث، وصلى الجمعة فى الجامع، ثم نزل بالقصر، وبويع فى الحال بالإمارة، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة (١٣٨) هـ .

***

أمير الأندلس

وكان ذلك مفترق طريق بالنسبة إلى الأندلس ؛ فبدلاً من أن تكون ولاية إسلامية تابعة للخلافة فى المشرق، سواء فى «دمشق» أو «بغداد» أصبحت إمارة مستقلة، تمهد لقيام الدولة الأموية والخلافة الأموية فى الأندلس ؛ وتمتد قرونًا من الزمان.

لكن كانت هذه البداية، ودون تحقيق الغاية الكبرى آماد شاسعة من الزمن، وحروب ومعارك، وجهاد وجلاد، ونار متأججة من الثورات والانتقاضات والانتفاضات، لا تكاد تخبو واحدة حتى تظهر أخرى . . . أشد وأعتى .

لقد كان «عبد الرحمن» يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس موحدة متماسكة، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية، والتطاحن على الزعامات، فكانت المعركة فى الواقع معركة الدولة المركزية مع الإمارات المستقلة، أو الإقطاع المحلى ؛ معركة الرياسة الشاملة مع العصبية المتناثرة !!!

وبالإضافة إلى خطر هذه النزعة القبلية العنصرية، كان هناك خطر البربر، الذين كانوا يشكلون نقطة ثقل كبرى فى توازن القوى، خصوصًا وأنهم متوحدون، وما يزالون يحملون فى نفوسهم كراهية للعرب .

وأيضًا كان هناك خطر أكبر . . . نعنى به (أسبانيا) النصرانية التى استطاعت أن تخرج من قَوقْعة الهزيمة والفوضى، ومن ثم تنظم دولة ومملكة فى الشمال. . ، وكذلك (مملكة الفرنجة) التى استطاعت هى الأخرى أن تنتزع الأراضى التى استولى عليها المسلمون فى زحفهم وفتوحهم، والتى تقع فيما وراء جبال «البيرنّة» وكانت هاتان الدولتان تتنافسان على النفوذ بأساليب مختلفة، ولكن من غير حرب أو قتال بينهما، مما قوى موقفهما وأضعف خصومهما ـ العرب ـ .

***

نهاية «يوسف» و«الصميل»:

كان هذان الزعيمان من أخطر الشخصيات على الساحة الأندلسية وأقواها وأعظمها نفوذًا، وأكثرها تبعًا، فكان لابد من التخلص منهما أولاً، ثم التفرغ إلى ما دونهما.

فمنذ أن بويع «عبد الرحمن» بالإمارة، وقد فَرَّ الرجلان بعد معركة «المسارة» إلى«طليطلة» و«جيان» يحشدان أتباعهما، ويستعيدان قوتهما، لينازلا من جديد، الأمير الجديد . . .

منذ يومئذ ـ وقد كان ذلك فى عام (١٣٨) هـ . احتدمت المعارك بينهما وبين «عبد الرحمن» حتى نهاية عام (١٤٢)هـ ، بين هزيمة مؤقتة، أو نصر مؤقت؛ أو مؤامرات تبدأ بالتسليم وتنتهى بنقض العهد، وقد روى المؤرخون أن عدد اللقاءات

الدامية والمعارك العنيفة زادت على العشر بين الطرفين، كان خلالها «عبد الرحمن» هو المنتصر والرابح فى أكثر الأحيان من خلال القوة العسكرية، وحسن التخطيط والتدبير، وحزم التنفيذ، والسياسة الحكيمة .

ولقد كانت نهايتهما: «يوسف» و«الصميل» بالأسر والقتل!!!

ويأخذ بعض المؤرخين على «عبد الرحمن» ـ سواء المؤرخون العرب أم الأجانب ـ كثرة سفكه للدماء، دماء خصومه، وكثرة اعتماده على الحيلة والغدر والدسيسة . . !

ويبدو لنا ـ دون أن نعمد إلى تبرير ذلك ـ بأن أسلوب العصر فى التعامل السياسى والحربى كان قائمًا على هذين العنصرين، بالإضافة إلى المواجهة القتالية . . . ، فكان لابد له من التعامل مع خصومه بكل أسلوب معروف مألوف . . . وإلا أخذ به هو فكان الضحية، مع ضياع الآمال الكبار .

***

ثورات هنا وثورات هناك:

وقطع «عبد الرحمن»[1] أعوامه التالية فى كفاح مستمر، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب . وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع «يوسف» و«الصميل»، «القاسم بن يوسف» وحليفه «رزق بن النعمان الغسانى»، وكان «القاسم» حينما فر من «طليطلة»، قد سار إلى «الجزيرة الخضراء» والتجأ إلى شيخها «رزق» ـ صديق أبيه، وحشد حوله جمعًا من الأنصار والمرتزقة، واستولى بمعونة حليفه على «شذونة»، ثم سارا فى قواتهما إلى «أشبيلية» ولم تكن بها قوات تدافع عنها، فاستوليا عليها دون مشقة، فبادر «عبد الرحمن» فى قواته إلى «أشبيلية»، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة، قتل فيها «رزق» ومزق جنده، ودخل «عبد الرحمن» «أشبيلية» ظافرا، وكان ذلك فى أواخر سنة (١٤٣)هـ .

أما «القاسم» فالتَجأ بقواته إلى «شذونة»، وبعث «عبد الرحمن» فى أثره «تمامًا» والى «طليطلة»، فطارده حتى أسره ومزق قواته.

---

(١) دولة الإسلام فى الأندلس (محمد عبد الله عنان) (العصر الأول ـ القسم الأول) (ص : ١٦).

وقامت ثورة فى أشبيلية بقيادة «عبد الغافر اليمانى» ـ زعيم اليمانية ـ، فارتد إليه «عبد الرحمن»، والتقيا بوادى «قيس»، فاستمال «عبد الرحمن» إليه بعض البربر من جنود «عبدالغافر»، ثم اقتتلا، فانهزم «عبد الغافر» وفر إلى «لقنت»؛ وكان ذلك سنة (١٤٤) هـ .

ثم قامت ثورة أخرى فى «أشبيليا» بقيادة «حيوة بن ملامس الحضرمى» فانضمت إليه جموع غفيرة واستولى على أنحاء متعددة واستفحل أمره فسار إليه «عبدالرحمن» وقاتله، وكان قتالاً مريراً شديداً، وأخيراً وقعت الهزيمة . . . ، وفر «حيوة». . ، ثم كتب إلى «عبد الرحمن» يلتمس منه العفو والأمان، سنة (١٤٤)هـ.

وفى «طليطلة» قامت ثورة بقيادة «هشام بن عزرة الفهرى»، وأعلن العصيان، فقصده «عبد الرحمن» وحاصره شهوراً عديدة، حتى اضطر إلى طلب الصلح، وقدم ولده رهينة . . . ، فقبل ذلك منه «عبد الرحمن» . . .

لكن «عبد الرحمن» ما كاد يصل إلى «قرطبة» حتى نكث «هشام» بوعده وعهده، فنكص «عبد الرحمن» على عقبيه ليؤدب الثائر الخائن، وحاصر «طليطلة» ولكن على غير طائل، ورغم أنه قطع رأس ولد «هشام» وألقاه بالمنجنيق داخل الأسوار، إلا أن هذا لم يفت فى عضد الثائر «هشام» ؛ فارتد «عبد الرحمن» عن طليطلة لأمور أخرى شغلته أكثر .

***

أخطر الحركات الثورية:

كان «العلاء بن مغيث اليحصبى» من وجوه «باجة»، ورياسته فيها معروفة، وعصبته بها قوية كثيرة، وكان من أشد خصوم «بنى أمية»، فراسل «أبا جعفر المنصور» فى «بغداد»، وأعلن ولاءه للخلافة العباسية، واستصدر من «أبى جعفر» كتابًا بولايته على الأندلس، ورفع العلم الأسود ـ شعار بنى العباس ـ، وكان ذلك سنة (١٤٦)هـ.

اضطرمت «باجة» بنيـران الثورة ـ وما حولها ـ وهرع إليـها كل ناقم وثائر، لا سيما الفهرية واليمنيـة وجند مصر، وانضم إلى «العلاء» فى ثورته «أمية بن قطن» و«غياث بن علقمة» فى «شذونة»

وكانت هذه الانتفاضة والانتقاضة أخطر ما واجه «عبد الرحمن». . !

لكنه بما أوتيـه من جلد وقـوة وعزيمـة وبعـد نظر،وحسـن تدبير فى الأمـور العسكرية، لم يرتع. . . ، بل قدر الأمور بدقة وحسب لكل احـتمال حسابه. فلما جاءته الأنباء تتـرى، خرج بقواته من «قرطبـة»، وبعث مولاه «بدرًا» فى جند إلى «شذونة» فحاصرها حتى أذعن «غياث» لطلب الصلح. . !

وسار «عبد الرحـمن» بباقى قواته إلى «قرمونة» ـ ما بين «قرطبـة» و«أشبيلية»، واتخـذ موقف الدفـاع، وقد جـاءه العلاء ـ رأس الثـورة ـ بجند كثـيف، وهاجم «قرمونة» مـرارًا وتكرارًا، وحاصرها على مدى أسابيع، دونما فائده، وقـد ضعفت عزيمة جنده وأصابهم الوهن . . . ، عندئـذ ضرب (البطل) ضربته، وانقلب من الدفاع إلى الهـجوم، ونشبت بين الفريقـين معارك عديدة عنيفـة، على مدى أيام متواصلة، حتى وقـعت الهزيمة فى صفوف العلاء، ومـزق جنده شر ممزق، وقتل منهم عدة آلاف، وكان «العلاء» نفسه بين الـقتلى، كما أسر «ابن قطن» ؛ وجمع «عـبد الرحـمن» رؤوس الزعمـاء والقادة من خـصـومه وعلق فى كل منهـا اسم صاحـبهـا، ورقمـها، ثم أرسلهـا إلى «القيروان» فـى المغرب سرًا، وألقـيت فى الأسواق لـيلاً، فـأثارت فى صبـاح اليوم التـالى فزعًـا ورعبًـا بين الناس . . . ، ووضعـت رأس «العلاء» فى سِـفْطٍ ومعهـا اللواء الأسود، وكـتاب «المنصـور» لـ «العلاء»، وبعث بها إلى «مكة» مع بعض التجار، حيث كان «المنصور» فى الحج، وألقيت الرأس أمـام باب سرادقه، فلمـا رآها فزع لرؤيتها وقـال : ـ [ما فى هذا الشيطان مطمح !!! فالحمد الله الذى جعل بيننا وبينه البحر . . .]

وهذه العبارة كافية للدلالة على مدى ما كـان يتمتع به «عبد الرحمن» من نفوذ وهيبة فى نفوس أعدائه العباسيين ؛ وإخافة وإقلاق .

وبهذا تم لـ «عبد الرحمن» سحق أخطر ثورة قامت فى وجهه منذ وطئت قدماه أرض الأندلس .

لكنها لم تكن آخر الثورات . . !

إذ يبدو للمتتبع تاريخيًا أن «عبد الرحمن» قد أمضى أكثر سنى حياته فى الأندلس وهو يقمع ثورة هنا وثورة هناك، دونما كلل أوملل، حتى استقام له الأمر، وتأمَّر على البلاد .

***

فى «طليطلة» ...

ولما عاد «عبد الرحمن» إلى «قرطبة» ـ التى اتخذها قاعدة له، وعاصمة لسلطانه، كانت قد نشبت ثورة فى «طليطلة»، حيث أعلن «هشام الفهرى» العصيان، وأخذ يعيث فسادًا فى الأنحاء، فأرسل إليه «عبد الرحمن» قائديه «بدرًا» و«تمام» فى نخبة من الجند، فحاصرا «طليطلة»، وشددا عليها، فاضطر أهلها إلى طلب الصلح على أن يسلموا الزعماء الثائرين، فقبض على «هشام» وأعوانه وحملوا إلى «قرطبة» مصفدين، وهناك صلبوا بأمر من «عبد الرحمن»، وكان ذلك سنة (١٤٧) هـ .

***

ثم فى «لبلة» .. و «أشبيلية» .. وغيرهما ..

ولما كان عام «١٥٠» هـ؛ وعلى مدى خمس سنوات شغل «عبد الرحمن» بثورة داعية بربرى الأصل ! اسمه «شقيا بن عبد الواحد»، أصله من «مكناسة» فى «المغرب»، ادعى أنه من سلالة النبى ﷺ، من ولد «فاطمة» و«الحسين» ـ رضى الله عنهما ـ، وكان فقيها يعلم الصبيان . فذاعت دعوته، وانتشرت لأكثر من سبب، والتف حوله الكثيرون؛ وقد عرف بـ «الفاطمى» !!!

أما لماذا استمرت خمس سنوات، وقد لقى منها «عبد الرحمن» وقادته وجنده كثيرًا من المصاعب والمتاعب . . ؟ فإن ذلك يعود إلى ظهورها واستفحالها فى

الشمال الأندلسى، وهو منطقة جبلية وعرة، مناعتها فى طبيعتها وكثرة حصونها وقلاعها، ثم انشغال «عبد الرحمن»، بالثورات - الصغيرة والكبيرة - فى الجنوب.

وقد فشلت أكثر حملات «عبد الرحمن» للنيل من هذا الثائر... إذًا لابد لـ «عبد الرحمن» من أن يقرن الحيلة والتدبير إلى جانب الحملات العسكرية، فاستقدم إليه كبير البربر فى شرقى الأندلس «هلال الميديونى» وأمَّره على ما بيده من الأنحاء، وأصدر له عهدًا بالولاية على المناطق التى غلب عليها «الفاطمى»، وفوض إليه أمر استخلاصها منه، وبهذا ضرب «عبد الرحمن» البربر ببعضهم، فانشق عنه الكثيرون، واضطر إلى التراجع... إلى الشمال الأندلسى... حيث معاقله وحصونه، فتتبعه «عبد الرحمن» بنفسه على رأس الجند يدك حصونه وقلاعه ويطارده من مكان إلى آخر.

ولكن «عبد الرحمن» شغل بتدبير مؤامرة ضده قام بها ثلاثة من المناوئين له: «أبو الصباح» [1]، و«حيوة بن ملامس» و«عبد الغافر اليحصبى» - ومعهم «عمر ابن طالوت».

فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى «قرطبة» فى غيبة «عبد الرحمن» عنها ... مما اضطره إلى العودة السريعة ...، فالتقى بالثائرين فى وادى «منبس» على نهر «بمبيزار» - أحد الفروع لنهر «الوادى الكبير»...، فنشبت بين الفريقين معارك محدودة، دون أن يسجل طرف على الآخر نوعًا من النصر..؛

وعلى عادته فى التدبير، تحت شعار: [الحرب خدعة]، لجأ «عبد الرحمن» إلى الحيلة، فسير طائفة من وجهاء البربر ليلاً، من عنده، إلى إخوانهم وأبناء عشائرهم فى صفوف الثائرين ... فاستمالوهم إليهم ...

فلما كان اليوم التالى ونشبت المعارك، تقاعس بربر الثائرين عن القتال ...، فلحقت الهزيمة بالثائرين، شر هزيمة، وكثر القتل فيهم، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفًا كما هلك معظم الثائرين..، وفر بعضهم، وقبض «عبد الرحمن» على ثلاثين من وجهاء «أشبيلية»، وأمر بهم فأعدموا؛ جزاءً وفاقًا على الخيانة.

***

(١) كان حليفًا لـ«عبد الرحمن» وأحد ولاته، لكنه انقلب عليه.

نهاية «الفاطمى» :

ولم يترك «عبد الرحمن» خصمه «الفاطمى» يسرح ويمرح، ويعيث فى الأرض فساداً وإفساداً، وتعقبه فى خطوات استراتيجية مدروسة؛ كى يقتحم عليه معاقله فى الجبال الشاهقة . . .

غزا «عبد الرحمن» «قورية». . . ، وأرسل لقتال «الفاطمى» قائديه «تمام» و«عبيد الله بن عثمان»؛ بالقرب من «شنت بريه»، فحاصراه عدة شهور، ولكن على غير طائل. . ، فعادا إلى «قرطبة»، وخرج هو من مخبئه ونزل بقرية تدعى «قرية العيون». . .

إن المعارك مع «الفاطمى» استمرت عشرة أعوام كاملة، دون أن يظفر به «عبد الرحمن» ؛ ولقد اضطر «عبد الرحمن» إلى اللجوء إلى التدبير، فأغرى اثنين من أتباع «الفاطمى» به، وأمدهما بالمال، ووعدهما بالوعود. . . ، فانقضا ذات ليلة على صاحبهما فقتلاه واحتزا رأسه وأرسلا بها إلى «عبد الرحمن»، على أثر ذلك، حدثت البلبلة فى صفوف أتباعه وجنده . . . ، وكانت النهاية، وانتهاء الثورة عام (١٦٠)هـ .

يقول بعض المؤرخين: إن الخيانة والجريمة كانتا من بعض أسلحة «عبد الرحمن» فى حربه مع خصومه ؛

ولو أنهم «عايشوا» عصر «عبد الرحمن» بكل معطياته وحقائقه وأساليبه فى الخصومة والتنافر، و«تتبعوا» الحركات الثورية التى يواجهها على مدى السنوات الطوال لعدلوا عن كلمتى: الخيانة والجريمة، ذلك أن أسلوب المكر والخديعة والحيلة، قد تعرض لها هو من أكثر خصومه ؛ فحاربهم بنفس الأسلوب؛ لا نقول ذلك دفاعاً عن «عبد الرحمن» بل إحقاقاً للحق وإنصافاً للتاريخ .

لقد طال عليك الأمد ـ عزيزى القارئ ـ فى الحديث عن الفتن والمؤامرات، والانتفاضات والحروب؛ ويؤسفنى ذلك، فإنها طبيعة الفترة التاريخية التى أمضاها «صقر قريش» فى ديار الأندلس: إذ دخلها ـ كما عرفت ـ وحيداً أعزل. . . ، فإذا

به خلال سنوات سيد الموقف فى طول البلاد وعرضها، ولولا حزمه وعزمه وجده وشجاعته، لما بلغ ما بلغ، خصوصًا فى المنطقة الجنوبية من الأندلس، وعلى امتداد الساحل .

أما الشمال الأندلسى فقد حدثتك عنه قليلاً، ولابد من الإسهاب فيه لأنه ولا شك أهم وأخطر المواقف، والذى على أثره، أصبح «عبد الرحمن» بطل البلاد بأسرها : شمالها وجنوبها، وأعاد بالفعل إلى الأندلس إمارة أجداده الأمويين، ثم أسس ملكا عريضًا تركه لذريته من بعده، و(خلافة) أموية تنافس خلافة العباسيين بالمشرق ـ سلطانا وغنى وأبهة مُلك ـ !!!

***

«شارلمان» أو : «كارل»

«شارلمان» مؤسس الدولة النصرانية فى الجزء الجنوبى الغربى من البلاد الفرنسية، تفصله عن أسبانيا سلسلة جبال «البيرنيه»؛ ولقد استطاع هذا الرجل بما أوتيه من شجاعة وسياسة أن يؤسس تلك الدولة ويكافح القبائل الوثنية التى كانت تهدد مملكته بين الحين والحين، أمثال «البشكنس» و«القوط»، فيحاربها ويشتد عليها، ويدخلها فى النصرانية، ويكوِّن جبهة قوية .

وكان من جملة طموحاته الاستيلاء على الأندلس وإخراج الكفار (المسلمين) منها، وبسط سلطانه عليها .

ولقد وجد فى قيادات بعض الولايات العربية الأندلسية فى الشمال من يمد له يد التحالف، ويتعاون معه، ويؤيده ويغريه، ويقدم الرهن والمساعدات العينية على ذلك . . . ؛ مما ألهب فى نفسه فكرة الزحف على الأندلس (أسبانيا) كلها .

«هارون الرشيد» و «شارلمان»:

ومنذ عهد والد «شارلمان» كانت السفارات والتواصل قائمًا بينه وبين «أبى جعفر المنصور»، يتبادلان الهدايا، ويتناقشان الأفكار، ولقد كان «أبو جعفر» يطمع فى القضاء على «ولاية صقر قريش» فى الأندلس، بالحد من انتصاراته، وتوسع رقعة

سلطانه، ووجد «أبو جعفر» فى والد «شارلمان» ضالته المنشودة ؛ وفى عهد «هاورن الرشيد» كان نجم «شارلمان» قد بدأ يسطع ويعلو، وأصبح موضوع الزحف على أسبانيا «الأندلس» كلها جاهزًا مهيئًا .

وكان «عبد الرحمن» يعرف كل ذلك، ويدرك خطورته، لكن انشغاله بالحروب والفتن الداخلية، أخرته عن مواجهة هذا الموقف، وكأن الرجل كان يجعل الوقت والزمن يعمل لحسابه.

***

هزيمة «شارلمان» عند باب «شيزروا» وارتداده:

انطلق «شارلمان» بجيش كثيف العدد والعدة، لم تشهد له أوروبا الغربية مثيلاً فى التاريخ القديم والحديث، وقد وطن نفسه على طرد «الكفرة»، وبسط النفوذ على «أسبانيا» ؛

وهنا - عزيزى القارئ - تتحدث الروايات الغربية لتلك الحملة بشيء من الفخر والاعتزاز والكبرياء، وقد أشاد الشعراء بعظمة «شارلمان» ونظموا فيه القصائد الطوال .

قسم «شارلمان» جيشه قسمين، جعل القسم الأول بقيادة أحد أبطاله الشجعان وقادته المعدودين، أما القسم الثانى فقد قاده بنفسه، مخترقًا جبال «البيرنيه»، وقد ضم الجيش بقسميه العدد العديد من الحلفاء، «البشكنس» و«القوط» وغيرهم ؛ فكان خليطًا من الأجناس و الألوان والاتجاهات .

وكان هم «شارلمان» أن يفى حلفاؤه العرب أمراء الولايات الشرقية بما وعدوا من نصرةٍ ودعم ومدد .

***

موقف «عبد الرحمن»:

قدر «عبد الرحمن» الموقف حق تقديره، ودرس الموضوع الطارئ بإمعان وروية، ورأى بعد ذلك أن لا يغادر موقعه فى وسط البلاد ـ القلق المضطرب ـ

خشية الضربة من الوراء، لكنه أوعز إلى بعض قادة وأمراء الولايات الشمالية الشرقية ـ ممن يرى فيهم الخير والصلاح، أن يستنكفوا عن مساعدة «شارلمان»، كما وعدهم أن يقرهم على ما بأيديهم من الولايات، وبهذا يكون قد كسب طرفًا له شأنه .

وساح «شارلمان» فى البلاد واسترد كثيرًا من الأراضى الفرنسية التى كانت بأيدى المسلمين، وأوقع بأهلها، إما قتلاً أوسبيًا أو تشريدًا أو نفيًا، واستولى على كثير من الغنائم التى جعلها فى معسكر خاص، وأقام عليها حراسة .

ويبدو أن هذه المغانم كانت مطمعًا لـ «البشكنس» «القوط» وغيرهم من الدخلاء على جيش «شارلمان» . . . ، ويبدو أيضًا أن الوعود التى قطعها ولاة المناطق الشمالية قد نكث بها أصحابها، لذا اضطرب الوضع فى جيش «شارلمان» وجرى قتال شديد بين الأطراف، أودى بحياة الكثيرين، وضيع على «شارلمان» خطته، وأحبط آماله، واضطر للعودة بمن بقى معه .

وهكذا فشلت الحملة بكل معنى الفشل، وارتدت على أعقابها من غير أن تحقق هدفًا، اللهم إلا ما كان من تحرير الأرض الفرنسية التى كان يسيطر عليها المسلمون.

***

إتمام المهمة :

وانصرف «عبد الرحمن» بعد ذلك إلى إتمام المهمة الكبرى التى نذر نفسه لها منذ أن غادر الشام، طريدًا، وحيدًا . . . شريدًا، ثم نزل الأندلس . يقول أستاذنا «محمد عبد الله عنان»[1] (وهكذا أنفق «عبد الرحمن» جميع حكمه ـ ثلاثة وثلاثين عامًا ـ فى كفاح مستمر، وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة، أن يطمح فتى شريد، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته، وحيد ليس له أنصار ولا صحب، إلى افتتاح قُطْر عظيم، زاخر بالقادة والجند، وأن يخضع ذلك القطر فى حروب لا يخمد أوارها، وسيول من الدماء لا تنقطع، وأن يقيم ملكًا على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة) .

---

(١) دولة الإسلام فى الأندلس - القسم الأول (الجزء الأول) (ص: ١٩١).

تلك هى قصة «عبد الرحمن الداخل» الأموى، وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية، ولا يقدم التاريخ إلينا كثيرًا من أمثالها، ولكن «عبد الرحمن» كان رجل الموقف، وكانت حوادث (شبه) الجزيرة (أسبانيا) وظروفها، وتمزق شملها، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها، وتسير بها نحو السلام والأمن، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر، كذهن«عبد الرحمن» .

وكان «عبد الرحمن» يجمع إلى فيض جرأته كثيرًا من الذكاء والدهاء والعزم، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهق غير مرة، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع، ولكن الغنم كان عظيمًا: كان ملكا بأسره، وكان بعث أسرة هوت ومجد عريض دُثر).

تلكم - عزيزى القارئ - هى بطولة «عبد الرحمن» - صقر قريش، فى استعادة الوحدة والأمن والسلطان إلى ربوع «الأندلس» بعد أن أوشكت على التمزق والاندثار .

وكانت وفاة «عبد الرحمن» - رحمه الله تعالى - فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة (١٧٢) هـ . وقد بلغ الثامنة والخمسين من العمر .

ولم يزل السيف فى يده ومقود الفرس فى يد أخرى، صائلاً جائلاً مقاتلاً.

***

خلاله ومآثره:

للذين عاصروا «عبد الرحمن» أو جاؤوا بعده بقليل، آراء متباينة فى شخصه، ولكن لديهم إجماع على أنه كان يلجأ فى تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل، وكان طاغيًا مسرفًا فى البطش والفتك وسفك الدم.

ولعل هذا رأى أكثر مؤرخى الغرب الذين عاصروه، أو كتبوا عنه، أمثال «دورى» - الذى يقول: [لقد دفع «عبد الرحمن» ثمن ظفره غاليًا، ذلك الطاغية

الغادر الصارم المنتقم، الذى لا تأخذه رأفـة؛ ولم يبق زعيم عربى أو بربرى يجرؤ على مواجهتـه صراحة، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خـفية، ولم يك رجل يرغب فى خدمته. . .

[كـان هم «عـبد الرحـمن» الدائم أن يذل العـرب والبـربر إلى الطاعـة، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام، وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . .].

هذا أقصى وأقسى ما طعنه عليه خصومه ومعارضوه فيما يتعلق بأسلوب معالجة الأوضاع الشاذة والمضطربة التى تعيشها الأندلس أيام نزلها «عبد الرحمن» .

وإلى جانب هـذه الآراء، هناك آراء أخرى تحاول أن تبـرر هذا الأسلوب وتلك الممارسـة ؛ يقول «ابن حـيان» مؤرخ الأندلس [كـان «عبد الرحـمن» راجح الحلْم فاسح العلـم، ثاقب الفهم، كثـير الحـزم، نافذ العزم، بريئًـا من العجـز، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه، مـتصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعـة، ولا يكل الأمور إلى غـيره، ثم لا ينـفرد فى إبْرامـها برأيه، شـجاعًـا مقـدامًا، بعيـد الغور، شـديد الحذر، قليل الطمـأنينة، بليغًا، مـفوهًا، شـاعرًا، محسنًا، سمحًا، سخيًا، طلق اللسان] (١)

ويقول أستاذنا «محمد عبد الله عنان» :

(وإذا كانت هذه الصـفات والخلال القوية والمـثيرة معًـا، لا تحمل على الحب، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب).

وهناك سؤال يطرح نفسه :

لماذا لم يتَّسم «عـبد الرحمن» بـ «الخليفـة»، وقد أصبح أميـرا مطلقا على بلاد الأندلس، لا ينازعه فيها منازع ؟ ولقد استمر وقتا طويلاً يدعو لهم ويذكرهم على المنابر، إقرارًا منه بوحدة الأمة، حتى نزل علـى ضغط أقربائه من «بنى أمية» الذين وازروه فى حربه وأيدوه، فألغى ذلك عام (١٣٩) هـ.

وعلى الرغم من هذا لم يتَّسم بالخليفة

---

(١) (نفح الطيب) (ج: ٢) (ص: ٦٧).

يقول «ابن خلدون»: (إن بنى أمية فى الأندلس تلقبوا كسلفهم [1] مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بنى العباس)

ويقول المؤرخ المسعودى: (إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بنى أمية إلا من كان مالكًا للحرمين، ولذلك سمُّوا بـ «الخلائف»، حتى بعد أن تسموا بالخلافة - بعد «عبد الرحمن» - لم يخاطبوا بالخلفاء) .

عزيزى القارئ:

لعل الصورة التى قدمنا وأسلفنا كافية فى إلقاء الضوء على شخصية «عبد الرحمن» فى سعيه لتوحيد الأندلس، والاستقلال بالإمارة، وإعادة الأمن والأمان، والرخاء والازدهار، إلى ربوع أسبانيا، بعد أن كادت تذهب بددًا بين أيدى الطامعين والمارقين والحاقدين .

***

سياسة «عبد الرحمن» نحو رعاياه من نصارى البلاد

لقد أورد «ابن الخطيب» فى كتابه «الإحاطة» نص عهد قطعه «عبد الرحمن» على نفسه إزاء هؤلاء الرعايا، وهو ولا شك يقوم على أسس من الكتاب والسنة. يقول «عبد الرحمن» فى كتابه :

[بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم «عبد الرحمن» للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى، والأندلسيين أهل «قشتالة» ومن تبعهم من سائر البلدان، كتاب أمان وسلام، وشهيد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة [2] ومثلها من الرماح، فى كل عام، إلى خمس سنين، كتب بمدينة «قرطبة» - ثلاث «صفر» عام اثنين وأربعين ومائة (١٤٢) هـ.

***

---

(١) أى من الولاة والأمراء

(٢) بيضة: خوذة.

الحاكم الإدارى

وعلى الرغم من شهرته واستفاضتهـا على الملأ فى الشئون العسكرية والقتالية، فقد كـان «عبد الرحمن» حـاكمًا إداريًا ناجحًـا من الطراز الأول ؛ ولا عجب فى ذلك، لأنه سليل بيت حاكم مالك، هو البيت الأموى،

ويجـمل لنا «ابن حـيان» هذا المفـهوم بـالعبـارات التالـية فـيقـول: (إنه دون الدواوين، ورفع الأواوين وفـرض الأعطية، وعقـد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدته).

ويقول صاحب رأى :

(ولو لم يشـغل «عبـد الرحـمن» طوال عهـده بقمـع الثورة والفتن الداخليـة، لاستطاع كأسـلافه الفاتحين الأوائل، أن يبعث الأندلس خلقًـا جديدًا، وأن يجعل منها حديقة يانعة، على أنه ذلل الصعب، ومـهد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعـائم تلك المملكة، التى غـدت على يد بنيـه ـ من بعـده ـ أعـجوبة الـعصـور الوسطى).

***

الجـيـش

من الطبـيعى جـدًا لرجل مـثل «عبـد الرحمن»، حـيـاته ومصـيره فى القـتل والقتال،أن يكون الجـيش هو أهم ما يعتنى به، ،وبعناية خاصة، فـحشد الجند من كل جنس ونوع، حتى بلغ تعداده مائة ألف مقـاتل، هذا عدا حرسه الخاص الذى أنشأه من الموالى والبربر والرقيق ـ ضمانًا للطاعة العمياء ـ، وقد بلغ أربعين ألفًا . كما أنشـأ قوات بحرية، حفاظًا على الثـغور البحرية والنهرية، أمـثال: «طركونة» و«طرطوشة» و«قرطاجنة» و«أشبيلية» وغيرها.

***

العمـران:

وحدِّث ولا حرج عن «قرطبة» عاصمة ملكه . . !

لقد حصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة، وكان أول ما أنشأ بها فى عهده «منية الرصافة» ـ وقصرها المنيف .

وأنشأ ضاحية ملوكية جديدة تليق بحاضرة ملكه؛ وأنشأ فى الشمال الغربى منها قصرًا فخمًا تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنّوى، من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بـ «الرصافة» واتخذها مقامًا ومتنزهًا ومركزًا للإمارة .

وفى عام «١٥٠»هـ، أنشأ سور «قرطبة» الجديد، واستمر العمل فيه خمسة أعوام،كما أنشأ فى مختلف المدن الأندلسية المساجد، وفى عام (١٧٠) ـ أواخر أيامه ـ بدأ بإنشاء الجامع الأموى وقد أتمه من بعده ولده «هشام». . . حتى غدا أعظم مساجد الأندلس .

كما أنشأ «عبد الرحمن» فى «قرطبة» دارًا للسكَّة، تضرب فيها النقود .

***

الخلال الشخصية:

ما قدمنا ـ عزيزى القارئ ـ كانت صفات عامة تتعلق بشخصية «عبد الرحمن»، ومآثره ؛ ونود هنا أن نتحدث عن صفاته الذاتية.

يقول العالمون المعاصرون لحياة «عبد الرحمن»، الذين عايشوه وتعايشوا معه بأنه كان جوادًا سَمْحًا كريمًا، جم البساطة والتواضع فى مَلْبسِه ومأكله ومشربه، يحضر الجنائز ويصلى عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويخاطبهم، ولم ينحرف عن هذه البساطة وهذا التواضع إلا فى آخر عهده ؛ حينما أشار عليه بعض خاصته بالترفع، استبقاءً لهيبة الملك، والحذر من بوادر العامة، وشر المتآمرين .

وكان نقش خاتمه: [«عبد الرحمن» بقضاء الله راضٍ] . . . وعلى خاتم آخر :
[بالله يثق عبد الرحمن ويعتصم].

***

الأديب

وكان «عبد الرحمن» شاعرًا جيد النظم، ناثرًا فصيح البيان، قويًّ الترسل، عالمًا بالشريعة وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب .

يقول في رسالة بعث بها إلى «سليمان بن يقظان» حين خرج عليه: [أما بعد، فَدَعْنِي من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن يدًا بالطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقيَّن نباتها على رضْف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد].

وكتب إلى مولاه «بدر» يزجره عن تمرده وانحرافه :

[لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثَّغْر . . .]

وإليك بعضًا من نظمه ففيه السلاسة والعذوبة، وعدم التكلف :

يقول في التشوق إلى ربوع الشام، والحنين إليها :

أيها الركب الميمم أرضي	أَقْر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرضٍ	وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قدر البين بيننا فافترقن	وطوى البين عن جفُوني غَمْضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فَعَسى باجتماعنا سوف يقضي

وكان يتنزه يومًا في روض «الرصافة»، فرأى نخلة، فحن إلى أرض النخيل فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تنادت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى وطول التنائى عن بنيٍّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيه غريبة فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل

رحم الله «عبد الرحمن» ـ صقر قريش ـ وغفر له ؛ وجزاه عن كفاحه فى سبيل وحدة البلاد ، خير الجزاء .

وليكن لنا ـ فى عصرنا الحاضر ـ خير أمثولة فى القيادة، تلتزم الحق، وتعزم فى الأمور، وتحزم عند الضرورة، وتستهدى بالله، وبه تستنصر؛ والله خير الناصرين، وهو وحده الهادى إلى سواء السبيل .

****

١١- محمد بن القاسم

قبل أن نخوض فى الحديث، ونسترسل فى الكلام، مؤرخين للبطل «محمد بن القاسم» فى غزواته وفتوحه، لابد لنا أن نتوقف - بعض الشىء - أمام قبيلة «ثقيف» التى ينتمى إليها، و«الطائف» التى نبت ونشأ فيها، كما نتوقف - أيضًا - أمام شخصية «الحجاج بن يوسف»، التى شغلت الناس والتاريخ، قديمًا وحديثًا، ذلك أن بين الرجلين نسب وسبب.

فقد كانت «ثقيف» من القبائل العربية الكبيرة العريقة، ذات القوة والبأس والعدد، لها ماض وتاريخ حافلان بالأمجاد، وعلى مختلف الصُعُد، خصوصًا فى ميدانى العلم والحرب، كما أنها من جهة أخرى كانت تتمتع بغنى وافر وثروات ضخمة، اشتهر بها عدد من رجالاتها البارزين.

كل ذلك كان قبل الاسلام، وفى جاهلية العرب.

لذا كان اعتراض بعض الجاهلين على اصطفاء سيدنا «محمد» ﷺ رسولاً نبيًا . . .، وهو اليتيم الفقير . . .، ينصب على إغفال عظماء القريتين: «مكة» و«الطائف»، عن هذه المكانة الرفيعة . . !

و«عظمة» النبوة والرسالة لا تتفق - فى مفهومهم الجاهلى - مع اليتم والفقر، إذ لابد من الغنى والسلطان. . .، السلطان القبلى العائلى.

فقالوا - كما حدّث القرآن الكريم عن زعمهم :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وما دروا أن العظمة إنما تكون فى الحقيقة الثابتة فى الكيان الإنسانى، وليست فى العرض الزائل، وأن الرسالة المحمدية إنما جاءت لتقلب كل هذه المفاهيم الجاهلية رأسًا على عقب، وتعيد الإنسان سويًا يمشى على رجليه ويفكر برأيه، بعقله وقلبه . . . لا أن يمشى مكبًا على رجليه، يمتطى رأسه ويفكر بقدميه. !!

على كل حـال . . . ليـس هذا مـوضـوعنا، وليس هذا بحـثنا. . .، إنما هو الشاهد فـقط. . ! ذلك أن سكنى قبـيلة «ثقيف» كـان فى «الطائف» التى هى ثانى القريتين: «مكة» أولاً - «أم القرى» - و «الطائف» ثانيًا. !

ونحن لو رحنا نحقق مدن العرب فى «الحجاز» كمرتكزات سكنية وحواضر، لما وجدناها تخرج عن إطار «مكة» و «يثرب»[1] و«الطائف». . !

وتتمـيز «الطائف» بموقعهـا الجغرافى، وبطبـيعتهـا المناخية عن غيـرها من مدن «الحجاز» وأقاليمه، الساحلية منهـا والصحراوية والجبلية. .، فهى تقع على مرتفع جبلى، يبدأ فى سفوحه صخريًا وينتهى فى قـمته بأرض خصبة جيدة التربة، ذات أشجـار وظلال، ومياه غزيرة نميـرة وفيرة، وثمـار متنوعة شـهية، وفاكـهة لذيذة متنوعة!

ولئن كانت «مكة» - أم القرى - تعتمد فى اقتـصادها على التجارة، فقد كانت الطائف تعتمد على الزراعة.

ولئن كان التنافس فى ميدان الزراعة قـائمًا بين «يثرب» و«الطائف»، فإن الأخيرة كانت فى هذا الميدان أسبق، نظرًا لقربها الشديد من «مكة»، سوق العرب الكبرى.

أضيـف إلى ذلك أن «الطائف» فى ارتفاعـها الشـاهق، وعلوها . . واعـتدال مناخها، خصوصًا فى فصل الصيف القائظ، مدعاة تفوق وتميز.

هذه الحاضرة (الحجازية)، قصـدها رسول الله ﷺ ذات يوم مؤملاً أن يجد فى عقـول أبنائها وقلوبهم اسـتجابة لدعـوته، بعد أن صدت عنه «قـريش» صدودًا، وحاربت رسالته حربًا شديدة لا هوادة فيها.

لكنه - ﷺ - لقى فى «ثقيف» إعراضًا . . . وسفهًا . . . وإيذاءً. . !

وإنا لنلحظ فى دعائـه -ﷺ- لدى رجوعه من «الطائف» - وقـد رُد من أهلها ردًا قبيحًـا فظًا - نلحظ قمة الحرارة الإيمانية، ومـرارة الجفوة، وذروة التوكل على الله تعالى:

---

(١) كان ذلك اسم المدينة قبل الهجرة.

(اللهم .. إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس..!

يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أو عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى!!

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولاحول ولا قوة إلا بك).[1]

وظلت «ثقيف» على عداوتها للإسلام والمسلمين، لا تألو جهدًا، ولا تدخر وسعًا، وتُمعن فى محاربة الله ورسوله..!

إلى أن كان العام الثامن للهجرة، بعد فتح «مكة»، وهزيمة هوازن وحلفائها فى «حنين»، وقد نزل جيش المسلمين بـ «الطائف» وحاصرها..، وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون معه حول حصونها أيامًا وليالى، ولم يفتح الله عليهم.

ولقد لقى جند الإسلام يومئذ كثيرًا من العنت والمشقة، وأصيب كثير منهم بجراحات سهام المشركين، ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل عنها ولمّا تفتح..، فقيل له ﷺ أن يدعو على «ثقيف»، فكان جوابه:

- (اللهم اهد «ثقيفًا» وائت بها).

وبعد أقل من عام جاء وفد «ثقيف» إلى «المدينة» يعلن إسلامه، ودخوله فى حوزة الإسلام.

ومنذ ذلك اليوم قدمت «ثقيف» للدين «الحنيف» خالص جهادها وجلادها، وحسن بلائها فى سبيل الله، وكان «محمد بن القاسم» أحد الأعلام البارزين الذين نذروا أنفسهم لله ورسوله، ومضوا شرقًا وغربًا ينشرون راية الحق والهدى.

---

(١) كان يرافقه - ﷺ - فى رحلته تلك مولاه «زيد بن حارثة» رضى الله عنه - فقط.

من هو ..؟

هو: «محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب» - الثقفى -، هكذا جاء نسبه فى معظم المراجع التى تؤرخ له[1].

ويتصل نسبه بـ «الحجاج بن يوسف» عند «الحكم بن أبى عقيل»

نشأته:

حين كان «الحجاج بن يوسف» عاملاً لـ «عبدالملك بن مروان» على «العراق»، ولّى ابن عمه «القاسم بن محمد بن الحكم» (والد «محمد») على «البصرة» . . ، وهناك كانت نشأة «محمد» فى بيئة كلها حكم وإدارة وقيادة وفتح . . ، ولقد تعهده «الحجاج» منذ نعومة أظفاره، وغرس فيه روح العلم والمعرفة، وأحاطه بكل رعاية وعناية، وهيأ له أسباب التفوق، لما كان يعهده فيه من قوة الشخصية، ولما كان يراه فيه من مخايل النجابة والذكاء.

يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب» فى كتابه عن «محمد بن القاسم»: (نشأ «محمد» بـ «البصرة»، منذ نعومة أظفاره بين الأمراء والقادة، أبوه أمير، وابن عم أبيه - الحجاج - أمير العراقين، وأكثر «بنى عقيل» فى «ثقيف» - قوم الحجاج - أمراء وقادة . . ، فنشأ «محمد» وترعرع فى محيط ملائم لتنشئة القادة والأمراء.

وكان له استعداد فطرى متميز، وأفاده محيطه فى بناء شخصيته وتكاملها، لذلك ظهرت كفاياته الفذة فى وقت مبكر من عمره، وهو لايزال فى ريعان الشباب).

فى الميدان .!

ولما بلغ «محمد» واستوى عوده، وأظهر من الكفاية عند الاختبار ما يؤهله لخوض ميادين القتال، قذف به «الحجاج» إلى ساحات الوغى، ومعامع الحروب، ليكتسب الخبرة والتجربة، فمضى «محمد» يخوض المعارك ويثبت الكفاءة

---

(١) معجم الشعراء (٤١٢) اليعقوبى (٣ - ٣٢) وفيات الأعيان (١ - ٣٤١) تهذيب ابن عساكر (٤ - ٤٨) جمهرة أنساب العرب (٥٢٧٨).

والجدارة، وكانت أنباء كل ذلك تصل إلى الحجاج تباعًا، فيزيد إعجابه بـ «محمد» وتقديره له، ويفخر بأنه قد أحسن التربية والتوجيه، كما أحسن الاختيار والتقدير.

وكان محمد «آنذاك» يدرج نحو السادسة عشرة من عمره . . ! بين الفتوة والشباب، ولكنه بفعاله واستعداديته كان أكبر من ذلك.

إلى القيادة:

وحدث أمر جعل «محمد بن القاسم» يبرز إلى الواجهة ويتصدر مركز القيادة.

فقد أهدى ملك جزيرة «الياقوت» - جزيرة «سيلان» اليوم - إلى «الحجاج بن يوسف»، نساءً مسلمات وُلدن فى الجزيرة ومات آباؤهن الذين كانوا من التجار المسلمين الذين نزلوا تلك الديار خلال رحلة تجارية قاموا بها، فاستوطنوا وتزوجوا وأنجبوا . . !

وقد أراد ملك تلك الجزيرة بهذا التصرف أن يتقرب من «الحجاج» . . ! ولكن . . . !

بينما كانت السفينة التى تقلهن تمخر عباب اليم عرض لها بعض القراصنة من ثغر «التّريبل» - وهو ثغر كان قائمًا بالقرب من مدينة «كراتشى»[1]

فاستولى القراصنة على السفينة بما فيها، ومن فيها، ونادت إحدى النسوة المسلمات، - وكانت من بنى يربوع - مستغيثة: يا «حجاج»!!

هذا النداء سمعه أحد الأسرى الذين قُدر لهم النجاة والفرار، فأبلغه إلى «الحجاج» وحدّثه عن الواقعة وتفاصيلها، فانتفض «الحجاج» وأخذته العزة، وقال:

- لبيك . . . !

الإنذار . !

وعلى الفور أرسل «الحجاج» رسولاً إلى «داهر» ملك «السند»[2] يحمل كتابًا فيه تهديد وإنذار بإطلاق سراح المسلمات الأسيرات المختطفات.

---

(١) كانت مدينة «كراتشى» عاصمة الدولة الباكستانية إلى وقت قريب.

(٢) «السند»: جزء من القارة الهندية، تقع معظم أقاليم «باكستان» فيه، وكان يحد قديمًا بين دولة الهند حاليًا، و«كرمان» «سجستان» (المسالك والممالك» (١٠٣) - (معجم البلدان) (٥ - ١٥١).

فكان جواب «داهر» ملك «السند» لـ «الحجاج»: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم..! ويبدو فى جواب «داهر» عدم تجاوبه مع رغبة «الحجاج» مما زاد فى غيظ الحجاج وثورته وحميته.

حملات فاشلة:

وأعد «الحجاج» قوة من الجند المسلمين بقيادة «عبيد الله بن نبهان» ووجههم إلى «الديبل» للاستيلاء عليها، وتخليص الأسيرات المسلمات، واسترداد الهيبة المفقودة.

ولكن القائد «عبيد الله» قُتل، ووقعت الهزيمة فى صفوف المسلمين، فارتدوا على أدبارهم، لكن واقعة هذه الحملة الأولى لم تفت فى عضد «الحجاج»، فكتب إلى عامله على «عُمان» - «بديل بن طهفة البجلى» أن يسير إلى «الديبل»، فى غزوة جديدة.

ولم يكن حظ «ابن طهفة» بأحسن من حظ «عبيد الله»..

إذ إنه لما بلغ أرض «الديبل» بقواته، واستعد للقاء عدوه، ونظم صفوفه، ثم التحم فى القتال، نفر به فرسه بعيداً عن أرض المعركة، ولم يفلح فى كبح جماحه، فأحاط به العدوّ..، واستفردوا به وقتلوه..!

عندئذ وقعت البلبلة فى صفوف قوات المسلمين، وتبدت لهم الهزيمة، فانسحبوا من الميدان، وقفلوا راجعين..، وعادوا من أرض «الديبل» لم ينالوا بغيتهم، ولم يحققوا هدفهم، وقد قُتل قائدهم.

«محمد»... لها!!

وتبدى لـ «الحجاج» مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المسلمين، والخطورة الكبرى إن هو سكت على هذا الأمر...!

لقد فقد اثنين من خيرة القادة الذين يعتمد عليهم، ولحقت الهزيمة بالمسلمين مرتين متعاقبتين.

ففكر كثيرًا قبل أن يقدم على بعث جديد. . ، ورأى أنه لابد أن يكون القائد المنشود على مستوى المسئولية، ليحسم الأمر ويعيد الهيبة والثقة، وقال فى نفسه: لم لا يكون «محمد بن القاسم» . . . !؟

إنه منذ خاض ميادين القتال وصيته يتردد، وشهرته تزداد، وكفاءته تظهر وتعلو. . ! ولكن، أين هو الآن؟

إنه فى «الرى» فقد بعثه منذ حين فى مهمة على رأس فرقة من الجند . . ! فأرسل إليه يستدعيه على جناح السرعة.

فلما وافاه، عقد له «الحجاج» اللواء على ثغر «السند»، وولاه فتحه. . . ، وضم إليه ستة آلاف من جند الشام، بالإضافة إلى القوات التى كانت تحت إمرته، وجهزه بكل ما يحتاج إليه فى معاركه المنتظره، وقد قيل إنه جهزه حتى بالخيوط والإبر!!!

ثم أمره بالخروج إلى منطقة «شيراز» فى أقصى بلاد «فارس»، ويقيم بها، حتى يستكمل حشد رجاله وقواته، ويوافيه بما يعده له من جديد.

ومن هنا يظهر اهتمام «الحجاج» البالغ بهذه الحملة، وما يعلق عليها من آمال عراض، وما يؤمله على يد قائدها من دحر العدو وهزيمته، ورد الاعتبار إلى مكانته التى اهتزت، ومكانة المسلمين.

ويذكر أن «الحجاج» - أيضًا - قد اهتم اهتمامًا عظيمًا فى استحضارات جيش «محمد بن القاسم» حتى بلغ حد الروعة حقًا. . . ، إذ لم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج، نقعه فى الخل الأحمر الحريف، ثم جففه فى الظل، وأوصى الجند فقال:

- إذا صرتم إلى «السند» فإن الخل بها ضيق، فانقعوا هذا القطن بالماء، ثم اطبخوا واصطبغوا!!

ويقال أيضًا بأن «محمد بن القاسم»، لما وصل إلى ثغر «السند»، وبلغ مقصده وهدفه، كتب إلى الحجاج يشكو ضيق الخل عليهم، فبعث إليه الحجاج - عندئذ - بالقطن المنقوع بالخل!

وسواء كان هذا أم ذاك . . . ، فإن الحادثة بحد ذاتها تشهد للاستعداد العظيم الذى آلى «الحجاج» على نفسه أن يجهز به جيش «محمد بن القاسم»، وكأنه يرى فى هذه الحملة غاية الغايات، وأقصى الأمانى.

وكانت عدة من مع «محمد» من الجند اثنى عشر ألفًا، من الشام والعراق، وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم .

إلى «مكران» . . !

أقام «محمد» بجيشه فى «شيراز» فترة ستة أشهر، كانت تواتيه خلالها إمدادات «الحجاج»، من أسلحة وأغذية واستحضارات، فلما تمت أهبته، أمره «الحجاج» بالتحرك، ووصاه، وتمنى له النصر والظفر.

وطار على بركة الله، يحدوه الأمل بنصر الله . . !

فلما بلغ «مكران» نزل بها، وكانت أولى محطاته فى الطريق إلى هدفه العظيم، فأقام فيها أيامًا للراحة، وقيل إن إقامته بها امتدت إلى شهر «تقريبًا»-.

ثم غادرها وهو على كامل تعبئته الحربية، خشية أن يباغته شىء، ولقد تعلم «محمد» هذا الدرس العسكرى العظيم من القائد المظفر - سيف الله - «خالد بن الوليد» - رضى الله عنه - .

وكانت محطته الثانية مدينة «قنز بور»، التى تقع بين «مكران» و«الديبل»، ولم تكن محطة راحة كما يخطر على الذهن فى بادئ الأمر، بل حدثت هناك معارك طاحنة، وقتال شديد، حتى فتحها واستولى عليها، ومنها انتقل إلى مدينة «أرمائيل»، وهى مدينة كبيرة وحاضرة عظيمة، تقع على طريق «الديبل»، فأحاط بها وحاصرها، وشدّد عليها حتى فتحها، وترك فيها حامية من المسلمين.

معركة «الديبل»:

عند مدخل مدينة «كراتشى» حاليًا، والتى تقع على شاطئ المحيط الهندى - أو الهادى-، فى «باكستان»، توجد جزيرة صغيرة تسمى جزيرة

«محمد بن القاسم»[1]، والسبب فى ذلك هو أن «محمداً» قد وافته قوات إسلامية محمولة بحراً إلى تلك البقعة..، إذ حُمّلت السفن بالرجال والسلاح والعتاد والمهمات فى شط العرب عند «البصرة» ومخرت عُباب الخليج، ثم شقت طريقها مع الساحل حتى أتت تلك الجزيرة عند مدخل مدينة «كراتشى»، وهناك جرى الإنزل، وتكاملت القوات.

وكأن «محمد بن القاسم» القائد - النابه - أراد أن يرهب أعداءه ويُدخل فى قلوبهم الرعب من خلال الحصار البرى والبحرى!!!، وأيضاً ... بوصول إمدادات إسلامية إضافية.

وبعد أن تم له كل ذلك خندق حول مدينة «الديبل» التى يريدها، ويريد تأديب الذين اجترؤوا على الإسلام والمسلمين، فكان الخندق أول عمل حربى قام به..، وكان الإيذان ببدء الحرب الفعلية، بعد أن تم له الغرض بالحرب النفسية.

ثم نصب منجنيقًا ضخمًا يقال له: «العروس»!!

وهذا المنجنيق هو فى مقابل المدفعية اليوم، من أجل دك التحصينات والخطوط الدفاعية..، ولقد قيل فى وصف منجنيق «العروس» بأنه كان يعمل فى تشغيله خمسمائة من الرجال الأشداء ذوى الكفاية.

وراحت قذائف المنجنيق تنصب على مدينة «الديبل» وأسوارها، وخصوصًا على معبد «الهندوك» الأكبر، المسمى عندهم بـ «البدّ»[2].

و (البدُ) صنم فى بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة، ويرتفع (البدُ) فى السماء أربعين ذراعًا.

وحاصر «محمد» مدينة «الديبل» .. لكن حماتها قاتلوا ودافعوا عنها بشدة..، ولم يكتفوا بالدفاع من الداخل، بل كانوا يخرجون من الأسوار ويشتبكوا مع المسلمين، ولكنهم كانوا يرتدون منهزمين...!

---

(١) مثل جزيرة «طريف» عند الشاطئ الإسبانى، التى نزل بها «طريف بن مالك» أول البعوث إلى الأندلس، أو مثل (جبل طارق) حيث اجتازه «طارق بن زياد» فاتحًا للأندلس.

(٢) البدّ: هو المعبد، وكل شىء عظموه بالعبادة فهو عندهم (بد)، والصنم (بد) أيضًا.

وإزاء هذا الموقف قبعوا فى جحورهم داخل الأسوار، وراحوا يرشقون المسلمين بنبالهم وسهامهم، فأمر «محمد» بالسلالم فنصبت على الأسوار، وصعد عليها الرجال غير مبالين بما يقع عليهم أو يُصيبهم..!

وكان أولهم صعودًا رجل من «بنى مرادن» من أهل «الكوفة»، استطاع أن يزيح الحرس عن مواقعهم بعد قتال عنيف..، ومن بعده تدفق المسلمون إلى الداخل، تدفق السيل العظيم.

وفُتحت المدينة عنوة..!

فاستباحها «محمد بن القاسم» ثلاثة أيام، وسبى منها جند الاسلام سبيًا كثيرًا، وغنموا منها غنائم وفيرة.

وفر عنها حاكمها وواليها من قبل «داهر» ملك «الهند»، ونجا بنفسه وأهله وحاشيته.

وكان أول أعمال «محمد بن القاسم» فى مدينة «الديبل» أن بنى فيها مسجدًا جامعًا، فكان أول مسجد أُقيم فى هذه المنطقة فى بلاد «الهند».

وبعد أن استقر له الأمر فيها، واطمأن إلى موقعه، ترك فيها حامية كبيرة من المسلمين، قُدرت بأربعة آلاف من الجند الأشداء، ثم غادرها.

ولكن إلى أين ؟؟

هل يكتفى «محمد بن القاسم» بفتح «الديبل» التى عصت من قبل على غيره من قادة المسلمين وجندهم؟ وهل يكتفى بتأديب العصاة الذين أذلوا النساء المسلمات الأسيرات؟ وهل يكتفى من الأمر الذى خرج له بهذا القدر وهذا الحد؟

الفتح ..!

إن مهمة جند الإسلام فى الأرض، شرقًا وغربًا، ليست مهمة ثأر، ولا انطلاقة فتك وتدمير، وتخريب وإذلال لرقاب البشر، أو استعباد واستعمار..! إنها مهمة

فتح وتبشير ونشر لرسالة الله فى الأرض، وإقامة دين الله فى القلوب والنفوس، وهداية الضالين عن الحق إلى الصراط المستقيم.

لذا . . . ، خرج «محمد بن القاسم» بجيشه وقواته من «الديبل» متجهًا إلى مدينة «النيرون» - وغيرها - فاتحًا.

و«النيرون» مدينة كبيرة، وحاضرة عظيمة، تقع على بُعد خمسة وسبعين ميلاً من «مكران»، وتعرف أيضًا باسم «نيرانكوت»، وموقعها الجغرافى مكان مدينة «حيدر أباد» حاليًا.

وكان أهل هذه المدينة، حين علموا بخروج المسلمين إلى «الهند» بهذا الجيش الضخم، وبهذا الاستعداد الهائل. . ، وفى نية قائدهم المظفر «محمد بن القاسم» أخذ الثأر للذين استشهدوا من قبل، ورفع الذلة عن أسرى المسلمين من النساء. . . !

وحين علموا - أيضًا - بتخلى ملكهم «داهر» عنهم، ووقوع «الديبل» فى أيدى المسلمين، وما لقيه أهلها من أذى بسبب غدرهم وإصرارهم على القتال، . !

حين علموا بذلك . . . أرسلوا رسلهم إلى «الحجاج» فى «العراق»، وعقدوا معه صلحًا، وقدموا خضوعهم واستسلامهم، رحمة بأنفسهم وبلدهم.

وحين اقترب «محمد بن القاسم» من مدينتهم، خرجوا إليه يحملون الميرة والمؤن، واستقبلوه أحسن استقبال، وعادوا معه إلى مدينتهم، ودخلوها جميعًا، ووفوا بعهدهم وعقدهم، وضمنوا بذلك الأمن والسلام.

وكان «محمد» قد أقام معسكرًا خارج المدينة، فلم يدخلها جيشه، أو أحد من جنده.

التوغل . . .

خرج «محمد» عن مدينة «النيرون» متوغلاً فى أقصى «الهند». . . ، فكان لا يمر بمدينة أو بلد إلا خضعت له واستسلمت، صلحًا أو قتالاً . !

فلما بلغ أحد الأنهر عند منطقة تدعى «مهرات» جاءه أهل مدينة «سربيدس» وطلبوا الصلح، فقبل منهم، وفرض عليهم الخراج، فاستجابوا وقبلوا؟ ثم سار عنهم إلى مدينة تدعى «سهبان»، ففتحها عنوة.

وكان فى خط سيره - شمالاً - إنما يقصد المنطقة التى يقيم فيها «داهر» - ملك الهند الأعظم - ، الذى كان قد رد على «الحجاج» فى قضية الأسرى المسلمات رد العاجز. ، أو رد غير المعنى. ! أو رد المتحدى. . !

فالحملة أساسًا لتأديبه وإذعانه للحق والعدل . . !

وخط السير هذا كان بمحاذاة نهر «مهرات» - نهر السند - ، فلما توسطه «محمد» بجيشه وبلغ منتصفه، بين منبعه ومصبه -، نزل هناك، وقد علم أن «داهر» يقيم قريبًا منه، فى حشد عظيم من جنده وقواته.

كان «محمد» قد أمن خطوطه الخلفية، واطمأن إلى ما ورائه، فلن يؤتى من قبل ذلك فى حالة التحامه بقوات «داهر». . !

ولكن. . . هناك مدينة قريبة تدعى «سدوستان»، وهو لايريد أن يتركها ثغرة تشكل عليه وعلى قواته خطرًا. . ، أو شوكة تؤذيه. . ، فلابد أن ينظف الأرض التى سوف يُقاتل عليها. . ، خصوصًا وأنه قد يضطر إلى عبور النهر للقتال، فهل يترك وراءه من يضغط عليه، أو يغدر به من خلفه؟؟

لذا أرسل قوة من الجند، من موقعه الذى هو فيه باتجاه «سدوستان». . ، فطلب أهلها الصلح والأمان، وخرج وفد منهم إلى معسكر «محمد»، وعقدوا معه عهدًا، فأمنهم وألزمهم بدفع الخراج، وترك فى مدينتهم حامية.

عبور نهر «السند»:

انتظر «محمد» أن يعبر إليه «داهر» . . ، فيقاتله فى العدوة التى يُعسكر فيها. . ، ولكنه لم يفعل، بل أمعن فى الاختفاء. . والاستعداد. . !

وكانت تلك المقاطعة فى بلاد «الهند» تدعى «قصة»، ويحكمها ملك تابع لـ «داهر» اسمه «رامل». . !

فلما طال بـ «محمـد» أمل الانتظار، قرر العبور...، وتحيز فـرصة هبوط ماء - النهر..، وأوحى إلى داهر أنه ينتظره..، مما جـعل الأخير يستخف بـ «مـحمد» ويلهو عنه ... ويغفل. ثم عقد «محمد» جسـرًا فوق النهر، منستغلاً فرصة ظلام الليل الدامس..!

ونحن - إزاء هذه الظاهرة العسكرية الهامة - نتساءل:

ما هى الاستعدادات الهندسية والفنية التى كـانت قد حُشدت لقوات «محمد بن القاسم» فى تلك الآونة؟

لابد وأنها كانت على جانب عظيم من العلم والمقدرة والكفاءة..!

ولابد وأنه كـان فى الجيـوش الاسـلاميـة الفـاتحة آنذاك سـلاح مـهمـات.. وخدمات..، يوفر للقوات جانبًا عظيمًـا من جوانب الأرضية الصالحة التى عليها يقاتلون، ويمدهم بالخبرة والكفاءة، والدراسة والتحليل..!

وليس موضـوع السلالم التى ارتـقوا عليهـا أسوار مـدينة «الديبل» عن أذهاننا ببعيد.!

وعبرت قوات الجيش الإسلامى بكاملها فوق الجسر، ونزلوا بأرض «قصة»، فى الضفة الثانية من نهر «السند».

وكانت المفاجأة..!

إذ لم يكن «داهر» يتوقع عبور المسلمين ونزولهم بساحته..!

فحشد قواته، وعبأها، واستعد الطرفان للقتال.

المعركة:

تقدم «داهر» إلى الميدان وهو يمتطى ظهر فيل ضخم..!

تُرى.. هل يخشى المسلمين الفيلة؟ وهل ترتد خيلهم عنها؟

هكذا كان يُؤمل «داهر» ويرجـو ..، وما درى أن المسلمين منذ «القادسـية» قد عرفوا كيف يواجهون الأفيال، وأين هى مقاتلها، ونقاط الضعف فيها.

والتحم الجيشان، واصطدم الفريقان. . ، واشتد القتال بصورة لم يُسمع بمثلها من قبل، وكانت قوات «داهر» وحشوده أضعاف أضعاف القوات الإسلامية.

وصبر المسلمون، وحثهم قائدهم على القتال، وحرضهم على الجهاد. . ، وأعطاهم النموذج الرائع من نفسه، إذ أبلى أحسن البلاء، وخاض بكل حماسة وإقدام فى صفوف العدو، مما جعلهم يلتهبون حماسًا وهمة واندفاعًا.

بدأت المعركة مع خيوط الفجر الأولى، واستمرت طيلة النهار، وزادتها حرارة الجو وقيظ الشمس التهابًا وسعيرًا.

وكان «داهر» مقاتلاً شديدًا عنيدًا. . ، فلما رأى أن الفيل الذى يركبه يُعيقه على الحركة. . ، نزل عنه، وامتطى جوادًا، وراح يضرب هنا وهناك.

حتى آذنت الشمس بالمغيب، وبدأت تميل إلى الأفق الغربى. . ، وتنحسر أشعتها عن الميدان، الذى عقد فوقه الغبار سُحبًا داكنة متراكمة. . !

فى تلك الأثناء انقض أحد فرسان المسلمين، ويُدعى «القاسم بن ثعلبة» من قبيلة «طىء»، على «داهر» - ملك الهند (السند) وقتله. . ، ثم صاح مكبرًا . . ، عندئذ وقعت الهزيمة فى صفوف قوات «داهر» ولاذوا بالفرار. . !

ووقع عدد كبير منهم فى الأسر، وامتلأت أرض المعركة بأشلاء العدد العديد منهم، وقليل منهم من نجا.

وكان مما قاله «القاسم بن ثعلبة»، قاتل «داهر» مُفتخرًا:

الخيل تشهد يوم «داهر» والقنا[١]	ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت[٢] الخيل غير معرد[٣]	حتى علوت عظيمهم بمهندى
فتركته تحت العجاج[٤] مجندلاً[٥]	متعفر الخدين غير موسد

(١) القنا: الرماح.

(٢) فرجت: فتحت، من فرّج بين الشيئين: فتح.

(٣) معرد: منحرف، من تعرد الرجل عن الطريق: انحرف.

(٤) العجاج: الغبار.

(٥) مجندلاً: صريعًا.

نتيجة الفتح..!

وكما كانت معركة اليرموك «مفتاح» بلاد الشام..، و«القادسية» مفتاح بلاد العراق وفارس، كذلك كانت المعركة مع «داهر» ملك «السند» ومقتله..، فقد انفتحت أبواب «الهند» كلها أمام جيوش المسلمين بقيادة «محمد بن القاسم»، ومهَّدت لسلطان عظيم استمر قرونًا طوالاً، وما يزال قائمًا إلى يومنا هذا فى تلك الديار، بالإضافة إلى حضارة عظمى ازدهرت وأثمرت.

تقول مصادر التاريخ:

لما قُتل «داهر» غلب «محمد» على بلاد «السند» ففتح مدينة «راور» عُنوة.

و«راور» مدينة عظيمة من مدن «السند»، وكانت بها - فى ذلك الحين - إحدى زوجات «داهر»، - حين قصدها - «محمد بن القاسم»، وهذه الزوجة تدعى «درانى باى»..، وكانت أختًا لـ «داهر»!!! بنى بها، وتزوجها..!؟؟

فلما أحاط جيش المسلمين بالمدينة، وشدّد عليها الحصار، وقذفها بالمنجنيق، وتهاوت أسوارها، وتهدمت جدران حصونها، وأوشكت على السقوط..، خافت «درانى باى» على نفسها من الأسر، فجمعت جواريها ومتاعها وأشعلت النيران فى القصر، فاحترقوا جميعًا.

إلى «برهمن أباد»

ومن «راور» توجه «محمد» بقواته شمالاً شرقًا، حتى بلغ مدينة «برهمن أباد»، وهى مدينة تقع أيضًا على نهر «السند» العظيم، بين «كراتشى» ومقاطعة «البنجاب»، ولها مكانة تاريخية ودينية لدى «الهندوس».

والسبب فى هذا التوجه... هو أن فلول قوات «داهر» - بعد هزيمتهم عند النهر - أوغلوا فى الفرار، حتى انتهوا إلى هذه المدينة وتحصنوا بها.

فلما وصلها «محمد» بقواته أحدق بها، وأحاط بمن فيها، ثم هاجمها بقوة وعنف حتى دخلها وقضى على العدو القضاء المبرم.

وتحدثنا روايات التاريخ أنه قتل فيها خلقًا وبشرًا كثيرًا..، وكذلك خرّب المدينة التى صمدت له بعض الوقت..!

وبعدها توجه إلى «الرور» و «بغرور»[1] . . ، فخرج إليه أهل مدينة «ساوندرى»، وسألوه الأمان والصلح، فاستجاب لهم. . ، ولم يفرض عليهم خراجًا ولا جزية. . ، والسبب هو أنه طلب إليهم ضيافة المسلمين، وإمدادهم بالميرة. . فوافقوا. . ، ولم تمض فترة حتى أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجًا.

وتستكمل مسيرة فتح «السند» مع «محمد بن القاسم». . . !

فمن «ساوندرى» اتجه «محمد» إلى «الرّور». . ، فمر فى طريقه بـ «بسمند»، فصالح أهلها على مثل ما صالح عليه أهل «ساوندرى». . ! ثم وصل إلى «الرور» مقصده وهدفه.

وكانت تقع على ذروة جبل شاهق، مما يزيدها حصانة ومناعة. . ! فحاصرها. . واستغرق ذلك شهورًا، وقد قطع عنهم الإمدادات وضيق عليهم. . !

وأخيرًا أدرك أهلها والمدافعون عنها أن «محمدًا» لن يُغادرهم حتى يستسلموا، فراسلوه. . ، ثم اتفقوا على الصلح والأمان، ولكنهم اشترطوا أن لا يتعرض لمقدساتهم، معابدهم وأصنامهم، فوافقهم، وفرض عليهم الخراج، وأقام فى المدينة مسجدًا عظيمًا. . ، ثم غادرها وقد ترك فيها حامية من المسلمين.

وعند كلمة (الحامية) التى ترددت كثيرًا فى حديثنا، نريد أن نوضح ما يلى، إذ ليس المقصود بها - فقط - القوة العسكرية. . ، بل هناك أمر لا يقل أهمية، وهو وجود جماعة - تضطلع بعبء نشر الدين، وتثقيف الناس، وهداية الضالين، والتبشير بكلمة التوحيد، فما إقامة المساجد فى المدن المفتوحة إلا دليل ذلك وقرينه، والباب الواسع الذى دخل منه أهل تلك البلاد فى الإسلام وأضحوا من بعدُ من دعاته ورُعاته، وحملة لوائه.

إلى «الملتان» أعظم مدن «السند» الأعلى. !

وسار «محمد» قاصدًا «المُلتان». . . ، ففتح فى طريقه مدينة «السكّة»، ثم عبر نهر «بياس»، وهو نهر عظيم تتدفق مياهه بغزارة وقوة، ويُفضى إلى «الملتان». . ، ويعتبر أعظم روافد نهر «السند».

(١) الرور: ناحية فى «السند» قريبة من «الملتان»، و«بغرور» بثر بالقرب من «الرور».

أما مدينة «المُلتان» فتعتبر أعظم مدن «السند» الأعلى، وأقوى حصونه على الإطلاق. . ، فلما أتاها «محمد» ضرب عليها الحصار شهوراً، وقد اضطر أهلها -بعد أن ضيق عليهم- أن يخرجوا للقتال، لكنهم هُزموا، وآووا ثانية إلى مدينتهم الحصينة!

ووقع فى أيدى المسلمين واحد من أهلها فأسروه. . ، فاستأمن على نفسه، فأمنه «محمد» ولكنه اشترط عليه أن يدله على ثغرة من ثغور القوم، ليأتيهم منها. . ، فدله على مدخل الماء الذى يشرب منه الناس، ويستقون لزروعهم وخيولهم ومواشيهم. . ، فسده «محمد» عليهم. . ، حتى اشتد بهم العطش وأشرفوا على الهلاك، فأذعنوا واستسلموا، ونزلوا على حُكمه.

فقتل «محمد» المقاتلة، وسبى الذرية، كما سبى سدنة «البد»[1]، وكانوا ستة آلاف وأصاب مالاً كثيراً، جمعه من مكان طوله عشرة أذرع، وعرضه ثمانية، تلقى فيه الأموال من كوة فى وسطه.

ولذا سُميت «المُلتان» : (فَرج بيت الذهب). ! أى: ثغر بيت الذهب.

وكان «بَدٌّ» - المُلتان - «بداً» رئيسياً، عظيماً، تهدى إليه الأموال، وتُنذر له النذور من كل مكان فى «السند» ويحج إليه «الهنود»، فيطوفون به، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن فيه قبر «أيوب» - عليه السلام-!!

وفاة «الحجاج بن يوسف»

مع مطلع سنة خمس وتسعين للهجرة، كانت وفاة «الحجاج بن يوسف»، وكان «الوليد بن عبدالملك بن مروان» مايزال خليفة. . ، و«محمد بن القاسم» يتابع جهاده والفتح، وقد أمضى خمس سنوات متواصلة لا يهدأ ولا يستقر، وينتقل من نصر إلى نصر، حتى قارب على فتح «السند» كلها. . !

فلما أتاه نعى «الحجاج» حزن حزناً بالغاً، وتأثر تأثراً شديداً، ولكنه لم يقعده ذلك عن متابعة الجهاد. . !

---

(١) سدنة «البد»: كهانه الذين يقومون على طقوس العبادة والنذور.

عاد من «المُلتـان» إلى «الرور» و «البغرور» اللتين فـتحهما من قـبل. .، ومنها وجه جيشًا إلى «البيلمان»، ففتحت صلحًا، وكذلك «سرشت».

ثم عـزم على فتح «الكـيرج» . . . وهو إقليم واسع كـان يحكمـه ملك يُدعى «دُوهر»، لا تقل شهـرته وعظمتـه وسلطانه عن «داهر» - ملك السند. .، أضف إلى ذلك أن «دوهر» كان ملكا مهتمًا بشؤون بلاده، إذ كرَّس كل جهوده للإصلاح والعمران، فازدهرت «الكيرج» فى عهده وذاعت شهرتها.

أما مدينة «الكيرج» - التى سميت المملكة باسـمها - هى اليوم مدينة «بومباى» - عاصمة «الهند»، وكانت فى حينها مدينة مقـدسة، وتتميز بموقعها على البحر، وثروتها الزراعية، وعمرانها، وكثرة سكانها، ومركزها التجارى.

وعندما وصلهـا «محمد» فـى حملته إليهـا، خرج إليه ملكهـا «دوهر» بقواته، ودارت المعارك عنيفة شديدة، وثبت المسلمـون، حتى تغلبوا على عدوهم وهزموه هزيمـة منكرة. .، وقتل «دوهر»، ونزل أهل الديار كلهم عـلى حكم «محـمد بن القاسم».

وفاة «الوليد» وخلافة «سليمان»..!

مات «الوليد بن عبدالملك» وتولى مكانه «سليمان» أخوه. . !

وكان لـ «سليمـان» على «الحجاج» مآخذ كثـيرة فى سيرته الشخصـية والعامة، فلما تولى أراد أن يتخلص من كل من يمت بصلة إلى «الحجاج»، ليس حقدًا ولا ثأرًا. . ولكن ابتعـادًا عن أدّواء المجد الشخصى على حـساب أرواح الناس وأموال المسلمين. .، وكانت هذه وجهة نظره. . !!!

وكان «محمد بن القاسم» - رحمه الله - أحد الضحايا. . !

فقـد جاء الأمـر من الخليفـة بعزله . . . وجـيشـه . . .، وسوقـه مقـيدًا إلى العراق. . . !

من قائد فاتح مظفر .. إلى رهين قيد وسلاسل وسجن..!! إنها نهاية مؤلمة وحزينة!!!

وصل أمير «السند» الجديد «يزيد بن أبى كبشة»، فألقى القبض على «محمد»، وقيده بالحديد، وسيره إلى العراق..!

فتسلمه الوالى الجديد «صالح بن عبدالرحمن» وأودعه فى غياهب السجن، فى «واسط»[1]..!

وكان «محمد» - رحمه الله - على جانب كبير من الثقافة والأدب..، فكان يردد:

أضاعونى.. وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر..!!

ويقول أيضًا :

فلئن ثويت بـ «واسط» وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولا

فلرب فتية فارس قد رُعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

ويردد كذلك :

ولو كنت قد أجمعت الفرار لوطئت إناث أعدت للوغى وذكور

وما دخلت خيل «السكاسك»[2] أرضنا ولا كان من «عك»[3] على أسير

ولا كنت للعبد «المزونى»[4] تابعًا فيا لك دهر بالكرام عثور

وفاة «محمد» - رحمه الله -:

وعذبه «صالح بن عبدالرحمن» والى العراق الجديد ...، فى رجال من «آل عقيل» - رهط «الحجاج» -، حتى ماتوا جميعًا...!

(١) واسط: بناها الحجاج بن يوسف، أثناء توليه العراق.

(٢) السكاسك: من قبيلة «كندة» اليمنية.

(٣) عك: إحدى قبائل اليمن الكبرى.

(٤) المزونى: نسبة إلى قبيلة «مزينة».

وكـان «الحجـاج» من قبل قـد قتل أخـًا لـ «صالح» هذا، اسـمه «آدم»، كـان خارجيًا فى رأيه ومذهبه، فانتقم له «صالح». . ، ولكن أى انتقام!!!

وهنا نضع أيدينا، وتتـجـه بصائرنا وأبصـارنا، إلى مكمن داء وعلة، أصـابت القيـادات الإسلامـية على فتـرات، قادت إلى انتكاسـات وتراجعـات. . ، حيث سـيطرت «الأنانية» على قلوبهـم ونفوسـهم وعقـولهم، فلم يروا غيـر ذواتهم. ، ونسوا حظا مما ذكروا به. ، فضـيعوا شعوبهم فى الدنيا، وضيـعوا هم أنفسهم فى الدنيا والآخرة، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

****

١٢- قتيبة بن مسلم

هو: «قتيبة بـن مسلم بن عمرو بن الحصين» - الباهلى -، وكنيتـه التى اشتهر بها: «أبو حفص»

وُلد عام تسعة وأربعـين للهجرة (٤٩ هـ)، أيام خلافة «معـاوية بن أبى سفيان» وكان والده «مـسلم بن عمرو» ذا حظوة ومكانة عند «يزيد بن مـعاوية»، ومن ثم كانت فتوة «قتيبة» فى زمن الدولة الأموية «السفُيانية»، أما شبابه وظهوره فكان فى عهد «المروانية»، أيام «عبدالملك» و«الوليد».

ينتمى إلى قبيلة «باهلة»، التى كـان لها باع طويل فى الإسلام، فى أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده. . !

وأشهر رجالهـا الصحابى الجليل «أبو أمامة الباهـلى» - صُدى بن عجلان -، رضى الله عنه -، فقد كان من القادة الفرسان الشجعان، والحفظة والرواد.

أول إطلالة :

فى سنة سبع وسبعين للهجرة (٧٧ هـ) كان الحجاج بن يوسف مشغولاً بإخماد الفتن فى العـراق، هنا وهناك. . ، وكـانت ثورة «شبـيب - الخارجى» فى أشـدها استفحالاً وخطورة، خـصوصًا بعد استيلائه على «الكوفة»، وانتـصاره على كتائب «الحجاج».

ولقد جمع «الحجاج» ذات يوم وجوه الناس وكبراءهم ليـستشيرهم ويستحثهم، فاجتمعوا عنده، وهو على سرير له، وقد التحف. . ، قال:

- إن هذا الرجل - («شبيب - الخارجى») - قد تبـحبح تبحبوحتكم، ودخل حريمكم، وقتل مقاتلكم، فأشيروا علىّ. . !

فـأطرقـوا جمـيـعًـا. . ! ثم بدر من بينهم فـارس فـقال: إن أذن لى الأمـيـر تكلمت. . ، فقال الحجاج: تكلم. !

فقال هذا الفارس: إن الأمير - والله - ما راقب الله، ولا حفظ أمير المؤمنين، ولا نصح للرعية..! ثم عاد إلى مجلسه.

وكان «قتيبة بن مسلم» !!

فانتفض «الحـجاج» غاضبًـا، وألقى اللحاف عنه، واستوى فى جلـسته، وولى قدميه من السرير، وقال: من المتكلم؟

فعاد «قتيبة» إلى الظهور ثانية، وأعاد الكلام...، وأعلن عن نفسه..!

وسكن «الحجاج» قليلاً، ثم قال لـ «قتيبة»: فما الرأى؟ فأجاب: أن تخرج إليه بنفسك فتحاكمه!! فقال له الحجاج: ارتد لى معسكرًا، ثم اغدُ لى!!

فى اليوم التـالى، صلى الحجاج الصـبح، ثم دخل مقصـورته، وكان حاجـبه يخرج بين حين وآخر فيسأل الحضور: أجاء بعد؟ أجاء بعد؟

ولم يعـرف الناس من يريد، حتـى غص المكان بالحضـور..، وكان الحـاجب مايزال يتردد ويسأل: أجاء بعد؟

وإذا بـ «قتيبة» يمشى فى المسجد، عليه قـباء هروى أصفر، وعمامة خز أحمر، متقلدًا سيفًـا عريضًا قصير الحمائل، حتى كأنه تحت إبطيـه، سابغًا فى درعه حتى ساقيه.

فـفتح له البـاب، فدخل على الحـجاج ولـم يحجب، فلبث طويلاً ثم خـرج يحمل لواءً منشورًا، وقد كُلف بقيادة حملة على «شبيب»..!

صلى الحجاج ركعتين، ثم خرج يتبع قتيبة، وركب الناس من ورائهما، واتجهوا إلى حيث معسكر «شبيب»..!

صف قتيبة جنده، ثم أنشب القتال...!

وكان بالأمس قد ارتاد المكان متخفيًا، وعرف ميدان المعركة على الطبيعة..، ثم إنه بعث بكتيبة من الجند يقودها «خالد بن عتاب»، وأمره بإضرام النار فى أخصاص معسكر «شبيب» من ورائهم..!

فلما رأوا شبوب النار وضرامها، وسمعوا زفيرها ورأوا منازلهم طعمة لها.. ارتدوا مذعورين، وتبعهم الناس، وكانت الهزيمة.

تلك كانت بداية التعرف على القائد النابه «قتيبة بن مسلم» لدى «الحجاج»..! واختياره له والاعتماد عليه فى أعظم الفتوح فى بلاد ما وراء النهر.

الوالى القائد:

كانت بلاد فارس مصدر قلائل واضطرابات، وانتفاضات على السلطان، لا تهدأ ثورة أو تقمع حتى تظهر أخرى، أكبر وأقوى..!

و«الحجاج» - والى العراق - قد تحمل ذلك لدى الحكم المركزى فى «دمشق» وتعهد بالقضاء عليه نهائيًا، وقد مرّت بـ «فارس» و «خراسان» أدوار من الاستقرار أيام «المهلب بن أبى صفرة» وابنه «يزيد»، لكن «الحجاج بن يوسف» لم يكن ليرضى عن «آل المهلب» - رغم مصاهرته لهم -، إذ كان بينه وبينهم منافسة شديدة.، فأوغر صدر «عبدالملك» عليهم..، خصوصًا وقد ظهرت فى أيام «يزيد ابن المهلب» ثورة «عبدالرحمن بن الأشعث»، وكانت عنيفة خطيرة..

ومازال الحجاج فى سعيه حتى استجاب له عبدالملك فاختار «قتيبة بن مسلم» ووافقه «عبدالملك» على هذا الاختيار: ليكون واليًا على «فارس» و«خراسان» وقائدًا يضطلع بمهمة الفتح..!

وكان ذلك سنة خمس وثمانين (٨٥ هـ).

قدم «قتيبة» إلى مركز عمله، فجمع الناس، وخطبهم.. وحضهم على الجهاد، وكان مما قال لهم:

(أما بعد، إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضـة، والعدو وقحًا، ووعد نبيـه - ﷺ - النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال:

﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف: ٩].

ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠ - ١٢١]

ثم أخبر عمن قُتل فى سبيله أنه حى مرزوق، فقال:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩]

فتنجـزوا موعود ربكـم، ووطنوا أنفسكم على أقصـى أثر وأمضى ألم، وإياى والشهوينا!!)

بدء التحرك والاستطلاع

استعرض «قتيـبة» جنده وسلاحه، ثم أتم تنظيمه وتعبئتـه، وانطلق فى سياحته الجهادية التى اسـتمرت أعوامًا طوالاً، منذ سنة خـمس وثمانين (٨٥هـ) حتى سنة ست وتسعين (٩٦هـ)، والتى اجتاز فيها مئات الأميال، وعشرات المدن والدساكر.

خرج من «مرو» وقـد خلف فيها حامـية بقيادة «إياس بن عبـدالله بن عمرو»، ووظف على خراجها «عثمان بن السعدى»..!

وعندما وصل إلى نهر «جيحون» - أموداريا - توقف فى «بلخ»..!

وكانت مدينة عظيمة، وقاعدة كبرى، وهى تقع على مفترق الطرق، شرقًا إلى «الهند» و«السند» وشمالاً إلى بلاد «الترك». . . !

وكان توقفه عندها بسبب انتفاض بعض توابعها فى الأقاليم على المسلمين، فحاربهم «قتيبة» واشتد عليهم، ثم صالحوه. . ، فرد عليهم السبى. . ، وقد انضم إليه فريق من كبرائهم. . ، وانتظموا فى صفوفه متطوعين، راضين غير مُكرهين.

ثم مضى فى طريقه إلى «الطالقان». . ، بين «بلخ» و «مرو الروذ». .

فلما اجتاز نهر «جيحون» - أموداريا - تلقاه ملك «الصغانيان»[1] وقدم له الهدايا، ومفتاحًا ذهبيًا، رمزًا على الصداقة والتعاون، ودعاه إلى بلاده.

واستعان ملك «الصغانيان» بـ «قتيبة» على محاربة «غيسلشنان» - ملك «أخرون» و«شومان» - وهما إقليمان فى «طخارستان»»-، إذ أساء هذا الملك الجوار. . !

فناصره «قتيبة» على عدوه. . ، فأتاه «غيسلشنان» مستسلمًا متصالحًا، ودفع له فدية. . ، فقبلها منه.

العودة إلى «آمل» فى خراسان»:[2]

ثم ارتد «قتيبة» راجعًا. . . !

ركب السفن واجتاز نهر «جيحون» - أموداريا - ، وانحدر إلى «آمل»، وخلف على الجيش أخاه «صالح بن مسلم». . ،

وكان هذا التصرف من «قتيبة» مدعاة لوم له من الحجاج. . ، إذ لايجوز لقائد أن يكون فى آخر جنده عند لقاء العدو، أو فى أولهم عند الانكفاء. . !

(إذا غزوت فكن فى مقدم الناس، وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم. .).

---

(١) إقليم واسع وولاية عظيمة وراء نهر «جيحون».

(٢) خراسان: بلاد واسعة تتاخم العراق العجمى من الغرب، وأفغانستان والهند من الشرق، من أهم مدنها: نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ.

ولقد أمضى «قتيبة» عام ستة وثمانين (٨٦هـ) فى تنفيذ عمليات استطلاعية ميدانية، لدراسة الموقف من كل جوانبه.. طبيعة البلاد، وقوات العدو..، والمسالك والدروب، والاستعداد.

فتح «بيكند»[1]

وصل إلى علم «قتيبة» أن أسرى من المسلمين فى قبضة «نيزك» - ملك «طرخان» - ، وهم يعانون، فكتب إليه مطالبًا إياه بإطلاق سراحهم، وتهدده فى كتابه..! فخاف «نيزك» وأطلق سراحهم، وبعث بهم إلى «قتيبة».

ثم وجه إليه «قتيبة» كتابًا آخر يدعوه فيه إلى الصلح والأمان، وتهدده:

(لئن لم يقدم عليه، ليغزونه، ثم ليطلبنه حيث كان، لا يُقلع عنه حتى يظفر به، أو يموت قبل ذلك).

فلما سلمه الرسول الكتاب، قال «نيزك» :

- ما أظن عند صاحبك خيرًا ...، كتب إلىّ كتابًا لا يُكتب إلى مثلى..!

فقال السفير:

- يا «أبا الهياج» إن هذا رجل شديد فى سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عُوسر، فلا يمنعك من غلظة كتابه إليك..، فما أحسن حالك عنده، وعند جميع «مضر»..!

عندئذ قدم «نيزك» على قتيبة وصالحه عن أهل «بازعيس»، على أن لايدخل عليهم.

اختيار الوقت:

كان الوقت الذى يختاره «قتيبة» لتحركه بداية من فصل الربيع، وطوال الصيف، حتى إذا حلَّ الشتاء توقف..، بسبب الثلوج والأمطار..!

---

(١) «بيكند» أولى مدن «بخارى» عند نهر «جيحون» عرفت قديمًا بـ «مدينة التجار».

فبعد أن أمن شر «نيزك»، ومع مطلع الربيع عام سبعة وثمانين (٨٧هـ) تحرك من «مرو» إلى «مرو الروذ»..، ثم أتى «زمّ»، ومنها إلى «آمل»، واجتاز نهر «جيحون» وغايته «بيكند».

فاستعد له أهلها، واستنصروا حلفاءهم «الصغد»، واستمدوا من حولهم..، فأتوهم فى جمع كثير حاشد، والتفوا على جيش «قتيبة» وقطعوا عليه الطرق والمنافذ، حتى انقطعت أخباره وموقعه عن «الحجاج» فترة شهرين..، وهو فى قتال مستمر لايتوقف..!

وكان لـ «قتيبة» جهاز (مخابرات عسكرية) على رأسه رجل يدعى «تنذر» - وكان فارسى الأصل-، فأغراه أهل «بخارى» بمال كثير، فاستمالوه إليهم، ووعدوه المزيد إن هو استطاع أن يصرف عنهم جيش «قتيبة».

جاء «تنذر» إلى «قتيبة» وطلب الاجتماع به على انفراد، لأمر سرى وهام، فنهض الحاضرون وانصرفوا، لكن «قتيبة» احتبس عنده «ضرار بن الحصين الضبى» - وكان أحد أعوانه المخلصين، ليحضر المقابلة ويشهد عليها.

قال «تنذر» :

- إن عاملاً جديداً سوف يقدم عليك، ويتولى الشؤون بدلاً عنك، فلو انصرفت بالناس إلى «مرو» وأقمت بها مُتحصنًا حتى تتبين الأمور، وتتضح المواقف..!

فأدرك «قتيبة» بثاقب نظره سوء نية «تنذر» بالتحريض والخيانة..، فنادى على مولاه: «سياه» وقال له: اضرب عنق «تنذر»..، فقتله.

ثم التفت قتيبة إلى «ضرار بن الحصين» وقال:

- لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيرى وغيرك..، وإنى أعطى الله عهدًا - إن ظهر هذا الحديث فى أحد - حتى تنقضى حربنا هذه لألحقنك به!!! فإن انتشار هذا الحديث يفت فى أعضاد الناس..!

ثم أذن للناس بالدخول عليه، فلما رأوا جثة «تنذر» راعهم ذلك، فأطرقوا واجمين، فقال لهم «قتيبة»: ما يروعكم من قتل عبد أحانه الله!!!

قالوا: إنا كنا نظنه ناصحًا للمسلمين..!!

فرد «قتيبة»: بل كان غاشًا، فأحانه الله بذنبه، وقد مضى لسبيله..

فاغدوا على قتال عدوّكم، والقوه بغير ما كنتم تلقونه به!

فغدا الناس متأهبين، وأخذوا مصافهم، ومشى قتيبة بين الصفوف، فحض أهل الرايات.. وثبت الجند، وقرأ عليهم القرآن، وتلا عليهم آيات الجهاد..

ثم أطلق إشارة البدء بالهجوم..، فكان بين الناس قتال بالرّماح، ثم تراشقوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها، وأنزل الله النصر على المسلمين، فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم فتح الله تعالى أكتاف عدوّهم...، فانهزموا يريدون المدينة، وتبعهم المسلمون وحالوا بينهم وبين دخولها.. فتفرقوا..، وركبهم المسلمون قتلاً وأسرًا، كيف شاؤوا، واعتصم من دخل المدينة بها، وهم قليل، فوضع «قتيبة» الفعلة (المهندسين) للعمل فى أساسها ليهدمها..، فسألوه الصلح..، فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من خاصة أهله..، ثم ارتحل عنهم يريد الرجوع ...، فلما ابتعد عنهم مقدار خمسة عشر ميلاً..، نقضوا وكفروا وارتدوا..، وقتلوا العامل عليهم وأصحابه، ومثلوا بهم.. جدعوا أنوفهم وقطعوا آذانهم وأفحشوا..!!

وبلغ «قتيبة» خبر ما فعلوا فارتد إليهم ..، لكنهم تحصنوا داخل المدينة، فحاصرهم فترة شهر، وقاتلهم، ثم طلب إلى (المهندسين) أن يربطوا الخشب بأساس الأسوار ثم يشعلونها... فتنهدم على من فيها، ويموتوا حرقًا أو هدمًا.

خاف المحاصرون على أنفسهم، فطلبوا الصلح فأبى عليهم، ومازال بهم حتى دخلها عنوة.

وكان فيمن أُسر بداخلها رجل أعور، وكان من البارزين فيها، فقال لـ «قتيبة» أنا أفدى نفسى ولا أُقتل...!

فقيل له: وما تبذل فى ذلك؟ قال: خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف (مليون) درهم.

فقال «قتيبة» لمن حوله: ما ترون؟ قالوا: نرى أن فداءه زيادة فى غنائم المسلمين..، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟

فقال لهم «قتيبة»: لا والله ... لا تروّع بك مسلمة أبدًا..! ثم أمر به فقتل.

غنائم «بيكند»:

لما دخل قتيبة بيكند أصاب المسلمون فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى، وصار فى أيدى المسلمين شىء لم يصيبوا مثله فى خراسان كلها.

ورجع «قتيبة» إلى «مرو» - التى اتخذها قاعدة - ، وقوى المسلمون فاشتروا السلاح والخيل، وجُلبتْ إليهم الدواب، وتنافسوا فى حسن الهيئة والعدة، وغالوا بالسلاح حتى بلغ ثمن الرمح سبعين ديناراً وكان فى الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة..، فكتب «قتيبة» إلى «الحجاج» يستأذنه فى توزيع ذلك السلاح على الجند، فأذن له..، وأخرجوا ما كان فى الخزائن من عدة الحرب وآلة السفر.. واستعدوا.

تتابع الحملات ... حملات الفتح !!!

فلما كان فصل الربيع من ذلك العام (عام ثمانية وثمانين) (٨٨هـ)، ندب «قتيبة» الناس للخروج وقال لهم: إنى أغز بكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء (من البرد فى فصل الشتاء).!

فسار بهم فى عدّة حسنة من الدواب والسلاح، فأتى أولاً «آمل»، ثم عبر «زم» إلى «بخارى»، حتى بلغ: «نومُشكت»، وكان قد استخلف على «مرو» «بشار بن مسلم» - أخاه -.

معركة مع الترك و«الصغد» وأهل «فرغانة»:

بوغت أهل «نومشكت» بوصول جيش قتيبة غير المتوقع، مما جعلهم يستقبلونه ويرحبون، ويعقدون صلحًا..!

ثم تابع سيره إلى «راميثنة» فصالحه أهلها أيضًا، فانصرف عنهم، وزحف فى وجهه «التُرك» و «الصغد» وأهل «فرغانة»، وقد أحسوا أنهم مقصده وهدفه، فأرادوا أن يصدوه عن ديارهم قبل بلوغها.

وقد اتبعوا خطة التفاف، يهاجمون مؤخرة الجيش الإسلامى (الساقة)، التى كان يقودها أخوه عبدالرحمن بن مسلم ، فيقضوا عليها، ثم ينقضوا من وراءٍ على «قتيبة» ومن معه فيبدوهم، إذ كانت المسافة بين الساقة والمقدمة تتيح ذلك.. أكثر من ميل.

فلما أحس «عبدالرحمن» بحراجة الموقف أرسل إلى قتيبة رسولاً يخبره ويستنجده، فارتد قتيبة بقواته إلى الوراء واشتبك مع «الترك» و«الصغد» وأهل «فرغانة» فى قتال عنيف... حتى هزمهم الله تعالى وفض جمعهم، وردّ كيدهم إلى نحورهم.

ثم رجع قتيبة بقواته إلى قاعدته فى «مرو»، يستعد لغزو جديد وفتح آخر.

ومع إطلالة ربيع عام تسعة وثمانين (٨٩هـ)، خرج من «مرو»، واجتاز نهر «جيحون» عند «زمّ»...، وعند بوابة المفازة الصحراوية الكبرى لبلاد «الصغد» واجهته قوات «كش» و«نسف» فى حشد هائل، فقاتلهم..، وبعد معركة ضارية نصره الله عليهم..!

ومن ثم تابع طريقه حتى نزل بـ «خرقانة» فالتقاه العدد بحشد كبير، فقاتلهم طيلة يومين وليلتين، حتى ظفر عليهم.

إلى «بخارى»

وفى مواجهتها تصدى له ملكها (وردان خذاه)، فلم يتمكن قتيبة من حسم الصراع معه...، وأقام على ذلك وقتًا، ويبدو أن فصل الشتاء قد حلّ، وخلت المؤنة والزاد، فعاد إلى «مرو» وكتب إلى «الحجاج» بذلك، فطلب اليه الحجاج أن يكلف بعض الفنيين برسم خريطة للمقاطعة التى تضم بلدان: «كشّ» و «نسف» و«وردان».

ففعلوا.

ثـم إن الحجاج اطلع على الخريطة، وأرسل إلى قتيبة بتعليماته، وقال:

(إن كش بكش، وانسف نسف، ويرد وردان، وإياك والتحـويط (التـردد)، ودعنى من بنيات الطريق (أى الطرق الفرعية التى قد تضلل)، وارجع إلى مراغيك (هدفك الذى هو «بخارى»، وتب إلى الله فـما كان منك، وائتيـها من مكان كذا وكذا (الأماكن التى حددها له). . .)

فتح «بخارى» - (٩٠هـ)

يقول المؤرخون، والمحللون العسكريون:

لم تكن أعمال السنوات السـابقة (٨٦-٨٩هـ) فى تحركات قتيبـة بن مسلم أكثر من غزوات اسـتطلاعية ودراسـة ميدانيـة للطبيـعة البشـرية والطبيعـة الجغرافـية، وأساليب القتال الملائمة، لتلك الديار وأهلها.

وكانت رسالة «الحجاج» إلى «قتيبـة» - وفيها بعض اللوّم والتحذير والإرشاد - حافزًا له على تدارك ما فاته، واستنهاضًا لهمته.

وكان «وردان» - ملك بخارى - قد اسـتعد لمجابهة احتمال هجـوم «قتيبة» فى أية سـاعة وأى يوم، فـأرسل يطلب الدعم من حلفـائه «الصـغد» و«التـرك» ومن حولهم. . . ، لكن مفاجأة «قتيبة» سبقت وصول هذا الدعم. . . ، فحاصر بخارى وطوق قوات وردان.

وعندما وصلت لـ «وردان» قوات الدعم، خرجت قوة من المسلمين لقتالهم.

قالت قبـيلة «الأزد»: اجعلونا على حده وخلوا بيننا وبين قـتالهم. . ! إذ أرادوا أن يكون لهم وحدهم شرف المجابهة و. . . الإبادة. . !

فوافقهم «قتيبة»، وتقـدمت قبيلة الأزد للقـتال، وقتيبة جالس، عليه رداء أصفر فوق سلاحه - ينظر إليـهم، فصبروا جميعًـا فى معركة طاحنة، كان التفـوق فيها لحلفاء وردان، ولم يلبثوا أن حطموا صمود «الأزد». . ، واندفعوا فى تقدمهم حتى دخـلوا معسكر «قتيبة» وجاوزوه إلى منطقة الشئون الإدارية ومعسكر النساء. . !

فخـرجت النساء المسلمات لمجـابهة قوات العـدو، حتى ضربت النســاء وجوه الخيل. . .

عندئذ تدخل «قتـيبة»، فأمـر بتطويق قوات الحلفاء وإبادتها. . ، فـأسرع هؤلاء بالارتداد والانسحاب إلى مكان مرتفع يتحصنون به، فـقال «قتيبة»: من يزيلهم لنا عن هذا الموضع؟ فلم يقدم عليهم أحد. . ! وقبائل العرب كلهم وقوف. . ، فمشى قتيبة، إلى «بنى تميم» وحضهم على القتال قائلاً: يوم كأيامكم!!!

فثـارت حميتـهم، وتقدم وكيع من تميم وحـمل الراية، واستثار قـومه، وسلم الراية لقائد فرسان «بنى تميم» - «هريم بن أبى طلحـة المجاشعى»، فى حين تولى «وكيع» قيادة المشاة. . . !

ووصلت بنو تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهر واسع. . ، فتقدم الفرسان وخاضوا النهر وعبـروه إلى الضفة المقابلة، فيمـا كان وكيع يجمع الخشب حتـى أقام جسراً على النهر، وقال لأصحابه:

- من وطن نفسه على الموت فليعبر . . . ومن لا . . . فليثبت مكانه. . !

وعبـر الجسر ثمانمائـة (٨) مقاتل، وسار بالقـوة بعد ذلك حتى اقـترب من العدو، فأعطى جند المـشاة فترة استراحـة قصيرة، ثم نظم قـواته، إذ جعل الخيل على منجنيقه للحماية، وأعطى أمر الزحف قائلاً:

- شدّوا . . .

فحملوا ، فـما انثنوا حتى خالطوهم، وحمل «هريم» خـيله عليهم فطاعنوهم بالرماح، فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقعهم. . .

ونادى قتيبة : أما ترون العدو منهزمين. . . !

ما تبعهم الناس. . .

ونادى أيضًا: من جاء برأس فله مائة. . . !

وانطلق الجند يعـبرون النهـر، وأسرعت قـوات العدو بإخـلاء ميـدان المعـركة والانسحاب سرعة، قبل أن تصلهم بقية قوات المسلمين.

عهد .. ونقض ..

كان من نتيجة هذه الهزيمة المنكرة التى نزلت بجيش الحلفاء - وإصابة «خاقان» الترك وابنه - أن تقدم ملك (السند) - «طرخون» - حتى وصل إلى الضفة المقابلة من نهر «جيحون» وعرض على «قتيبة» الصلح، فوافقه قتيبة، ووقعا اتفاقية الصلح.

وعندما رجع «طرخون» إلى بلاده، رفض أهل مملكته ميول الصلح، وخلعوه عن الملك ونصبوا ابن أخيه مكانه . . ، فشعر «طرخون» بالمهانة وتألم أشد الألم، فاتكأ على سيفه وانتحر . . !

وأرسل الملك الجديد إلى قتيبة رسولاً يعلن رفضه ونقضه لاتفاقية الصلح مع عمه . . !

فى الوقت ذاته كان «قتيبة» ينظر أمور «بخارى» وتنظيماتها، بعد أن تم فتحها . . ، حتى إذا ما فرغ من ذلك رجع إلى «مرو» - قاعدته- ومعه «نيزك»، وقد أذهله ما شهده من فتوح «قتيبة» . . ، قال «نيزك» لأصحابه المقربين وخاصته:

- لست آمن «قتيبة» ، فهو شديد السطوة فاجر، فلو استأذنته ورجعت كان الرأى . . ! فقالوا: استأذنه . . . !

فلما بلغوا «آمل» استأذنه «نيزك» بالرجوع إلى «طخارستان»، فأذن له.

فلما فارق «نيزك» ومن معه المعسكر، متوجهًا إلى «بلخ» قال لأصحابه: غزوا السير . . !

فساروا سيرًا شديدًا حتى وصلوا «النوبهار»، حيث قال لأصحابه: إنى لا أشك أن «قتيبة» قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لى، وسيبعث رسوله «المغيرة بن عبدالله» يأمره بحبسى . . ، فأقيموا ربيئة (نقطة مراقبة) . . ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنه لا يبلغ «البروقان» حتى نبلغ نحن «طخارستان»، فيبعث «المغيرة» رجلاً فى إثرنا يُدركنا حتى ندخل شعب «خُلُم» . !!

ففعلوا . . !

ولم تمض سوى فترة قصيرة، حتى أقبل رسول من قبل «قتيبة» إلى «المغيرة» يأمره بالإمساك بـ «نيزك» وحبسه، فلما مر الرسول إلى «المغيرة» رأته الربيئة (نقطة المراقبة) . . ، فأعلموا «نيزك» فأسرع هو وأصحابه فى المُضى. . هربًا.

ولم يدركه «المغيرة» . . ، فارتد من حيث انطلق. . !

وأعلن «نيزك» عدوانه لـ «قتيبة»، واتصل بملوك المناطق يحثهم على التحالف والقتال، فاستجابوا له: وتواعدوا أن يكون فصل الربيع القادم موعدًا لقتال «قتيبة» والقضاء عليه!!!

كان أول من استجاب لـ «نيزك» - «طرخان» - ملك بلاد «الطالقان»، واتفق معه على قتال «قتيبة» . ، فلما هرب «نيزك» ودخل شعب «خُلُم» فى طريقه إلى «طخارستان»، أدرك «طرخان» ضعف موقفه، وأنه لا طاقة له بقتال «قتيبة»، فهرب هو أيضًا !

وسار «قتيبة» إلى بلاد «الطالقان»، فأوقع بأهلها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وصلب فيهم على امتداد اثنى عشر ميلاً، فى نظام واحد، كأنهم الأعمدة، أو الخشب المسندة، جزاءً وعبرة.

وبدأت المعركة الحاسمة مع «نيزك»!!

مضى فصل الشتاء، ودخل فصل الربيع فى عام واحد وتسعين (٩١هـ). .

فقدم أهل «أبرشهر» و«بيورد» و «سرخس» و «هراه» بجيوشهم على «قتيبة»، فسار بهذه الجيوش الهائلة إلى «مرّو الروذْ»، وفيها استخلف على الحرب «حماد ابن مسلم» وعلى الخراج «عبدالله بن الأهتم»، وكان قد بلغ «مرزبان» أمير بلاد «مرو الروذ» إقبال «قتيبة» عليه، فهرب إلى بلاد الفرس. . . ، فألقى «قتيبة» القبض على ابنين لـ «مرزبان» محاربين، فقتلهما وصلبهما.

ثم تابع سيره إلى «الطالقان»، فصالحه صاحبها، فكف عنه «قتيبة» . . ، وقد كان فيها لصوص. . . ، فأمسكهم «قتيبة» وصلبهم عبرة لغيرهم، وأمانًا للناس.

واستعمل على «الطالقان» - «عمرو بن مسلم»

ومضى إلى «الغارباب»، . . . فخرج إليه ملكها مذعنًا مُقرًا بالطاعة، فرضى عنه، ولم يقتل بها أحدًا، وولى عليها رجلاً من قومه «باهله».

وبلغ صاحب «الجوزجان» خبرهم، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هاربًا، وسار «قتيبة» إلى «الجوزجان» فلقيه أهلها سامعين مطيعين، فقبل منهم، فلم يقتل فيها أحدًا، واستعمل عليها «عامر بن مالك الحمانى».

ثم أتى «بلخ» فلقيه «الأصبهذ» فى أهل «بلخ»، فدخلها ولم يقيم بها إلا يومًا واحدًا للراحة، ثم مضى يتبع أخاه «عبدالرحمن» - الذى سبقه -، حتى أتى شعب «خلُم»، وقد مضى «نيزك» فعسكر بـ «بغلان»، بعد أن ترك مجموعة من المقاتلين لحماية مضيق الوادى، عند فم الشعب، للدفاع والحراسة، كما وضع «نيزك» أيضًا - حامية من المقاتلين فى قلعة حصينة من وراء مضيق الوادى.

فأقام «قتيبة» أيامًا يقاتلهم عند مدخل الوادى دون أن ينال منهم، أو ينتصر عليهم، ولم تكن المعلومات المتوافرة لديه تشير إلى وجود محاور للاختراق سوى طريق الوادى. . . ومفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاجتيازها!!! فوقف فى موقعه محاولاً إيجاد مخرج من هذا المأزق. . !

فى تلك الفترة قدم عليه ملك «الروب» و«سمنجان»، فأستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة، التى وراء الشعب، فأمَّنه . . . وبعث معه رجالاً فى الليل، فانتهى بهم إلى القلعة. . ، فباغتوهم فى الهجوم وأبادوا حامية القلعة، وهرب من تبقى منهم، وكذلك من كان فى فم الشعب. . . ، فدخل «قتيبة» بجيشه الوادى وأتى القلعة . . . ، ثم مضى إلى «سمنجان». .

وكان «نيزك» بـ «بغلان» عند نبع يُعرف باسم «فنج جاه»، ولم تكن المفازة بين «سمنجان» و«بغلان» شديدة الوعورة، أو صعبة المسالك.

أقام «قتيبة» بـ «سمنجان» أيامًا، ثم سار إلى حيث «نيزك»، وقدم أخاه «عبدالرحمن بن مسلم» طليعة له. . !

فبلغ «نيزك» الخبر، فارتحل من منزله حتى مطلع وادى «فرغانة»، ووجه ثقله وأمواله إلى ملك «كابل».. ، ومضى حتى نزل «الكرز»، وعبدالرحمن يتبعه... !

ونزل عبدالرحمن بمضائق «الكرز» يأخذ الطريق على «نيزك».. !

أما «قتيبة» فقد نزل فى «اسكيمشت»، بينه وبين «عبدالرحمن» مسافة أميال قليلة.. !

تحصن «نيزك» فى «الكرز» ولم يكن من مسلك فى سبيل الوصول إليه إلا من وجه واحد، وكان ذلك الوجه صعبًا وعرًا ... على الفرسان.

فحاصره «قتيبة» و«عبدالرحمن» مدة شهرين، حتى نفد التموين عند «نيزك»، وفشا الجدرى فى جنده، وخاف قتيبة حلول فصل الشتاء ، فدعا رجلاً من أتباعه يدعى «سليم الناصح»، وكان ذا حيله ودهاء، فقال له:

- انطلق إلى «نيزك» واحتل لأن تأتينى به بغير أمان، فإن أعياك وأبى فأقنه، واعلم أنى إن عاينتك (رأيتك عند عودتك) وليس هو معك.. صلبتك!!! فاعمل لنفسك.. !

فقال «سليم» :

- اكتب لى إلى «عبدالرحمن» لا يخالفنى ...

قال «قتيبة» : نعم،

وكتب إلى أخيه «عبدالرحمن» بذلك.

وعندما وصل «سليم» إلى «عبدالرحمن» طلب إليه إرسال مجموعة من الفرسان للمرابطة والتمركز عند مدخل الوادى، وقال له: إن على هؤلاء الفرسان إعاقتنا عن الوصول إلى مدخل الوادى إذا ما خرجنا أنا و«نيزك».

فبعث «عبدالرحمن» قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سليم، ومضى سليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفى أيامًا، حتى أتى «نيزكًا»، ونصحه بتسليم نفسه إلى «قتيبة» ومحاولة إزالة غضبه، وأن «قتيبة» لن يُغادره وقد صمم على قضاء فصل الشتاء فى موقعه.. سواء هلك أو سلم!!!

وبعد مناقشة طويلة وحوار استطاع «سليم» إقناع «نيـزك» بالتسليم . . . ورافق سليمًا فى القدوم على «قتيبة». . . !

أما كتيبة الفـرسان عند فم الوادى، فقد حالوا بين الأتراك والخروج. . . ، ومن ثم رافقوا «نيزكًا» تحت الحراسة إلى مـعسكر «عبدالرحمن»، الذى أرسل إلى أخيه «قتيبة» يعلمه بذلك، فأرسل «قتيبة» بطلبهم، حبس «قتيبة» أصحاب «نيزك» الذين رافقـوه، وسلّم «نيزكـًا» إلى قائد من جنـده يُعرف بـ «ابن بسـام» وأمرة بتـشديد الحراسة عليـه، وبعث إلى الحجاج يستـأذنه فى قتل «نيزك»، أما «ابن بسـام» فقد جعل «نيزكًا» فى خيمته، وحفر حولها خندقًا، ووضع عليه حراسة قوية. . . !

وبعد أربعين يومًا جاء كتاب «الحجاج» إلى «قتيبة» يأمره بقتل «نيزك» والخلاص منه.

شهادة «الحجاج» فى «قتيبة»

وعمل «قـتيبـة» بعد ذلك على إعـادة تنظيم الإدارة فى «تخارسـتان»، وأطلق سراح ملكها «جَـغبويه»، وأرسله إلى الخليفة «الوليد بن عـبدالملك» فى «دمشق»، فلم يزل بالشام حتى مات.

ورجع «قتيبـة» إلى «مرو»، واستعمل أخاه «عـبدالرحمن» على «بلخ»، وأرسل إلى «الحجاج» بالخراج وأخبار الفتح . . . !

فكان «الحجاج» كثيرًا ما يردد:

(بعثت «قتيبة» فتى غِرًا، فما زدته ذراعًا إلا زادنى باعًا !!!)

التوسع فى الفتح

وعلى هذا النهج من الإقـدام والجراءة استـمر «قـتيبة» فى التـوسع فى الفتح، وينتقل من نصر إلى نصر. . !

من «الجوزجان»، إلى «شومان» و«كش» و«نسف» عام واحد وتسعين (٩١هـ)، وقد واجـه معارك طاحنة أثبت فـيها كفـاءته القيادية، وقـدراته القتاليـة، وحسن التدبير.

وتم له أيضًا عـام ثلاثة وتسعـين (٩٣هـ)، فتح «خام جـرد» والصلح مع ملك «خوارزم شاه».

يوم سمرقند:

وكانت مـعارك فتح «سـمرقند» سنة ثلاث وتسـعين (٩٣هـ) من أشـد المعارك هزلاً. . ، وإليك - عزيزى القارئ - ملخصًا عنها،

ما إن أمـضى «قتيـبة» الصلح مع ملك «خوارزم» حـتى تقدم إليه أحـد رجاله «المجشر بن مزاحم»، وطلب محادثته على انفراد، ففعل. . ، قال «المجشر»:

- أيها الأمـير. . ، إذا أردت «الصـغد» يومًـا من الدهر، فالآن. . ، فـإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام. . !

فسأله «قتيبة» : هل أشار بهذا عليك أحدا؟

فأجـاب «المجشر» بالنفى. . ، ثم سـأله «قـتيبة»: وهـل أعلمته أحدًا؟ فـأجاب بالنفى أيضًـا. . ، عندئـذ قال له «قـتيـبـة»: والله لئن تكلم به أحـدٌ لأضـربن عنقك. . !

وكان الغرض هو السرية التامة فى التحرك. . !

ثم التمويه أيضًا. . !

فقـد قـدم أخـاه «عبد الرحمن» فى قـوة من الـفـرسان والـمرامية، وكـأنه يـريـد «مرو»، ومعه الأثقال من المغانم، والعودة إلى القاعدة للراحة والاستجمام. . !

ثم أمره بتـوجيه الأثقـال إلى مرو فى حامـية، والانطلاق نحو بلاد «الصـغد» كطليعة له، على أن يلحقه.

وخطب «قتيبة» الجند فقال:

- إن الله قد فـتح لكم هذه البلدة، فى وقت، الغـزو فيـه ممكن. . . ، وهذه «الصغدة» شاغـرة برجلها، قد نقضوا العهد الذى كان بيـننا ومنعونا ما كنا صالحنا عليه «طرخون»، وصنعوا به ما بلغكم.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾

فسيروا على بركة الله، فإنى أرجو أن يكون «خوارزم» و«الصغد» كـ «النضير» و«قريظة»، .

قال الله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾

واستدعى ملك «الصغد» - «غوزك» - ملوك «الشاش» و«أخشاد» و«فرغانة»، واستحثهم على مساعدته، فلبوا نداءه...

فلما وصل إليهم «قتيبة» ورأى جموعهم، وقد حاصرهم ..! وعلم عن طريق عيونه ما يدبرونه من مكائد، خطب فى جنده، فقال:

(إن عدوكم قد رأوا بلاد الله عندكم، وتأييده إياكم فى مزاحفتكم فكاثرتكم، كل ذلك يفلحكم (ينصركم) الله عليهم..!

فأجمعوا أن يختالوا غرتكم وبياتكم (مفاجأتكم ليلاً)، واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأبلوا الله بلاءً حسنًا تستوجبون به الثواب، مع الذب عن أحسابكم ..)

ونشبت المعارك ...! واشتدت ...!

وقذف «قتيبة» «سمرقند» بالمنجنيق، حتى أحدث فى أسوارها ثلمة...، واندفع أصحابه يريدون اقتحامها، ولكن على غير طائل، فقد كان الدفاع عنها شديدًا...!

وقال «قتيبة»:

- حتى متى يا «سمرقند» يعشعش فيك الشيطان!! أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية...!

وكانت كلمته هذه - رحمه الله - كالشرارة التى أشعلت النار...!

فاتقد الحماس فى نفوس الجند، والتهبت مشاعرهم، وثاروا كالإعصار الزاحف المدمر. . . ، واقتحموا المدينة العنيـدة العتيدة. . . ،فطلب أهلها الصلح. . . ، وكان لـ «قتيبة» شروط:

- أن يسلمـوه ثلاثين ألفًا من أهلهـا ليس فيـهم صبى، ولا شيـخ، ولا عيّب . . . ! رهنًا.

- وإخلاءها من كل مقاتل . . . !

- وأن يبُنى له فيها مسجد، فيدخل ويُصلى، ويوضع له منبر فيخطب. . !

وتم له ما أراد.

إلى «الشاش» و«فرغانة»

وقصد من بعدُ فى فصل الربيع من عامى أربعة وتسعين وخمسة وتسعين (٩٤، ٩٥هـ) إلى «الشاش» و«فرغـانة» حيث تمالأ ملكاهما مع أهل سمـرقند على قتاله وصده، فكان لابد من التأديب والردع، والفتح أيضًا. . !

وبعد مـعارك ضـارية استـهلكت جندًا وجهـدًا وجهـادًا، أذعنت تلك الديار، ودخلها «قتيبة» فاتحًا.

وجاءه من الخليفة «الوليد بن عبدالملك» كتابًا يقول فيه:

(. . . وقد عرف أمـير المؤمنين بلاءك وجهادك فى قتـال أعداء المسلمين. . . ، وأمير المؤمنين رافقك، وصانعٌ بك كالذى يجب لك، فاعم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتـبك، حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت فيه).

إلى الصين . . . !

وانطلق «قـتيبـة بن مسلم» غـازيًا يريد إقليم «كـاشغر» فى بلاد الصـين، وهو أولها. . . وبابها. . . ، فلما وصلها، أرسل وفدًا إلى ملكها، على رأسه «هبيرة بن المشمرج». . . !

يقول المؤرخون:

(فلما قدموا، أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضاء، تحتها الغلائل، وتطيبوا بالبخور والعطور، ولبسوا النعال الرقيقة، وارتدوا الأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته. . ، فجلسوا. . ، فلم يكلمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه، فنهضوا. . !

فقال الملك لمن حضر المجلس: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا رأينا قومًا ما هم إلا نساء؟؟

فلما كان الغد أرسل إليهم، فلبسوا الوشى وعمائم الخز والمطارف، وغدوا عليه، فلما دخلوا، قيل لهم: ارجعوا. . . !

فقال الملك لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى، وهم أولئك. . !

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم . . . ، فشدوا عنهم سلاحهم، ولبسوا البيض والمغافر[1]، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وركبوا خيولهم، وغدوا.

فنظر إليهم صاحب الصين، فرأى أمثال الجبال، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين وقد أثاروا الفزع، مما حمل الصينيين على منعهم، والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس الملك، فانصرفوا وركبوا خيولهم، وأصلحوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم.

فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط، فلما أمسى أرسل إليهم الملك: أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم، فبعثوا إليه «هبيرة».

فقال له حين دخل عليه:

- لقد رأيتم عظيم ملكى، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم منى، وأنتم فى بلادى، وإنما أنتم بمنزلة البيضة فى كفى. . ، وأنا سائلك عن أمر، فإن لم تصدقنى قتلتكم. . . !

---

(١) البيض: الخوذ، والمغافر: دروع الوجوه.

قال: سلّ . . . ، قال ملك «الصين»: لِمَ صنعتم فى الزى فى اليوم الأول والثانى والثالث؟ قال «هبيرة»: أما زينا الأول فلباسنا فى أهلنا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثانى. . فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا. . ، فإذا هاجنا هيجٌ أو فزعٌ هكذا. . ! قال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف. . ، فإنى عرفت حرصه وقلة أصحابه. . ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه. . !

فقال له، «هبيرة» : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون[1] . . !؟ وكيف يكون حريصًا من خلّف الدنيا - قادرًا عليها - وغزاك. . !؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل . . . فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل (الشهادة)، فلسنا نكرهه ولا نخافه. . !

قال: فما الذى يرضى صاحبك؟

قال «هبيرة»: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم فلولكم ويُعطى الجزية. . !

قال «ملك الصين»: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها. . !

ثم دعا ملك الصين بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم. . فأحسن جوائزهم.

فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل «قتيبة» الجزية، وختم الغلمة وردَّهم، ووطىء التراب.

وفى هذا الصدد قال الشاعر «سوادة بن عبدالله السلولى»:

لا عيب فى الوفد الذين بعثتهم ... للصين إن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون[1] على القذى خوف الردى ... حاشا الكريم «هبيرة بن مشمرج»
لم يرض غير الختم فى أعناقهم ... ورهائن دفعت بحمل سمرج
أدى رسالتك التى استرعيته ... وأتاك من حنث اليمين بمخرج

(١) منابت الزيتون: بلاد الشام.

نهاية البطل الفاتح

كانت نهاية البطل الفاتح «قتيبــة بن مسلم الباهلى» فاجعة . . . وسقطة . . ! -عليه رحمة الله-!! فبعد أن مات الخليـفة «الوليد بن عبدالملك» وبويع لأخيه «سليــمــان»، الذى كان منكرًا لأعــمــال الحــجاج بن يوسف وولاتــه وعمــاله وقادته . . ، ومنهم «قتيبة بن مسلم» . . !

فبادر «قتيبة» بإظهار العداوة لأمير المؤمنين الجديد، وأرسل إليه يقول:

(لئن لم تُقرنى على ما كنت عليــه وتؤمننى لأخلعنك خلع النعل!!! ولأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . .)

فكان هذا التصرف من «قتيبة» سقطة . . !

فخلعــه «سليمــان» من الولاية والقيــادة، وولى مكانه «يزيد بن المهلب بن أبى صفــرة» مما زاد فى حنق «قتيــبة» وسخطه، فــجمع الجند، وخطبهم وحــثهم على متــابعته فى مــوقفه، وأغلظ فى الكــلام. . . ! فلم يتجاوبوا مــعه. . . ، بل دبروا مؤامرة للخلاص منه تولى قيادتها «وكيع التميمى»، فأحاطوا به وأهله، فقتلوه مع إخوته وولده وبعض أهله . . ، وأرسلوا برأسه إلى الخليفة فى «دمشق». . . !

وكان ذلك فاجعة . . !

رحم الله البطل الفاتح «قتيبة بن مسلم» وغفر له، وجزاه بما قدم وجاهد.

---

(١) الجفون : قراب السيوف.

١٣- موسى بن نصير

فى السنة الثانيـة عشرة للهـجرة (١٢) هـ، كان «خـالد بن الوليد» -رضى الله عنه- يقود حملة فى جنوب «العراق»، فـى خلافة «أبى بكر الصديق» -رضى الله عنه-.

فلما أتى بلدة تدعى «عين التمر» - غربى «الكوفة»-، ودخلها. . .، وجد فيها بيتًا مـغلقًا على أربعين طفلا، فكـسره عليهم. . .، ثم سألهم: مـا أنتم؟ فقالوا: رُهن. . !

وكان يُعلِّمون «الإنجيل» . . ، وكأنهم فى دير للرهبان!!

كان من بين هؤلاء «نصير» - والد «موسى»، وهو ينسب إلى «بنى يشكر». . ، فقسمهم «خالد» فى أهل البلاد سبايا.

فكان نصيبـه نصير «لبعض بنى أمـية» ففى ظل سلطانهم من بعـد كانت نشأته الأولى، حتى بلغ مبلغ الرجال.

فى الشام

تحرر «نصير» من رق السبى، فسكن «الشـام»، ودخل فى خدمة واليها «معاوية ابن أبى سفيان»، فى جملة حرسه. . ، ثم إنه أظهر كـفاءة عالية، فقدمه «معاوية» على غيره، حتى بات رئيسًا للحرس عنده، وموضع ثقته.

وتزوج «نصير»، فكـان باكورة زواجه ولده «موسى»، سنة تسع عـشرة هجرية (١٩هـ) زمن خلافة «الفاروق» -رضى الله عنه-[١]

وفى جو القـصور، وبين الحكام والولاة والقـادة كانت نشـأة «موسى»، وعلى هذا الجو المفعم بالحكم والإدارة والسـياسة تفتحت عيناه، وكـانت لديه استعدادات وكفاءات، ونباهة وذكـا ، وشهامة وفروسيـة، أضف إلى ذلك حفظه لكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، والتزامه الشديد بأحكام الدين، وحسن فقهه.

---

(١) كان والده «نصير» يسكن قرية من قرى الشام تدعى «كفر مترى» وفيها كانت ولادة «موسى»

ونعود إلى «نصير»...!

وعلى الرغم من ولاء «نصير» لـ «معاوية»، وتمكين «معاوية» له وتقريبه منه، إلا أن نصيرًا كان له استقلال وإرادة حرة فى اتخاذ القرار، نابعين من إيمانه وصدق إسلامه. . ، مع اعتزازه بشخصيته.

ويتبين لنا هذا من موقفه من «معاوية» حين خرج لقتال «علىّ» -كرم الله وجهه-، يوم «صفين»، إذ لم يخرج معه، فسأله «معاوية»:

- ما منعك من الخروج معى . . . ولى عندك يد لم تكافئنى عليها؟

فأجابه «نصير»:

- لم يمكنى أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى فيك!

فقال معاوية فى استغراب واستهجان: ومن هو؟؟

قال نصير: الله عز وجل. . ! (فى جرأة وصراحة وورع)!!!

فأطرق معاوية ساهمًا ، قليلاً، ثم قال: أستغفر الله . . ! ورضى عنه[1].

التجربة الأولى

عندما اشتد عود «موسى» ، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية، وأكسبه قربه وصلته المباشرة ببيت له صلة مباشرة بالجندية والقيادة والإدارة والحكم. . . ، تجربة وعلمًا. . . ، اشتد إعجاب معاوية به، فولاه -أيام خلافته- قيادة غزو البحر. . ، حيث كان للروم فيه قواعد وسبل تهدد ثغور بلاد الشام. . ، فغزا موسى «قبرص»، وافتتحها، وبنى بها حصونًا: «الماعوصة» و«بانس» وغيرها، وأقام بها فترة واليًا عليها، وكان ذلك بعد سنة ثمان وعشرين (٢٨هـ) حين افتتحها معاوية للمرة الأولى، وكان هذا الحدث التاريخى أول ظهور لـ «موسى» على الخريطة السياسية والعسكرية، فى الغزو والفتح.

(١) (وفيات الأعيان) (٤-٢-٤٠) (نفح الطيب) (١-٢٢٤، ٢٢٥).

ظل «موسى» على ولائه لبنى «أمية»، عاملاً فى خدمتهم، ناشطًا فى معاركهم السياسية والعسكرية، إلى أن أعلن «عبدالله بن الزبير» نفسه خليفة، وانضم إليه «الضحاك بن قيس الفهرى»، فدخل «موسى» مع المنشقين، وكان ذلك سنة أربع وستين (٦٤هـ).

وشهد معركة «مرج راهط»، التى انتهت بمقتل «الضحاك» وانتصار «مروان بن الحكم» - أول خليفة أموى مروانى - فخشى «موسى» على نفسه، ولجأ إلى «عبدالعزيز بن مروان» الذى حماه وأنقذ حياته، واستفتح له عند أبيه، فعفا عنه.

ومن ذلك الحين أصبح «موسى» و«عبدالعزيز» أكثر من أخوين متحابين، وأخلص «موسى» الطاعة للخليفة الجديد، وعمل بين يديه متفانيًا فى معاونته، مما جعل «مروان» يثق به ويعتمد عليه.

فى «مصر»:

وتوجه «مروان بن الحكم» إلى «مصر» - سنة خمس وستين (٦٥هـ)، لاستخلاصها من أيدى «الزبيريين»، وكان من أبرز قادته يومئذ «موسى»، الذى أبلى أحسن البلاء، فلما تم له فتحها وتملكها عين ابنه «عبدالعزيز بن مروان» واليًا عليها، وجعل له «موسى» وزيرًا ومشيرًا.

إلى «العراق»:

وتولى الخلافة «عبدالملك بن مروان» بعد وفاة أبيه، وكانت الديار الإسلامية بين «الحجاز» و«العراق»» ما تزال تشهد قلاقل واضطرابات وفتن.

وعين «عبدالملك» أخاه «بشر بن مروان» واليًا على «الكوفة» سنة إحدى وسبعين (٧١هـ)، ثم أضاف إليه «البصرة» سنة ثلاث وسبعين . . . ، وكان حدثًا صغير السن، قليل الدراية، قد شغله اللهو عن أمور الإدارة والحكم والضبط. . ، لذا جعل «عبدالملك» «موسى بن نصير» - وزيرًا لأخيه «بشر» - أو ما يشبه الوصى-، وحمّله مسئولية كل خلل أو تقصير فى ديوان «العراق».

وقيل فى حينه إن «بشراً» دفع خاتمه إلى «موسى» ، وتخلى له عن جميع العمل، وبذا أصبح الوالى الفعلى.

اللاجئ إلى «عبدالعزيز فى «مصر»

وفى سنة «خمس وسبعين» (٧٥هـ)، مات «بشر بن مروان»، فولى «عبدالملك» على «العراق» «الحجاج بن يوسف» - الثقفى - وأوصاه أن لا يفوته «موسى» فيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، خصوصًا وأن ديوان العراق، قد حلّ خراجه وعطاؤه، ظنًا من «عبد الملك» بأن «موسى» قد خان الأمانة. . ، ولم يكن كذلك!!! فقد كان بشر من المسرفين فى الإنفاق، أضف إلى ذلك قلة موارد البلاد بسبب سوء الأحوال. . !

فأدرك «موسى» أن مصيره وحسابه بين يدى «الحجاج» سوف يكون عسيراً، فهذا الجبار يأخذ بأدنى شبهة. . ، واضطر «موسى» مجدداً أن يلجأ إلى صاحبه وصفيه «عبدالعزيز»[1] فى مصر، فآواه إليه، وتوسط له عند أخيه «عبدالملك»، فصلح الحال.

قائد فتح المغرب - من جديد -!!

كانت بلاد المغرب العربى، الشمال الإفريقى بدءاً من الفتح لمصر حتى عام خمسة وثمانين (٨٥هـ)، أى طوال ستة عقود، لاتهدأ حينًا حتى تعود للاضطراب والثورات، سواء من قبائل البربر، أو من الرومان الذين يُدافعون دفاع المستميت عن البقاء فيها، وكان البحر الأبيض المتوسط لا يخلو من سفنهم الغازية، المحملة بالجند والعتاد والمؤن، والأموال. . !

وكان آخر والٍ عليها «حسان بن النعمان»، الذى وفد إلى «دمشق» على «الوليد ابن عبدالملك» الذى تولى الخلافة بعد أبيه، وكان حسان قد بذل جهده فى تثبيت أركان السلطان فى تلك الديار. . ! ولكنها ظلت بؤرة تمرد دائم، واضطراب لا يهدأ ولا يستقر. . !

---

(١) كان «عبدالعزيز بن مروان» وليًا للعهد بعد «عبدالملك»، ومن هنا كانت مكانته محترمة وكلمته مسموعة مطاعة.

عين «الوليد» بإيعاز من عمه «عبدالعزيز»- «موسى بن نصير» قائدًا وواليًا على الشمال الإفريقى، وأطلق يده فى العمل، وجهزه بكل ما يلزمه من الجند والسلاح والمال.

خطبته فى جنده قبل الزحف المقدس:

عندما تكاملت الجيوش عددًا وعدة فى معسكرها ومركز تعبئتها، قام فيهم «موسى» خطيبًا، فقال: (. . . وإنما أنا رجلٌ كأحدكم، فمن رأى فىّ حسنة، فليحمد الله، وليحض نفسه على مثلها، ومن رأى منى سيئة، فلينكرها، فإنى أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير[1]- أكرمه الله - لكم بعطاياكم وله عندنا قضاؤها فخذوها هنيئًا مريئًا، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. .)[2]! هـ

إلى المغرب

وسار «موسى» متوجهًا إلى «المغرب»، وكان الأمن هناك غير مستتب . . . ، وذلك أن «حسان بن النعمان» كان قد خلّف مكانه على البلاد والعباد رجلاً يقال له: «صالح» - أو «أبو صالح» -، عندما غادرها إلى «دمشق»، وكان «صالح» هذا ضعيفًا . . . ، مما أطمع الناس فيه، فدبت الفوضى فى الأنحاء واستشرت.

وكان على «موسى» أن يتحمل مهمتين:

١- مهمة الضبط والربط، أولاً.

٢- والفتح ، ثانيًا.

فجمع اناس وخطب فيهم، فقال:

(أيها الناس، إنما كان قبلى على «إفريقية» أحد رجلين، مسالم يحب العافية، ويرضى بالدُّون من العطية، ويكره أن يُكلم (يجرح)، ويحب أن يسلم، أو رجل ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راض بالهونيا. . !

---

(١) الأمير: «عبدالعزيز بن مروان».

(٢) (الإمامة والسياسة) (٢-٦١، ٦٢).

وليس أخو الحرب إلاّ من اكتحل بسهر، وأحسن النظر إلى وخاض الغُمر، وسمت به همته، ولم يرض بالدُون من المغنم، لينجو ويسلم، دون أن يكلم أو يُكلم، ويبلغ النفس عذرها فى غير خرّق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلاً فى حزمه، جازمًا فى عزمه، مستزيدًا فى علمه، مستشيرًا لأهل الرأى فى إحكام رأيه، متحنكًا بتجاربه، ليس بالمتجابن إقحامًا، ولا بالمتخاذل إحجامًا، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذرًا، وإن نُكب أظهر جلادةَ وصبرًا، راجيًا من الله حسن العافية، فذكر بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول الله تعالى: ﴿إن العاقبة للمتقين﴾ - أى الحذرين-.

وبعد ...

فإن كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدوًا منه أدّنى، ينتهز منه الفرصة، ويدلّ منه على العورّة، ويكون عونًا عليه عند النكبة...، وأيم الله.. لا أريم هذه القلاع، والجبال الممتنعة، حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين، بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين)

لقد بين - رحمه الله - عن ذاته فى قيادته، ومخالفته لمن سبقه، وأوضح للناس أهدافه فى تحركه العسكرى، ليكونوا على بيّنة، وأنهم أمام قيادة جديدة من نوع غير الذى عرفوا، فيكونوا معه على انسجام وتوافق، وتفهم وطواعية.

جبل «زغوان»:[1]

فقصد - أولاً - إلى جبل «زغوان» وبينه وبين «القيروان» مسيرة يوم -، حيث تكثر قبائل البربر التى انتقضت..» فقدم أمامه خمسمائة فارس من الأشدّاء..، ووجه ابنه «عبدالله» فى قوة إلى بعض النواحى، وأيضًا أرسل ابنه «مروان» فى حشد من الجند إلى ناحية أخرى..!

واستطاع خلال أيام أن يقضى على كل جيوب المقاومة، وأن يطهر المنطقة كلها من العدو، ويسبى آلافًا مؤلفة..! وعاقب الخارجين المحاربين عقابًا صارمًا رادعًا ليكونوا عبرة لغيرهم.

(١) زغوان: جبل يطل على تونس من ناحية «ليبيا» وهو عالٍ مشرف يرى عن بعد مسيرة أيام، فيه قرى كثيرة آهلة، كثيرة الحياة والثمار.

كما استطاع - رحمه الله - أن يؤمن «القيروان» وما حولها، فتكون قاعدته التى ينطلق منها، وتكون طرق مواصلاته فى الأنحاء خالية من الأخطار.

إلى المغرب الأوسط (الجزائر)

وأرسل «موسى» ألف فارس بقيادة «عياش بن أخيل» للإغارة على قبيلتى: «هوّارة» و«زناتة» وكانوا من أشد قبائل البربر الذين انتقضوا، فلما انتهوا إليهم وأعملوا السيف فى رقابهم، وسبوا منهم، طلبوا الصلح. . ، فصالحهم المسلمون.

أما قبيلة «كتامة» - وكانت تقيم فى وادى «درعة»-، فكانوا قبل ذلك قد قدموا على «موسى» وصالحوه، فولى عليهم رجلاً منهم، وأخذ منهم رجالاً رهنًا. . !

وحاول هؤلاء الرهن الفرار . . ، وانطلقوا بعيدًا عن معسكر المسلمين، فوجه «موسى» فرسانه فى طلبهم، فألقى القبض عليهم وأُعيدوا.

واتخذ قراره بصلبهم. . ، لكنهم استشفعوا فقالوا:

- أيها الأمير لا تعجل بقتلنا حتى يتبين لك أمرنا، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا فى خلاف أبدًا - ونحن فى يدك أسرى-، وأنت على استبيان الأمر أقدر على إبقائنا أحياءً بعد القتل. . !

فعفا عنهم، ولكنه أمر بقيدهم فى الحديد، وخرج إلى «كتامة» وهم معه. . ! بنفسه. . ! فلما علمت «كتامة» بخروج «موسى» هذا، تلقاه رؤساؤها ووجوهها معتذرين، فقبل منهم، إذ تبينت له براءة الجميع.

إلى «صنهاجة»

وكانت «صنهاجة» من قبائل البربر الكبرى التى انتقضت على الولاة وغدرت، أيضًا. ولقد كان فى عزم «موسى» وقصده أن ينال منها عقابًا وجزاءً على ما أسلفت.

وكان لـ «موسى» عيون وأرصاد (جواسيس) يأتونه بالأخبار من كل مكان. . ، وقد أُخبر بأن «صنهاجة» فى حالة استرخاء ومقام فى ديارهم، قد أقعدتهم مواسم نتاج إبلهم وماشيتهم عن التنقل. . ، فانتهزها فرصة مناسبة، فأغار عليهم بجند

كثيف. . ! أربعة آلاف من النظاميين، وألفين من المتطوعة، وبضعة آلاف من قبائل البربر الذين انضموا إليه.

ومن اللافت للنظر أنه - رحمه الله - قد استصحب معه ثلاثة من أبناء «عقبة ابن نافع» - رحمه الله - الذى استشهد غدرًا فى تلك الديار، ليكون حافزهم على الثأر لأبيهم قويًا. . !

وقد جعل على مقدمة الجيش «عياض بن عقبة بن نافع». . !

سار «موسى» حتى غشى «صنهاجة» . . ، ومن كان معها من قبائل البربر. . ، وهم لا يشعرون!!! فقتلهم - كما تقول روايات التاريخ - قتل الفناء، وسبى منهم سبيًا كثيرًا، قيل إنه بلغ مائة ألف رأس.

ثم انصرف قافلاً إلى قاعدته فى «القيروان».

إلى «سجومة» فى المغرب الأوسط (الجزائر)

أقام موسى فى «القيروان» مدة، حيث أتم استعداداته، ثم انطلق على رأس قوات من المسلمين بلغت عشرة آلاف مقاتل، باتجاه «سجومة»، وجعل على مقدمته ابنه «مروان» حاملاً اللواء.

حتى إذا كان فى مكان يُعرف بـ «سجن الملوك»، خلف الأثقال وراءه (أى المتاع والزاد والمغانم، على ظهور الجمال، وتجرد فى الخيل، مع الفرسان الأشداء فقط، وعلى مقدمته - كما قدمنا - «عياض بن عقبة بن نافع». . !

فلما بلغ نهر «ملوية» وجده فى حالة فيضان، وغزارة ماء، وكره طول المقام خلفه، فلابد من اجتيازه، خشية نفاد الزاد، أو يعلم العدو بمكانه فيستعد له، وهو يريد المباغتة والمفاجئة، فأمر بإحداث مخاضة[1] ، ليجوز بقواته عبرها. . ،

فلما انتقل إلى الضفة الثانية من النهر، وجد أن القوم قد أنذروا بقدومه عليهم، وتأهبوا لملاقاته، واستعدوا للحرب.

---

(١) المخاضة: المكان من النهر الذى يسمح بعبور المشاه - بدلاً من الجسور.

وتحصنوا فى جبل شاهق، لا يمكن الوصول إليه إلا من شعاب محدودة ضيقة، لكن ذلك لم يُثنه عنهم، فدفع بقواته هنا وهناك، وقد أحاط بالجبل، وركب الصعب..، واستمر القتال ثلاثة أيام حتى هزمهم هزيمة ساحقة، واستولى على مدينتهم «سجومة»، ودخلها فاتحًا، وقتل كُبراءها، وسبى أهلها، وأمر أولاد «عقبة بن نافع» - رضى الله عنه-: (عياضًا) و(عثمان) و(أبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم من قتلة أبيهم، فقتلوا ما يزيد على ستمائة من العدو الغادر، فلما بلغوا هذا العدد أمرهم «موسى» بالكفّ.

فقال «عياض بن عقبة» :

(أما والله لو تركنى ما أمسكت عنهم، وفيهم عين تطرف..)

وهكذا - عزيز القارئ - استطاع القائد الظافر «موسى بن نصير» -رحمه الله- خلال فترة زمنية وجيزة أن يقضى على محاولات قبائل البربر بالانتقاض مرة ثانية، على امتداد المغرب الأدنى والأوسط، وقد بث فيهم الدعاة والفقهاء والمعلمين، حتى دخل أكثرهم فى الإسلام، وحسن إسلامهم، كما انضم إليه عدد وفير منهم، انتظموا تحت لوائه، مجاهدين فى سبيل الله.

عمليات تطهير لبعض الجيوب..!

وكان من الطبيعى، وقد حقق «موسى» هذا النجاح الباهر أن يوسع دائرة نشاطه فى بقية أنحاء المغرب (الجزائر ومراكش»، حيث لاتزال هناك، فى المرامى البعيدة، بعض الجيوب التى يمكن أن تشكل خطرًا.

فسيّر ابنه «مروان بن موسى» على رأس قوة من خمسة آلاف رجل إلى (السوس الأقصى) عند شاطئ المحيط الأطلسى..!

كما سيّر قائده «زرعة بن أبى مدرك» إلى قبيلة «مصمودة» البربرية (من قبائل البرانس)، ونجحت الحملتان، إذ عاد «مروان» منتصرًا ومعه سبى كثير..، أما «زرعة» فلم يلق حربًا ولا قتالاً مع «المصامدة» الذين أعلنوا خضوعهم وولاءهم، كما قدموا إليه رهنًا منهم إيذانًا بالطاعة والأمان.

فتح ولاية «طنجة»

بعد أن تمَّ لـ «موسى» إخضاع (المغرب الأوسط) و(المغرب الأقصى) - من صحراء «درعة» إلى السوس الأقصى، إلى بلاد المصامدة. . ،

تطلَّع نحو «طنجة» التى كانت تخضع للأمير الرومى (جوليان)[1]، منذ بدء الفتح أيام «عقبة بن نافع» -رضى الله عنه-.

و«طنجة» ليست المدينة وحدها، بل الولاية الواسعة التابعة لها.

«طارق بن زياد»

ولأول مرة منذ بدأ «موسى من نصير» سيرة فتح المغرب، من أدناه إلى أقصاه، يظهر اسم البطل الفاتح «طارق بن زياد».

خرج «موسى» - كعادته - من «القيروان» قاعدة ولايته على المغرب، ومركز جيوشه واستعداداته، لفتح «طنجة»، وجعل على مقدمته مولاه «طارق بن زياد»

فلم يزل «موسى» يقاتل فلول البربر، ويفتح مدائنهم، الواحدة تلو الأخرى، حتى بلغ مدينة «طنجة»، وهى -كما عرّفها المؤرخون-: قصبة (عاصمة)، بلادهم، وأم مدائنهم[2].

فلما دنا منها بث السرايا، فانتهت خيله إلى (السوس الأدنى)، فوطئهم وسباهم، وأقروا إليه بالطاعة، وولى عليهم من أحسن السيرة فيهم، إرشادًا وتعليمًا وإدارة.

وحاصر «طنجة» حتى افتتحها ونزلها، وهو أول من نزلها واختط[3] فيها للمسلمين، فأسلم أهلها أجمعين، وجعلها قاعدة مثل «القيروان».

(١) تسميه المراجع «يليان»، وهو تحريف.

(٢) نفح الطيب (١-٣١٥)، (١-٣٣٤).

(٣) اختلط: بنى.

واتجه «موسى» إلى المدن الساحلية والثغور، وكان حكامها ولاة لملك «الأندلس»، ثم استقلوا بالحكم فيها وعصوا..، وكانت «سبتة» أكبرها وأهمها، يحكمها «جوليان»، فقاتله «موسى»، ولكنه وجده فى قوة ومنعة، فالمدينة ذات أسوار شاهقة، وحصون وأبراج، يأتيها رزقها عن طريق البحر..، فاضطر «موسى» إلى مغادرتها، والعودة إلى «طنجة»، وهناك أقام بمن معه، وراح يشن الغارات على من حوله والتضييق عليهم..، وبالرغم من ذلك صمدوا، فقد كانت الأمداد تأتيهم بالسفن من الشاطئ الأندلسى محملة بالميرة والمؤن والسلاح.

وكان فى بعض أنحاء «طنجة» بطون من قبائل «البُتر» و«البرانس»، ممن لم يكونوا قد دخلوا فى الطاعة، فترك «موسى» ابنه «مروان» فى حامية مكونة من ألف وسبعمائة مقاتل..، وانصرف يريد «القيروان».

لكن «مروان» ألقى بعبء هذا الأمر على «طارق بن زياد»..!

وكان «موسى» - وقد رحل عن مدينة «طنجة» - قد استعمل مولاه «طارق» على الولاية كلها، وترك معه جيشًا عُدته تسعة عشر ألفًا، أغلبهم من البربر الذى أسلموا وانضموا تحت لواء «موسى»، وترك عنده أيضًا أسلحة وعُدة كاملة..!

وأيضًا ... طائفة من العرب ليعلموا الناس القرآن وفرائض الإسلام، دُعاة، وهُداة.

وفى الطريق إلى «القيروان» أعاد «موسى» فتح مدينة «مجانة» وتقع على الحدود بين «الجزائر» و«تونس»، إذ أرسل إليها فرقة من جنده بقيادة «بشر بن فلان»، وكانت ذات قلعة حصينة، فمازال بها حتى دخلها وحطم دفاعاتها، واستسلم أهلها، وكان قد سبق فتحها على يد «بشر بن أبى أرطاة» أحد قادة فتح المغرب.

مُجمل أعمال «موسى» فى المغرب

يتبين لنا مما ذُكر أن «موسى» - رحمه الله - قد فتح أكثر بلاد المغرب ووطَّد فيها دعائم الإسلام، وغنم منها أموالاً لا تعد ولا تحصى..، وخاض معارك مشهودة مشهورة، لاتزال على مرِّ التاريخ معامل جهاد ونضال، وعَزم لا يلين.

ولقد أسلم على يديه أكثر أهل المغرب من البربر، وبث فيهم الدين والقرآن، فكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، ويفقهوهم فى الدين.

وهكذا . . . نشر فى بلاد المغرب كلها رايات الإسلام، أمنًا وأمانًا، وعلمًا وحضارة. . ، ولم تستعص عليه إلا «سبتة». . . !

وهذه سيكون لها شأن آخر فيما بعد.

«موسى» والبحر . . . !

كان موسى فى مطلع شبابه وبوادر جهاده قد غزا البحر أيام «معاوية بن أبى سفيان»، ونزل جزيرة «قبرص»، وأقام بها، واختط.

وها هو الآن يواجه من جديد خطر البحر. . ، فما تزال فى الروم رغبة العودة إلى المغرب، وها هى أساطيلهم تحاول من حين لآخر إمداد عملائها من «البربر» للانتقاض على المسلمين، وزعزعة الوجود الإسلامى. . !

فعليه إذًا سدّ هذه الثغرة، أو تخفيف وطأة خطرها على الأقل، ولا يتم له ذلك إلا بخوض غمار البحر. . !

اهتم أولاً بعمران مدنية «تونس»، وتوسيع دار الصناعة بها، أى أحواض بناء السفن. . ، فعمد إلى شق قناة توصل بين الميناء «راوس» وبين المدينة ذاتها، على طول اثنى عشر ميلاً، حتى أقحم مياه البحر فى المدينة، التى أصبحت مشتى للمراكب والسفن إذا هبت الأنواء والأعاصير، ثم أمر ببناء مائة مركب!!!

فلما تم له ذلك أمر الناس بالتأهب والاستعداد لركوب البحر وخوض غماره، والتصدى للعدو، ولكى يشجعهم على ذلك أعلن أنه سيكون أول راكب معهم. . ، فرغب الناس وتشجعوا وتسارعوا، وتحدثنا روايات التاريخ عن ذلك فتقول:

(لم يبق شريف ممن كانوا معه إلا وقد ركب الفلك).

وعقد «موسى» لواء هذه الغزوة - الأولى - لابنه «عبدالله بن موسى» وولاه على الناس، وأمَّره عليهم، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه الذى حدده له..! وهو جزيرة «صقلية»[1].

غزوة «الأشراف»:

وإنما أراد «موسى» - رحمه الله - من خلال تصرفه هذا أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة: (غزوة الأشراف)، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غُزيت فى بحر «إفريقية»[2].

وسار «عبدالله بن موسى» فى مراكبه بشق أديم الماء، حتى بلغ «صقلية»، فنزل بسواحلها، وافتتح مدينة فيها، وغنم وسبى، وبلغ سهم الرجل يومئذ مائة دينار ذهبًا.

وكان عدد جند المسلمين يومئذ ما بين الألف إلى التسعمائة، ثم عاد سالمًا مظفرًا إلى «تونس».، وكان ذلك عام خمسة وثمانين للهجرة (٨٥هـ).

ثم عاود «موسى» الكرّة مرة ثانية فى غزوة بحرية أخرى إلى «صقلية»، وذلك فى فصل الشتاء، وكأنه -رحمه الله- قد أراد المفاجأة من ناحية، وتدريب جنده وتعويدهم على التحمل القاسى فى الظروف الصعبة.

وقد أمّر يومئذ على قيادة الحملة «عياش بن أخيل»، وهو من القادة المعروفين الموثوقين، فشتا «عياش» فى البحر، حتى نزل فى «صقلية» من طرف آخر، فأصاب مدينة فيها هى «سرموسة»، وغنم منها، وعاد منصوراً...، وكان ذلك عام ستة وثمانين (٨٦هـ).

كان «موسى» - رحمه الله - خبيراً بشؤون البحر، كيف يتحرك..؟ ومتى يتحرك..؟ من غير مغامرة فاشلة،تعود عليه وعلى جنده بالخسران والموت.

وكما كان فارسًا مقدامًا وقائدًا عسكريًا فذًا فى البر، كان كذلك فى البحر..!

---

(١) أكبر جزيرة إيطالية اليوم.

(٢) شاطئ البحر الأبيض المتوسط الإفريقى.

وإليك هذه الحكاية :

أرسل والى مصر «عبدالعـزيز بن مروان» حملة بحرية من عنده، فى مراكب وجند من أهل مصـر، بقيادة «عطاء بن أبـى نافع الهزلى»، حتى بلغـوا جزيرة «سردينية» - قـريبًا من أقصى الشاطئ المغربى - فـأصاب فيها، ثم رسـا بمراكبه فى مـيناء «سوسـة». . ، فأمـده «مـوسى» بما يحتـاجـه من مؤونة وتجـهيـزات وسلاح. . !

ثم وصاه أن لايتـحرك فى ذلك الوقت، إذ بدأت نهاية فصل الخـريف، وقدوم فصل الشتاء. . ، فالمتغيرات المناخية والرياح العاتية تشتد وتعنف. . !

قال له فى رسالته :

(إن ركـوب البحـر قد فـات فى هذا الوقت، وفى هذا العـام، فأقم ولاتغـرر بنفسك، فـإنك فى تشرين الآخر (نوفمـبر). . ، فأقم بمكانك حـتى يطيب ركوب البحر. .)

لم يكترث «عطاء» بنصيحـة «موسى» وشحذ مراكبه، ثم رفع مراسـيها، واتجه إلى هدفـه فى العودة من حـيث أتى، ومرَّ ثانـية بـ «سـردينية»، وغنم منهـا، ثم فاجأته ريح عاصف فى الطريق، فغرقت مراكبه، وغرق هو وأصحابه. . !!

«سردينة» - أو «سردينية»

وهى من الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط. . ،

وكان لابد من غزوها وإخـضاعها فى سلسلة عـمليات تطهير البـحر من العدو الرومى، ففى سنة تسع وثمـانين للهجرة (٨٩هـ)، عقد «مـوسى» لـ «عبدالله بن مرة» لواءً وأمره على رأس حـملة لغزو هذه الجزيرة، فاستـطاع «عبدالله» أن ينزل بها ويخوض فى جنباتها، ويتغلب على حاميتها وينتصر، ويفتح مُدنها واحدة بعد الأخرى. . ، ويـعود ظافـرًا إذ بلغ السبى ثلاثة آلاف رأس، سـوى ما حـمله من الذهب والفضة، والغنائم الأخرى.

«ميورقة» و «منورقة»

وهما جزيرتان تقعان على الساحل الشرقى من بلاد الأندلس[1]..!

وفى نفس العام ستة وتسعين للهجرة (٩٦هـ)، جهز «موسى» حملة بحرية كبرى، عقد لواء قيادتها لولده «عبدالله بن موسى»، فغزاهما وافتتحهما..، وبذا أصبح الطرف الغربى من البحر الأبيض المتوسط خاضعًا بالكلية لنفوذ المسلمين وقواتهم البحرية.

التطلع إلى «الأندلس»

وكان «موسى» - رحمه الله - فى الغزو والفتح بعيد النظر، بعيد الهمة، نشطًا موفقًا، وبعد أن تم له فتح المغرب بكامله، وتوطيد سلطان الإسلام فيه، والسيطرة التامة على معظم جزر البحر الأبيض المتوسط، سمت به همته العليا، وجهاده فى سبيل الله أن يجتاز البحر إلى الأندلس..!

ولقد علم «موسى» ما تُعانيه تلك الديار من قلاقل واضطرابات وتفسخات، بين حكامها وملوكها وتنازعهم على السلطة فيها..، فالوقت مناسب تمامًا لعملية الغزو واجتياز البحر..! ولكن..!

كان هناك خطر ما يزال قائمًا لديه فى المغرب..، هو: «سبتة» الحصينة وحاكمها العنيد الشديد «جوليان»..! -وقد جاء ذكره من قبل-!

فمن هو؟ وما مدى خطورته..؟

كان «الكونت[2]» «جوليان» - أو «يوليان»- قوطيًا إسبانيًا، نزع فى أول حكمه وسلطانه إلى «روما» والدولة «البيزنطية»، ثم والى الحكم الإسبانى فى «طليطلة»، بعد أن ضعفت هيبة الدولة «البيزنطية» بانتصار العرب عليها فى الشام، ومصر، والشمال الإفريقى، ... وكان بُعد الشقة -أيضًا- بين «سبتة» و«روما» أحد العوامل وكذلك انقطاع طرق الإمداد.

---

(١) بين جزيرة (صقلية) الإيطالية وشبه جزيرة الأندلس.

(٢) الكونت: لقب شرف عند الغربيين، مثل «الباشا» وغيره.

وكان كما تقول روايات التاريخ: رجلاً شجاعًا، ومغامرًا منتقمًا، شديد السطوة، ومن كبار أشراف (القوط) - حكام «إسبانيا»- «الأندلس»، وتابعًا للسلطان المركزى فى الدولة، وقد اتسع نفوذه فى «سبتة» كولاية ومقاطعة، وتعامل مع البربر كواحد منهم، فأحبوه ووالوه.

وكان غنيًا شديد البأس، كثير الأتباع والجند، يعتصم بالبحر، بعيدًا عن سلطة العرش، وكان فى مملكة قائمة بذاتها، يقبض على مفتاح «إسبانيا» بحُكمه لـ «سبتة» والمضيق، أو بحر الزقاق -كما سماه العرب-.

التحالف بين «جوليان» و«موسى» !!!

كان لـ «جوليان» ابنة تدعى «فلوراندا» رائعة الحسن، أرسلها إلى بلاط «طليطلة» جريًا على تقاليد ذلك العصر، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان.. !

وكان أمر الديار الإسبانية قد انتهى إلى مغتصب اسمه «رودريك» -(الذريق) عند العرب-، بعد أن تغلب على خصومه، وأضحت البلاد فى بحر زاخر من الاضطرابات والفتن.

استهوى جمال «فلورندا» قلب «رودريك»، فهام بها، ثم اغتصبها، وفض عذريتها، فغضب لذلك «جوليان» أشد الغضب، ثم استقدم إليه ابنته، وأقسم لينتقمنّ من «رودريك» أشد الانتقام.

وفى ذلك الحين اتصل به خصوم «رودريك» ليحالفهم على قتال خصمه، الغادر بابنته..، وهم يعلمون مدى قوة جيشه واستعداداته، ولكنهم أوحوا إليه بالتحالف مع العرب، ليكون أشد وأقوى، وأضمن للنصر.. !

وكان «موسى» - رحمه الله - قد بسط سلطانه على الشمال الإفريقى كله، ماعدا «سبتة» المنيعة، وكان يتمنى... ويُعد العُدّة للخلاص من هذه الشوكة التى تؤرق خاصرته.. !

وبينما هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءته رسالة من الكونت «جوليان» نفسه، يعرض فيها تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح إسبانيا، وسيعاونه بسفنه ومراكبه وجنده مخلصًا. . صادقًا، غير غادر ولا مخادع.

وكان «موسى» - رحمه الله - على اطلاع واسع بأحوال «إسبانيا»، الضعيفة المتهالكة. وعلى معرفة بما جرى لابنة «جوليان». . !

فبدأ المفاوضة مع «جوليان» على حذر. . ! بالمراسلة ثم اللقاء. . ! حتى إذا ما تيقن الصدق فى اللهجة والعقل، وافق «جوليان» على مساعدته، وهو يطمح لأبعد من ذلك. . ! إنه يتوق إلى الفتح ونشر الدين، ورفع لواء الإسلام.

وقبل الإقدام. . . أرسل «موسى» كتابًا إلى الخليفة «الوليد بن عبدالملك» فى دمشق، يخبره فيه بكل التفاصيل، ويستأذنه الشروع.

ثم جاءه الرد من «الوليد» بالموافقة، شرط أن يختبر ذلك ببعض السرايا يرسلها إلى شواطئ الأندلس (إسبانيا)، دون المخاطرة بالجيش الإسلامى، فإذا عادت تلك الحملات الخفيفة السريعة بما يطمئن، كان الإقدام والمغامرة، والله تعالى هو الناصر والمعين.

وكان أغلب الظن عند «جوليان» وحلفائه من حكام المقاطعات الإسبانية، أن العرب إذا تم لهم النصر على «رودريك» وامتلأت أيديهم بالغنائم، وفاضت خزائنهم بالأموال، لن يلبثوا فى «إسبانيا» ولن يُقيموا فيها، وسيعودون من حيث أتوا. . !!

جزيرة «طريف»

على الساحل الجنوبى الغربى من «إسبانيا» ، شبه جزيرة، تُعرف إلى يومنا هذا بـ «جزيرة طريف» وهو اسم «عربى»[1] فمن هو «طريف» هذا؟ ولماذا سميت تلك المنطقة باسمه؟

بعد موافقة الخليفة وإذنه، جهز «موسى» قوة صغيرة من المسلمين، مائة فارس وأربعمائة رجل، بقيادة أحد قادته ويُدعى «طريف بن مالك[2]» ويكنى بـ «أبى

(١) أو: بربرى، ولكنه غير أعجمى.

(٢) وقيل: طريف بن ملوك، إثباتًا لنسبه البربرى.

زرعة»، عبرت البحر فى أربعة مراكب، ثم نزلوا بساحل البحر بالأندلس، فيما يحاذى «طنجة»، فعُرف المكان باسمه، ومازال يحمله.

ومنها أغار على ما يليها إلى جهة «الجزيرة الخضراء»[1]، وأصاب سبيًا ومالاً كثيرًا، ورجع سالمًا، وكانت حملته هذه فى شهر رمضان «سنة إحدى وتسعين (٩١هـ).

***

نهاية البطل «موسى بن نصير» -رحمه الله-

فى سنة سبع وتسعين هجرية (٩٧هـ). حج بالناس الخليفة «سليمان بن عبدالملك»، فأمر «سليمان» «موسى» بالشخوص والحج معه، فذكر «موسى» لـ «سليمان» أنه ضعيف، فأمر له «سليمان» بثلاثين نجيبًا[2] موقورة جهازًا، وبحجرة من حُجره، وجائزة.

فحج «سليمان» وحج «موسى» معه، ثم وافته المنية فى «وادى القرى»[3] سنة سبع وتسعين هجرية، (٩٧هـ) وقد قارب الثمانين، وصلى عليه «مسلمة بن عبدالملك»، وورى الثرى فى «أم القرى».

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأنزله من لدنه منازل الأبرار والصالحين.

«موسى» فى التاريخ

القائد المؤمن بنصر الله..

سأله «سليمان بن عبدالملك»: ما الذى كنت تفزع إليه فى مكان حربك من أمور عدوِّك؟

فأجاب «موسى»: التوكل والدُعاء إلى الله يا أمير المؤمنين..

---

(١) جاء فى «تقويم البلدان»: الجزيرة الخضراء، مدينة أمام «سبتة» فى بر الأندلس الجنوبى، وهى مدينة طيبة، توسطت مدن الساحل، وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها (ميناؤها) أحسن المراسى للجواز (العبور) وأرضها أرض زرع وطرع (١٧٣-١٧٤).

(٢) خيار الإبل وأنفسها.

(٣) بين المدينة والشام، وهى من أعمال المدينة.

فسأله «سليمان»: هل كنت تمتنع فى الحصون والخنادق، أو كنت تخندق حولّك؟ قال: كل هذا لم أفعله. . ، قال فما كنت تفعل؟

قال: كنت أنزل السهل وأستشعر الخوف والصبر، وأتحصن بالسيف والمغفر، وأستعين بالله وأرغب إليه فى النصر. . !

العالم بالخيول. . !

وسأله «سليمان» : أى الخيل رأيتها فى تلك البلاد أصبر؟

فقال: الشقر - الحمرة فى العُرف والذيل -،

وإذا كان الأدهم (الأسود) أحمر العينين، فإنه يتهم بالحرن. . ، ويختبر العسر بأن يقفز الفرس خندقًا صغيرًا سبع مرات، فإن رفع فى كل مرة من المرات يده اليمنى قبل اليسرى، فاعلم أنه ليس بأعسر. . ، والعسر مما يُكره فى الخيل.

وتختبر بلادة الفرس -أو الجواد- بأن تقف منه على بُعد عشرة أذرع، ثم ارمه بخرقة، أو ارم عنانه بحصى، فإن وقف، فاتهمه بالبلادة، وكذلك إن عطست وأنت راكبه، أو نفضت بعض ثيابك. . ، ثم اركبه وألق على الأرض ثوبًا أبيض وامش به عليه، فإن حذره فاعلم أنه زكى النفس، وإلا فاعلم أنه بليد.

فصاحته

وكتب إليه «عبدالله بن عبدالملك بن مروان» -أمير مصر- رسالة يتهدده فيها ويتوعده، فكتب إليه «موسى»:

(أما بعد . . .

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما وصفت فيه من إركانى إلى أبويك وعمك، ولعمرى إن كنت لذلك أهلاً، ولو خبرت منى ما خبرا، لما صغرت منى ما عظما، ولا جهلت من أمرنا ما علما، فكيف آتاه الله لك!؟؟

فأما انتفاضك لهما، فهما لك، وأنت منهما، ولهما فيك ناصر لو قال وجد[1] عليك مقالا، وكفاك جزاء العاق.

فأما ما نلت من عرّضى، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك..!

وأما تهدّدك إياى بأنك واضع منى ما رفعا، فليس ذلك بيدك ولا إليك، فارعد وأبرق لغيرى.

وأما ما ذكرت مما كنت آتى بـه عمك «عبدالعزيز» فلعمرى إنى مما نـسبتنى إليه من الكهانة لبعيد، وإنى من غيرها من العلم لقريب..، فعلى رسلك..، فكأنك قـد أظلّك البدر الطالع والسـيف القـاطع والشهـاب الساطع، فـقد تم لهـا -أى الخلافـة- وتمت له، ثم بعث إليك الأعـرابى الجلف الجافى، فلم تـشعر به حـتى يحل بعقـوتك فيـسلبك سلطانك، فلا يعـود إليك ولا تعود إليه، فـيومـئذ يعلم أكاهن أم عالم!!؟؟ وتوقن أينا النادم السادم، والسلام) - أ.هـ.

الورع التقى

ذات يوم، وهو فى المغرب، أصـيبت البلاد بقـحط شديد، وجدب..، فـأمر الناس بالصوم والصلاة، وإصلاح ذات البين..، وخرج بهم إلى الصحراء، ومعه سائر الحيوانات، وفرّق بينهـا وبين أولادها..، فوقع البكاء والصراخ والضجيج، وأقام على ذلك إلى منتـصف النهار، ثم صلى وخطب الناس، ولم يذكـر «الوليد ابن عبدالملك» -الخليفة-، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال:

- هذا مقام لا يُدعى فيه لغير الله تعالى...!

فسُقوا حتى رووا، ورخصت الأسعار!!

رضى الله عن التابعى الجليل، القائد الفاتح، القوى الأمين، «موسى بن نصير» وأسكنه الفردوس الأعلى.

***

---

(١) وجد: حاسد مبغض.

١٤- طارق بن زياد

لقد ارتبط اسم «طارق بن زياد» بالفتح الإسلامى للأندلس ارتباطًا وثيقًا، حتى إن المضيق الذى يفصل بين قارتى أوروبا وإفريقيا، والذى عُرف تاريخيًا بـ «زقاق البحر» مايزال يحمل اسمه وسيظل. . ، فيقال: [مضيق جبل طارق] نسبة إلى الشاطئ الصخرى الذى نزل عنده يوم بداية الفتح، ورست فيه مراكبه التى كانت تُقل جنده وعتاده.

وهنا وقفة لابد منها لنعرف من هو هذا القائد الهمام الذى تولى العبور إلى القارة الأوروبية، وفتح الأندلس، وأرسى فيها قواعد الإسلام، عقيدة وتشريعًا، وحضارة، على مدى تسعة قرون من الزمان. . . !

عربى أم بربرى . . !؟

لقد كثر اختلاف المؤرخين النّسابين فى جذور انتسابه لأى الأصلين: العربى أم البربرى؟ لكن معظمها يؤيد انتسابه البربرى[1]، وأنه أسلم على يد «موسى بن نصير»، الذى جعله مولى له، وقد رأى فيه من الشهامة والرجولة والشجاعة. . . والإقدام. . . ، وحسن الإدارة. . ما جعله أقرب المقربين إليه، فكان يعتمده فى المواقف الصعبة، ولا يُمكن الاستغناء عنه.

كما يرجح المؤرخون أن ولادته كانت سنة خمسين للهجرة (٥٠هـ). . ! إذن . . فقد كانت ولادته فى خضم معمعة معارك الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى، فعاصرها طفلاً وفتىً وشابًا يانعًا. . !

فلما وُلى «موسى بن نصير» على تلك البلاد، وقام بإعادة الفتح وتوطيد الأمور، وتثبيت الإسلام فى قبائل البربر، أسلم على يديه «طارق» ودخل فى زمرة القادة، وبرز بينهم.

---

(١) أورد صاحب كتاب «البيان المغرب» (ج:٢) (ص:٦) نسبة «طارق» - هكذا: «طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن تيرغاس بن مسطاس بن بطوسث بن نفزة» - فهو ينتمى إلى قبيلة «نفزة» البربرية. ويقول «الشريف الإدريسى»: إنه بربرى من قبيلة «زناتة»، وتبعه فى ذلك «ابن خلدون» و«المقرى» فى «نفح الطيب» (ج:١) (ص:١١٩).

ولا أدل على ثقته فيه أنه عندما فتح ولاية «طنجة» ولاه عليها، وقد ظهرت كفاءته فى الحرب والإدارة.

فلما قرر «موسى» بالاتفاق مع الكونت «جوليان» غزو الأندلس، لم يجد قائدًا أكفأ من «طارق» لقيادتها.

ونحن - عزيزى القارئ - لا يهمنا من قريب أو بعيد الخوض فى معرفة النسب..، ويكفينا أنه - رحمه الله - كان جنديًا مسلمًا، سطَّر فى سفر التاريخ أنصع الصفحات وأخلدها.

العُبور

ففى الخامس من شهر رجب (الفرد[1]) سنة اثنتين وتسعين للهجرة (٩٢هـ)، جهز «موسى بن نصير» جيشًا خليطًا من العرب والبربر، بلغ سبعة آلاف مقاتل، بين فارس واجل، بقيادة «طارق بن زياد» عبر البحر من «سبتة» على سُفن جهزها لهم الكونت «جوليان».

وكان نزول «طارق» بالبقعة الصخرية المقابلة، التى لاتزال -كما ذكرنا- تحمل اسمه حتى اليوم: (جبل طارق)[2].

حرق السفن..!!

تذكر بعض الروايات التاريخية أن «طارقًا» بعد نزول جنده على الأرض الإسبانية، أحرق السفن التى أقلته وجُنده، كى يقطع الأمل فى نفوس الجند بالعودة، أو التفكير بها..، وعليهم مواجهة عدوهم بهمة ودون يأس..!

ولكن أكثر المحققين يستبعد ذلك، إذ ليس من المعقول -ولا المقبول- أن يقوم قائد حكيم فذ بمثل هذا العمل الخطير، والذى ليس له أدنى سبب فى التخطيط للحرب والقتال.

---

(١) الأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهى متتابعة، ثم يأتى «رجب» فردًا.

(٢) يكتبها الأجانب هكذا: [Gibal Tar].

وعليـه . . فنحـن - أيهـا القـارئ العـزيز- نرُد هذه الرواية الأسـطورية على مدعيها. . !

الزّحف

زحف «طارق» بجنده، من حيث نزل، غـربًا، وكـان مـعه فى حـملتـه هذه الكونت «جوليان» فى نفر قليل من أصحابه، فكان يشير على «طارق» ويدلّه. . !

واتجه إلى (ولاية الجزيرة) التى كان يحكمها «تيودمير» عامل الملك «رودريك» - لذريق - عليـها، فهـزم الشراذم التى تصـدت له، واحتل القلاع، وفـوجئ حكام الولايات الغربيـة بالهجوم فأخطروا الملك «رودريك». . ، فـأسرع إلى «طليطلة»، وقدم أمامه قائده «أديكو» لصد العُدوان ريثما يستكمل هو أهبته. . ، لكن «طارقًا» هزم «أديكو» واستمر فى زحفه عبر سهول «الفونتيرة»

حشد «رودريك» - لذريق - قـواته، واستقطب خصومه، وجـمع حوله معظم الأشراف والأمراء والأساقفة، فى جندهم ومؤيديهم، فبلغ تعداد الجيش «القوطى» يومئذ مائة ألف مقاتل، واتجه الجميع إلى لقاء «طارق».

النجدة

بلغت، أنباء هذا التحـشد مسامع «طارق»، فأرسل إلى مـولاه «موسى» - القائد العام يستمده ويستنجده. . ، فبادره بإرسال خمسة آلاف من الأشداء، المشهود لهم بالإقـدام، والجرأة، فـأصـبح عدد جـيش «طارق» اثنى عـشـر ألفًا، من العـرب والبربر. . ، ولكنهم رجـال صدقوا ما عاهدوا الله عليـه، فلا تخيفـهم كثرة، ولا ترهبهم حشود، واستعدوا للقاء الموعود.

خطبة «طارق» فى جنده

عندما تواجه الجيشـان عند وادى نهر «رنكة»، خطب «طارق» فى جنده يحثهم على الصـبر والقتـال ويبث فيـهم روح الحماس، وهذه عـادة اتبعـها مـعظم قادة المسلمين فى فتوحهم وغزواتهم، اقتداءً برسول الله ﷺ.

ونحن نورد لك - عزيزى القارئ - خطبة «طارق» فى الجند، وقد اشتهرت على ألسنة الناس، قدامى ومحدثين، رغم الشك الكبير فى صحتها، فـ «طارق» بربرى مهما أتقن اللغة العربية فلسانه يقصر عن لغة هذه الخطبة فى مبناها وعباراتها..

قال:

(أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم - والله - إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة وأنت لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوّكم.

وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم وتقوضت القلوب عن رعبها منكم بالجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن..! إن سمحتم لأنفسكم بالمؤن.

وإنى لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولاحملتكم على خطة أرخص متاعًا فيها للنفوس،أبدأ بنفسى..، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى، فما حظكم فيه بأوفى من حظى، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحُور الحسان من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجان، والحُلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان.

وقد انتخبكم «الوليد بن عبدالملك» - أمير المؤمنين - من الأبطال عُربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا، ثقة منه بارتياحكم للطِّعان، واستحاحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصًا لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولىّ إنجازكم على ما يكون لكم ذكرًا فى الدارين.

أيها الناس:

ما فعلت شيئًا فافعلوا مثله، إن حـملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحـد فى القتال. . . ، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحـيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قُتلت فلا تهنـوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير. . !

وإياكم . . . إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبـوا فيما عجّل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا -والله معكم ومفيدكم- تبوؤا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين. . .

وها أنا ذا حامل حتى أغشاه فاحمِلوا بحملتى. .)[1] - أ. هـ.

معركة وادى «لكة»

كـما كـانت «اليرمـوك» مفـتاح بلاد الـشام، و«القـادسيـة» مفـتاح «العـراق» و«فارس»، كانت معركة وادى «لكّة» مفتاح بلاد «الأندلس». . . !

كان اللقاء بين الجيشين فى سهل «الفونتيرة» على ضفاف نهر وادى «لكّة»، فى الثامن والعشرين من شهر «رمضان» سنة اثنتين وتسعين للهجرة (٩٢هـ).

فرَّق النهر بين الجيشين مدى ثلاثة أيام، شغلت بالمعارك البسيطة.

وفى اليوم الرابع التـحم الجيشان، ونشـبت بينهما مـعركة عامـة، وظهر ملك القـوط «رودريك» وسط الميـدان فى حلل ملوكـيـة، فـوق عـرض تجره الخـيـول المطهَّمـة. ، متوجًا باللآلـئ، متشحًـا بالحرير المذهب، مضطجـعًا فى هودج من العاج. . وكأنه فى حفل وليس فى معركة.

واستمرت المعركة بين الطرفين هائلة مضطرمة، بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة المسلمة المتواضعة. . أربعة أيام!!!

---

(١) نقل هذه الخطبة «المقرى» عن مؤرخ لم يذكر اسمه، وقد دونت بعد ثلاثة قرون من فتح الأندلس.

وتمكن الجيش الإسلامى - على ضآلة عدده، بجلده وثباته، واتحاد كلمته، من جيش «القـوط»، فلم يأت اليوم السـابع من بدء اللقاء حتـى تم النصر لـ «طارق» وجنده، وهُزم «القوط»، شر هزيمة، وتشتتوا أفواجًا وفلولا فى كل صوب.

ولكن أين «رودريك»؟؟

تقول بعض الروايات بأنه سقط قتيلاً فى الميدان، واحتزت رأسه، وحُملت إلى الخليفة «الوليد بن عبدالملك» فى «دمشق»، وتقول روايات أخرى إنه فر من الميدان على ظهر جواد سقط به فى مياه النهر وغرق.

وكمـا عُرفـت هذه المعركـة بأنها مـعركـة وادى «لكة»، عُرفت أيضًـا بمعركـة «شذونة»، وقد انتهت على أثرها مملكة «القوط» فى «إسبانيا»، وغنمها المسلمون.

وكما نُسب إلى «طارق» خطبته التى ذكرنا، نُسب إليه قوله:

ركـبنا سـفـينًا بالمجـاز قـصـيـر — عسى أن يكون الله منا قـد اشترى
نفـــوسًـــا وأقـــوالاً وأهلاً بـجنة — إذا ما اشـتهينا الشىء فـيها تيـسرا
ولسنا نبـالى كيف سالت نـفوسنا — إذا نحن أدركنا الذى كـان أجـدرا

متابعة الفتح:

على أثر هذه الموقعـة. .، ساد الرُعب فى «القوط» عامـة، فامتنعوا بـالحصون والجبال، وقصدوا إلى الهضاب والسهول، فرارًا وابتعادًا.

ووصلت أنباء هذا النصر العظيم إلى «طنجة» و«سبتة» وما جاورهما. .، فتدفق سيل من المجاهدين -عربًا وبربرًا- ، وعبروا المجاز، وانضموا إلى جيش «طارق».

فى «استجة»:

كانت بقية الجـيش «القوطى» قد تجمعت عند «استجـة»، قريبًا من «وادى النهر الكبير»، لتحاول -يائسة- منع «طارق» من الـتقدم، لكنه زحف إليها على عجل،

ليضرب ضربتـه الثانية، قبل أن يلّم «القوط» شعـثهم، ويداووا جراحهم، ومن ثم أنزل بهم هزيمة مُنكرة. . !

إلى المدن الحصينة والقلاع:

لم يبق أمـام «طارق» إلا أن يهـاجم مُدنـهم وقلاعـهم الحـصينـة، ويستـولى عليها. . !

فـقرر أولاً: أن يقـصد بنفـسـه إلى «طليطلة» عاصـمـة المملكة «القوطيـة» -الإسبانية-، ووزع بعض قواته. . ،

فأرسل قائده «مُغيثا» الرومى، فى سبعمائة فارس إلى «قُرطبة»، فاستولى عليها دون مشقة.

كمـا أرسل قوات إلى «غرناطة» و«إلبـيرة» و«مالقـة»، فافتـتحت «مالقـة» وفر سكانها إلى الجبـال. . ، وجنودها إلى «إلبيرة» و«غرناطة» التى حـوصرت أيامًا ثم فتحت. . ، كما فتحت «إلبيرة» -أيضًا-.

واتجهت قوة من المسلمـين شرقًا إلى ولاية «قُرطبة» - وكانت تسـمى «تيودمير» باسم أميرها، أما عاصمتها فهى: «أوزيولة». . !

وكان «تيودمـير» -هذا- جنديًا وافر العزم والبأس، فالتـقى الجيش الإسلامى، ونشبت بين الطرفين معارك شديدة، هلك فيـها معظم رجاله، فارتد إلى العاصمة «أوزيولة» وتحصن بهـا، وألبس النساء ثيـاب الجند وعرضهم على الأسـوار ليوهم المسلمين بكثـرة جنده. . ، وظل يقاوم إلى أن قبل منه المسلمـون الصلح وبشروط أنقذت مدينته من السبى والجزية.

هذه التحركات . . . كان لابد فيها من دليل مرشد، فى أرض غريبة. . !

وما من شك أن «موسى» و«طارق» كانا على بعض العلم فى هذا المجال، لكن «جوليان» حاكم «سبتة» كان له المقام الأول فى المساعدة. . ! وقد رافق «طارقًا» فى عبوره وحملاته وإرشاده.

ونعود إلى «طارق»:

فقد سار ببقية الجيش إلى «طليطلة» -العاصمة- مخترقًا هضاب «الأندلس» وجبال «سيراموريتا»[1] التى تفصل بين «وادى الأندلس» و«قشتالة».

وكان «القوط» قد فرّوا منها نحو الشمال، بأموالهم وآثار قديسيهم، ولم يبق بها سوى القليل من أهلها من اليهود والنصارى، فاستولى عليها، وأبقى على من بقى من سكانها، وترك لأهلها عدة كنائس، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها مطرانها السابق «أدباس»، كما ترك فيها حامية من المسلمين.

ثم تابع زحفه شمالاً، فاخترق «قشتالة، ثم «ليون»، فى وهادٍ ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط حتى «استرقة»، فلجأت إلى «جليقية» واعتصمت بجبالها الشامخة، وعبر جبال أشتوريش (أستورباس)، واستمر فى سيره حتى أشرف على ثغر «خيخون» الواقع على خليج «غسكونية». . ، ورده عباب المحيط عن التقدم، فعاد إلى «طليطلة»، وقد تلقى من «موسى» - الذى كان يُتابع فتوحاته وزحفه - أمرًا بالتوقف!!

«موسى بن نصير» من جديد ...!

وهنا نتوقف مع «طارق» بانتظار «موسى». . . !

«موسى» الذى كان قد بلغ من العمر ثمانية وثمانين عامًا آنذاك، وهو لايزال فى قمة نشاط جهاده وبلائه، فلا تفتر همته رغم شيخوخته!!

يُقال بأن الأمر من «موسى» إلي «طارق» بالتوقف عن التوغل كان قد سبقه أمر آخر بعد معركة وادى «لكة»، وهزيمة «القوط» ومقتل «رودريك» وأن «طارقًا» لم يعبأ بأمر «موسى» ومضى فى زحفه ومعاركه. . .

وهذا قول مستبعد، فقد كان «طارق» -رحمه الله- لا يتحرك إلا ويبلغ القائد العام بتوجهاته، وانطلاقاته.

---

(١) عرف بجبل الشارات.

وأيضًا قيل بأن «موسى» قد حسد «طارقًا» على نجاحاته فى فتوحاته وتقدمه، فأمره بالتوقف دون التوغل حتى يأتيه. . !

ولا نميل إلى هذه الفرية، فليس من شأن «موسى» ولا طبعه، وخلقه ودينه أن يَحسد، إنما كان أمرُه له بالتوقف حتى يوافيه، كى ينظم عمليات المتابعة معه، وحرصًا منه على جند الإسلام فى ديار الغربة.

على كل حال، فقد عبر «موسى» إلى «إسبانيا» فى عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر، فى سفن صنعها خصيصًا لذلك. . !

وكان نزوله بولاية «الجزيرة الخضراء»، حيث استقبله «الكونت جوليان» - حليفه-، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ثلاثة وتسعين (٩٣هـ). أى بعد سنة من دخول «طارق» إلى «إسبانيا».

فتح «موسى»

لم يقصد «موسى» إلى «طليطلة» حيث تواعد على اللقاء بـ«طارق». . بل اتجه إلى «شذونة» واستولى عليها، ثم مضى إلى «قرمونة»، وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهرًا.

ثم سار إلى «ماروة» وحاصرها مدة، وقد قتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى. . ، وانتهت بالتسليم فى رمضان سنة أربع وتسعين (٩٤هـ) على أن تكون أموال الفارين والكنائس غنيمة للمسلمين، دية لمن قُتل منهم.

اللقاء بـ «طارق»:

ثم قصد «موسى» إلى «طليطلة» للقاء «طارق» حيث تواعدا، فخرج إليه «طارق» ليستقبله ويرحب به على مقربة منها.

وهنا تبالغ بعض الروايات فى معاملة «موسى» لـ «طارق»، فتقول بأن «موسى» قد عنّف مولاه، وعامله بقسوة وشدّة لمخالفته أوامره، وزج به فى السجن. .، ثم عفا عنه!؟ وردّه إلى منصبه فى القيادة!؟

لا بأس أن يُعاتبه. . ، ولكن أن يُعاقبه ويحبسه ويقيده فهذا أمر مستبعد، لايليق بـ «موسى» ولا بالقائد الظافر المنتصر «طارق بن زياد». . !

الزحف معًا..!

ووضع الاثنان «موسى» و«طارق» خطة لافتتاح ما بقى من «إسبانيا»، فاتجها نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية «أراجون» -وتُعرف بالثغر الأعلى-، وافتتحا «سرقُسطة» و«طرَّكونة» و«برشلونة» وغيرها من المدائن والمعاقل. . !

ثم افترقا. . !

فسار «طارق» نحو الغرب ليغزو «جليقية»، وليتم القضاء على فُلول «القوط». . !

وسار «موسى» شمالاً فاخترق جبال «البيرنيه» وغزا ولاية «لانجدوك» -سبتمانيا-، واستولى على «قرقشونة» -كاركاسون- و«أربونة» --ناربُون-، ثم غزا وادى «الرُون» حتى بلغ مدينة «ليون» -الفرنسية-. . . !

فاضطرب ملوك وأُمراء الفرنج، وأخذوا فى التجمع والأهبة لرد الغُزاة.

«عبدالعزيز بن موسى»

وكان لـ «موسى» ولد اسمه «عبدالعزيز» سماه باسم صديقه وصفيه «عبدالعزيز ابن مروان» تيمنًا، فكان «عبدالعزيز» هذا من خيرة القادة الذين أبلوا أحسن البلاء، سواء فى المغرب أو فى «إسبانيا».

ولقد وجهه والده على رأس قوات من المسلمين لفتح بعض النواحى التى ماتزال فى أيدى العدو[1]. . ، فافتتح منطقة الساحل الواقعة بين «مالقة» و«بلنسية»، وأخمد الثورة فى «أشبيلية» و«باجة»، وافتتح «لبلة» وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيرًا من الرفق والتسامح، والاعتدال فى تطبيق الأحكام وفرض الضرائب.

---

(١) البلاد المعروفة الآن بالبرتغال.

«موسى» و«طارق» فى «دمشق»:

إزاء ما وفقه الله تعالى إليه من فتوح فى مختلف نواحى الديار «الإسبانية» شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، حتى بدت كلها تحت يد سلطانه، وقد دق أكثر من مرة أبواب فرنسا..!

إزاء ذلك.. فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوروبا، غازيًا فاتحًا، ناشرًا لدين الله عز وجل..، وأن يصل إلى «الشام» عن طريق «القسطنطينية» -التى استعصت طوال عقود من السنين على الفاتحين المسلمين،- منذ عهد «معاوية بن أبى سفيان».

ذكر لنا ذلك «ابن خلدون» -عليه رحمه الله- فقال:

(وجمع أن يأتى المشرق على «القسطنطينية» ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض[1] ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهدًا فيهم مستلحمًا لهم أن يلحق بدار الخلافة..)

ولكن...

كان فى جيش «موسى» قائد هو «مُغيث الرومى»، غلام من موالى «الوليد بن عبدالملك»، وكان مقدامًا شُجاعًا، ولكنه -يبدو- أنه ما يزال يحن إلى أصوله الرومية..!

فانتهز فرصة بعثه إلى «دمشق» محملاً بالغنائم والأسلاب والسبايا، فوسوس إلى «الوليد» بما يجول فى خاطر «موسى» و«طارق»، وحذره من مغبة هذه المغامرة -على حدِّ زعمه-...!

وكان فى «الوليد» بعض التردد، حتى إنه كان يحذر من التوغل فى إسبانيا نفسها، فلما سمع مقالة «مُغيث» أرسل إلى «موسى» و«طارق» يستدعيهما إلى «الشام»، وعلى الفور..!

---

(١) تاريخ (ابن خلدون) (ج : ٤) (ص : ١١٧).

تمهل «موسى» فى الاستجابة بعض الوقت، ريثما يتم له فتح معاقل «جليقية»، والقضاء على بعض الجيوب والثغرات فى «إسبانيا»، واطمأن إلى توطيد الأمن فى ربُوع البلاد، وأخذ يتأهب للعودة إلى «دمشق».

وبينما هو على تلك الحال من الاستعداد، جاءته رسالة أخرى عاجلة، تأمره بالحضور ومعه «طارق بن زياد»، فلم يجد بُدًّا من الإذعان، فاستخلف على البلاد ابنه «عبدالعزيز» وغادر «إسبانيا» متوجهًا إلى الشام، وجعل عاصمتها «أشبيلية».

كما استخلف أكبر أولاده «عبدالله» على «إفريقية»، وعلى المغرب الأقصى ولده «عبدالملك»، وفى شهر ذى الحجة من عام خمسة وتسعين (٩٥هـ) قفل راجعًا إلى المشرق، ومعه «طارق بن زياد». . ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يُعد ولا يُحصى، ومن أشراف السبى عدد عظيم، يفوق الحصر. . !

بين «الوليد» و«سليمان»:

وصل البطل الفاتح «موسى بن نصير» ومعه مولاه القائد المظفر «طارق بن زياد» إلى «دمشق»، فى حين كان «الوليد بن عبدالملك» يُعانى مرض الموت.

ويبدو أن «مغيثًا الرومى» كان قد شحن صدر «الوليد» بالسخط على «موسى» و«طارق» معًا، فكان اللقاء جافًا، رغم ما حمله معه موسى من ثروات هائلة، وتحف نادرة، قدمها كلها للخليفة غير محتجزٍ لنفسه شيئًا، حتى ولو درهمًا.

وتولى بعد «الوليد» أخوه «سليمان» . . . ، وكما دس «مغيث» على «موسى» عند «الوليد» دس عليه أيضًا عند «سليمان» -الخليفة الجديد-، حقدًا من عند نفسه وحسدًا. . . !

فجافاه «سليمان» فترة، ثم رضى عنه، وقربه منه وأدناه، وجعله من أصفيائه، وما كان «سليمان» إلا ليفعل ذلك، وهو ذو علم ودين وتقوى، حتى عُدّ من كبار التابعين.

نهاية «طارق بن زياد»...

وهنا -عزيزى القـارئ- يُسدل الستـار على أخبـار «طارق» تمامًا. . ، وتسكت ألسنة التاريخ عن الحديـث عنه، فلا ندرى كيف انتهت حيـاته؟ ومتى مات؟ وأين دُفن؟

وكلها تساؤلات تذهب سُدى ولا مجيب عليها.

ويكفى «طارق بن زياد» فخرًا ومجدًا، أنه مـنذ ولايته على «طنجة»، ثم عبوره إلى إسبانيـا، وتوغله فى الفتح، وإخضاع أكثـر الولايات لسلطان الإسلام، خلال سنوات تُعد على الأصابع، قد سجل فـى التاريخ اسمه بأحرف من نور، ولايزال شعاع بريقهـا يملأ الدنيا. . ، ومايزال الجبل الذى يحمل اسمه إلى الـيوم، شامخًا شاهدًا، على بطولته وإخلاصه، وتفانيه. . ! رحمه الله وغفر له، وأجزل ثوابه.

***

١٥- عبد الرحمن الغافقى

نزح الفتى «عبدالرحمن»[١] من «اليمن» إلى «الحجاز»، وهو يحمل بين ضلوعه قلبًا جياشًا بحب الله ورسوله، ونفسًا تضج بالحيوية والفتوة، تواقة إلى طلب العلم، والجهاد.

وهيأ الله تعالى له فى «المدينة المنورة» أستاذًا عظيمًا ممن صحبوا رسول الله ﷺ وشرفوا بتلك الصحبة، هو: «عبدالله بن عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه-.

أُعجب التلميذ بأستاذه، فى عمله وسلوكه وحفظه وورعه، فلزمه كظله، يتابعه فى غدواته وروحاته، وحلقاته فى المسجد النبوى الشريف، يأخذ عنه، ويحفظ منه، ويتأسى به.

ولم يبخل الأستاذ على التلميذ وهو يرى فيه نجابة وذكاءً، فأفرغ فى واعيته كل ما كان لديه من حذق علم، وكنوز فهم، ودراية، حتى استوى الفتى على عوده، تابعيًا متربعًا فى الطليعة.

الانطلاقة الأولى:

ما إن توافر لـ «عبدالرحمن الغافقى» أسباب تناغم العلم والفهم، مع روحه الوثابة، حتى انطلق إلى ميادين الجهاد فى سبيل الله، يحمل فى فؤاده مصحفًا وبيده سيفًا..! ناذرًا نفسه لله عز وجل، ينتظر إحدى الحُسنيين.

وكان أوّل قدومه على «إفريقية» حيث تنطلق فيها كتائب النصر إلى الأندلس..، فقضى فيها زمنًا يسيرًا، دارسًا متفحصًا، مثله مثل القائد الذى يعاين خطته قبل مباشرة القتال، وخوض معارك الحروب.

إلى دمشق !؟

ثم ارتد «عبدالرحمن» إلى «دمشق»، وقد عرف كل كبيرة وصغيرة حول الشمال الإفريقى، والأندلس أيضًا..! فاتصل بالخليفة «سليمان بن عبدالملك»،

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم - الغافقى العكى - [أبوسعيد].

الذى رأى فيه قائدًا خبيرًا، وعالمًا ألمعيًا جليلاً . . ، مؤمنًا صادقًا، فقربه منه وأدناه، وجعله موضع ثقته، ثم بعث به إلى «الأندلس».

من «سليمان» إلى «عمر بن عبدالعزيز»

وتولى «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة بعد «سليمان بن عبدالملك»، وبدأ عملية الإصلاح حسبما اتفق له ورأى،

وكانت الأندلس آنذاك قد خلت من قيادة «موسى بن نصير» وولده عبدالعزيز ابن موسى» فعين «عمر بن عبدالعزيز» عليها واليًا جديدًا هو: «السمح بن مالك الخولانى»، وكان ذلك سنة مائة من الهجرة.

فلما نزل «السمح» الديار الأندلسية أراد أن يستعين برجال على مستوى المسؤولية فى القيادة العسكرية، والإدارية، خصوصًا فى المهمة التى كلفه بها أمير المؤمنين -عمر بن عبدالعزيز- . . ، إذ عهد إليه أن يميز الأرض ويخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وكأنها يعاينها.

فسأل «السمح» واستفسر، ودقق واستخبر، وكان من جملة أسئلته: هل فى الناس أحد من التابعين؟؟

وجاءته الإجابة بأن واحدًا من التابعين النابهين، من ذوى العلم الغزير والسلوك القويم، والصيت الحسن، ممن تتلمذوا على «عبدالله بن عمر بن الخطاب». . . ما يزال بين أظهرنا، وقد نبه ذكره، وحسن مظهره ومخبره، هو «عبدالرحمن الغافقى العُكى». . !

فاستدعاه إليه وحدثه، وسبر غوره وامتحنه، فرآه أعظم وأكبر وأقدر مما وُصف به، وقيل عنه.

وسُر الأمير «السمح بن مالك» مما رأى وسمع . . .، وعرض على «عبدالرحمن» أن يوليه عملاً كبيرًا ومهمًا من أعمال «الأندلس»، فاعتذر «عبدالرحمن» بأدب، وأعلن بين يدى السمح أنه إنما جاء إلى البلاد غازيًا

مـجاهدًا. . ، هدفـه رضوان الله تعـالى، لا يطلب ولاية ولا إمارة، وأنه سـوف يكون مع «السمح» أطوع له من ظلّه. . !

وكان «عبدالرحمن» -رضى الله عنه- صادقًا وليس متهربًا من المسئولية، فميدان الجـهاد عنده أرفع مكانة من كل مـنصب، وصهـوة الجواد أسـمى وأرفع من كل كرسى. . !

من خاصة الأمير:

صدّقـه «السّمح» فـيما قـال، ورضى منه، ولكنه جعله من خـاصتـه، وأقرب المقربين إليه، يستـشيره ويستوزره ، ولا ينطق بأمر قبل أن يسـمع رأيه، خصوصًا فى ميـادين القتال، ومعـامع الحروب والمعارك. . ، إذ كان «عـبدالرحمن» مقـدامًا جريئًا، وصاحب خطة وتدبير فى الحرب والنزال، شهدت له بها المواقع والوقائع.

«السّمح» والفتح!

وأراد «السّمح» أن ينفّذ حلم القائد العظيم «مـوسى بن نصير»، الذى مات قبل أن يحققـه، فـيصل مشـرق الدولة الإسلامـية بمغـربها عن طريق «رومـا» و«فتح القسطنطينية»، مخترقًا قارة أوروبا . . .) ويحقق بذلك بشرى رسول الله ﷺ.

إلى فرنسا

وكان هدفه الأول «فرنسا» . . . !

فأعد العُدة لذلك، وحشد قواته، وانطلق على بركة الله، وعبر جبال «البيرنيه» وهى من أصعب الجبال وعورة وعُلُوًا، وأشدّها مشقة. . .) وتقع من خلفها -عند سفوحـها- أولى المدن الفرنسيـة: «أربون»، التى كانت غاية فى التـحصن، وسدًا منيعًا فى وجوه الطامعين والطامحيـن، والتى استعصت على كثير من الغزاة. . .) فارتدوا عنها.

وصلها «السّمح» فحاصرها بقواته، وضيّق عليها، وقذف أسوارها بالمنجنيقات، وضغط عليها بهجمات مُتتـاليات، وبعد أربعة أسابيع من الحصار فُتحت «أربون» على أيدى المسلمين، ودخلوها ظافرين، مهللين مكبرين.

وأبدى «عبدالرحمن الغافقى» -رضى الله عنه- ضروبًا من الشجاعة والإقدام، وتدبير الخطط فى الهجوم ما لفت إليه الأنظار، وتعلقت به الأبصار، وزاده ذلك عُلوًا ورفعة فى عينى «السّمح» والجند أجمعين.

الأمير - رغمًا عنه - !!

وتابع الجيش الإسلامى الظافر زحفه فى الأرض الفرنسية باتجاه «تولوز» - عاصمة مقاطعة «أوكتانيا» على الساحل الجنوبى من فرنسا، فلما أتوها ضربوا حولها الحصار، ورموها بقذائف المجانيق تهدم أسوارها وأبراجها، وتسقط عليها كسفًا من فوقها..!

وكادت المدينة تقع فريسة للهزيمة الساحقة، ولكن ... حدث مالم يكن فى الحُسبان، ولأمر قدره الله تعالى فى علمه وقضاه فى حكمه..، إذ كان حاكمها قد استنجد بمن خلفه من الأمراء والحكام من كل دول أوروبا، فأتوه مبادرين زاحفين، ومعهم جيوشهم تملأ الوديان والسهول، حتى إن غبار الأرض من تحت أقدامهم وسنابك خيولهم كان يتصاعد إلى عنان السماء فيحجب نور الشمس عن مقاطعة «الرون» كلها!!!

والتقت الجيوش الزاحفة بجيش المسلمين فى ظاهر المدينة، وثبت جند الله ثبوت الجبال الرواسى، بما أُلهموا من صبر وإيمان وفداء...!

لكن سهمًا أصاب «السّمح بن مالك» - القائد - فى صدره، فخر صريعًا شهيدًا...، إذ كان - رحمه الله - لا يفتأ يتنقل بين كتائب جيشه يحرضهم على القتال، ويتفقد مواقعهم عن يمين وشمال، وقلب ومقدمة..!

رأى الجند قائدهم يسقط، فدب اليأس إلى قلوبهم، والذعر إلى نفوسهم، وفت فى عضدهم، ووقعت البلبلة فى صفوفهم..، ولاحت فى الأفق فوق رؤوسهم الهزيمة الفاجعة..!

لولا أن تداركتهم عناية الله تعالى..، وأبرزت - بل أفرزت - لهم قائدًا شجاعًا محنكًا هو «عبدالرحمن الغافقى»، إذ أعطى أوامره بالاستعداد للانسحاب بأقل قدر ممكن من الخسائر، وعلى عجل..! ودون تردد ولا وَجل..!

واستطاع (الأمير) - رغمًا عنه - أن يرجع بجيش المسلمين إلى الأندلس، دون هزيمة ساحقة، أو إبادة كاملة.

كان الجند يعـرفون - حق المعرفـة - شخصيـة «عبدالرحـمن» القائد، فالتـفوا حوله، وشعروا بشىء من الطمأنينة تعود إلى قلوبهم ونـفوسهم، وهو يتقهقر بهم رويدًا رويدًا من الميـدان، رغم الجرح الأليم الـذى أصابهم باسـتشـهاد «السّـمح» والهزيمة التى حلّت بهم. . ، والتى كانت أول هزيمة يلقونها من عدوِّهم، منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس.

الأمير - الوالى

لم يكن «عبدالرحمن» - كما قدمنا - يـطلب الإمارة والقيادة، لكنه وجد نفسه مبايعًا من الجند. . ، بل جنديًا يتصدر الموقف رغمًا عنه، فقبل مُكرهًا!!!

وما إن عاد إلى «قرطبة» حتى تبلّغ منشور الخليـفة «عمر بن عبدالعزيز» بإقراره على إمـارة الأندلس، والمقاطعـات الفرنسـية التى بسط المسلمـون أيديهم عليـها، وإطلاق يده فى إصلاح مختلف الشؤون.

الإدارى والسياسى

اتجه هم «عبـدالرحمن» - أولاً - إلى استعـادة الجند ثقتهم بأنفسـهم، وتحقيق العدل فى المجتمع، والاستعداد للثأر، ومتابعة الفتح. . !

وكانت هذه المهـام شغله الشـاغل، لأن الزلزلة التى أصابت الجند كـانت مؤلمة وشديدة، ما تعوّدوها من قبل. . ، فـأخذ -رضى الله عنه- يصل ليله بنهاره ليزيل آثارها من قلوبهم، بشحذهم وإذكاء الإيمان فى أرواحهم، وتذكيرهم الدائم بنصر الله تعالى لهم.

كما التفت إلى الإصـلاح الاجتماعى، لبناء القاعدة السليـمة التى ينطلق منها، فلا خير فى أمةٍ مهزومة فى نفوسها، مفككة فى بنائها وتواصلها.

وكان من أعماله فى هذا المجال أن طاف البلاد كلها، من أقصاها إلى أقصاها، يقوِّم ما اعوجّ، ويضبط ما نشز، ويُصلح ما فَسد. . !

ونادى فى الناس :

من كـانت له مظلمـة عند والٍ من الولاة أو قـاضٍ من القـضاة، أو أحـد من الناس، فليرفعهـا إلى الأمير، لا فرق فى ذلك بين المسلمين وغـيرهم من الذميين المعاهدين، وقام بنفسـه بالنظر فى الشكاوى والمظالم، يقتص للمظلوم من الظالم، ويقوِّم ميزان العدل.

ومن أبرز أعـماله -رضى الله عنه- أن حـقق فى موضـوع الكنائس المغـتصـبة والمستـحدثة، فرد مـا قضت به المواثيق والمعـاهدات إلى أصحابهـا، وهدم ما بُنى رِشوة. . !

وكذلك حاسب الولاة على الأقاليم، والعُمـال على المقاطعات، فأقر منهم فى مناصبهم من ثبت له حسن سلوكه، ونصاعة يده، وعزل واستبدل بمن كان ضعيفًا أو منحرفًا غيره من أهل الثقة والكفاءة.

كمـا أخذ فى الأعمال العـمرانية، من تشيـيد للجسـور والقناطر فوق الوديان والممرات الجبـلية، لتسهـيل حركة الناس فى أمور مـعايشهم، وتحركـات الجيوش أيضًا. .، ودعم الحصون والقـلاع، وأقام فيها الحاميات، خـصوصًا تلك الموجودة على الحدود، أو قريبًا منها، لتكون دروعًا واقية تصد غارات العدوان.

وكان لا يتخذ قرارًا قبل المشـورة، فإذا ما حل ببلد جمع القادة ووجوه الناس، يسمع إليهم ويتفهم مطالبهم، ويدون كل ذلك، وقليلاً ما كان يتكلم.

ولم يتوقف فى استطلاعه لشؤون المواطنين عند المسلـمين فقط، بل كان يجتمع إلى رجـال الدين والدنيا من الـذميـين كذلك، فـهم رعـايا الدولة، ولهم العهـد والميثاق.

لقد كان اهتمامه فى ضـمان القاعدة الشعبية جُل غايته وهدفـه استعدادًا لمعركة الثأر، واسترداد الهيبة، وتضميد الجراح، والانطلاقة الكُبرى إلى الفتح، وأنفق فى ذلك قرابة السنتين من الأعوام.

العين الساهرة:

وكانت عين «عبدالرحمن» الساهرة على الشئون الداخلية للبلاد لا تغفو عن تحركات العدو خارجها، فقد بث العيون والأرصاد ترقب الأحداث وتنقل إليه كل حركة، بدقة وأمانة.

وذات مرة استدعى إليه أحد كبار المعاهدين، من أبناء المقاطعات الفرنسية، وحدّثه وتبسط معه فى كل شأن وأمر، حتى أنس إليه ضيفه، ثم سأله فجأة:

- ما بال ملككم الأكبر - «شارل مارتل» - لا يتصدّى لحربنا وليس بيننا هدنة ولا معاهدة، وقد حشد من الجند من كل البلاد الأوربية جيشًا جرارًا؟؟ لماذا؟؟

فأجابه الضيف:

- أيها الأمير، لقد وفيتم لنا بذمتكم علينا، وعهدكم لنا، فمن حقكم أن نصدقكم القول فى كل ما تسألون عنه وتستفسرون. . ، إن قائدكم الكبير «موسى ابن نصير» كان قد أحكم قبضته على «إسبانيا» و«البرتغال»، ثم تطلّع إلى اجتياز جبال «البيرنيه» التى تفصل بين الأندلس وفرنسا، رغبة منه فى احتلال بلادنا. . ، ففزع حكام الأقاليم والمقاطعات وكبار رجال الدين إلى «شارل مارتل» وقالوا له: ما هذا الخزى والعار الذى نزل بنا وبأحفادنا وكان وصمة الدهر والأبد؟ لقد كنا نسمع بالمسلمين من قبل وما نعبأ بهم، ونصد وثباتهم المتتالية علينا من قبل المشرق، من ناحية «القسطنطينية»، المرَّة تلو المرَّة، ونردهم على أعقابهم، ولكنهم الآن قد جاؤونا من حيث لا نحتسب، جاؤونا من قبل المغرب، ووطدوا أقدامهم فى «إسبانيا» وامتلكوا فيها من الذخائر والكنوز، وبنوا القلاع والحصون، ومهَّدوا لهم تمهيدا. . ، كيف حدث ذلك وعددهم قليل، وسلاحهم هزيل، وهم فى عيون الأمم ذات الحضارات أهون الناس؟ كيف؟ كيف؟؟

فقال لهم :

- إن ما يشغلكم الآن قد شغلنى من قبل، وقد فكرت فيه طويلاً، ورأيت أن لا نتعرض لهؤلاء القوم فى وثبتهم الآن، فإنهم فيها كالسيل المتدفق الجارف، يأخذ

فى طريقه كل ما يعترضه، بل يقتلعه من جذوره، ويلقى به حيث يشاء، وهم فى عقيدتهم التى يعتقدون أقوى وأصلب من كل القلاع والحصون، والدروع والرماح... وكل سلاح، فأمهلوهم إلى حين، إلى أن تمتلئ أيديهم بالغنائم، ويخلدوا إلى القصور والدور، ويتخذوا الخدم والحشم، ويتنافسوا على الدُنيا بكل متاعها وزخرفها، عندئذ -فقط- تكون لكم الغلبة عليهم، وهزيمتهم[1].

كان «عبدالرحمن» - على عادته - يسمع ولا يتكلم، وينصت ويصغى باهتمام شديد، فقد كانت إجابة «شارل مارتل» للسائلين حقيقة لاريب فيها..!

ثم تنهد تنهيدة عميقة، وزفر زفرة شديدة أودعها كل آلامه وأحزانه، وهب واقفًا قائلاً: -حى على الصلاة، فقد آن أوانها، ووجب وقتها، ونسأل الله تعالى العافية.

ولا يفوتنا هنا - عزيزى القارئ - أن ننوه بأمر ذى بال، فقد كانت هذه الأعمال والاستعدادات خلال الولاية الثانية لـ «عبدالرحمن الغافقى»، أمير الأندلس، فأما الأولى فقد علمنا ظروفها، إذ كانت بعد استشهاد «السّمح بن مالك» فى معركة «تولوز».

ولقد مرَّ على «عبدالرحمن» عشر سنوات، كان أثناءها قائدًا عاديًا، من سنة (١٠٣هـ)، حتى سنة (١١٣هـ)، فقد تقلب على منصب الأمير الوالى أكثر من شخص، وقليلاً ما انطلقت الجيوش إلى أهدافها فى الفتح، وعمَّت الفوضى والضَعف..، حتى كان عهد الخليفة «هشام بن عبدالملك» الذى أصدر مرسومًا بإعادة «عبدالرحمن» إلى الإمارة مرة ثانية.

ولقد وصفه المؤرخون فقالوا:

(كان «عبدالرحمن» جنديًا عظيمًا، وحاكمًا قديرًا بارعًا فى شؤون الحُكم والإدارة، ومُصلحًا كبيرًا يضطرم رغبة فى الإصلاح، بل كان بلا ريب أعظم وُلاة الأندلس، وأقدرهم جميعًا)[2]

---

(١) (دولة الإسلام فى الأندلس) - محمد عبد الله عنان - (ج: ١) (ص: ٨٤).

(٢) (نفح الطيب) (ج: ١) (ص: ١٢٩).

لم ينس «عبدالرحمن» عَهده مع الله تعالى، منذ أن نزل الأندلس، ومشت قدماه على أرضها، وأن يكون طوال حياته مرابطًا فى سبيل الله . . ، وأنى للمؤمن الصادق أن ينسى . . !؟

ولم ينس أيضًا عهده لـ «السّمح بن مالك» أن يثأر له من عدوّه . . !

فلما أتم استعداداته، واستوثق من حال البلاد والعباد، واطمأن إلى سلامة ومتانة الجبهة الداخلية، نادى فى الناس: حى على الجهاد!!

واستعان ببعض الجند من والى إفريقية، فأمده . . ، كما أرسل إلى أمير الثغور «عثمان بن أبى نسعة» يأمره أن يشاغل العدوّ بغاراته حتى يقدم عليه.

ومن قبل «ابن أبى نسعة» كانت الفجوة ومكمن الخطر . . !

إذ كان هذا الأمير ساقط الهمة، مريضًا بالحقد، أضف إلى ذلك أنه كان قد أسر ذات يوم ابنة «دوق - أوكتانيا»، فتزوجها . . ، وكانت ذات حسن وبهاء، . . ودهاء، فاستطاعت - وقد خلبت لُبه وعقله - أن يكون لها التأثير الكامل عليه، حتى عقد معاهدة مع أبيها وصالحه وأمَّنه.

فلما جاءه أمر الأمير «عبدالرحمن» بالزحف والمشاغلة، توقف حيران لايدرى ماذا يفعل . . !!؟ وزينت له زوجته أن يرفض الأمر . . فأطاعها، وكتب إلى «عبدالرحمن» يقول إنه لايستطيع أن ينقض عهده مع «دوق-أوكتانيا»، حتى يتم الأجل.

غضب «عبدالرحمن» من تهاون واستخذاء «ابن أبى نسعة» غضبًا شديدًا، ووجه إليه كتيبة من أشد فرسانه مضاءً وعزيمة، وأمرهم أن يأتوه بهذا الخائن، حيًا أو ميتًا، وقد عُرف أن هذا الغادر قد راسل «دوق-أوكتانيا» وحذره من قدوم «عبدالرحمن» عليه.

فلما أحس «ابن أبى نسعة» بالخطر، فرَّ ومعه فرسانه وزوجته، وتحصن فى رؤوس الجبال، فتبعه فرسان «عبدالرحمن»، ووقعت بين الطرفين معركة رهيبة، سقط على أثرها الخائن صريعًا، فاحتزت رأسه وحُملت إلى «عبدالرحمن» . . .

ومعها زوجته الحسناء «مينين»، فأرسلها «عبدالرحمن» مخفورة إلى الخليفة «هشام ابن عبدالملك» في «دمشق».. !

وهكذا .. سدَّ «عبدالرحمن» هذه الثغرة، ودرأ عن نفسه الخطر، وبات يستعد للزحف المقدس. ومع مطلع عام (١١٣هـ) انطلق «عبدالرحمن» بجيش من الأندلس باتجاه فرنسا..،

انطلق قائدًا، وعاد شهيدًا ..!

خرج يحدوه الأمل بالظفر والنصر والثأر ..!

ولكن تكرّرت مأساة «أُحد» في «بلاط الشهداء» ..! فكيف كان ذلك؟؟

الخروج العظيم

انطلق «عبدالرحمن» بجيشه اللجب الذى زاد على مائة ألف من المقاتلين الشجعان، متجهًا شمالاً قاصدًا مقاطعة «أكوتين»، حيث خصمه اللدود «أودو»، وبلغت مسامع «الدوق» أنباء هذا الزحف، فاستعدّ للقاء «عبدالرحمن»، وقد تراءت له واقعة مقتل صهره «ابن أبى نسعة»، ووقوع ابنته «مينين» أسيرة، وانتقالها إلى دار الخلافة فى «دمشق» جارية من الجوارى...، وازداد خوفًا أن يكون مصيره كواحد منهما، فتحصن وتأهب، وحشد كل ما يستطيع حشده.

اخترق «عبدالرحمن» ولايتى «أراجون» و «نافار» وانحط كالسيل الجارف من فوق جبال «البيرنيه» عن طريق «بنبلونة» ودخل الأراضى الفرنسية فى ربيع عام (١١٤هـ)، وكان أول توجهه إلى مدينة «آرل» الواقعة على نهر «الرون»، إذ نكصت هذه المدينة على عقبيها، وتخلفت عن دفع الجزية بعد استشهاد «السّمح ابن مالك» فى «تولوز»..، فأراد «عبدالرحمن» تأديبها وقهرها.

فلما أتاها وجد «دوق أكوتين - أودو» قد استعد له وتصدى، فجرت بين الطرفين معركة هائلة، انهزم فيها «الدوق» وفرّ هاربًا من الميدان بما بقى معه من فلول جيشه وقواته، ودخل «عبدالرحمن» المدينة - مدينة «آرل» واستولى عليها حربًا، وغنم كثيرًا من الغنائم التى لا تحصى ولا تعدّ..!

ثم زحف غربًا وعبر نهر «الجارون»، وانتشر الجيش الاسلامى الظافر فى أنحاء مقاطعة «أكوتين» يثخنون فى مُدنها وبسائطها، ويحققون النصر تلو النصر، فجمع «الدوق» فلوله، وحاول أن يتصدى من جديد لزحف «عبدالرحمن»، لكنه ما لبث أن انهزم هزيمة ساحقة ماحقة.

يقول «إيزيدور الباجى»، والله وحده يعلم كم قُتل فى تلك الموقعة من النصارى!!!

واستولى «عبدالرحمن» على مدينة «بوردو» بعد حصار قصير، وفرّ «الدوق أودو» فراره النهائى، وبذلك تم فتح مقاطعة «أكوتين» كلها.

ثم ارتد «عبدالرحمن» نحو نهر «الرون» فاخترق «برجونية» واستولى على «ليُون» و«بيزانسون» ووصلت طلائع قواته إلى «سانس» التى كان بينها وبين «باريس» مائة ميل فقط..!

وتعد هذه المناطق كلها نصف فرنسا الجنوبى، وقد تم لـ «عبدالرحمن» الاستيلاء عليها فى مدة وجيزة كانت تقدَّر ببضعة أشهر فقط!!

ويحدثنا المؤرخ «إدوارد جيبون» فيقول:

(وامتد خط الظفر مدى ألف ميل، من صخرة «طارق» إلى ضفاف نهر «اللّوار»، وقد كان اقتحام هذه المسافة يكاد يحمل العرب إلى حدود «بولونيا»، وربُى «اسكتلندا» فليس نهر «الرّاين» بأمنع من «النيل» و«الفرات»، ولعل أسطولاً عربيًا كان يمكنه أن يصل إلى مصب نهر «التايمز» دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد «أكسفورد»، وربما كانت منابرها تؤيد لـ «محمد» ﷺ صدق الوحى والرسالة!!!) أ.هـ.

تلك هى صورة الزحف الذى قام به «عبدالرحمن الغافقى» فى عيون الغرب، وتصورات انعكاساته على تلك الفترة التاريخية.

النفير فى أوروبا ..!

وأطلق النفير فى كل دول أوروبا يستصرخ هِمم الناس لصد تيار الإعصار الإسلامى الزاحف، وأخذت الحشود تتجمع من هنا وهناك، تحت قيادة «شارل مارتل»، ولاح فى الأفق بوادر معركة هائلة لم يشهد لها التاريخ من قبل مثيلاً.

ويصف الشاعر الإنجليزى «سوذى» جموع المسلمين وحماسهم وحميتهم واندفاعهم فيقول:

[جمع لا يُحصى ...

من شام وعرب وبربر، وروم وخوارج

وفُرس وقبط وتتر ... عصبة واحدة

يجمعها إيمان هائم راسخ القوة

وحمية مضطرمة، وأخوةً مروّعة

ولم يكن الزعماء أقل ثقة بالنصر...

وقد شمخوا بطول الظفر

يتيهون بتلك القوة الجارفة

التى أيقنوا أنها - كما اندفعت .. حيثما كانوا بلا منازع

ستندفع ظافرة إلى الأمام

حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق

يطأطئ الرأس إجلالاً لاسم «محمد» ﷺ !!

ينهض الحاج من أقصى المتجمد ليطأ بأقدام الإيمان الرمال المحرقة...

المنتشرة فوق صحراء العرب

وأراضى «مكة» الصلدة...]

وكان جيش «شارل مارتل» الضخم خليطًا من مختلف العشائر «الجرمانية» المتوحشة، والعصابات الأوروبية المرتزقة، جله جند غير نظاميين، نصف عراة، يتشحون جلود الذئاب، وتنسدل شعورهم المتجعدة فوق أكتافهم العارية.

اللقاء ...!

ويصف لنا المؤرخون ذلك اللقاء بين «عبدالرحمن الغافقى» وبين «شارل مارتل» فيقولون: انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى «پواتييه» و«تور»، وكان المسلمون قد استولوا على المدينتين واستخرجوا كنوز كنائسها وقصورها وأديرتها.

وعند نهر «اللوار» كان «شارل مارتل» قد وصل قبلهم، ولم يشعروا به إلا وهو أمامهم بجموعه الجرارة، وقدّر «عبدالرحمن» خطورة هذا الجمع الغربى الحاشد، فارتد إلى السهل الواقع بين «پواتييه» و«تور» وعسكر هناك.

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش، وكانت هذه القبائل تتوق إلى الانسحاب، ناجية بغنائمها الكبيرة الكثيرة.

وكان المسلمون - فى الواقع - قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر، وغنموا كنوز أديرتها وكنائسها، وأُثقلوا بما لا يعد ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى.. !

فكانت هذه الأثقال النفيسة تُحدث الخلل فى صفوفهم، وتثير النزاعات.

وقدّر «عبدالرحمن» خطورة هذه الغنائم على نظام جيشه وأهبته، وحاول - عبثًا- أن يحملهم على ترك شىء منها، والتخفف من وطأتها، ولكنهم كانوا فى حرص شديد عليها، ولم يقسرهم على ذلك... خشية التمرد!! ومع كل هذا صمم «عبدالرحمن» على خوض المعركة، بعزم وثقة، ووضع خطته للقتال، وتأهب لذلك.

وكـما كـانت غنائم قـريش يوم «أحـد» ... وتخلى الرُمـاة عن مـواقعـهم، ومخالفتهم أوامر الرسول ﷺ سببًا فى الهزيمة، وبُدل ميزان المعركة...، كان - أيضًـا- معـسكر الغنائم فى المواجهـة بين جـيش المسلمين بقـيادة «عـبدالرحـمن الغافقى»، وجيش الفـرنجة بقيادة «شارل مارتل» سببًا فى نكبـة أليمة... وهزيمة مُرّة..!

بدأ القتـال، وكان ذلك فى أواخـر شهـر شعبـان سنة (١١٤هـ). واستـمرت المعارك بين الطرفين على مدى سبعة أيام، دون أن يحقق أحد الطرفين نصرًا.. أو غلبة.

وفى اليوم الثامن نشبت مـعركة عامة،، اشتبكت فيـها كل قوات الطرفين..، واشتدت..، وحمى وطيسها حتى جن الليل، وفصل بينهما الظلام.

ومع فجر اليوم التالى استؤنف القتـال، أشد ضراوة، حتى ظهر الإعياء الشديد على جيش «شـارل مارتل»، ولاحت بوادر النصـر الإسلامى..، ورجحت كـفة جيش «عبدالرحمن»...

وفـجأة .. سُـمع صوت يقـول بأن مـعسكر الغـنائم يوشك أن يقع فى أيدى العـدو، فارتد أكـثر الفـرسان من قلب المـعركـة إلى الصفـوف الخلفيـة لحمـاية الغنائم..!

وهكذا حَدَث الخلل الكبير فى صفوف المسلمين، وتضعضع تماسكهم، وانقلب اندفاعهم وهجومهم ارتدادًا..!

وعبثًـا حاول القائد «عبدالرحمن» أن يُعـيد النظام إلى صفوف قواته وجـيشه، ويهدئ من روع جنده..!

وبينما هو ينتـقل هنا وهناك فوق جواده، أصـابه سَهم فى صدره، فـسقط عن الصهوة أرضًا، ولفظ أنفاسه الطاهرة، شهيدًا فى سبيل الله.

وارتد جيش المسلمين تحت جنح الليل مخلفًا وراءه آثار أعظم معركة وأخطرها في تاريخ الفتح الأندلسى، من غنائم وأسلاب.. و.. شهداء!!!

وقد عُرفت تلك المعركة بـ «معركة بلاط الشهداء».

رحم الله تعالى التابعى الجليل، القائد الفاتح «عبدالرحمن الغافقى» وبوأه من الفردوس الأعلى أسمى منزلة، وأرفع مقام.

****

١٦- السمح بن مالك

حيثُ إننا قد خضنا معًا أنباء الفتح الإسلامى لـ «الأندلس»، وعايشنا لبضع سنوات قليلة جهاد «طارق بن زياد» والشيخ المجاهد - بطل الأبطال - «موسى بن نصير» -رحمهما الله-، فإنه من الواجب علينا أن نُتابع أنباء الفتح مع الذين خلفوهما، والذين لايقلون عنهما جهادًا ونشرًا للإسلام فى تلك الديار، وتثبيت أركان الوجود الإسلامى هُناك.

وبطلنا اليوم «السّمح بن مالك» أحد أعلام الفاتحين الذى خضبوا بدمائهم الزكية تربة تلك الديار!

«عبدالعزيز موسى بن نصير»

بعد رحيل «موسى بن نصير» و«طارق بن زياد» عن الأندلس إثر استدعاء الخليفة «الوليد بن عبدالملك» لهما إلى «دمشق»، ترك «موسى» ابنه «عبدالعزيز» واليًا على «الأندلس» خلفًا له. . ، وكان من شأن «عبدالعزيز» حُسن جهاده وعظيم بلائه، واتساع فتوحاته، مما أهله لأن يكون واليًا بجدارة.

وبقى «عبدالعزيز» فى مقام الولاية مدة عامين، وقد أقره فيها الخليفة الجديد «سليمان بن عبدالملك».

إلا أن ظروفًا متضاربة، وغامضة - أحيانًا - أحاطت بسلوكه فى الإدارة، أدت إلى الثورة عليه، تزعمها وزيره «حبيب بن أبى عبدة الفهرى»، فقُتل وهو يصلى فى أحد مساجد «إشبيلية» - فى شهر «رجب» سنة (٩٧هـ)، وبعثوا برأسه إلى «دمشق».

« فتنة غامضة »

ولقد قيل فى هذا الصدد روايات كثيرة، أكثرها يوجه الاتهام إلى الخليفة «سليمان بن عبدالملك»، وأنه وراء هذا التدبير الشنيع، تخلصًا من «موسى» وذريته. . !

ونحن لا نميل إلى ذلك . . . نظرًا لما كان عليه حال التنافر بين العرب والبربر في الأندلس، بل التنافس بين العرب أنفسهم، وقد انبسطت لهم أرض «الأندلس»، وتم لهم الاستيلاء عليها.

تعدّد الولاة على «الأندلس»:

وعلى أثر مقتل «عبدالعزيز» اتفق الزعماء والرؤساء في «إشبيلية» على تولية «أيوب بن حبيب اللخمى» - ابن أخت «موسى بن نصير» - وكان عاقلاً حكيمًا، صالحًا في دينه وخلقه، فهدأت الخواطر، ونقل مقر الولاية من «إشبيلية» إلى «قرطبة».

لكن ولايته لم تدم أكثر من ستة أشهر، فقد عزله والى الشمال الإفريقى، وعين بدلاً منه «الحر بن عبدالرحمن الثقفى»، فقدمها في جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . . .، وصرف أكثر وقته في قمع الفتن والمنازعات التى كانت بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند، وتنظيم الإدارة، وتوطيد الأمن، وكان صارمًا جائرًا شديد الوطأة.

والملاحظ أن «الأندلس» كانت حتى ذلك الحين تتبع والى «إفريقية»، ولا سُلطان للخلافة المركزية في «دمشق» عليها.

غزوات «الحُر»:

استعد الحُر بعد أن ضبط الوضع الداخلى - للغزو، ومتابعة الفتح، فسار نحو الشمال في جيش ضخم، ليستعيد المدن والحصون الشمالية التى غزاها المسلمون من قبل، فعبر جبال «البيرنيه»، فاخترق ولاية «سبتمانيا» - «لانجدوك» - في ربيع سنة (٩٩هـ)، فاستعاد مدن «قرقشونة» و «أربونة» و«بنربيه» و«نيمة» . . .، وتابع زحفه حتى بلغ نهر «الجارون» . . . !

لكنه اضطر للعودة . . .، لسببين:

أولهما : أن النصارى في منطقة «نافار» الجبلية قد نظموا حركة مقاومة خطيرة . . . !

وثانيهما: عودة الاضطراب الداخلى في قرطبة . . !

عزله:

ولقد أنفق «الحُر» وقتًا طويلاً فى قمع الفتن، فى محاولة يائسة لإعادة الأمن إلى ربوع البلاد.

فى ذلك الحين ، كان الخليفة «سليمان بن عبدالملك» قد مات وولى مكانه الخليفة الراشد «عمر بن عبدالعزيز» -رضى الله عنه-.

وكان أول أعماله أن ألغى تبعية «الأندلس» إلى والى «إفريقية» وألحقها بـ «دمشق» مباشرة، كما كان له رأى فى الوجود الإسلامى فى «الأندلس»، حتى إنه فكر بالتخلى عنها، إشفاقًا على أرواح المسلمين فى ديار الغربة. . . ، لكنه اقتنع من مستشاريه المخلصين بضرورة الفتح ونشر راية الإسلام.

تم عزل «الحُر بن عبدالرحمن الثقفى» - وعين بدلاً منه «السّمح بن مالك الخولانى».

إطلالة «السّمح»:

لم يكن اختيار «عمر بن عبدالعزيز» - رضى الله عنه - للرجال المسئولين عفويًا، أو لقرابة أو مصلحة، فقد كان رجلاً يَعرف أقدار الرجال، ويزنهم بميزان الإيمان والإسلام، والقدرة على تولى الأمور، بحزم وعزم وكفاءة.

ولقد توفرت فى «السّمح بن مالك» كل المزايا، فى الإدارة والقيادة، إذ لم يكن واليًا مصلحًا حازمًا عادلاً فقط، بل كان قائدًا ميدانيًا عظيمًا، شهدت له بذلك كل المسئوليات التى أوكلت إليه من قبل، فى ساحات المعارك.

قدم «السّمح» إلى الأندلس فى شهر رمضان من سنة مائة للهجرة (١٠٠هـ)، مزودًا بنصائح الخليفة الراشد، واضعًا نصب عينيه أن يتبع الرِّفق والعدل.

فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة، وكان أول أعماله قمع المنازعات، وإعادة اللحمة بين أفراد الشعب والجيش، والقضاء على العصبية العربية والبربرية، ثم أخذ فى إصلاح الإدارة، فعزل من عزل من الولاة وولى من ولّى. . . ، عزل الفاسد وولّى الصّالح.

وأعطى اهتمامه الفائق للجيش، عدة وعددًا وسلاحًا وقيادات، لأنه الأداة - والسيد فى بسط السلطان، وردع المعتدين، وتحرير الأرض، والانطلاق فى الفتح . . !

السياسات الزراعية:

الأندلس أرض ذات تضاريس مختلفة، من جبال ووديان وأنهار وسُهول، وكلها تؤتى أكلها خيرات وعطاءات وفيرة.

ولم تكن - حتى ولاية «السّمح» - قد خمّست، أى حُصرت وحددت، وفرض الخمس على خراجها، وقد فتحت عنوة.

ويحدثنا أحد المؤرخين - من الأسبان[1] - عن ذلك العمل الإصلاحى فيقول:

(لقد ترك الفاتحون «المسلمون» للإسبان الذين أسلموا - أو خضعوا - سواء كانوا جندًا أم نبلاء، حقوقهم فى ملكية أموالهم، كلها أو بعضها، مع فرض ضريبة عقارية مشابهة للخراج «الجزية»، على الأراضى المنزرعة، والأشجار المثمرة، واتبعت هذه القاعدة مع بعض الأديار . .) مما يؤكد سماحة الإسلام فى التعامل مع غير أهله!!!

(وأما ما زاد عن الخمس فى الأراضى التى استولى عليها «المسلمون» الفاتحون، فقد وزّع «بالعدل» بين الرؤساء والجند، والقبائل التى يتألف منها الجيش، الولايات الشمالية لقبائل البربر، والجنوبية لقبائل العرب).

وعليه . . . فقد أعطت الزراعة - من خلال هذه السياسة العادلة - دفقًا عظيمًا من الثروة، انعكست على بيت المال وعلى الأفراد، على حد سواء.

القنطرة. . .!

أو قنطرة «السّمح» . . . التى لاتزال إلى يومنا هذا أثرًا قائمًا، شاهدًا على أعمال «السّمح» الإصلاحية العُمرانية.

---

(١) (ألتاميرا). R.Altamira. Historiade Espana V.(1) P.217 - 218.

لقد رأى فى بعض جولاته التـفقدية للبلاد أن نهر (الوادى الكبيـر) يحجز بين المقاطعات، ويعيق التحركـات، ويؤثر سلبًا على حريّة وسرعة التنقل، فأرسل إلى الخليفة الراشد فى «دمشق» يعرض عليه الأمر ويستشيره فى بناء قنطرة (جسر) فوق النهر، يصل بين طرفى الوادى، ويسهل وينظم!! يسهل الحركة، وينظم تدفق المياه الغزيرة.

فانشرح صدر الخليفة لذلك ووافق على العمل العظيم. . . !

فأعدت الخرائط والرسومـات، وتطوع المهندسون والعمال، وبُذل المال. . ، وتم إنشـــاء القنطرة، وهـــى مـــاتزال تحـــمل اسم «السّـــمح» إلى يومـــنا هذا، وتؤدى عملهـــا. . ، ولو مع تحريف الاسم «السّـمح»، إذ يكتبـه الفرنجة فـى تواريخهم، ويلفظونه «زيما : Zima »

الجبهة الداخلية:

وفى مدة وجيزة لاتزيد على السنة، استطاع «السّمح بن مالك» من خلال روحه الوثابة وإرادته القـوية، وشخـصيـته الـفذة، وعـقله النيّر . . ، أن يكوّن الجـبهـة الداخلية المتينة المتماسكة، وتزدهر البلاد ازدهارًا عظيمًا.

ولولا هذا البناء الأساسى لما استطاع أن يقوم بأعمال الفتح العظيمة. . !

انطلاقة «الفتح» !!

لقد كـان «السّمح» - رحمه الله - فـوق كفايته الإدارية - التى عـرضت لها - جنديًا جريئًـا، وقائدًا عـسكريًا عظيمًا، يُحـسنُ إدارة المعارك، ويخـوض المعامع، ويتقـدم الجند، ويعطى المثل الأعلى فى الجهـاد والبذل والتضـحية. . . فى سـبيل الله.

فلمـا انتهى من مهـمة التنظـيم والإصلاح، تأهب لاسـتئناف الغزو والـفتح، وتوطيد سلطان الخـلافة. . . ، خاصة فى الولايات الجـبلية، والقواعد الشـمالية، التى لم يستطع سَلَفه «الحُر بن عبدالرحمن الثقفى» أن يخضعها أو يستعيدها.

فـزحف أولاً على ولاية «لانجدوك» - وتُـعرف بـ «سـبتـمـانيا» - فى جـيش ضخم، يضم جماعات كبيرة من الزعماء والقادة، العرب والبربر.

فاخترق سلسلة جبال «البيرنيـه»، من ناحية «روسيسون»، وهى الحدود الفاصلة بين «إسبانيا» وفرنسا» - حاليًا -.

وخاض عدة معـارك . . .، وكان فى زحفه هذا كالريح العاصف تدمِّـر أمامها كل شيء، فلم تستطع كل القوى والجيوش التى تصدت له أن تحجزه عن غايته.

فاسـتعـاد مُدن «أربونـة» و «قرقشـونة»، ومعـظم قواعـد وحصـون مقاطـعة (لانجدوك) - سبتـمانيا، وعاث فى تلك الأنحاء، يمينًـا وشمالاً، وقد تم له ذلك سنة إحدى ومائة للهجرة (١٠١هـ) وفى مدة وجيزة.

ويقول بعض المؤرخين[١] عن تلك الحملة:

[إن العـرب اجـتاحـوا - يومـئـذ - «غـاليس القـوطيـة»، وجـميع قـواعـد «سبتمانيا»][٢]

المتابعة:

بعد هذه الانتـصارات المتواليـة، والتى أكسـبت «السّمح» ومن معـه من القادة والجند ثقـة كبـيرة، قرر مـتابعـة الزحف شرقًـا - أيضًا - قـاصدًا مملكة الـفرنج (أكوتين). . . !

وهى المرة الثالثة التى يغزو فيها العرب «فرنسا».

فزحف بجمـوعه نحو عاصمتـها «تولوشة» - تولوز-، باندفاعةٍ قـوية كالسيل الجارف، لا يقف فى وجهه حاجز ولا مانع.

ويجدر بنا قـبل أن نتحدث عن هذه الغـزوة أن نلقى نظرة على ما فـعله القائد (الوالى) فى ولاية «سبتمانيا». . !

(١، ٢) (إيزيدور الباجى): Dom Vissette: Ibid. V(1) P(781)

لم يكن قصده الغـزو فقط، واستلاب المغانم، والاستحـواذ على الخيرات، بل الفتح ونشر الإسلام، وبسط السلطان، وتمكين الأيدى من تلك الديار.

فلقد أقـام فى الولاية حكومة إسلامـية مركـزية، لها إداراتها ونظامـها، ووزع الأراضى بين العرب وسكان تلك البـلاد الأصليين، وفرض الجـزية على النصارى من أهلهـا، وترك لهم حـرية الاحتكام إلى شـرائعـهم، ولم يتعـرض لكنائسـهم وأديرتهم، وأقـام المساجـد للعبـادة، حـتى اتسمت الولاية، من خـلال صورتهـا العامة، كأنها ديار إسلامية.

فلما تم له ذلك زحف نحو مملكة الفرنجة فى «أكوتين».

وهذا - ولا شك - شأن القائد الفاتح الذى يضع نشر الدين الحنيف فى طليعة اهتماماته، ولا شيء غير ذلك، لا يستعمر ولا يستغلّ. . . !!

دوق «أودو» - ملك «أكوتين»:

وكان دوق «أودو» - ملك «أكـوتين» أقوى أمراء الفـرنجة فى منطقة «غـاليا» - غاليس - وأشدَّهم بأسًا، وقد استطاع أن يقضى على أكـثر خصومه ويستقل بتلك الناحية، وقد التفت حوله قبائل «النافار» - «القوط» و«البشكنس»-، مما حفزه إلى أن يعد الـعُدَّة لتوسـعة رقـعة سلطانه، والتـخلص من باقى أعدائه وعلـى رأسهم «شارل مارتل» - خصمه اللدود.

خطر الزحف العربى:

لكن خطر الزحف العربى على بلاده بقـيادة «السّمح بن مالك» جـعله يصرف النظر عن طموحاته، ويستعد لرد العدوان.

ولقد أهّل أطراف مـقاطعتـه (مملكته) بالحصـون والجند من قبـائل «البشكنس) و(الغسكونيين) وزودهم بالعتاد والسلاح.

الصدام :

وواجه «السّمح» جمـوع الأعداء الفرنجة فى أكثر من موقعة ومـعركة، واستطاع أن يدحرهم جميعًا، ويشتتـهم، ويستولى على ما خلفوه وراءهم من قرى ومزارع

وضياع وأموال وأسرى. . ! ثم تابع زحفه المؤزر باتجاه «تولوز» العاصمة، التى كانت مقصده - كما سبق وقدمنا -.

خروج الدوق «أودو»:

لم ييأس الدوق «أودو» من سلبيات الهزائم التى منيت بها طلائعه، فقد كان وافر العزم شديد البأس، صلب الإرادة، فنفخ فى الناس روح المقاومة فاستجابوا له. . .، وخرج بجموع لا حصر لها لملاقاة «السّمح». . ! وقد زادت كثرة كثيرة على قوات المسلمين.

علم «السّمح» بكل ذلك فارتد عن «تولوز» إلى سهولها وبسائطها، واستعد لملاقاة «أودو» وجيشه الضخم، الوافر العدة والعدد. . غير مبالٍ بقلة جنده.

المعركة:

ونشبت المعركة فى سهول «تولوز» عنيفة قوية دموية. . . !

وسالت الدماء غزيرة، وكثر القتل فى الجيشين، وأبدى المسلمون - رغم قلتهم - شجاعة خارقة، وثبتوا فى وجه عدوهم ثباتًا عظيمًا. . .، حتى إن النصر تراوح بين الفريقين. . .، ودامت أيامًا طوالاً.

«السّمح» الشهيد . . . !

وبينما كان القائد البطل «السّمح بن مالك الخولانى» يتقدم الصفوف، ويخوض القتال، لا يُبالى بالرماح أو السيوف أو الحراب، ويحفز الجند على الثبات، ويصيح فيهم: حى على الجهاد . . . ! رُمى بسهم، فأصابه فى مقتل، وسالت دماؤه . . .، وسقط الفارس عن جواده. . .، ولفظ أنفاسه، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها.

عندئذ اختل نظام الفرسان المسلمين، وتضعضعت قوتهم، ووقع الاضطراب فى الجيش كله. . .،

وبدأت عملية الارتداد والانسحاب.

وعلى الفور اختار الجند قائدًا من بينهم، كفؤًا. . . ! وزعيمًا مشهودًا له.

هو البطل الفاتح «عبدالرحمن الغافقى»...!

وأجمعوا عليه والتفوا حوله، واستطاع «عبدالرحمن» أن يرتد بفلول الجيش الإسلامى المنهزم، نحو الجنوب، ويلملم صفوفه، ويحمى قواته، حتى بلغوا «سبتمانيا».

وكان أن أجمع الزعماء من رؤوس الجند والعشائر على ولاية «عبدالرحمن الغافقى» بدلاً من «السّمح» الشهيد - مؤقتًا - ريثما يأتى أمر الخليفة من «دمشق» باسم الحاكم والوالى الجديد.

رحم الله تعالى «السّمح بن مالك الخولانى»، البطل الشهيد، والجندى العنيد، والقائد الفارس العتيد، الذى خضب بدمائه الزكية الطاهرة سُهول «تولوز» من أرض «فرنسا». شهادة طيبة له عند الله تعالى.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

****

١٧- عبدالرحمن الناصر

لو قُدّر لك ذات يوم أن تزور الأندلس (إسبانيا) - الفردوس المفقود - لرأيت من آثار العرب والمسلمين فيها عجبًا عُجابًا.

ومن أشد ما يلفت نظرك ويستولى على مشاعرك، وتقف عنده طويلاً، متأملاً متذكرًا. . . «قصر الزهراء» و«المسجد الجامع» فى «قرطبة»، ومن خلالهما تدرك مدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية فى تلك الأيام، وقد كانت «أوروبا» كلها غارقة فى ظلمات الجهل.

هذا . . . فضلاً عما تفتقت عنه القرائح والعقول فى ميادين الثقافة والعلوم، وسطرته الأقلام فى الطرس، فغدا تراثًا فكريًا نهلت منه «أوروبا» حتى ارتوت. . . واتخذته من ثم قاعدة وأساسًا لنهضتها. . ، حتى المعاصرة!!

وما من شك أبدًا أن عصر «عبدالرحمن الناصر» الذى امتد خمسة عقود من السنين كان أزهى وأعظم عُصور الأندلس على الإطلاق.

يشهد بذلك التاريخ والمؤرخون، على مختلف اتجاهاتهم ونزعاتهم، إنصافًا وعدلاً، وإحقاقًا للحق.

ومن هنا . . كان لابد لنا من تسجيل اسم «الناصر» -عبدالرحمن- فى لائحة شرف أبطال الفتح الإسلامى. . ،

ولقد كان «الفتح» -عنده- على أكثر من جهة، وفى أكثر من ميدان.

ونحن نحاول -بإذن الله تعالى- أن نحيط بشخصه وأعماله وآثاره، ونقدمها لك نموذجًا ولو فى عُجالة. . . ذلك أن الحديث عنه يقتضى مُجلدات، ولا يسعنا ذلك، والله الموفق.

حفيد «صقر قريش»

هو: «عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن» -الداخل، صقر قريش.

وهو ثامن أمراء بنى أمية فى الأندلس.

و«صقر قريش» هو اللقب الذى أطلقه «أبو جعفر المنصور» -العباسى- على «عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك»، الذى نجا من فتك العباسيين، وفرَّ إلى «الأندلس» هاربًا، واستطاع بذكائه ونشاطه وشجاعته وفروسيته أن يؤسس الدولة الإسلامية الأموية فى الأندلس، وينافس ملك العباسيين فى المشرق، ولقد عدَّه المؤرخون أحد عظماء العالم.

والملاحظ -القارئ العزيز- فى سلسلة النسب أن ثلاثة من أصحابها كان اسمهم: «عبدالرحمن»، الأكبر وهو «صقر قريش»، والأوسط وهو «عبدالرحمن ابن الحكم» والأصغر وهو «عبدالرحمن» -الناصر- صاحب حديثنا اليوم.

وُلد «عبدالرحمن» فى الثانى والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وسبعين ومائتين للهجرة (٢٧٧هـ)،

ولد يتيمًا ...!

فقد مات أبوه «محمد» قبل ولادته بواحد وعشرين يومًا، فتعهده جده «عبدالله» وأفاض عليه من حبه وعطفه ورعايته، وكان كثير الحنو عليه.

أما أُم «عبدالرحمن» فقد كانت من سبى الفرنجة، نصرانية غسلونية، تدعى «مارية»، وتسميها الروايات العربية: «مزنة»، فهى أم ولد.

نشأته

نشأ -كما عرفنا- فى كنف جده ... الذى أحاطه بكل مشاعر حبه، وتولى تربيته..، وما كاد يبلغ أشُده حتى تكشفت مواهبه، فأبدى فى مستهل عمره امتيازا وتفوقًا، وتجلت براعته فى النحو والشعر والتاريخ، وأظهر استعدادًا ملحوظًا فى فنون الحرب والفروسية، بعد أن حفظ القرآن ودرس السنة الشريفة.

وارث العرش

كل ذلك أهلَّه لأن يكون موضع تطلع جده إليه فى وراثة العرش من بعده، فكان يرشحه لمختلف المهمات، أو يُقعده مقعده فى المناسبات والأعياد ليسلم الجند

عليه، ويألفوا طاعته. وقيل إن الجدّ فى مرض موته رمى إليه بخاتمه إشارة إلى الاستخلاف..!

وتوفى الجد «عبدالله» ليلة الخميس فى مُستهل ربيع الأول سنة ثلاثمائة للهجرة (٣٠٠هـ)، وعلى الفور بويع «عبدالرحمن» بالإمارة دون منازع أو طامع، بإجماع لم يسبق له نظير من أفراد العائلة الأموية، كبيرها وصغيرها، مقدرين فى «عبدالرحمن» مواهبه وحُسن سلوكه وقوة عزمه ورجاحة عقله.

وأىُّ عرْش..!؟

كانت البلاد الأندلسية -فى حينها- تفور بالقلاقل والاضطرابات والفتن، وتصطرع فيها الجنسيات والولاءات..!

فمن عرب يتنازعون السلطة القبلية، قيسية ومضرية ويمانية، ومولدين تتجاذبهم نزعاتهم العنصرية، وبربر يشتد خلافهم العشائرى، ويظنون أنهم أهل المعارك والحروب، وأصحاب الميادين، وبهم كان الفتح والنصر، فهم أولى من غيرهم بالسلطان..، ونصارى من أهل البلاد قد ظلوا على دينهم وعقيدتهم، يحسون أحيانًا كثيرة بالغُبن والتميز، وسوء المعاملة، وبعضهم قد أسلم أهله -أجداده وآباؤه- فوجدوا أنفسهم مسلمين بالتبعية..، ولكنهم فى دخائلهم وأعماق نفوسهم يحنون إلى أصُولهم، ويميلون عند انتهاز الفرص، كاشفين الستر عن وجوههم..!

وممالك نصرانية على الحدود، تقفز بين الحين والحين إلى أطراف الديار الأندلسية، أو إلى قلبها، لتستعيد ما أُخذ منها..! فى تهديد ووعيد.

فأى عرش هذا الذى ورثه «عبدالرحمن»...!؟

بل قل إن شئت: أى هم ثقيل، وأى عبء جليل؟ بل أى بركان يجلس «عبدالرحمن» فوق فوهته المتأججة؟؟

التغيير والتجديد:

ومن أجل تغيير الأوضاع كى تتوافق مع طموحات وآمال الأمير الشاب فى النهضة والازدهار كان لابد من التجديد فى الأسلوب والأشخاص..، فقد مرت

البلاد طوال نصف قرن بأزمات وصراعات وفتن، وها هى اليوم فى إبان نُضوجها، وتوشك أن تقضى على الدولة، فتنهار.. إلى الأبد! فهى بحاجة ماسة إلى «مخلص»... يتوفر فيه عناصر الفهم والعلم والحزم.

نظم الإدارة الحكومية تنظيمًا جديدًا، وعُرف كل قائم على أمر من الأمور بـ «الوزير» وجعل له حاجبًا هو بمثابة رئيس الوزراء، يكون صلة الوصل بينه وبين الوزراء، يطلعه فى كل يوم على كل كبيرة وصغيرة من شئون البلاد.

واختار لتلك المهمات أكفأ الرجال فى عهده وأقدرهم على المناصب.

وبلغ عدد الوزراء ثمانية باختصاصات مختلفة.

أول الهموم:

كان أوَّل اهتماماته وهمومه، القضاء على الفتن الداخلية وقطع دابرها، وقد باشر ذلك بنفسه وبقيادته فى كثير من الأحيان.

وكان غرضه إعادة اللحمة والتضامن إلى العناصر المتدابرة المتنازعة، وتوحيد الجبهة الداخلية،بعد أن عصفت بها الخلافات الدموية على مدى نصف قرن من الزمان، ولم يستطع آباؤه وأجداده من قبل أن يواجهوها بحزم ويخلصوا الديار من شرورها وآثامها، مما جعل أطماع الممالك النصرانية المحاذية تتفاقم، وتنتزع بعض المقاطعات.

«ابن حفصون»....!

ومن أشهر الثائرين فى تلك الفترة، وأشدهم خطورة، وأطولهم عهدًا، وأكثرهم إضرارًا بهيبة الدولة، الثائر الشهير «عمر بن حفصون»

ولا يغرنك اسم «عمر»...! أو يخدعك بانتسابه إلى الإسلام..!

فقد كان -كما أجمع المؤرخون- من أسرة ذات أصول «قوطية- نصرانية»، وأن جدهم «جعفر» قد اعتنق الإسلام أيام «الحكم بن هشام» ظاهرًا، محتفظًا بولائه للمسيحية فى أعماق نفسه، وسرى ذلك إلى ذريته من بعده.

ورث «عمر» مالاً كثيرًا، وأتباعًا. . . ، وكراهية شديدة للإسلام وأهله. . !

وظهرت فتنته وانشقاقه مبكرين، قبل ولاية «عبدالرحمن»، وأتعب الأمراء والحكام، وأرهق السلطان، وهدَّد العاصمة «قرطبة» أكثر من مرة. . ،

واتخذ من جبل «بيشتر» ملاذًا له، فى حصن رومانى قديم، رممه فآواه هو ومن معه. . ! وكان هذا الحصن قائمًا على صخرة عالية شديدة الانحدار، يمتنع الوصول إليها من ناحية الشرق والغرب. . ، وكان من مزاياه أنه على مقربة من السهل المنبسط حتى «قرطبة»، والذى تستطيع فيه عصابة «ابن حفصون» أن تشن الغارات لسرقة الماشية، وفرض الضرائب على المزارعين فى الأنحاء النائية المنعزلة.

كان عندما يشعر بالضعف أو الخذلان أمام عدوّه من حكام المقاطعات يُسالم ويهادن، ثم ينقلب بعد ذلك. . . ،

وكان إذا ما وقع فى أسر أو حبس تحايل فى الهروب، وقد فعل ذلك أكثر من مرة.

كان داهية من الدُهاة ، يعرف كيف يثير الناس، ويتألفهم، ويتودَّد إليهم بالعطاء الجزيل، والقول الجميل.

كانت بداية خروجه سنة (٢٦٧هـ)، أى قبل ولادة «عبدالرحمن» بعشر سنوات. . . ، وظل ثائرًا متمردًا، صاحب سلطان ونفوذ طوال عقود من السنين.

وكان من خطورته أن نازع فى ثورته الأمراء على بعض المقاطعات والمدن، واستولى عليها، فامتد نفوذه، وأصبح قسيمًا لحكام الأندلس، ولم يُقهر مرة أو يُغلب، إذ كانت الجيوش المركزية أضعف من أن تواجه عصاباته وتدبيراته وخططه، فى الدهاء والمكر.

وكان إذا ما هُزم لجأ إلى حصنه المنيع، وراسل عدوَّه مُعلنًا ولاءه

الأمير الحازم «عبدالرحمن»

اتخذ «عبدالرحمن» -منذ ولَى السلطة والإمارة سياسة تختلف تمامًا عمن سبقه من آبائه وأجداده فى مواجهة الثائرين عامة، «وابن حفصون» خاصة.

فهو لا يتردَّد ، ولا يتراجع. . . ، ولا يقتنع بمهادنة مضامينها الحيلة والمكر، ولا يقبل جزية أو ضريبة أو مـالاً يُهدى إليه. . ، أو يرضى من ثائر بنزاع على السلطة أبدًا، مهما علا شأنه.

وأعلن أن من جاءه مستسلمًا فقد نال العفو

هذه المبادئ لم تكن طفرة شباب بقدر ما كانت عزيمة صادقة. . . ،

فقـد عرفه الناس جـميعًا بـقوة الشخصـية، وصدق النيـة؟ فالتفـوا من حوله وتكاتفـوا، وتعاونوا على الهـدف المنشود، وهو الأمن والأمـان، ووحدة الأرض والشعب، والقضاء على الشغب، فى أية جهة كان مصدره.

دروس وعظات..!

لـم يبـدأ «عبدالرحـمن» بـ «ابن حفـصون». . ، بل وجَّـه وجهـته إلى صـغار الثـائرين. . ، فى مـخـتلف الأنحــاء، حـتى التى تحـيط بمناطق نفـوذ «ابن حفصون». . . !

وخرج بنفسه من أجل ذلك، وعلى قـيادة الجند، مما أوقع الهـيبـة فى نفوس أعدائه وخصومه، واستبسال جنده تحت رايته.

فقضى على كثـير من الفتن، وأخمدها. . ، وجازى بالعقـوبة بعض أصحابها، وعفا عن آخرين.

أنقـذ مدينة «رية»، واحـتل حصن «المنـتلون» وحصن «شـمنتان» و«منتـيشـة» و«بجيلة» و«سسانة» و«بكور» وغيرها

ثم انتقل إلى كـورة «ألبيرة». . ، فبـادره أصحاب حـصون: «ناجلة» و«بسطة» و«مربيط» و«البراجلة» بالطاعة والولاء.

وتوغل «عبدالرحــمن» فى جبل الثلج -«سيارا نيفادا» رغم وعـورة وعناء السير فيـه، فجـاوزه واحتل كل مـا هنالك من القلاع والحـصون التى كانت تـتبع «ابن حفصون». . !

ولما أراد «ابن حفصون» أن يستعيد ما استنفذ فيه، هُزم هزيمة منكرة، وأسر حفيداً له اسمه «عمر بن أيوب».. ، وارتد على عقبيه.

وهكذا استمر «عبدالرحمن» فى نشاطاته وجهاده، منذ ولى عام «٣٠٠)هـ، إلى عام (٣٠٥)هـ وهو لا يهدأ ولا يكف، حتى أذعنت له كل المقاطعات، واستسلمت كل الحصون والقلاع، واعترف له الثائرون -من نجا منهم من الموت- بالسُلطان والولاء.

موت «ابن حفصون»

وفى سنة «٣٠٥»هـ، مات «ابن حفصون»... !

يقول أحد المؤرخين[1] عنه، وعن قوته:

[وفى هذه السنة هلك «عمر بن حفصون» عميد الكافرين، ورأس المنافقين، ومُوقد شُعل الفتنة، وملجأ أهل الخلاف والمعصية، فعد هلكه من أسباب الإقبال، وتباشير الصُبح، وانقطاع علق المكروه].

وبموته فقد أبناؤه الذين ورثوه القدرة على الاستمرار والبقاء، فتتبعهم «عبدالرحمن» واحداً بعد الآخر حتى قضى عليهم جميعًا، واستخلص البلاد، وذُل العباد من أيديهم.

ويوم استيلائه على حصنهم «بيشتر» صام «عبدالرحمن» شكراً لله تعالى على ما منحه من النصر والظفر.

بعد طول جهاد

واستمر «عبدالرحمن» منذ سنة «٣٠٠هـ» إلى سنة «٣٢٠هـ» فى جهاده لأعدائه الداخليين وثوراتهم وفتنهم، حتى واتاه توحيد البلاد تحت سلطانه فى غير عسف ولا قهر، بل بحزم وجرأة وإقدام. وإلاّ .. فإن «الأندلس» فى ذلك الحين كانت عُرضة للضياع، نهبة لذوى الأطماع.

---

(١) (ابن عذارى) (البيان المغرب) (ج:٢) (ص: ٢٥٦).

يقول أحد المؤرخين[1]:

(وهكذا استطاع «عبدالرحمن» أن يخضع العرب والبربر والمولدين والمستعربين، ويرغمهم على الطاعة، ويرد للدولة الأموية بالأندلس سلطتها التى عصفت بها عواصف الثورات، وكادت تقتلعها وتعفى عليها..) أ.هـ.

الخليفة الأموى الأندلسى: (الناصر لدين الله)

مع حلول عام ستة عشر وثلاثمائة للهجرة (٣١٦هـ) تغيرت الظروف السياسية والإقليمية فى الوطن الإسلامى، ضعفت الخلافة العباسية فى بغداد وأصبحت مجرد اسم، إذ تحولت السلطة الفعلية فى يد الخليفة إلى الوزراء الذين كان جلهم من عناصر الترك والفرس والسلاجقة، ونشأت بعض الدويلات فى الأقاليم النائية.

أضف إلى ذلك وثوب (الفاطميين) على المغرب والشمال الإفريقى، ثم احتلال مصر، وإنشاء الدولة (الفاطمية) نسبة إلى «فاطمة الزهراء» -رضى الله عنها-، وانتزاع الحجاز والشام من أيدى العباسيين، وتعاون هؤلاء الفاطميين مع الرومان الطامعين فى بلاد الإسلام.

هذه المتغيرات والتحولات الخطيرة جعلت «عبدالرحمن» يُفكر فى إنشاء خلافة إسلامية أموية فى «الأندلس»...

وقد كانت حتى حينه لاتنازع الخلافة المركزية فى «بغداد»...، حتى إنه كان يخطب على المنابر فى الأندلس للخليفة العباسى أمير المؤمنين، رغم استقلال الإمارة.

خصوصًا وأن «عبدالرحمن» كان قد وطّد حُكمه، ونشر سلطانه، وقضى على أكثر الفتن والثورات، وأضحت الأندلس - كما دخلها المسلمون لأول مرة- خالية تمامًا من الثائرين والطامعين، وخافها أيضًا جيرانها من الممالك النصرانية الضعيفة، وكفّوا عن الغارة عليها.

---

(١) (على أدهم) (عبدالرحمن الناصر) (ص: ٦٥).

بل على العكس، فقد قام «عبدالرحمن» أكثر من مرة بغزو تلك الممالك لإرهابها، وردعها عن التفكير بأى اعتداء.

وعليه فقد وجه «عبدالرحمن» رسالة إلى «أحمد بن بقى » -القاضى-، صاحب الصلاة بـ «قرطبة» جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فأنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذى فضلنا به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسَّر على أيدينا دركْه، وسهل بدولتنا مرامه، وللَّذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعُلُو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا.

والحمد لله ولىِّ الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه،

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بـ«أمير المؤمنين» وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه.

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله، والله المستعان]

وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة (٣١٦هـ)

وبعد صدور هذا المنشور أصبح «عبدالرحمن» يلقب بـ «أمير المؤمنين الناصر لدين الله».

«الصائفة»

وهى غزوات الصيف التى كان يجهزها «عبدالرحمن» باتجاه الشرق والشمال، حيث الممالك النصرانية، منذ توليه السلطه سنة ثلاثمائة للهجرة «٣٠٠هـ»،

وأحيانًا كثيرة كان يقودها بنفسه ويُظهر من السلطان والشوكة، ما ينصر به المسلمين، سكان الأطراف، وليدفع عنهم غائلة العدوان، رغم ما كان يشغله فى الداخل من إخماد الفتن والثروات.

ويتضح لك - عزيزى القارئ - أن «الناصر» -رحمه الله- كان يُقاتل على أكثر من جبهة، ولاعجب ولا استغراب أننا نعتبره من «أبطال الفتح»، فهو قد ثبَّت أركان الدولة الإسلامية فى الأندلس، وكادت توشك أن تزول، وزلزل الممالك النصرانية المتاخمة. . ، وضم أجزاءً منها إلى رقعة البلاد الأندلسية، حصونًا وقلاعًا ومدنًا.

«قرطبة» العاصمة

قيل فى وصفها الكثير الكثير. . ، من مؤرخى العصر وما بعده. . ، وما يعجز القلم عن تداركه ومتابعته، ويضيق المجالُ عن ذكره.

فعلى الرغم من انشغال «الناصر» -كما قدمنا- بالجهاد الدائم المتواصل، إلا أنه لم يهمل قاعدة مُلكه «قرطبة»، فأولاها اهتمامه، حتى غدت أم المدن فى كل القارة الأوروبية بلا منازع، وفاقت «القسطنطينية» وغيرها.

قال أحد المؤرخين[١]:

[كانت «قرطبة» فى الدولة المروانية قبة الاسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخضت خلاصة القبائل «المعدِّية» و«اليمانية»، وإليها كانت الرحلة فى الرواية، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج المطرَّز بالأزهار، تصدحُ فى جنباته الأطيار، وتنعر النواعير، ويبسم النّوار، وقرطاها: «الزاهرة» و«الزهراء»[٢] حاضرتا الملك وأفقاه النعماء، والسراء. . .]

---

(١) (نفح الطيب) (ج: ١) (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٢) قصرا: (الزاهرة والزهراء).

وقال مؤرخ آخر[1] :

[قـرطبـة أم المدائن، وسـرَّة الأندلس، وقـرارة المـلك فى القـديم والحـديث، والجاهليـة والإسلام، ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبهـا القنطرة التى هى إحدى غـــرائب الأرض فى الصنعـــة والإحكام والجـــامع الذى ليس فـى بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه. . .]

والمسجد الجامع فى قـرطبة كان قد بدأ بناؤه عبدالرحـمن الداخل. . . واستمر العمل فيه إلى أن تم فى عهد «الناصر».

يقول عنه الدكتور «حسين مؤنس»[2]

[مسجد قرطبة الجامع هو -دون شك- أضخم عمل معمارى قام به العرب فى الشرق والغرب على السواء، فإن مساحـة الصحن المسقوف (٤٨٦٨) مترًا مربعًا، أى ما يزيد على الـفدان، فإذا أضـفنا إلى ذلك الفناء غيـر المسقوف -وهو بقـية صحن الجامع يحيط به سوره- كانت مساحته (١٢١٨٩) مترًا مربعًا أى نحو ثلاثة أفدنة. . ! وعـدد السوارى -أى الأعمـدة- الباقيـة إلى اليوم يزيد على (١٢٠٠) سارية، ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية إلى اليوم. . ، والحلول الهندسـيـة التى وُفق إليهـا المعـمارى الأول، الذى وضـع تصمـيم هذا الجامع، والابتكارات المعـمارية والزخرفيـة التى وصل إليها هو ومن جـاءوا بعده تقرّر -دون أدنى شك- أن العرب كانوا أعظم مهندسى الدنيا، حتى مطلع العصر الحديث. .]

أما «قصر الزهراء» فيقول عنه «ابن خلدون»:

[بنى «عبـدالرحمن» إلى جانب «الزهراء القـديم» قصره العظيم وسـماه: «دار الروضة»، وجـلب الماء من الجبل، واسـتدعى عُـرفاء المهندسـين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من «بغداد» و«القسطنطينية».

(١) (نفح الطيب) (ج: ٢) (ص: ٧٩).

(٢) (رحلة الأندلس) (ص: ٧٣-٧٤).

ثم أخذ فى بناء المتنزهات، فاتخذ «منية الراعونة» خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل، على أبعد مسافة، ثم اختط مدينة «الزهراء» واتخذها لنزله، وكرسيًا لملكه، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما عفّى على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها محلات للوحش (حديقة حيوان) فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك، واتخذ فيها دورًا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحليّ والزينة، وغير ذلك من المهن، وأمر بصُنع الظلة (الشمسية) على صحن الجامع بـ «قرطبة» وقاية للناس من حر الشمس] أ.هـ.

وقد قيل على لسان «الناصر» هذه الأبيات، إشادة بما أنجز:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم	ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشان

ازدهار الثقافة والعلوم

ولا تسل عن مدى ازدهار الثقافة والعلوم فى عهد «الناصر».. » فقد كانت «قرطبة» فى أيامه بمثابة جامعة عالمية، لا نظير لها..!

خرّجت فحولاً فى مختلف العلوم والفنون، ما يزال تراثهم الفكرى قائمًا إلى يومنا هذا، وعلى فتات موائدهم قامت الحضارة الأوروبية المعاصرة.

فمن اللغويين: «التالى» و«ابن القوطية»

ومن المؤرخين: «الرازى» و «ابن عبدالبر» و «الكشكنيانى».

ومن الفقهاء: «ابن دليم» -المالكى-، و«الكنانى» و«أسلم بن عبدالعزيز».

ومن أصحاب الفكر الفلسفى: «ابن مسّرة»

فضلاً عن العلماء فى الرياضيات والفلك والطب، وقد نبغ فى هذا الميدان أعلام كبار.

وفاة «الناصر»

بعد حياة حافلة بالحركة والعطاء، والجهاد والجلاد، لم يسترح فيها «عبدالرحمن» إلاَّ قليلاً قليلاً، آذنت صفحة حياته بالانتهاء، وقد نيفت على سبعة عقود.

ففى شهر «صفر الخير» سنة تسع وأربعين وثلاثمائة للهجرة (٣٤٩هـ)، كان ابتداء العلة بـ «الناصر»، وكان سببها -كما ذكر المؤرخون- كتاب السِّير والتراجم: برد شديد أصابه، فأرجف به، وخيف عليه، فأكب الأطباء على معالجته، حتى خفت وطأة المرض قليلاً.

ومن ثم تحامل على نفسه، وتجشم القعود للخاصة فى الأيام العشرة الأولى، من جمادى الأولى، واستبشر الناس بما بدا عليه من تحسن حالته، وسألوا الله تعالى له كمال عافيته.

ولبث بعد ذلك أشهرًا، تشتد به العلة حينًا، وتخف حينًا، وهو يُغالب ويُقاوم، حتى ضعفت مقاومته، ووفاه أجله فى نفس الشهر الذى وُلد فيه، وهو شهر «رمضان» سنة خمسين وثلاثمائة للهجرة «٣٥٠هـ».

ووجد بخطه تاريخ يقول فيه:

[أيام السرور التى صفت لى دون تكدير، يوم كذا من شهر كذا، من سنة كذا]. فعُدت تلك الأيام فوُجد فيها أربعة عشر يومًا!!!

ونُسب إليه قوله:

ما كل شىء فقدت إلا ... عوضنى الله منه شيًّا

إنى إذا ما منعت خيرى ... تباعد الخير من يديا

من كان لى نعمة عليه ... فإنها نقمة عليّا

رحم الله «عبدالرحمن الناصر» وغفر له وأجزل مثوبته جزاء ما أعطى وجاهد وضحى، وجزاء ما أعز الإسلام وأهله.

****

١٨- يوسف بن تاشفين

ما نزال نعـيش تاريخ الوجود الإسلامى فى الأندلس، ذلك الوجود الـذى امتد تسـعة قـرون ونيف، وترك من ورائه آثارًا وحـضـارة. . .، آثارًا مـا تزال قائمـة وشاهدة على عظمة وروعة ذلك الوجود، وحـضارة ورثتها أوروبا - كل دولها - فأنتجت من بعدُ تطورها الهائل فى مختلف الميادين وتقدمها.

وكان لبطلنا «يوسـف بن تاشفين» - أمـير المسلمين - رحـمه الله، دور عظيم ومؤثر فى ذلك الوجود.

فمن هو ؟ وكيف نشأ وتربى ؟ ومـن أين أتى ؟ وماذا فعل؟ وما هو هذا الدور الذى أهّله لأن يكون فى عداد الأبطال الفاتحـين؟ وهل كانت الأندلس بحاجة إلى فتح جديد؟ ومتى كان ذلك؟

ولو أننا تركنا لأنفسنا مـجال التساؤل لضيّعنـا عليك - عزيزى القارئ - وعلى التاريخ نفسه فائدة استحضار الأحداث، والعبر المستخلصة منها.

ونحن المسلمـين فى أمس الحاجـة اليوم إلى قـيادة توحدنـا وتجمعنا، وتـضبط انحرافاتنا عن الإسلام، وتنظم مجتمعاتنا وفق تعاليمه السّمحة الرائدة، وتنطلق بنا فى آفاق المعرفة كى لا نبقى عالة على الأمم. أو فى ذيلها. . . !

وما من شك - أبدًا - فى أن شرع الله هو الصراط المستقيم، والطريق القويم، وسفينة النجاة. . . !

وما من شك - أبدًا - أن القـيادة المرجّوة المؤمّلة هى العامل الأول فى النـهضة والانبعاث من جديد. . !

وصدق من قال: «المسلمون إلى خير ولكن الضعف فى القيادة»

الإسلام وقبائل البربر:

منذ بداية الفتح الإسـلامى فى الشمـال الإفريقى . . . منذ «عقـبة بن نافع» - رضى الله عنه- إلى أيام «مـوسى بن نصير»، عـانى الفاتحـون معانـاة شديدة من

ضراوة وشراسة قبائل البربر، على مدى سبعين عامًا -تقريبًا- حتى تم استيعابهم فى حوزة الإسلام، وفتح الله على قلوبهم، فانضووا تحت لوائه مقاتلين أشداء، يرفعون الراية ويبشرون بكلمة التوحيد.

وكان أكثرهم قد خرج إلى «الأندلس» مع «موسى»، و«طارق»، فكانوا -والحق يقال- جندًا فى المقدمة، وعُدة فى مواجهة العدو لاتفل، وأقاموا فى ذلك الربوع، وتكاثروا...، فكان لهم شأن ومكانة، وتثيرهم أحيانًا فتنة عصبية قبلية، لاتلبث أن تخمد.

غير أن طائفة من هذه القبائل لم تغادر ديارها، ولم تخرج إلى جهاد، بل اتجهت إلى عمق الشمال الإفريقى جنوبًا، إلى الصحراء الكُبرى..، الممتدة ما بين «موريتانيا» إلى «السودان»، وهناك كان توزعهم ومعاشهم وحياتهم، كالبدو الرُحل تمامًا..، ولعل هذا الأسلوب فى الحياة هو الذى جعل بعض المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بأن أصول هذه القبائل عربية، انطلقت من شبه الجزيرة فى موجات مهاجرة.

وهؤلاء ... رغم اعتناقهم الإسلام، فقد ظلوا حينًا من الدّهر على ولائهم لتقاليد وعادات جاهلية، ترعرعت ونمت وكثر انحرافها..، بسبب بُعدهم، وبسبب انقطاعهم عن ينابيع العِلم والمعرفة.

المرابطون:

لكن نفرًا منهم كان قد اتصل بـ «مصر» وعلمائها فى طريقهم إلى الديار المقدسة لأداء فريضة «الحج»، فأدركوا ما عليه قومهم من بُعد وجفوة عن تعاليم الإسلام الصحيحة...!

وحين عادوا أخذوا يبثون فى الناس ما تلقوه، ويدعونهم إلى نبذ كل انحراف، وأنشأوا لهم رباطًا -مدرسة- اضطلعت بمهمة الوعظ والإرشاد والدعوة.

وأخذوا فى التواصل مع مراكز العلم فى الشمال الإفريقى، كـ «القيروان» وغيرها، ونشطوا فى ذلك.

وظهر فيهم رجل اسمه «عبدالله بن ياسين» تولى الزعامة الدينية والعلمية، فقد كان فقيها ورعًا، شديد الغيرة على تعاليم الإسلام، وكان قد زار «الأندلس» وأقام فيها بضع سنين، تبلورت فيها شخصيته وازداد علمًا وحماسًا وحرصًا.

وكان خطيبًا موهوبًا قوى التأثير..!

لكن شدته فى دعوته صرفت عنه الكثيرين..، ونبذوه..!

فانقطع هو عنهم، وآوى إلى رباطه مع بضعة نفر من أصحابه، لكن عزلته لم تطل..، فقد بدأ الناس يتوافدون عليه، ويتلقون منه.. ويرابطون معه.

من الوعظ والإرشاد إلى الجهاد ...!!

كثر أتباعه، واتسع نفوذه، فاتخذ مجلس الشورى، وما لبث أن عوّل على استعمال السيف بدل الكلمة حيث لم تنفع ولم تؤت ثمارها، وتكونت لديه قوات مشحونة بالإيمان الصادق والعزم المتين.

وأوكل أمر قيادة القوات إلى أمير من أتباعه اسمه «يحيى بن عمر»، وكان شجاعًا مقدامًا، ورعًا زاهدًا، مطيعًا كل الطاعة لشيخه «عبدالله بن ياسين».

وانطلقت قوات «المرابطين» بدعوة من أمراء المقاطعات الذين آلمهم ما وصل إليه حال شعوبهم، وكان ذلك سنة (٤٤٥هـ).

خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم فى حشد ضخم، وعلى رأسهم الشيخ «عبدالله»، وقائد الجند الأمير «يحيى»..، وتتبعوا المناطق واحدة بعد الأخرى، يستولون عليها، ويعيدونها إلى حضن الإسلام القويم، بإقامة الرُبط والمدارس والمساجد، وتولية من له القدرة على الضبط والربط.

وظلوا فى تطوافهم ساعين فى كل اتجاه، لا تقف فى وجههم عقبة، حتى كان عام (٤٤٧هـ)، وقد توفى القائد «يحيى»، فعيّن الشيخ «عبدالله» بدلاً منه أخاه «أبا بكر بن عمر»، وكان قائدًا جريئًا، لا يقل كفاءة عن أخيه.

«يوسف بن تاشفين»:

ولأوّل مرة يظهر اسم «يوسف» على مسرح الأحداث، إذ عينه القائد الجديد «أبوبكر» على مقدمة جيشه، وكان ابن عم له.

هذا الاختيار يوحى بمعانٍ ودلائل كثيرة..!

فقد كان «يوسف» أحد التلامذة النابهين للشيخ «عبدالله»، وكان جنديًا أظهر كفاءة قتالية عالية، أضف إلى ذلك شدة تدينه، وتلبسه كلية بما تلقاه..!

وكانت سنه إذ ذاك فى العقد الخامس من العمر (٤٨) سنة ...! رجلاً ناضجًا واعيًا، قد استوى عوده، وعظمت مكانته، معروفًا لدى الخاصة والعامة.

وسعى «يوسف» سعيه فى الجهاد والكفاح حتى خضعت أكثر بلاد المغرب للمرابطين.

وتوفى الشيخ «ابن ياسين»، فانتقلت الزعامة الدينية والسياسية والعسكرية إلى «أبى بكر» - القائد -، ومن ثم تكونت دولة المرابطين، بكل عناصرها..، وغدت صاحبة الصولة والجولة..، وتمت لها السيطرة الكاملة على بلاد المغرب كلها، مع عمقها الصحراوى..، حتى حدود «السودان».

«مراكش»:

وفى سنة (٤٥٤هـ)، وكان «يوسف» قد أخضع الساحل الأقصى من المغرب، وبسط سلطانه عليه، وقد كثرت جيوشه..، فكر فى إقامة قاعدة له يختطها بجيشه، وتكون عاصمة له.

فاختار قطعة أرض، ابتنى بها دورًا، ومسجدًا - فكان يعمل بنفسه مع العمال فى بناء المسجد-، وكان اسم تلك الأرض: «مراكش»... وهى بلغة البربر تعنى: «امش مسرعًا»

وأصبح «يوسف» بمكانة السلطان فى تلك الديار، وهذا ما حدا بابن عمه «أبى بكر» الذى كان القائد العام، والوارث للزعامة، والذى كان يصول ويجول فى

أنحاء بعيدة، يفكر بالعودة، وقد تطايرت الأنباء بانتصارات «يوسف»، وامتداد رقعة سلطانه. . . ، رغبة بالتأكد، أو خشية على النفوذ. . !

فلما وصلت طلائعه إلى «مراكش» استقبلها «يوسف» أحسن استقبال، وأغدق على الجند العطايا والهدايا.

وبعد لقاء الرجلين، أدرك «أبوبكر» ما وصل اليه نفوذ ابن عمه، ولم يكن راغبًا فى قتال أو منازعة أو خصومة، فاكتفى بما أهدى إليه، ووصى «يوسف» بوصايا، وعاد بقواته يتابع رسالة جهاده.

وكانت وفاة «أبى بكر» سنة «٤٨٠» هـ، شهيدًا فى إحدى المعارك.

وهكذا تم لـ «يوسف» السلطان المطلق

وقد قيل :

(وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، أقامتها عبقرية رجل واحد، هو: «يوسف بن تاشفين»، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متشدد ملتزم هو: «عبدالله ابن ياسين»، واستحالت بسرعة على يد «أبى بكر»، ثم «يوسف» من بعده، من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسى ضخم. . .)[1]

«يوسف» أمير المسلمين

مع اتساع السلطان، وتوحد الشمال الإفريقى -وعمقه الصحراوى-، تراءى للكثيرين من خاصة «يوسف» أن يبوّؤه منصب الخلافة، وإمارة المؤمنين، خصوصًا وقد آذن غروب دولة «الفاطميين -العبيديين» بالأفُول. . ، مع ضعف مركز الخليفة العباسى - الرمزى-، وتشتت الوجود الإسلامى فى الأندلس إلى دُويلات هزيلة ضعيفة، يحكم بعض مدنها ومقاطعاتها ملوك الطوائف المهددين فى كل لحظة وحين بغارات الفرنجة عليهم، بقيادة الملك «ألفونسو»، وقد انتزع من أيديهم كثيرًا من المُدن الهامة، وعلى رأسها «طليطلة». . . !

(١) (محمد عبد الله عنان) (دولة الإسلام فى الأندلس) - العصر الثانى - (ص: ٣١٣).

أراد هؤلاء الخاصة، من رجال إدارة وعلماء أن يقلدوا «يوسف» منصب الخلافة.. ! وقد رأوا فيه كل الجوانب التى تؤهله لذلك..، فأبى عليهم..، وكان بعيد النظر..، واكتفى بلقب «أمير المسليمن»، وكان ذلك سنة (٤٦٠هـ).

إلى الأندلس..!

بعد استفحال الخطر الفرنجى على ممالك الأندلس، ودول الطوائف، وشعور أصحابها أنهم قاب قوسين أو أدنى من زوال سلطانهم وأنهم أصبحوا لقمة سائغة فى أفواه عدوهم..!

وبعد أن ترامت إليهم أنباء انتصارات «يوسف بن تاشفين» وتوحد الشمال الإفريقى - وعمقه الصحراوى- تحت راية المرابطين، وقوة نفوذهم، وعظمة جيوشهم، راسلُوه ... يستدعونه لإنقاذ الأندلس، ويضعون أنفسهم وما يملكون تحت تصرفه، ورهن مشيئته.

وقد تكرر ذلك منهم مرات عدة...!

وأخيرًا أرسلوا سُفراءهم ووفودهم...!

وكانوا فى حالة من الذّل والاستعطاف، يرجونه القوّت والمدد.

أما لماذا تأخر «يوسف» فى الاستجابة، فإن مرد ذلك إلى أسباب كثيرة، أهمها خشيته من تآمرهم مع العدو عليه، فقد كان أكثرهم قد هانت منهم النفوس حتى أصبحوا ألعوبة فى يد عدوهم الملك «ألفونسو» ملك «قشتالة»[1]، الذى يتهددهم، ويفرض عليهم الجزية.

وأخيرًا جمع «يوسف» مجلس شوراه من كبار معاونيه والفقهاء، فأيدوه فى مسعاه بتلبية النجدة، وضرورته...

لكنه اشترط على سُفراء ملوك الطوائف أن يكونوا معه يدًا واحدة، كل بما يقدر عليه من تعبئة ومدد، وأن يتنازل له زعيمهم «المعتمد بن عباد» صاحب «إشبيلية» عن «الجزيرة الخضراء» لتكون قاعدة لجند «يوسف» بعد العبور، فوافقوه على كل مطالبه، وتعهدوا بها.

(١) قشتالة: تحريف لكلمة : «كاسل»، أى: القلعة باللغة الأجنبية

وكان أول ما عبر من قواته قوة من الفرسان بقيادة «داود بن عائشة»، إلى ثغر «الجزيرة الخضراء»، وتركزت فيها، ثم تتابعته الجيوش المرابطة..، حتى تم عبورها جميعًا.

وفى ضحى يوم الخميس، منتصف شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة (٤٧٩هـ)، عبر البطل الشيخ فى بقية قواته..!

وهنا يجدر بنا أن نسجل موقفًا لـ «يوسف» -رحمه الله-

فما كادت السفن التى تحمله ومن معه تمخر عباب البحر، حتى اضطربت الأمواج وتعالت...، فنهض الزعيم... وبسط يديه بالدعاء إلى السماء، وقال:

[اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين، فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى أجوزه..]

وما كاد يتم كلامه حتى [سهل الله المركب، وقرّب المطلب]

وتم العبور، فى ريح طيبة، وبحر هادئ.

معركة «الزلاّقة»:

كما كانت «اليرموك» مفتاح النصر فى الشام...!

وكما كانت «القادسية» مفتاح النصر فى العراق..!

وكما كانت معركة حصن «بابليون» مفتاح النصر فى مصر..!

وكما كانت معركة وادى «لكة» مفتاح النصر لـ «طارق» فى الأندلس..!

كانت أيضًا - معركة «الزلاّقة» مفتاح النصر لـ «يوسف» فى الأندلس ثانية..!

ولقد ترتب على هذه المعركة ونتائجها استعادة الهيبة الإسلامية فى الأندلس، وتجديد الوجود الإسلامى بقوة على مدى أربعة قُرون -تقريبًا-، وتلك هى أهميتها!!!

إلى «أشبيلية»:

ومن «الجزيرة الخضراء» انطلقت جيوش «يوسف» باتجاه «إشبيلية»، وفى الطريق كانت تقدم له المؤن والأطعمة والضيافات، التى بعث بها «المعتمد بن عباد».

فلما اقترب وصوله، خرج إليه المعتمد وتلقاه، وتعانقا. .، وتعاهدا على الجهاد والوفاء والنصر.

كما راسل «يوسف» بقية ملوك وأمراء الطوائف داعيًا إياهم إلى التعاون والتكاتف والموافاة، من أجل أن تتكامل الجيوش وتتوحد، فى مواجهة العدو. . ! فلبى بعضهم النداء، وتقاعس أكثرهم لانشغالهم بالمدافعة عن ديارهم.

بين «بطليوس» و«قورية» فى سهل «الزلاّقة»:

وسارت الجيوش - شمالاً غربًا - تتقدمها وحدات قوات «إشبيلية» بقيادة «المعتمد بن عباد»، وفى المؤخرة الجيوش «المرابطية» يقودها «يوسف».

حتى انتهوا إلى سهل يقع بين مدينتى «بطليوس» و«قورية» يُعرف بسهل «الزلاّقة»، ويمر به نهر «تاجه».

وكانت أنباء ذلك قد وصلت إلى الملك «ألفونسو» - السادس - ملك «قشتالة». .، فترك حصار «سرقطة»، واستدعى على الفور جنوده وحشوده من كل مكان، واستنجد بحلفائه من مُلوك وأمراء النصارى فيما وراء «البيرنيه»، وتقاطر إليه الفرسان والجنود والعصابات من «فرنسا» و«إيطاليا» وغيرهما.

واتجه بحشده الهائل هذا جنوبًا لملاقاة جيوش المسلمين.

ويقدر المؤرخون عدد جنود «ألفونسو» بثمانين ألفًا، بينما بلغت قوات الجيش الإسلامى نحو ثمانية وأربعين ألفًا.

ونزل «ألفونسو» بقواته فى عدوة نهر «تاجه»، يفصله عن جيش المسلمين معسكرهم،

ومضت ثلاثة أيام. . . !

فكتب «يوسف» إلى «ألفونسو» كتابًا - وفق السنة - يعرض عليه الدخول فى الإسلام، أو الجزية أو الحرب ومما جاء فيه - أيضًا-:

[بلغنا يا «أدفونش» - ألفونسو- أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سُفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دُعائك. . ، وما دُعاء الكافرين إلاّ فى ضلال]

حيلة مكشوفة:

حاول «ألفونسو» خديعة المسلمين فى تحديد يوم المعركة، فكتب إلى «المعتمد بن عباد» يوم الخميس يقول: (إن غداً يوم الجمعة، وهو عيدُكم، وبعده السبت يوم اليهود، وهم كثير فى محلتنا، وبعده الأحد وهو عيدنا، فيكون اللقاء يوم الاثنين)

وكان كتاب «ألفونسو» خديعة مكشوفة، لأنه يريد الغدر، وقد أدرك «يوسف» و«المعتمد» ذلك.

وقد جاءتهما الطلائع فى الليل تنبئ عن حركات الاستعداد فى المعسكر النصرانى. . ، والضوضاء والجلبة، وقعقعة السلاح، فأخذوا أهبتهم واستعدوا للمفاجأة.

المعركة. . !

ما كاد صبح يوم الجمعة الثانى عشر من شهر رجب سنة (٤٧٩هـ) يتنفس، حتى حدث ما كان يتوقعه المسلمون، وقد استعدوا له.

ويصف المؤرخون وقائع المعركة، فيقولون:

(زحف النصارى، وابتدأ القتال، واشتبك الجيشان فى معركة عامة، فهجمت مقدمة «القشتاليين، و«الأرجونيين» التى يقودها -القائد- «ألبير هانيس» على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية، والتى يقودها «المعتمد بن عباد»، وكان هجومًا عنيفًا ردَّها عن مواقعها، واختلَّ نظامها، فارتد معظمها نحو «بطليوس»، ولم يثبت فى وجه المهاجمين سوى «المعتمد» وفرسان «إشبيلية»، فقاتلوا النصارى بشدة، وأُثخن أميرهم الباسل جراحًا، وتفرّق معظمهم من حوله، وكثر القتل فى جنود الأندلس، وكادت تدور عليهم الدائرة، دون أن يتقدم أحد لإنجادهم.

وفى الوقت نفسه كان «ألفونسو» قد هاجم مقدمة المرابطين، التى يقودها «داود ابن عائشة»، وردَّها أيضًا عن مواقعها..!

ففى تلك الآونة العصيبة دفع «يوسف» بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده، وهو: «سير بن أبى بكر» لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معًا..»، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة..، وسرعان ما تغير وجه المعركة واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم، وعاد الفارّون إلى صفوفهم، واضطرمت المعركة فى هذا الجناح رائعة، ترجح بها كفَّة المسلمين..!

وكان «ألفونسو» فى ذلك الوقت قد تقدَّم فى هجومه، حتى صار أمام خيام المرابطين، واقتحم الخندق الذى يحميها..، ولكن حدث فى نفس الوقت أن لجأ «يوسف» إلى خطة مبتكرة، إذ تقدّم من قواته الاحتياطية من «لتوخة»، و«صنهاجة»، وتجاوز النصارى المهاجمين، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته، وهاجمه بشدة، وكانت تحرسه قوة ضعيفة، ففتك بها، ووثب إلى مؤخرة «القشتاليين»، وأثخن فيهم من الوراء، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء..، ثم أضرم النار فى محلّة «القشتاليين»، فارتفعت ألسنتها فى الهواء، فلما علم «ألفونسو، ما حلَّ بمعسكره، ارتد من فوره لينقذ محلَّته من الهلاك، فاصطدم بمؤخرة المرابطين، ووقعت بين العاهلين معركة هائلة، مزقت فيها صفوف «القشتاليين» ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلَّه إلا بعد خسائر فادحة، وهنالك استؤنفت المعركة، و«يوسف» فوق فرسه يصول ويجول، ويحث جنده على الثبات، ويرغبهم فى الاستشهاد..، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان...

ولم يسبق أن عرفت الجيوش الإسبانية مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض..!

ومن جهة أخرى فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصّة.. متناسقة.. ثابتة، وهى أيضًا خطة جديدة غير مألوفة لدى «القشتاليين» خاصة، والفرنجة عامة.

واشتد هجوم المرابطين بقيادة «سير بن أبى بـكر» على مقدمة «القشتاليين» التى يقودها: «ألبير هانيس» واستردّت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها. . !

وكـانت الضربة الأخـيـرة القاتلة أن دفع «يوسـف» بحرسـه الخاص «الحـرس الأسود»، وقـوامه أربعة آلاف مـقاتل إلى قلب المعـمعة. . ، واسـتطاع أحدهم أن يصل إلى «ألفونسو» ويطعنه بخنجر فى فخذه طعنة نافذة. . !

وكانت الـشمس قد آذنت عـلى المغيب. . ، وأدرك «ألفـونسو» ومن معـه أنهم يواجهون الموت إذا استمروا فى القتال، عندئذ بادر مع خلّ من صحبه إلى التراجع والاعـتـصـام بتل قـــريب، حـتى دخل الليل، وتحت جنـح الظلام، بادروا إلى الفرار. . ، وانتهت معركة «الزلاّقة». . !

ومع نهايتـها، عادت الهيبـة إلى ملوك الطوائف، وقويت شوكتـهم فى مدنهم وأقطارهم.

إلى المغرب . . .

تُرى . . هل انتهت مهمة الفتح عند هذا الحد. . . !؟

لقد طلب ملوك الطوائـف إلى «يوسف» أن يُتابع الزحف وراء العدو، وتطهـير البلاد من رجـسه وبطشه وتهـديده، فاستـمهلهم قليلاً. . ، ذلك أنه كـان لا يقدم على أمرٍ إلا بعد تفكير وروية، وتشاور.

وبينما هو على ذلك جاءته الأنبـاء من المغرب بوفاة ولده «أبى بكر» الذى ولاه على البلاد أثناء غيـابه، فعز عليه النبأ، وقرر العـودة إلى المغرب على الفور، كى لايترك الساحة خالية.

واعتـذر للملوك الطوائف، ثم عاد إلى المغـرب ليتـدبر أمره فيـه، ويحمـيه من الأطماع والتفرّق.

وأبقى ثلاثة آلاف من جنده لدى «المعـتمـد بن عباد» - صـاحب «إشبـيلية» - ليكونوا له عونًا وسندًا.

العبور الثاني:

أمضى «يوسف بن تاشفين» فى المغرب قرابة العامين، وهو يتفقد شئون البلاد، من أقصاها إلى أقصاها، فما ترك ولاية ولا قصبة ولا مدينة إلا زارها واطلع على أحوالها، واطمأن على حسن سير الأمور فيها.

فى أثناء ذلك عادت الأندلس مسرحًا لصراعات ملوك الطوائف بعضهم ببعض، مما أعزى «ألفونسو» السادس ملك «قشتالة» على مهاجمتهم والاستيلاء على بعض مدنهم وأقاليمهم، وفرض الجزية عليهم.

خصوصًا المناطق الواقعة بين «مُرسية» و«لورقة»...، وقد أقام «ألفونسو» هناك حصنًا ضخمًا، على الأسوار والأبراج، وحشد فى داخله ألوف المقاتلين، ليكون قاعدة عسكرية، تُرهب أعداءه، وتقسرهم على طاعته..، وكان يُعرف بحصن: «أليدو»، ويسميه العرب: «لييط».

ساء هذا الوضع «المعتمد بن عباد» - صاحب «إشبيلية» - فقصد إلى «المغرب» لمقابلة «يوسف»، وعرض الأمر عليه، وطلب معونته..!

وكانت رسائل وكُتب الفقهاء وذوى الشأن، والمخلصين من أهل الأندلس لاتنفك تترى على «يوسف» تستنجده، وتستدعيه..!

فلم يجد «أمير المسلمين» بُدًا من تلبية طلبهم، ووعدهم خيرًا.

ثم إنه جهز نفسه وقواته وعبر إلى «الجزيرة الخضراء» فى ربيع الأول عام (٤٨١هـ) حيث تلقاه «المعتمد بن عباد» مرحبًا، وقدّم له المؤن، وانضم إليه بقواته.

ومن «الجزيرة الخضراء» أرسل «يوسف» إلى ملوك الطوائف يبشرهم بقدومه لمعاونتهم، ويطلب إليهم موافاته والانضمام إليه، ليكونوا يدًا واحدة على عدوهم «ألفونسو»، والقضاء عليه والخلاص منه. فأتوه واحدًا بعد الآخر بقواتهم وجنودهم.

ومن ثم زحف الجيش الإسلامى باتجاه حصن «أليدو»، الذى يُشكل العقبة الرئيسية، فاستولوا عليه، وأمكن تحرير المدن الواقعة حوله.

فلما وافوه . . . حاصرهم حصاراً شديداً، ومنعوا عنه المؤن والذخيرة، وقذفوه بكل آلة حربية، وهاجموه من بعض نواحيه المرّة تلو المرّة. . ، ولكن كل ذلك لم يُفلح، فقد ظل ممتنعًا، قويًا راسخًا.

وطال أمد الحصار فترة أربعة أشهر ولكن على غير طائل. . !

فشل .. وعودة..!

خلال تلك المدة عانى «يوسف» من خلافات ملوك الطوائف وتنابذهم واتهاماتهم. . ، وشعر بأن وضعه وقواته عرضة للغزو والضياع فى أية لحظة. . !

فما كان يخلد إلى خيمته فى ليلة إلا ويأتيه أمير يشكو ويدس على صاحبه. . ، كلٌ يُريد أن يستأثر. . ، حتى إن الخيانة ظهرت فى بعض صفوفهم. . ، وهذا ما جعل «يوسف» ييأس، ويندم على مغامرته تلك. ،

ومن ثم قرر العودة إلى المغرب، وترك الأمور تأخذ مجراها. . ،

ولكنه قرر فى نفسه أمرًا، وعقد عزمًا.

ضم الأندلس إلى المغرب..!

وبغير هذا لن ينصلح الحال.

لابد من القضاء على بؤر الفساد، والإحاطة بهذه الدويلات المصطنعة، وتوحيد البلاد. لقد كان فى عبوره الأول والثانى إنما يرجو أن يقدم خدمة، ويخوض جهادًا فى سبيل الله، أما اليوم فإنه يرجو أن يكون العبور فتحًا. . ، لأنه لو ترك «الأندلس» من غير ما اعتزم عليه، فإنه يكون قد قدمها لقمة سائغة لـ «ألفونسو» الطامع. . ، وأضاعها بعد أن تل ثراها بدماء الشهداء الأبرار، ونهض بها المخلصون من القادة والملوك والحكام فجعلوها دُرَّة حضارية وعلمية، فأنى لرجل «مربطىّ» فى همة «يوسف» وبطولته أن يتخلى. . !!!

لم ينتظر فى هذه المرة طلبًا، ولا كُتبًا، ولا رسائل ولا استدعاء، فقد كان العامل النفسى والحافز الإيجابى يضطرم بين جوانحه ويثيره إلى العمل السريع الجاد. . !

ولم يتخذ القرار عفوًا، بل عمد إلى دراسته بعمق من كل الوجوه الدينية والاستراتيجية والعسكرية، وتشاور مع القادة والزعماء والفقهاء، وقد تلقى فتاوى فى ذلك تؤيد مسعاه.

ولقد آلم «يوسف» أن عاد ملوك الطوائف إلى مُصانعة ومداهنة «ألفونسو» والتحالف والتعاون معه، لذا كانت الجبهة التى يُريد مواجهتها واسعة. . . وقوية. . !

عبر «يوسف» بقوات المرابطين فى مطلع عام (٤٨٣هـ)، وفى نيته أن يجتاح الأندلس كُلها، يقضى على دول الطوائف واحدة بعد الأخرى، ثم يوجه همته إلى العدو اللدود والخصم العنيد «ألفونسو»،

وهكذا كان . . !

فقد توجه إلى «طليطلة» أولاً . . . فعاث فيها، ولكنها تحصنت فى وجهه. . وامتنعت. . ، فتركها بعد أن زلزل مقوماتها، وأفسد ما حولها من أراضٍ وقُرى وزروع.

ثم اتجه إلى «غرناطة» التى كان يحكمها «عبدالله بن بلقين» أحد ملوك الطوائف، والذى كان على صلة وطيدة بـ«ألفونسو». . !

فلما علم «ابن بلقين» بقدوم «يوسف» جهَّز نفسه للدفاع عن «غرناطة» تجهيزًا لم يسبق له مثيل، كما أرسل إلى حليفه «ألفونسو» يستنجده. . ،

لكن «يوسف» استطاع أن يستولى عليها، بعد كفاح مرير، ويستخرج مدخراتها وكنوزها، وقد استسلم «ابن بلقين» فأمَّنه «يوسف» على أهله وولده ونفسه فقط. . !

وبسقوط «غرناطة» دبَّ الذُعـر إلى قلوب الآخرين من ملوك الطوائف، وحاول «المعـتمـد بن عبـاد» أن يُداهن «يوسف»، فزاره فى «غـرناطة» مهنئًـا. . ، فقـابله «يوسف» بجفـاء وغلظة، إذ علم علم اليـقين ما كـان من تحالف «ابن عـباد» مع «ألفونسو». . ، فلم تطب نفسه له.

وشعر «يوسف» بقوة موقـفه وموقعه من البلاد، فترك جيشـه بقيادة قائده الفذ «سيـر بن أبى بكر» يتابع الفتح هنا وهناك، وعـاد هو إلى المغرب. . ، ليكون فى قاعدة مُلكه، ويمدّ عبر العدوة قواته الضاربة بما يلزم.

وراحت جيوش «يوسف» تخوض المعارك وتفتح البلاد وتبسط سلطانها. .

«قرطـبة» و«رندة» و«جيـان» و«إشبـيلية» وغـيرها، حـتى تم الفتح المبـين. . . وخضعت أكثر بلاد الوادى الكبير لسلطان المرابطين، وكان ذلك عام (٤٨٤هـ).

وسيِّر «ابن عبّـاد» الأسير، وحاشيته إلى المغرب، إلى بلدة «أغـمات». . ، كما سيّر «ابن بلقين» أيضًا أسيرًا. . . !

وفى العـام التـالى (٤٨٥هـ) اسـتـولى المرابطون على «شـاطبـة» و«شـقـورة» و«دانية». . ، واستمروا فى زحفهم نحو «بلنسية»، فاستولوا على إمارة «سانتا ماريا» فى رجب سنة (٤٩٧هـ)،

وآلت إسـبـانيا المسلـمة (الأندلس) فى سـنوات قلائل إلى سـلطان المرابطين، وجُعلت ولاية مغربية، وانهار سلطان العـصبيات والأسر الأندلسية. . ، ولكن إلى حين.

وكان «يوسف» قد عـبر بنفسه إلى الأندلس عام (٤٩٥هـ)، قـاصدًا من جديد «طليطلة»، فـالتقى بقـوات «القشـتاليـين» بقيـادة «ألفونسـو»، فهـزمهم هزيـمة منكرة. . ، ثم قـصد «يوسف» إلى «قـرطبة». . ، فدخـلها. . ، وجمع الـكبراء والزعماء، والقـادة والفقهاء، وأخذ العهد علـيهم لولده «علىّ» من بعده، سلطانًا على المغرب والأندلس معًا.

وفى أواخر سنة (٤٩٨هـ)، مرض الشيخ المجاهد الفاتح. . ، فأقام فى قصره فى «مراكش» التى عاد إليها، واستمر عليلاً زهاء عام، حتى وافته المنيَّة، وانتقل إلى جوار ربه الكريم.

رحم الله «يوسف بن تاشفين» قائد المرابطين، وأمير المسلمين، وجزاه عن جهاده وإخلاصه وتفانيه، خير الجزاء.

****

١٩ - السلطان محمد الفاتح

نحن اليـوم مع شـاب تحقـقت له البـشـرى، بُشرى رسـول الله ﷺ، بفـتح «القسطنـطينية»، هو السُلطان «مـحمد الثـانى»، -الفاتح- الذى غلب لقـبه على اسمه، فاشتهر به لدى المؤرخين عامة، فى الغرب والشرق على السواء.

لقد كان لحديث رسول الله ﷺ: **[لتفتحن «القسطنطينيـة»، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش]** أثره فى نفوس الخلفاء والأمراء والقادة، مُنذ أيام «معاوية بن أبى سفيان» وامتداداً إلى العـصر العباسى، والأيوبى والمملوكى.. ثم التركى- العثمانى.

كل واحد يتمنى فى قرارة نفسه، ممن جهزوا لغزوها أو خاضوا المعارك عندها، أن ينال هذا الشرف العظيم، ويفوز بالبُشرى.

ومما هو جـدير بالذكر -فى هذا المجـال- أن قبـر الصحـابى الجليل «أبى أيوب الأنصـارى»، مضيف رسـول الله -يوم الهـجرة، مـوجود فيـها إلى الـيوم- أى «استانبول..! (القسطنطينية)

وسبب ذلك أنه -رضى الله عنه- كان فى الجـيش الذى غزاها بقيادة «يزيد بن معاوية»، وكـان قد شاخ وكبـر وتقدمت به السن، وجُرح فى إحـدى معارك هذه الغزوة.. جراحًا بالغة..، فأراد القائد أن يكفّ عن الغزو ويعود بالجريح الجليل، ولكن «أبا أيوب» أبى، وطلب إلى القـائد أن يحملوه على مـحفة، ويمـضوا فى جهادهم..، وإذا مات دفنوه حيث انتهوا..!

فأطاعوه، واستـجابوا لطلبه..، ثم توفاه الله تعالى عند أسـوار «القسطنطينية» وهم محاصرون لها، وهناك كان دفنه.

وهو اليوم عند الأتراك من معـالم مدينة «استانبـول»، ثم بُنى إلى جانب المقام مسـجد رائع البنيـان، عظيم الشأن، يُـقصد من كل مـكان، ويُعرف عند العـامة بمسجد «السلطان أيوب».

وفى قبلة المسجد لوحة رخامية تحمل اسم «أبى أيوب» - خالد بن زيد - الأنصارى- رضى الله عنه- مع تعريف به موجز.

لقد أردت من خلال ما سردت أن أبيّن لك - عزيزى القارئ - أن منطلق الاهتمام بفتح «القسطنطينية» هو حديث رسول الله ﷺ، وقد نشأ هذا الاهتمام مبكرًا ثم استمر آجالاً وآمادًا طوالاً.

ولقد عُرفت الغزوات التى كانت تُجهز من أجل ذلك بـ «الصوائف»، حيث يكون الجو الصيفى مناسبًا للحركة والسعى، فى تلك الديار، التى تشتد فيها الأمطار والثلوج والرياح العاتية، فى فصل الشتاء الطويل.

والآن هيا معًا نتابع حياة هذا الشّاب الطموح وفُتوحه...

واعلم بأن مؤرخى الغرب يعتمدون يوم الفتح وسنته (١٤٥٣)م الموافق لسنة (٨٥٧)هـ، مفصلاً تاريخيًا..، بل ويؤرخون به أحيانًا!!!

نسبه:

هو ابن السلطان «مراد الثانى» سليل الأمير «عثمان بن أرطغرل» مؤسس الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى (الأناضول).

ويُعتبر «مراد الثانى» من أعظم سلاطين «بنى عثمان» ترسيخًا لركائز الدولة، واتساع فُتوحاتها فى «أوروبا» - عدا القسطنطينية- التى تقع على تلال مرتفعة عند «البسفور»، المدخل إلى البحر الأسود، وتحيط بها الأسوار العالية، ذات الأبراج الشاهقة، وتطل على خليج «القرن الذهبى»، حيث تحتمى سُفنها، ويسد منفذ الخليج بسلسلة ذات حلقات حديدية ضخمة، إن أرادت السُفن المعادية اجتيازها تحطمت واندثرت.

لقد توغل «مراد الثانى» فى البلاد الأوروبية غازيًا فاتحًا حتى نهر «الدانوب» سنة (٨٢٩)هـ - (١٤٢٦)م وهزم الجيش المجرى، وعقد معاهدة مع ملك المجر.

وكذلك تم له فتح «سلانيك» و«يانيا» من بلاد «اليونان»، كما استولى على بلاد «الصرب» وألغى إمارتها، وجعلها لواءً تابعًا للدولة العثمانية، وأطلق عليها

اسم «سمندرة»، كما أخضع «ألبانيا». . ، وعقدت مدينة «البندقية» -الإيطالية- «فينيسيا» معاهدة معه.

كما التقى الجيوش الأوروبية مجتمعة عند «فارنا» من بلاد «البلغار» وهزمهم شر هزيمة، واتخذ من إحدى الأميرات النصارى زوجة له. . ، هى أم السلطان «محمد الفاتح».

مولد الفاتح ونشأته:

ولد السلطان «محمد الفاتح» فى السابع والعشرين من شهر رجب (٢٧) سنة خمسة وثلاثين وثمانمائة للهجرة (٨٣٥)هـ الموافق للثلاثين من شهر مارس (آزار) سنة (١٤٣٢)م.

ومنذ طفولته الأولى خضع الأمير الصغير لنظام تربوى صارم، شأنه كغيره من أمراء «بنى عثمان»، وكان ذلك تحت إشراف مجموعة مختارة من العلماء المعروفين، ذوى الشهرة فى عصره.

وكان القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه أوّل ما لُقن وتعلم، وقد اتقن ذلك إتقانًا عظيمًا.

أضف إلى ذلك العلوم المدنية الأخرى من رياضيات وفلك وتاريخ، ودراسات عسكرية، نظرية وتطبيقية.

أشهر أساتذته:

تعلّم وتثقف الأمير الصغير على يد طائفة من جهابذة المربين والمعلمين، وكان أشهرهم اثنان تركا فى شخصيته أعظم الأثر، هما: «آمد شمس الدين» و«المُلاَّ الكورانى».

وقد أثرت هذه المجموعة المختارة فى تكوين شخصيته، وتشكيل تلك الشخصية مبناها الثقافى والسياسى والفنون العسكرية. . !

وكان أكثرهم صرامة معه وتأثيرًا فيه هو الشيخ «آمد شمس الدين».

يحدثُنا عن ذلك فيقول - وقد تقلد السلطنة - :

(إذ احترامى لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسى، وأنا ماثل فى حضرته مضطربًا ويداى ترتعشان. .)

بين الإمارة والعلم:

هذا التحصيل العلمى رافقه حتى استوى عوده. . .

رافقه حتى عندما كان أميرًا يتولى السلطة، وهو غض الإهاب. . !

إذ كان من عادة «آل عثمان» أن يُسندوا إدارة ولاية لكل أمير -وهو صغير- كى يؤهل لقيادة الدولة من بعد.

وقد اختار له أبوه الولاية على «مغنيسيا» وهو فى سن مبكرة، لم يبلغ الحُكُم بعد، وقد انتقل معه معلموه ومربوه إليها. . . ورافقوه فى إقامته فيها، يُولونه عنايتهم ورعايتهم وتوجيههم.

أما النظام الذى اتبع معه فى التعليم فقد كان (أكاديميًا) -مرحليًا منظمًا، ابتدائيًا وإعداديًا وثانويًا، ثم جامعيًا. . . !

وقد أثر ذلك كُلّ التأثير فى منهجيته الإصلاحية، حين تولى السلطنة العثمانية العامة بعد وفاة أبيه، إذ أحدث انقلابًا فى نظام التعليم على مستوى الدّولة.

ثقافته:

ونتيجة لما تلقاه فقد كانت ثقافته واسعة. .

إذ أتقن اللغات: العربية والفارسية فضلاً عن التركية. . ! وكانت عنايته بالأدب والشعر خاصة وأُثر عنه قول الشعر ونظمه، وله ديوان باللغة التركية. . ،

وكثيرًا ما كان يردّد هذين البيتين من نظمه:

نيتى هى الامتثال للأمر الإلهى ... «جاهدوا فى سبيل الله»
وحماسى إنما هو حماس فى ... سبيل دين الله

كما أتقن الأمير «محمد» اللغات اللاتينية، واليونانية، والصّربية (لغة أمه)...!

ولايخفى أهمية التوسع فى إتقان تلك اللغات لأمير فى طريقه إلى تولى أمور وشئون الدولة العثمانية، التى كانت تعتبر فى حينها أعظم دولة فى المشرق والمغرب -على السواء-.

دور فترة الإمارة:

لقد أثرت فترة الإمارة فى شخصية «محمد»، فجعلته -بفضل توعية أساتذته- من أكثر الأمراء العثمانيين وعيًا فى دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، وبخاصة أن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الكبيرة، ذات الدوىّ، والتى أثرت فى مجرى التاريخ، وأبانوا له عن جوانب العظمة فى تلك الشخصيات، كما وضحوا له نقاط الضعف فيها..، أملاً أن يكون أميرهم ذات يوم من أكثر الحكام خبرة وحكمة وعبقرية.

ولا شك أن الشيخ «آمد شمس الدين» لعب دورًا كبيرًا فى تكوين شخصية الأمير «محمد»، وأن يبث فيه منذ صغره أمرين جعلا منه فاتحًا..، وهما:

- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

- الإيماء دومًا لـ «محمد» -منذ صغره- بأنه هو الأمير المنتظر، المقصود بالحديث النبوى الشريف: [**لتفتحن «القسطنطينية»، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**].

فكان هذا الحديث الشريف لا يُفارق وجدان الأمير وتطلعاته... وآماله.

السلطان:

كان «محمد» قد شارك والده السلطان «مراد الثانى» بعض حروبه، وتدرب على فنون القتال، وطبق النظريات العسكرية التى تعلمها، وأبدى فنونًا وشجاعة وقوة..، وهو يدرج نحو الثالثة عشرة من عمره..، ولقد شعر السلطان «مراد» ببعض التعب والإرهاق من جرّاء ما قام به من إخماد فتن أو ملاقاة أعداء،

وتوسعات فى الفتوح، فآثر أن يستريح وقد رأى فى ولده «محمد» الكفاءة التامة. . ، فتنازل له عن العرش ليستريح. . !

عندئذ شكل الأوروبيون حملة عسكرية على الدولة العثمانية، شاركت فيها قوات من «المجر»، و«تولونية» و«ألمانيا» و«فرنسا» و«البندقية». . ، واتجهت جحافلها الجرارة تكتسح كل شيء أمامها.

وتأهبت الدولة العثمانية لرد العدوان، فاجتمع مجلس شورى السلطان، وقرر طلب العودة من «مراد» إلى القيادة. . ، فنزل عند رغبتها، وقاد الجيوش العثمانية -ومعه «محمد»-، وتقابل الطرفان فى سهل «فارنا» من أرض «بلغاريا» -على البحر الأسود-، واستطاع «مراد» بحنكته ودرايته وشجاعته أن يهزم جموع الأوروبيين، هزيمة ساحقة ماحقة، ويشتت جموعهم، ويلاحقهم. . . إلى ما وراء حدود سلطانه فى بلاد «البلقان»، وكان ذلك فى عام (٨٤٨)هـ- الثامن والعشرين (٢٨) من شهر «رجب».

وترك هذا الانتصار العظيم صداه فى كل أرجاء العالم الإسلامى، حتى إن السلطان المملوكى «جقمق» -حاكم مصر- أمر أن يذكر اسم السلطان «مراد الثانى» فى خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة العباسى!

وفاة السلطان «مراد» وتولى «محمد» - الفاتح - :

بعد حياة حافلة بالجهاد والعطاء توفى السلطان «مراد الثانى» فى الخامس من «المحرم» عام خمسة وخمسين وثمانمائة (٨٥٥)هـ. والموافق للسابع من شهر فبراير «شباط» عام (١٤٥١)م.

فتولى «محمد» السلطنة ومقاليدها ومسئولياتها، بمبايعة أهل الحل والعقد فى الدولة العثمانية، وله من العمر عشرون سنة.

أول الاهتمامات:

كان فتح «القسطنطينية» أول اهتمامات السلطان «محمد» عندما تولى عرش البلاد، وتسنم المسئولية، ليس بدافع من مغامرة عسكرية، أو رعونة شباب، ولكن من خلال نظرة موضوعية.

لقد سبقه إلى محاولة الفتح آباؤه وأجداده، ومن سبقهم فى التاريخ القريب والبعيد، وكلهم حاصرها وشدد عليها، ولكنها ظلت ممتنعة، وعقبة كؤود فى الطريق إلى «أوروبا»، وتشكل خلفية عسكريةٍ خطيرة وراء الجيوش الإسلامية الزاحفة هنا وهناك فى «أوروبا» حتى «فيينا». . وقلب القارة، فلابد من فتحها، ومهما كان الثمن، وبخطة عسكرية مدروسة، ومفاجآت لم تعهدها من قبل.

كان يرى أن فتح «القسطنطينية»، فضلاً عن أنه يحقق أملاً عقائديًا عنده، فإنه أيضًا يسهل للدولة العثمانية فتوحاتها فى منطقة البلقان وشرق أوروبا، ويجعل رقعة بلاده متصلة لايتخللها عدو، ولا يهدد أمنها، وكما قلنا فإن «القسطنطينية» كانت تمثل المانع الذى يعترض طريق الفتوحات فى أوربا!!! فلابد من فتحها والاستيلاء عليها، وإزاحتها من الطريق.

«أدرنة» - العاصمة:

كانت «أدرنة» تقع فى الشمال الشرقى من «القسطنطينية»، وقد اتخذها سلفه عاصمة للدولة العثمانية، ومشى هو على نهجهم، مع أنها -فى موقعها الجغرافى- غير آمنة، لكنها كانت القاعدة التى ينطلق منها إلى قلب «أوروبا»، فكان تجهيزها وتحصينها على مستوى عالٍ.

المدفع السلطانى:

كان أحد المهندسين «البلغار» قد فكر فى اختراع المدفع، وعرض الأمر على المسئولين فى بلاده، فرأوا أن تكاليفه باهظة، وليس فى مقدورهم الإنفاق عليه.

فجاء إلى السلطان «محمد» وعرض عليه فكرته. . . ، فوافقه على الفور، وبدأ العمل فى صب العدد العديد من المدافع. . ، وجربت فنجحت.

روملى حصار:

وتعنى باللغة العربية -قلعة الروم-!

وكان جده «بايزيد الصاعقة» قد بنى أثناء محاولته فتح «القسطنطينية» قلعة على الضفة الأسيوية من مضيق «البوسفور» سماها «أناضولى حصار»- أى: قلعة

الأناضول»، وكان موقعها على أضيق نقطة من المضيق، فقرر السلطان «محمد» بناء قلعة فى الجانب الأوروبى فى المضيق تُقابل الأولى.

وكان القصد من هذا العمل العسكرى التحكم فى المضيق من كلا طرفيه..، وبحكم دراسته الرياضة الهندسية، فقد وضع السلطان «محمد» بنفسه تصميم القلعة وتخطيطها واختيار موقعها.

ونفذها المهندس المعمارى «مصلح الدين أغا»، وقد حشد للعمل فيها سبعة آلاف «٧٠٠٠» عامل، فأتموها فى أربعة أشهر.

ولو قدر لك بإذن الله - عزيزى القارئ- زيارة «استانبول» ومشاهدة آثار هذه القلعة الباقية إلى اليوم، فإنك سترى عجبًا..، للارتفاع الشاهق فى الموقع والأسوار والأبراج..، وستنهك فى الوصول إلى أعلاها.

وبعد أن تم البناء، وحشدت القلعة بالجنود والعتاد، خرج بعضهم لمشاهدة القسطنطينية عن كثب، فوقعت بينهم وبين أهل الضاحية من «البيزنطيين» مشادات وشغب، مما اضطر الملك «قسطنطين» أن يأمر بإخلاء تلك الأماكن من ساكنيها وإدخالهم إلى «القسطنطينية»، وإيوائهم فيها حرصًا على حياتهم، وإغلاق الأبواب الضخمة، وإحكام رتاجها.

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن «القسطنطينية» كانت تحتمى وراء ثلاثة أسوار، الواحد تلو الآخر، وبين كل منها مسافة..!

بدء الحملة:

فى ربيع عام (٨٥٧)هـ (١٤٥٣)م بدأت حملة الفتح، وقد حشد لها السلطان «محمد» عشرين ألف جندى على أربعمائة «٤٠٠» سفينة، وثمانين ألف جندى بين فارس وراجل..، فكان مجموع قواته مائة ألف جندى، يدعمها مائتى مدفع.

وحوصرت «القسطنطينية» برًا وبحرًا، استعدادًا للزحف.

وكانت سفن البحرية العثمانية -على كثرتها- ضعيفة الإعداد والاستعداد، فوقفت فى مقابلة خليج القرن الذهبى عاجزة عن الدخول إليه، إذ كانت تسده

سلسلة حديدية، غليظة الحلقات. . ، تتحطم السفن إذا حاولت الاقتحام، فاكتفى قائد البحرية العثمانية «بلطة أوغلو سليمان بك» بمراقبة الموقف. . ! عاجزًا عن فعل أى شىء.

فى أثناء ذلك، وصلت سفن قادمة من «جنوا»، أرسلها «البابا» لنجدة «القسطنطينية»، واستطاعت أن تشق طريقها إلى «الخليج» الذى رفعت سلسلته الحاجزة، بعد معركة بحرية، لم يصمد لها الأسطول العثمانى،

القائد العسكرى العبقرى. . ! السلطان «محمد» الفاتح. . !

لم ييأس السلطان لما حدث، بل شحذ ذهنه الوقّاد، مختليًا بنفسه فى خيمته، حتى برقت له بارقة أمل. . !

ثم جمع قواده، وأوحى إليهم بالفكرة، التى كانت رغم صعوبتها خطة مفاجأة مبتكرة، لم يعرفها قائد عسكرى فى التاريخ.

فقد نُقلت السفن برًا من فوق رؤوس التلال العالية زحفًا على ألواح خشبية مطلية بالزيوت. . ، متجاوزة منطقة «غلاطة»،

وكان الوقت ليلاً. . ، وأبدى الجنود منتهى القوة والحزم، وأنزلت السفن، وعددها (٦٧) سفينة فى مياه الخليج -القرن الذهبى-، وفوجئ «البيزنطيون» بتلك القوة البحرية ماثلة أمام أعينهم، وقد رُصت واحدة بإزاء الأخرى لتصل بين ضفتى الخليج، وكأنها الجسر، ليسهل على الجنود العبور عليها. . !

ويقول المؤرخ «دوكاس» - الذى عاصر ذلك وشاهده -:

(إنها لمعجزة . . . لم يسمع أحد بمثلها من قبل، ولم ير أحد مثلها من قبل. .)

قبل الهجوم العام:

أرسل السلطان «محمد» -إلى الإمبراطور «قسطنطين» يطلب منه تسليم المدينة حقنًا للدماء، ومن حق الإمبراطور أن ينسحب إلى أى مكان يريده، بكل أمواله وخزائنه، وتعهد له السلطان بتأمين أهل «القسطنطينية» على أموالهم وممتلكاتهم وأرواحهم. . إن فعل ذلك، وكان هذا الإنذار هو الإنذار الثانى.

ولكن «الجنويين» - رفضوا ذلك، وطلبوا من الإمبراطور أن يرد بالرفض أيضًا..، وقد كان.

الهجوم العام:

عند فجر يوم الثامن والعشرين من شهر مايو (أيّار)، وبعد الصلاة، اتجه السلطان «محمد» إلى مواقع الهجوم..،

وأخذت المدافع الضخمة ترمى بقذائفها، وهى كرات من الصخر..، تدك الأسوار، ويسمع لها دوىّ من أماكن بعيدة.

وصدر الأمر السلطانى بإخراج ونشر العلم العثمانى من محفظته..، وهذا يعنى بداية الهجوم العام.

ثلاث خطط مبتكرة:

لم تفلح المدفعية فى فتح ثغرات فى الأسوار، لضخامتها...

ففكر القائد العبقرى فى إقامة أبراج من الخشب، تساوى فى علوها الأسوار، وتغطى بالجلود، وتحشد بالجنود، وتجرها عجلات، لتكون قاب قوسين أو أدنى من الأسوار، ويسهل من خلالها اصطياد جنود العدو..، وقد تم ذلك فى ليلة واحدة..، وفوجئ «البيزنطيون» بهذه الأبراج ماثلة أمامهم، لايفصلهم عنها إلا بضعة أمتار..!

ومن ثم قذفوها بالنيران، بالكتل المبللة بالنفط المشتعل..، فتهاوت وسقطت..!

ثم عول القائد العبقرى على حفر خنادق تمر من تحت الأسوار الثلاثة..، ورغم الانتهاء منها فى مدة قصيرة وتسلل الجند العثمانيين من خلالها، إلا أنهم صُدّوا وتراجعوا..!

وأخيرًا كان لابد من استخدام المدفع السلطانى الجبار..!

والمدفع السلطانى كان يزن الأطنان، ويجره ثمانون ثورًا من الجاموس، ويعمل عليه أربعمائة جندى، مئتان عن اليمين ومئتان على الشمال، ووزن قذيفته ألف

وخمسمائة كيلوجرام «١٥٠٠» كلغ، ويصل مدى القذيفة إلى كيلومتر ونصف تقريبًا «١٦٥٠»م، ويسمع لدوى قذيفته هذه صدى يصل إلى خمسين كيلومترًا..!

وقد وُضع على تل مرتفع، يعرف اليوم بـ«توب كابو» أى: تلة المدفع، وهى حى من أحياء «استانبول».

وبدأت قذائف المدفع السلطانى تدك الأسوار، وأحدثت فيها ثغرات..، ثم تقدم الجنود العثمانيون ببسالة منقطعة النظير يرمون بالسلاسل من الحبال على الأسوار، ثم يعتلونها..، موجة إثر موجة..،

واستطاع جندى عثمانى أن يرمى قائد البيزنطيين «جوستنيان» بسهم فيصيبه إصابة بالغة..، فانسحب «جوستنيان» من الميدان، رغم ترجى الإمبراطور «قسطنطين» له بالبقاء..،

وكان أول شهداء الأبطال العثمانيين المهاجمين الأمير «ولى الدين سليمان»، الذى رفع العلم العثمانى فوق الأسوار..، وقبل أن يسقط العلم من يده اندفعت ثلة من الجند تتلقفه وترفعه ثانية..!

وراحت أرتال الجنود العثمانيين تتدفق إلى داخل المدينة، وقد فتحت بعض أبوابها، أو من خلال الثغرات التى أحدثتها قذائف المدفع السلطانى..!

كما شدت السلسلة الحديدية التى تحجز وتحمى مدخل «القرن الذهبى» ...، فما برحت سفن الأسطول العثمانى تمخر عُباب اليم حتى أحاطت بسفن البيزنطيين وقضت عليها وعلى من فيها..!

محمد الفاتح..!

ودخل السلطان «محمد الفاتح» إلى المدينة..، وقد شلت حركة المقاومة فيها، بل تلاشت..! دخل ممتطيًا صهوة جواده الأبيض، يتلو آيات من القرآن الكريم، واتجه إلى كنسية «آيا صوفيا»..، التى ازدحمت بالناس، شيبًا وشبانًا وشيوخًا وأطفالاً ونساءً ورهبانًا وقسسًا..!

فلما رأوه خروا سجدًا وبُكيًا . . ، مولولين صارخين ضارعين . . . !

نزل الفاتح عن حصانه، وصلى ركعتين لله تعالى شكرًا علي ما أنعم عليه من الفتح المبين . . !

فلما انتهى نظر إلى القوم فإذا هم مازالوا ساجدين، فانزعج . . وقال لرهبانهم: (كفوا . . واستقيموا، فأنا السلطان «محمد» أقول لكم ولجميع إخوانكم ولكل الموجودين هنا، إنكم منذ اليوم فى أمان من حياتكم وحرياتكم . .)

بهذا الأمان أعطى الفاتح حرية العودة للفارين والهاربين من أهل المدينة، كما أعطى أوامره بعدم التعرض للشعب «البيزنطى» بأى أذى.

مسجد «آيا صوفيا»:

ثم أمر الفاتح بتحويل كنيسة «آيا صوفيا» إلى مسجد، على أن تُصلى فيه أول جمعة بعد الفتح(١).

و«آيا صوفيا» تعتبر أكبر كنيسة فى العالم -يومذاك- وأقدم مبنى دينى فى أوروبا كلها،

ورفعت المآذن فوقها، ونودى بالأذان، وسميت المدينة «إسلام بول»، أى مدينة الإسلام، بدلاً من «القسطنطينية»، ثم حُرفت إلى «استانبول»، بعد أن حول اسمها أيضًا إلى «الآستانة».

سلوك الفاتح(٢)

كان سلوك «الفاتح» عندما دخل «القسطنطينية» ظافرًا سلوكًا مختلفًا تمامًا عما تقول به شريعة الحروب فى العصور الوسطى، وهو نفيُ شعب المدينة المفتوحة إلى مكان آخر، أو بيعه فى أسواق النخاسة، لكن الفاتح قام بما عجز عن فهمه الفكر الغربى المعاصر له، من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتى:

---

(١) كان الفتح يوم الثلاثاء.

(٢) نقلاً عن (الدولة العثمانية) - مجموعة سفير (ج:٨) (ص:٢٥).

- أطلق سراح الأسرى فوراً نظير مقابل مادى قليل، يسدد على أقساط طويلة المدى.

- وأسكن الأسرى الذين كانوا من نصيبه فى المغانم من المنازل الواقعة على ساحل الخليج.

- وعندما أبيحت «القسطنطينية» للجنود ولمدة ثلاثة أيام -عقب الفتح-، كان هذا الإذن مقتصراً على الأشياء غير المعنوية، فلم تُغتصب امرأة، ولم يمس شيخ ولا عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى. .، ولم تهدم كنيسة ولا دير ولابيعة، مع أن المدينة أُخذَت بالحرب، ورفضت التسليم.

وكان من حق «الفاتح» قانونًا -مادامت المدينة قد أُخذت عنوة- أن يكون هو نيابة عن الجيش الفاتح مالكًا لكل ما فى المدينة، وأن يحوّل نصف الكنائس والبيَع على مدى زمنى طويل إلى جوامع ومساجد، وأن يترك النصف الآخر لشعب المدينة على ما هو عليه. . .!)

وفى وقفيات السلطان «محمد الفاتح» بنود كثيرة على إبقاء بعض الأديرة فى أيدى البيزنطيين.

(واعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على حاخام «موسى كاتسالى».

وعين فى سنة (١٤٦١)م - (٨٦٥)هـ للجماعات الأرمنية بطريقًا يدعى «يُواكيم» ليشرف على مصالح الأرمن).

واهتم الفاتح بالمدينة المفتوحة اهتمامًا عظيمًا، فاستقدم إليها العديد من العمال والمهندسين، لإعادة ترميمها، وإبرازها أحسن مما كانت. .!

وجعل أمور الأحوال الشخصية لرعاياه من غير المسلمين، متعلقة بأديانهم وتقاليدهم، وما تعارفوا عليه، وهذه ظاهرة حضارية سبق بها عصره.

بعد فتح «القسطنطينية» سنة (١٤٥٣)م، وكانت سن الفاتح إذّ ذاك إحدى وعشرين سنة، اتجهت همته إلى القيام بحملات عسكرية، متتابعة، فى أوروبا..!

ففى سنة (١٤٥٩) فتح بلاد «الصرّب»..!

وفى عام (١٤٦٠) فتح بلاد «المورة»..!

وفى عام (١٤٦٢) فتح بلاد «الأفلاق» وضمّها إلى سلطانه.

وفى ما بين عامى (١٤٦٣ - ١٤٦٥) فتح بلاد «البوسنة والهرسك».

وفى ما بين عامى (١٤٦٣ - ١٤٧٩) فتح «ألبانيا».

تلك الحروب الطاحنة، والاستحواذ على تلك الدول، وضمَّها إلى سلطان الدولة العثمانية، لم تشغل «الفاتح» عن التنظيم الداخلى للدولة.

ومن يظن أو يعتقد بأن هم الفاتح كان منصبًا على المجد العسكرى وحده فهو واهم...، ذلك أنه -رحمه الله- كان من روّاد العلم والمعرفة والتحديث.

ويكفى أن نذكر طرفًا واحدًا من أعماله الإصلاحية لنُدرك أن الرجل قد بنى دولة عصرية، بل سابقة لعصرها، بكل ما فى الكلمة من معنى.

هذا الطرف كان فى مجال التعليم..!

ولأول مرة فى تاريخ العالم ينظم الفاتح مراحل الدراسة: ابتدائية، ومتوسطة، وثانوية، وجامعية تخصصية.

والشاهد على ذلك مايزال قائمًا إلى يومنا هذا..!

ففى المسجد المُسمى باسمه فى «استانبول» تجد أبنية تحيط بصحنه، قد خصصت قاعاتها للمراحل التى سبق لنا ذكرها.

وقس على ذلك بقية الأنحاء فى الدولة العثمانية، إذ عم هذا النظام كل الديار.
وما من شك -أبدًا- فى أن التعليم من أعظم ما تبنى عليه شخصية المواطن المعرفية.

وهذا ما عُرف من بعدُ بالنظام «الأكاديمى».

وفاته:

ما كاد الـفاتح يبلغ الحادية والخمـسين من عمره حـتى دب إليه الكلل، ووهن الجـسم، ذلك أنه منذ بلوغـه الثانـية عـشرة وهـو فى خضم الأحـداث. .، وأى أحداث، وأية مسؤوليات جسام!!!

وقع فريسة المرض، ثم توفاه الله تعالى إليه.

رحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأوفاه.

«الفاتح» فى التاريخ:

يكفيه فخرًا ومجدًا وعزًا أنه تحققت فيه نبوءة سيدنا رسول الله ﷺ. . !

ويكفيه فـخرًا ومجدًا وعزًا أنه إذا ما ذكـر لقب «الفاتح» انصرف إلى «السلطان محمد الثانى» -العثمانى.

ويكفيه فخرًا ومجـدًا وعزًا أن سنة (١٤٥٣)م - سنة فتح «القسطنطينية» -يؤرخ بها لدى الغربيين.

ويكفيه فخرًا ومجدًا وعزًا أن المؤرخين الغربيين يحترمونه ويقدرونه ويعظمونه، سواء من أحبه فأنصفه، أو كرهه فأُجبر على احترامه.

ويكفيه فخرًا وعزًا ومجدًا أنه يحمل أكرم الأسماء وأجلّها، اسم «محمد». . !

ويسوءنا نحن المسلمين، أن تطوى صفحة الفتوح من بعده. . .

(ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)

****

٢٠- حذيفة بن اليمان

لم يبلغ أحد من الصحابة -رضوان الله عليهم-، مع كثرتهم وقربهم وإخلاصهم لله ورسوله ﷺ . . . هذه المرتبة سوى «حذيفة»، وهذا شرف عظيم وثقة بالغة.

ولقد اشتهر بها بين أقرانه الذين عرفوا له تلك المنزلة من رسول الله ﷺ، وقدروها واحترموها، سواء فى حياة النبى ﷺ أو بعد لحوقه بالرفيق الأعلى.

وكان النبى -صلوات الله وسلامه عليه- يقدر الأمور والأحداث والأشخاص بحكمة أوتيها من لدن المولى سبحانه وتعالى، ويختار لكلٍ ما يتفق مع الضرورات، ويتلائم مع المتطلبات.

ففى ليلة هجرته -عليه الصلاة والسلام- من «مكة» إلى «المدينة» اختار عليًا «كرم الله وجهه» ليكون فى فراشه بدلاً عنه، إيهامًا وتضليلاً للمشركين من قريش، مع ثقته ﷺ أنهم لن يضروا عليًا بسوء، ولن يخلصوا إليه بمكروه، وقد قال له ذلك. .،

وليكون أيضًا أمينًا على المدخرات والمستودعات التى كانت عنده، فيعيدها إلى أصحابها تامة غير منقوصة،. . !

وكذلك -أيضًا- لمرافقة أهله وحمايتهم من الأذى فى هجرتهم، لأنه ابن عمه ومن ذوى رحمه.

كما اختار «أبا بكر الصديق» -رضى الله عنه- ليكون الرفيق له-ﷺ- فى الهجرة. . !

فمن بيت «أبى بكر» كان المنطلق، وفى الغار -غار ثور- كانت الصحبة، وفى الرحلة العظيمة كان نعم الرفيق. . !

كمـا كان «الفـاروق» - «عمر بن الخـطاب» -رضى الله عنه- وزيرًا ومشـيرًا، صادق اللهجة، سديد النظرة، شديد الحب. . .

إذًا . . .

كان لكل من كبار الصحابة، من المهاجـرين والأنصار، موقعه ومكانته فى قلب النبى ﷺ ومنزلته فى العمل الجهادى!

وعليه فقد اختار «حذيفة بن اليمان» -رضى الله عنه- ليكون كاتمًا لسره. . !

ولـم يأت هذا الاختيار من فراغ، فإن لذلك أسبابه ودواعيه، وأحداثه ووقائعه، سنعرفها -إن شاء الله تعالى- ونحن نعرض لسيرة هذا الصحابى الجليل.

أما كـونه من أبطال الفتح فـتلك حقـيقة تاريـخية تشـهد بهـا أرض «العراق» و«فارس»، ولم يكن بطلاً فحسب، بل كان أيضًا قائدًا. . !

والآن هيا معًا -عزيزى القارئ- نجوب أنباء تلك الشخصية الفذة. . !

النسب:

ينتسب «حذيفـة» -رضى الله عنه- إلى «بنى عبس»، القبيلة العربيـة المشهورة ببأسـها، وكثرة عـدد أفرادها، وإغراقـها فى جاهليتـها، فلذلك يقال فى نسـبه: «حذيفة بن اليمان العبسى».

وكـان والده «حُـسيل» قـد حل بـ «المدينـة» قـبل الهـجـرة، وحـالف «بنى عبدالأشهل»، وحين دخلوا فى الإسلام أسلم معهم فى عشرة من بنى عبس».

مهاجرى أم أنصارى ؟؟

ولقد خير النبى ﷺ «حذيفة» بين أن يكون مهاجريًا أو أنصاريًا، قائلاً له:

- **[إن شئت كنت من المهاجرين، وإن شئت كنت من الأنصار..!]**

فاختار «حذيفة» النُصرة على الهجرة، وفاءً منه لحلفائه «بنى عبدالأشهل». . ،

وحين آخى النبى ﷺ بين أصـحابه، من المهاجـرين والأنصار، كان «حـذيفة» و«عمار بن ياسر» أخوين فى الله.

من نبع النبوة:

وعـاش «حذيفـة» -رضى الله عنـه- فى المدينة المنورة وقـد استـضـائت بنور الإسلام، ينهل من نبع النبوة الصافى أعذب السقيا، فيسرى فى كيانه وعروقه دماء تلتهب بحرارة الإيمان، وتشع بضياء الإسلام.

وأقام دينًا على العـهد، صادق الوعـد، يترقى صُعـدًا. . ، فاكتـسب ثقة النبى ﷺ، وحبه .

لم يحضر بدرًا . . . !؟

بل حضر وقائعها . . . ! ولكنه لم يقاتل. . . ! كيف ؟؟ ولماذا؟؟

علم المسلمون بقـافلة قريش يقودها «أبوسفـيان» -صخر بن حـرب بن أمية-، العائدة من الشام، المحملة بمختلف البضائع الباهظة الثمن، فخرجوا لها. . !

وعلمت «قريش» بخـروج المسلمين، فخشـيت على مالها ونفوذها، فـخرجت بخيلها وخيلائها إلى «بدر» لتمنع المسلمين، وتحمى أموالها وسلطانها وهيبتها.

وما كـانت غزوة «بدر» لتـفوت «حذيفـة»، المؤمن الصادق، فـخرج مع والده «حُسيل» فى جيش المسلمين. . . ، غير أنهمـا وقعا أسيرين فى أيدى «القرشيين»، فاحتـجزوهما ثم أطلقوهما بعد أن أخـذوا عليهما العهـد أن لا يقاتلا إلى جانب «محمد». . . !

فجاء «حذيفة» مع والده إلى رسول الله ﷺ يخبرانه بما وقع لهما، ويسألانه:

- هل نقاتل أم لا !؟

فقال لهما - ﷺ -:

- **[بل نفى لهم، ونستعين الله عليهم...]**

وهكذا ، لم يقاتل «حذيفة» -رضى الله عنه- يوم «بدر».

يوم «أحد» والفاجعة المضاعفة:

لكن «أُحدًا» لم تفته..!

وكان له فيها أكثر من موقف مشهود !!

وتفصيل ذلك:

أن النبى ﷺ لما خرج بالمسلمين إلى «أُحد» جعل كبار السن والنساء والذرارى فى الآكام والمرتفعات من «المدينة»، حماية لهم وتحصينًا.

فكان «حُسيل بن جابر» -والد «حذيفة»- و«ثابت بن وقش» ممن أُعفوا من القتال.

وفى إبان المعركة واحتدام القتال قال أحدهما للآخر:

- لا أبًا لك!!! ماذا ننتظر؟ إنما نحن هامة -جثة هامدة- اليوم أو غدًا... هيا نحوز شرف الشهادة أو النصر.

فقاما ولحقا بالمسلمين، وانخرطا فى الصفوف..،

وسقط «ثابت بن وقش» - الأنصارى - شهيدًا...،

كما التقت سيوف المسلمين -عن غير قصد أو تمييز -على «حُسيل» -والد «حذيفة»، فسقط هو الآخر قتيلاً، وهنا صرخ «حذيفة»:

- أبى ... أبى ... يغفر الله لكم ...!

وبكاه بحرقة وألم، وترحّم عليه رسول الله ﷺ، كما دفع لـ «حذيفة» دية والده...! تُرى ماذا يفعل «حذيفة» بهذا المال..!؟

لقد تصدَّق به على فقراء المسلمين ومعوزيهم..! مما رفع شأنه وزاده مكانته عند رسول الله ﷺ.

يوم «الأحزاب» أو «الخندق»:

ما كاد المسلمون يفرغون من حفر «الخندق» حول المدينة[1] ليدفعوا عنهم أذى الأحزاب من قريش وحلفائها، واليهود...، حتى داخلهم خوف شديد، وعانوا

(١) كان الخندق بين جبلى: «أحد» و«سلع».

أشد الضيق، لتظاهر عدوهم عليهم، ونقض «بنى قريظة» اليهود عهدهم مع النبى ﷺ. . . ! إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكان الفصل شتاءً، قارس البرد. . . !

إلا أن الله تعالى آمنهم من خوفهم، وأيدهم على عدوهم، ونجاهم من ضيعتهم هذه بتخذيل المشركين عنهم، وكان للصحابى الجليل «نعيم بن مسعود» -الغطفانى الأشجعى- دور عظيم وفضل كبير سخره الله تعالى إليه.

إذ جاء «نعيم» إلى معسكر المسلمين، وقد هداه الله، ودخل على رسول الله ﷺ وقال: -يارسول الله. . . إنى قد أسلمت، وإن قومى -والأحزاب- لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت مما يعينك على عدوك.

فقال له رسول الله ﷺ :

- **إنما أنت رجل واحد..، ماذا عسى أن تفعل، ولكن خذّل[1] عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة!**

فخرج «نعيم» حتى أتى «بنى قريظة»، وكان نديمًا لهم فى الجاهلية وصاحبًا، وقال لسيدهم «كعب بن أسد»:

- قد عرفتم ما بينى وبينكم من الوّد . . . !

فقال له «كعب» :

- صدقت . . . ولست عندنا بمتهم. . . فماذا فى الأمر !؟

فقال «نعيم» :

- إن «قريشًا» و«غطفان» ليسوا مثلكم، فهذا البلد (المدينة) بلدكم، وفيها أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا عنه إلى غيره، وإن «قريشًا» و«غطفان» قد جاؤوا لحرب «محمد» وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه. . . ، ورأيتم من قبل ما وقع لإخوانكم «بنى قينقاع» و«بنى النضير» من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم.

---

(١) خذل عنا: أدخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا.

و«قريش» و«غطفان» ليسوا مثلكم، فـهـم إذ رأوا فرصة انتهزوها، وإلا انصرفوا إلى بلادهم، وأمـا أنتم فتسـاكنون الرجل (يعنى رسول اللهﷺ)، ولا طـاقة لكم بحربه وحـدكم، فأرى أن لا تدخلوا فى هذه الحرب حـتى تستيـقنوا من «قريش» و«غطفان» أنهم لن يتـركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخـذوا رهائن من أشراف أبنائهم عندكم، فتضمنوا بقاءهم وصدقهم فى حربهم. . !

فاستحسنوا رأيه، واستجابوا له.

ثم أتى معسكر الأحـزاب، واجتمع إلى قائدهم «أبى سفيـان» على انفراد لأمر هام وعاجل، وقال له:

- تعرفون وُدى لكم ومحبتى إياكم، وإنى محدثك بحديث فاكتمه عنى. . !

فقال أبو سفيان» باهتمام :

- نفعل . . . ، وما ذاك الحديث يا «نعيم» ؟؟

قال «نعيم» :

- إنى آتيك الآن من عند «بنو قريظة». . . ، وقد عرفت أنهم قد ندموا على ما فعلوه مع «محمد»، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، وأرسلُوا إليه:

- أيرضيك يا «محمد» أن نأخذ جمعًا من أشراف «قريش» و«غطفان» ونقدمهم لك، وترد إلينا جناحنا الذى كُسرتْ، فتعيد «بنى النضير» إخوتنا إلى «المدينة». . !

فرضى منه بذلك. . .

وهاهم الآن مرسلون إليكم فاحذروهم . . . !

فأرسل «أبوسفيان» وفدًا إلى «قريظة» يدعوهم للقتال فى اليوم التالى. . ، ليرى رد فعلهم إلى طلبه، فأجابوه:

- لا يمكننـا أن نقـاتل غـدًا، لأنه يـوم سـبت. . . ، ونحن لانقـاتـل فـيـه ولانتعـدى. . ، وأيضًا لن نُقـاتل حتى تعطونا رهائن منكم، ولا تتـركونا فـريسة وحدنا. . !

وبهـذا -عزيزى القـارئ- بدا لـ «قـريش» و«غطفـان» - والأحزاب - صـدق «نعيم». . ، وتفرقت قلوبهم، وخاف بعضهم بعضًا. . .

وكان رسول الله ﷺ قد ابتهل إلى الله تعالى الذى لا ملجأ إلا إليه، :

(اللهم منزل الكتـاب، سريع الحسـاب ... اهزم الأحزاب..، اللهم اهزمـهم وانصرنا عليهم)،

وقد استجاب الله -عز وجل- لدعـاء رسوله ﷺ ، فأرسل على الأعداء ريحًا عاتية باردة فى ليلة مظلمة حالكة. . . !

وخاف الأحـزاب أن تتفق اليهـود مع المسلمين عليـهم، ويهاجـموهم فى تلك الليلة المدلهمة. . ! وقلقوا. . ، وقد صمموا على فك الحصار والرحيل.

كاتم السر «حذيفة»:

وكان لـ «حذيفـة» فى ذلك اليوم دور عظيم ومغامرة جـريئة، لا تقل شأنًا عن دور «نعيم بن مسعود» وقد استحق بجدارة أن يكون صاحب سر رسول الله ﷺ. يحدثنا بنفسه عن ذلك. . .

قال -رضى الله عنه-:

- (لقـد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخـندق، وقد صلى رسـول الله ﷺ هويًا (جزءًا) من الليل، ثم التفت إلينا فقال:

- من رجل يقوم فيدخل معسكرهم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟

فما قام رجل من القوم من شدة البرد، وشدة الجوع، وشدة الخوف. . !

فلمـا لم يقم أحد دعـانى رسـول الله ﷺ، فلم يكن لى بدٌ من القـيام حـين دعانى، فقال:

- «يا حذيـفة» اذهب فادخـل فى القوم فـانظر ما يصنعـون، ولا تُحدثن شـيئًـا حتى تأتينا..)

وهنا -أرجو القارئ العزيز أن يلاحظ معى أن رسول الله ﷺ قد اختار «حذيفة» دون غيره. . ، وأنه أمره أن يحاذر من إحداث شىء يلفت النظر إليه. . فينكشف، وأنه ﷺ قد اشترط عليه الرجوع. . !

وكلها مهام صعبة، وفى ظروف غاية فى الصعوبة!!!

ونعود إلى «حذيفة» -رضى الله عنه- لنستمع إليه وهو يتابع حديثه، فيقول:

(فذهبتُ فدخلتُ فى القوم، والريح وجنود الله (الملائكة) تفعل بهم ما تفعل، لا يقر لهم قدر ولا نار ولا بناء. . ، فقام «أبوسفيان» فقال:

- يا معشر «قريش» لينظر امرؤ من جليسه . . . !؟

فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت؟ فقال: فلان بن فلان. . . !

ثم قال «أبوسفيان» :

- يامعشر قريش . . . إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع[1] والخف[2] وأخلفتنا «بنو قريظة» وبلغنا عنهم الذى نكره، وتعبنا من شدة الريح ما تروّن، ما تطمئنّ لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء (الخيام)، فارتحلوا. . . فإنى مُرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول، عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم. (يعنى بذلك سرعة الحركة فى الرحيل خوفًا)

ولما أراد الرحيل قال له «صفوان بن أمية»:

- إنك رئيس القوم ، فلا تتركهم وتمضى. . . !

لكن «أبا سفيان» لم يستمع إليه، وأذن بالرحيل. . ، وترك «خالد بن الوليد» فى جماعة ليحموا ظهور المرتحلين، حتى لا يُدهموا من ورائهم.

---

(١) الكراع: الخيل.

(٢) الخلف: الجمال.

وسمعت «غطفان»، بما فعلت «قريش»، فانشمروا راجعين إلى بلادهم.)

ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىَّ: [أن لا تحدث شيئًا حتى تأتينى] لقتلته بسهم...! (أى أباسفيان) فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى، فلما رآنى ركع وسجد، فلما سلم أخبرته الخبر) أ.هـ.

ويحدثنا «حذيفة» أن رسول الله ﷺ وهو فى صلاته كاد يلتحف بمرط لإحدى زوجاته من شدة البرد فى تلك الليلة، وأنه ﷺ قد لف «حذيفة» بهذا المرط.. إذ كان يرتجف وترتعش أعضاؤه وأوصاله.. حتى دفئ، ثم استمع إليه.

ويتابع حديثه -رضى الله عنه- فيقول :

(ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن «الخندق» راجعًا إلى المدينة مع المسلمين، ووضعوا السلاح) أ.هـ.

وهكذا - عزيزى القارئ- أزاح الله تعالى عن المسلمين يوم الأحزاب -أو الخندق- تلك الغمة التى اجتمع فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين، ولولا لطف الله -عز وجل- بهذا الدين الحنيف مِنة منه وفضلاً لتفاقم الأمر، وساءت الحال، ولكن الله سلَّم.

ولم تكن هذه هى المهمة الوحيدة التى قام بها «حذيفة» -رضى الله عنه-...!

لقد كان المجتمع المكى عند ظهور الإسلام ينقسم إلى فريقين، فريق هداه الله تعالى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وفريق أقام على ولائه للأوثان والأصنام، وأصرَّ على الكفر والشرك، واستكبر استكبارا. أما مجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة الشريفة فقد نجم فيه فريق ثالث، هم فريق المنافقين، الذين إذا اجتمعوا بالمسلمين قالوا إنا معكم، وعلى رأسهم «عبدالله بن أبى بن سلول»، وإذا خلوا إلى شياطينهم وعادوا إلى ذواتهم قالوا إنما نحن مستهزءون.. يُبطن الكفر ويُظهر الإسلام.

هذا الفريق كان من أشد الأخطار على الإسلام والمسلمين، ولقد عانى منه رسول الله ﷺ وأصحابه أشد المعاناة...، وكان لابد من مراقبته من طرف

خفى، والاطلاع على مؤامراته وتدبيراته ومكره، فكان سيدنا «حذيفة» -رضى الله عنه- خير من يقوم بهذه المهمة، فكان عينًا متيقظة واعية تتابع بسرية بالغة تصرفات هؤلاء، ثم ينقلها إلى رسول الله ﷺ، ليكون على بينة منها. .، دون أن يدرى به أحد.

فى تبوك...!

ويوم غزوة «تبوك» وقد خرج رسول الله ﷺ بثلاثين ألفًا من الصحابة إلى تخوم الشام، حيث جاءته الأنباء أن هناك تجمعات للروم تريد غزو الحجاز...!

وقد خرج معه يومئذ بعض المنافقين، ليس حبًا فى الغزو والجهاد، ولكن تبييتًا لأمر بالغ الخطورة، إذ أضمروا الغدر برسول الله ﷺ والفتك به.

وفى طريق العودة كشفت تلك العصابة عن وجهها الأسود، وغايتها الدنيئة الحقيرة... وحاولت القيام بالغدر، لكن «حذيفة» تابعهم وأفشل خطتهم، ونقل إلى رسول الله ﷺ أسماءهم، وكانوا أربعة عشر نفرًا...، ولم يعلم أحد من الصحابة رضوان الله عليهم بالأمر، فقد ظل محصوراً بين رسول الله ﷺ وبين «حذيفة» -رضى الله عنه-.

التلميذ النجيب فى مدرسة النبوة:

والجدير بالذكر عن شخصية «حذيفة» -رضى الله عنه- أنه كان كثيراً ما يستمتع ويشعر بالسعادة البالغة والرضى حين يحضر مجلس رسول الله ﷺ ويستمع إلى مواعظه من تلاوة لما أُوحى إليه، وتوجيه وتهذيب وتطهير. .، وما ينطق به فمه الشريف من حِكم ومواعظ. .، فيتلقاها «حذيفة» فى قلبه، ويستوعبها فى فؤاده، ثم يتأسى بها.

ولذا اعتُبر -رضى الله عنه- أحد أعلام تلامذة مدرسة النبوة. .، الحافظين لكتاب الله وحدوده، وأوامره ونواهيه، المقتدين بسنة المصطفى ﷺ، والعاملين بها.

يحدثنا عن ذلك سيدنا «عبد الله بن عمر بن الخطاب» -رضى الله عنهما- فيقول:

[سألنى رجل من أهل «البصرة» عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتمّ، فقلت: سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم:

- كنت عاشر عشرة رهط من أصحاب رسول الله ﷺ فى مسجده: أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وعبدالرحمن بن عوف، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وأبوسعيد الخدرى، وأنا، مع رسول الله ﷺ، إذ أقبل فتى من الأنصار، فسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس فقال:

- يارسول الله - صلى الله عليك - أىّ المؤمنين أفضل؟ فقال: **أحسنهم خلقًا..**، قال: فأى المؤمنين أكيس[1]، قال: **أكثرهم ذكرًا للموت، وأحسنهم استعدادًا له قبل أن ينزل به، أولئك الأكياس.** ثم سكت الفتى، وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

- **[يامعشر المهاجرين: خمس خصال إذا نزلن بكم - وأعوذ بالله أن تدركوهن- إنه لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها[2] إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذى مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم لم يُمطروا، وما نقضوا عهد الله ورسوله إلا سلّط عليهم عدوٌ من غيرهم، فأخذ بعض ما كان فى أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وتجبروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم]**

بمثل هذه الدروس والمواعظ سمت نفس «حذيفة» وسمت نفوس الصحابة جميعًا -رضوان الله عليهم- حتى بلغت الذروة من مكارم الأخلاق والاستقامة على الحقّ، والبطولات فى مقارعة الظلم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله.

بعد رسول الله ﷺ :

انطلق «حذيفة» -رضى الله عنه- من المدينة غازيًا ومجاهدًا فى سبيل الله مع كل جيش، مشرقًا ومغربًا. . ، فى أيام «أبى بكر» و«عمر» و«عثمان». . . !

---

(١) أكيس: من الكياسة، وهى توقد الذهن.

(٢) يعلنوا: يجاهروا.

وكان على الدوام فى مقدمة الصفوف، إذ تكاملت فى شخصيته -رضى الله عنه- كل أسباب ومزايا المسلم، الصحابى، المجاهد، القائد..! الحافظ لحدود الله.

البطل الغانم:

وقدر لـ «حذيفة» -رضى الله عنه- أن يكون فى «الكوفة»، التى كانت فى عهد «الفاروق» -رضى الله عنه- منطلق الجيوش الإسلامية فى أرض «فارس» وأطراف «العراق» و«الجزيرة»

وكان دائم الغزو والجهاد، لا يفتر عن جهاد أو قتال.

لقد شهد مع «سعد بن أبى وقاص» فتح «القادسية»...!

وشهد مع غيره معارك «الجزيرة ونصيبين» وأبلى فى كل منها بلاءً حسنًا...!

ولكن أعظم مشاهده وأولاها بالتقدير والذكر، والتى جعلته قائدًا فاتحًا وبطلاً إسلاميًا مجاهدًا، هى معركة «نهاوند» فى أرض «فارس».

وتعتبر معركة «نهاوند» من أعظم المعارك، ولا تقل شهرة عن «القادسية» و«اليرموك»[1].

لقد كان «حذيفة» -رضى الله عنه- يومئذ قائدًا لجناح جيش المسلمين، على رأس قوات المؤمنين، وعندما سقط «النعمان بن مقرن» شهيدًا عند حصون «نهاوند»، ولم تحسم المعركة بعد، تولى «حذيفة» القيادة العامة، بإجماع القادة، استمر فى القتال طيلة الليل، وكتب الله على يديه النصر على الأعداء، وفتح «نهاوند» والدخول إليها..! منتصرًا فاتحًا.

وكان من حكمته وبُعْد نظره أنه «كتم» عن الجند استشهاد «النعمان» كى لايهنوا ولا يحزنوا ولايضعفوا..!

واستمر من بعد فى السياحة والعيّش فى أرض «فارس» وبلادها، تحت قيادة «أبى موسى الأشعرى» -رضى الله عنه-.

(١) يرجى مراجعة ما كتبناه عن «النعمان بن مقرن» - المزنى - رضى الله عنه.

ففتحوا «الدينور» و«الرى» و«أذربيجان».

كما غزا بقواته وحدها «أرمينية» ثلاث غزوات، وقد فتح الله عليه يومئذ فتوحًا عظيمة عديدة.

وقد تواصلت أعماله الجهادية فى عهدى «الفاروق» و«ذى النورين» -رضى الله عنهما-.

الغيور على وحدة المسلمين:

فى أثناء إقامة «حذيفة» -رضى الله عنه- فى «الكوفة» سَمِع أناسًا من المسليمن يروجون أمورًا تدعو إلى الفرقة...!

لقد سمع أهل «الكوفة» يتمسكون بقراءة «عبدالله بن مسعود» للقرآن الكريم..، وأهل «البصرة» يتمسكون بقراءة «أبى موسى الأشعرى»...

فأحس «حذيفة» -بعمق إيمانه- خطورة الأمر إن تُرك الحبل على غاربه، فقال:

- (لئن تُرك الناس ليختلفن فى القرآن، ثم لا يقومون عليه أبدًا، لقد رأيت أناسًا من أهل «حِمص» يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن على «المقداد بن عمرو»، ورأيت أهل «دمشق» يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم..، ورأيت أهل «الكوفة» يقولون مثل ذلك، وأن قراءتهم على «ابن مسعود»، وأهل «البصرة» يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على «أبى موسى»، ويسمون مصحفه: «لُباب القلوب»...!

والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك) أ.هـ.

ثم شد الرحال إلى المدينة..!

فأتى «عثمان» -رضى الله عنه- وحدثه وشرح له وبيَّن، وأنذره بالخطر، وكان مما قال:

- أنا النذير العُريان ... أدركوا الأمة...!

فكان لـ «حـذيفة» -رضى الله عنه- فـضل وأىّ فضل فيـما تحـرك له، وسعى إليه.

جمع الخليفة «ذو الـنورين» صحابة رسول الله ﷺ وأخبرهم الخـبر، فأعظموه جميعًا، ورأوا ما رأى «حذيفة»،

عندئذ استفرغ «عـثمان» -رضى الله عنه- جهده ووسعـه، وجمع القرآن على تلاوة قراءة واحدة، ونسخ منه نسخًا بعث بها إلى الأمصار، وأتلف ماعدا ذلك.

«حذيفة» والفتنة على «عثمان»:

عندمـا اشتـدت الفتنة على «عـثـمان» -رضى الله عنه-، وكـان وراءها «ابن السوداء» «عبـدالله بن سبأ» -اليهودى المنافق-. . .، وقـد هيّج الناس فى «الشام» و«مصر». . اعتزلها «حذيفـة» ولـم يناصر فئةً على أخرى. .، بل سعى فى الدعوة إلى الوحدة والألفة والمحبة وهو يعلم تمامًا «فئة النفاق» وأساليبها وغاياتها. . .

لكن صوته وأفعاله فى تلك الفتنة الهوجاء كان ضعيفًا، أو غير مسموع. . . !

وعندما بلغه مقـتل «عثمان» واستشهاده، وهو يقـرأ كتاب الله تعالى. .، بكى وتأثر، ثم دعا: (اللهم العن قتلته وشُتامه).

اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا . . . فاتخذوا ذلك سلّمًا إلى الفتنة. . . !

اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف).

وأقام «حذيفة» فى «المدائن» إلى أن أدركه الأجل، فتوفى فيها عام ست وثلاثين للهجرة (٣٦)هـ، ودُفن فيها إلى جانب «سلمان الفارسى» -رضى الله عنهما-.

وكان فيما قاله عندما حضرته الوفاة:

(هذه آخـر ساعـة من الدّنيـا . . . اللهم إنك تعلم أنى أُحـبك فبـارك لى فى لقائك)

رضى الله عن الصحابى الجليل «حذيفة بن اليمان». . .

تلميذ النبوة النجيب. . .

وكاتم سر رسول الله ﷺ...

والمجاهد فى سبيل الله ...

والبطل الفاتح...

الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر...!

الداعى إلى الحقِّ والوحدة والعدل والصلح بين الناس.

واحشرنا معه تحت لواء المصطفى ﷺ.

****

الفهرس